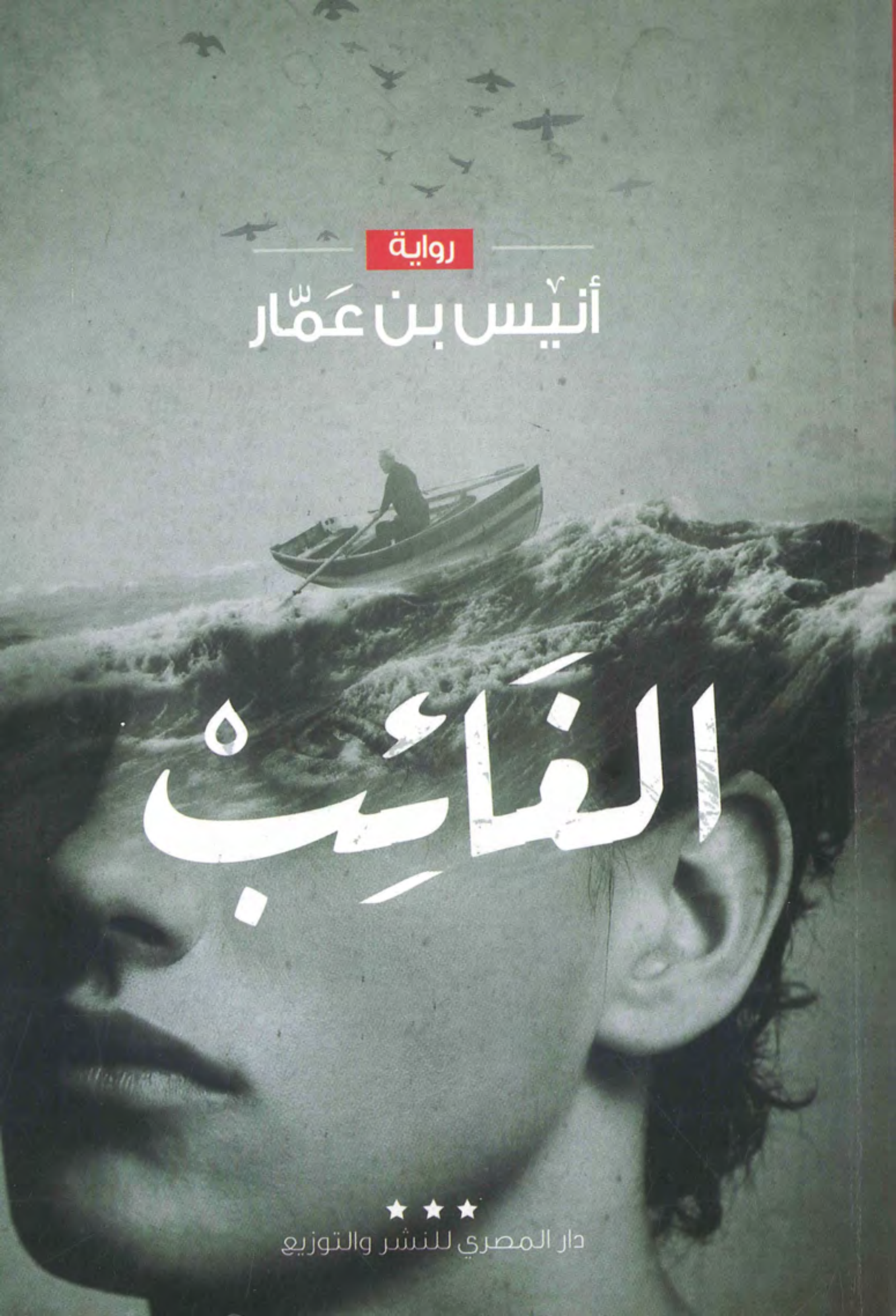

رواية

أنيس بن عمّار

الغائب

دار المصري للنشر والتوزيع

الغائب
أنيس بن عمّار
تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصوّاف
المراجعة اللغوية
حسام مصطفى
إخراج فني
أحمد متاريك
الطبعة الأولى يناير ٢٠١٥م.
رقم الإيداع: 2014/23261
ISBN: 978-977-770-005-4

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: **يوسف ناصف**

عمارات العرائس
المعادي الجديدة – القاهرة
+2 01064378376
+2 01146335098
info@elmasrypublishing.com
www.elmasrypublishing.com
© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو فى وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أنيس بن عمار

الغائب

دار المصري للنشر والتوزيع

تحيّة صافية، و شُكرٌ من الأعماق للدّكتور خالد ذهني، للدّكتور أسامة علاّم، للدّكتورة فكريّة فريد على المجهود الكبير الذي بذلوه في إخراج هذا العمل.

أنيس بن عمّار

إلى أوّل و آخر مَن أحببت

إلى البحر .. هذا الزّورق لكَ وحدك!

أنيس

- ١ -

شقّ صوتُها سكون اللّيل بصرخات دامية لم يكتم نزيفها سوى نوافذ السيّارة القديمة وهي تحاول أن تبتلع الأرض ابتلاعا في طريقها إلى المستشفى.

كانت رجلاه ترتجفان، لا تدريان الفرق بين مداس الفرامل والبنزين. السيّارة لا تلوي على شيء بقدرة الإله، وهو منشغل عن ذلك بسيجارته التي نفث مع دخانها الخانق لعناته على هذه الليلة الزرقاء، وعلى اللّحظة التي علم فيها بأن هذه المرأة المنتفخة إلى جانبه حامل.. وبماذا؟ بابنته الثالثة!

لطمَتْ ساقاها المتورّمتان الدُّرج الأماميّ لهذه الخربة المتحرّكة. أربع عجلات تحمل هيكلا حديديّا متداعيا تكاد جوانبه تنفصل من شدة وقع ضربات جسمها وهي تتلوّى استعدادا لقذف مولود جديد في حياته. قال له الطبيب: "حالة زوجتك لا تسمح بتناول أي حبوب مانعة للحمل. إن كنت لا تريد مزيدًا من الأطفال، فعليك بحبس ثورك الهائج وراء أزرار بنطلونك معظم أيام الشهر! لا تطلقه يرتع إلا في أعياد تحسب تواريخها أنت وإيّاها في بداية كلّ عادة دمويّة جديدة!".

"من السهل عليك أن تقول ذلك أيها الدكتور الأحمق. لعنك الله ولعن كليّة الطب التي علّمتْكَ أسرار الجسد وفاتها أن تطلعك على خفايا سطوة الجنس!". قال ذلك في نفسه وهو يصبّرها بقرب الوصول إلى قسم الطوارئ.

ضرب بيده على مقود السيارة في عصبية حادّة: "إنها ليست جوادا كي تستعجله بالضرب أيها الأرعن! كلّ حياتك، كلّ قراراتك، تسرّع في تسرّع! وها أنت ذا، كعادتك، تلوم طبيب النساء على جبنك أمام وحوش شهواتك! أكان عليك أن تفيقها من نومها في تلك الليلة البائسة؟ ليلة كنت تعلم أحقّ العلم بأنها أبعد ما تكون عن موعد إطلاق ثورك الجائع. كان الأجدر بك أن تختلي بنفسك في الحمّام وتفعل ما يفعله المراهقون! على الأقل، ما كنت لتجد نفسك في هذا الوضع البائس بعد تسعة أشهر! لا ينقصك الآن سوى أن تشرع في اللطم على خدّيْك تحسُّرًا مثل النساء!"

"آه على ذكر اللطم! ها هي ذي تنبش بأظافرها ذوات الطلاء المتقشر وجهي متوسّلة لي بأن أسرع. فالألم لا يُحتمل، وكل الآلهة وأولياء الله الصالحين دعتهم لرفع السكاكين التي تمزق أحشاءها فلم يسمع أحد. لم يستجب أحد! الكلّ في شغل شاغل عنّا في ليلة النحس هذه. وكأن ملائكة السّماء -الذين لم يناموا منذ الأزل- قد باغتهم النعاس فجأة، ولم يعد لي من مُجير سوى هذه الخردة المعدنية التي تقتحم ظلمة الليل كقذيفة أثريّة، ولا منقذ سوى باب المستشفى الأبيض العريض الّذي بدأ يلوح لي من بعيد كصحوة من عتمة كابوس!"

خرجتْ الممرّضة العجوز ذات العيون الزرقاء الشتويّة من وراء السّتار الأزرق لغرفة الولادة وقالت له: "أميرة صغيرة، وفي صحّة جيّدة!"

"ما أصعب لكنتك الفرنسية المتكسّرة أيتها العجوز المنافقة! وكأنني أسمعها لأوّل مرة في حياتي!". فكّر في نفسه: "لكنة صدمتني منذ عشرين عامًا، ولا تزال تصدمني في لغة كنت متيقنا بأنها غير قابلة للتغيّر! عشرون عاما منذ وصولي إلى مدينة الجليد هذه وأنا أسمع هذه اللغة تُفتَرَسُ حيّة على ألسنة أهل هذه المقاطعة فأهزّ برأسي متظاهرا بأنني فهمتُ كلّ ما قيل. ولكنّني في الحقيقة لم أكن أفهم سوى بضع كلمات أرتّبها في قلبي لعلّني أهتدي بعد تعب مضن إلى بعض من المعاني في رأسي! لغة غريبة وغير متناسقة، تماما كالمقاطعة التي تتداول فيها. مقاطعة يتيمة كُتِبَ عليها الهروب من خارطة فرنسا إلى قارّة شاسعة تهب عليها رياح الإنجليز من كل صوب. أطلق عليها أهلها بعد حروب طاحنة اسم "كيبيك"، وما لبثوا أن بنوا على أكبر جزرها مدينة مترامية الرّقعة أطلقوا عليها اسم "الجبل الملكيّ"، أو ما يعرف في أيامنا هذه بمدينة "مونريال". مدينة بعيدة ألقيتُ على مرافئها ما كان قد تبقى لي من أمل والمسافة بيني وبين قريتي تتضاعف آلاف الأميال. قريتي. تلك البائسة الظامئة. ذات الرّمل الحارق والواحات الشحيحة. تلك التي تتعلق بأذيال الوطن مخافة ان تنزلق إلى هاوية النسيان فينهال التراب على لياليها المعذّبة إلى الأبد. عشرون عاما منذ أن ألقت بي سفينة تحترف التجارة بأحلام اليائسين على شواطئ العالم الجديد وأنا أسال نفسي.. ما الجديد في هذا العالم؟!".. "أي أميرة تقصدين يا ممرّضة النحس؟ ومن أين لك أن توزّعي الألقاب؟ ومن أعطاك هذه السّلطة؟ أكره هذه الألقاب الوهمية.. المجّانية. أكرهها لأن أبي استعملها دون وعي ولا مسؤولية! ألم تجد غير اسم "أمير" تطلقه عليّ؟ سامحك الله يا والدي.. أو رحمك الله! ولولا العيب لقلت أحرقك الله بنار عذاب القبر! أي إمارة تلك التي ولّيتني إيّاها؟

أهي إمارة مملكة الموت التي تحصد رؤوس أهاليها سجائر مصنع التبغ؟ ذلك المصنع القذر الذي لم يرأف لحالك قط وأنت تُمضي نصف عمرك تكنس أرجاءه النتنة! هناك، كنت تحمل القهوة والشاي لكل من يحلو له أن يترك العمل و"يُكيِّف"! كلهم سواسية كأسنان مشط مكسور، من أعلى مدير إلى أحقر عامل! كلهم كانوا ينادونك "عمّي الهادي" ولم يكن أحد يرى فيك عمّا ولا خالا، ولا حتى "شيئا"! أنت بالنسبة لهم قطعة جلد مجعّدة تتجوّل في خرق بالية ومئزر بلون رماد السنين. تخفي قدميك في حذاء أسود من البلاستيك، لا يكاد يهترئ من كثرة الرّقع حتى يعود فيكسوهما من جديد.. رخيصا من سوق الأحد الأسبوعية. وأنت -فوق كل شيء- طلبات تمشي وتجيء كلّما خطر لهم قتل الوقت في قرية اغتال الفقر فيها كلّ أمل لحياة فيها أمل!!"

أخذ الطّفلة بين يديه. نظر إليها بسرعة. بحث عن شيء من الحبّ في نفسه فلم يعثر على أثر. لم يحاول، ولم يحتقر نفسه لذلك. أعادها إلى أحضان أمّها دون أن ينبس بحرف. فقط هزّ برأسه موافقا على منح اسمه لها. توارت الابتسامة خلف شفتي زوجته وحوّلت نظرها عنه. ضمّت ابنتها إلى صدرها، وعادت إلى سكب اللّبن في فمها الصّغير. لبن بداية الرّحلة. رحلة تبدأ بقطرات من رحيق صدر دافئ، وسرعان ما تتحول إلى عاصفة من الهمّ والأرغفة يفرغها كلّ يوم في أفواه هؤلاء. زوجة حُنِّطتْ على وجهها ابتسامة الرّضا، تفتح فمها فتنبعث منه رائحة الأكل والبهارات ممزوجة بأخبار من تزوّج أو طلّق أو توفي في "البلاد".

ثم ابنتان. أوّلها أتتْ لأن الزواج لابدّ أن يتبعه مولود، وثانيهما شرّفتْ لأنه ليس من المعقول أن تظلّ الأولى دون أخت تؤنس وحدتها.

وها هي الثالثة تقتحم حياته لمجرّد أن كتلة اللحم التي تزوجها لم تستطع أن تصفعه وتدير له ظهرها في الفراش عندما شرع في ملامستها تحت الغطاء ذات ليلة من ليالي شهر مارس الباردة. "أقسم أنني لم أسمع منها كلمة "لا" منذ أن جلبتُها معي ووجهها يلمع بأكثر من خلطة كريهة لمساحيق الوجه والبشرة. كنتُ أسْحَبُها بين المطارات وكأنها إحدى حقائب سفري. وكلّما سألت عن رأيها في أمر ما.. كانت تبتسم في حياء وتجيب: "لا أعرف".

أمّي شبه الضريرة توسّلتْ إليّ في رسائل كانت تتساقط في صندوقي البريدي الواحدة تلو الأخرى. خطّ أخي رديء ومتعثر. بقع من الحبر السائل تزيد من تشويه بعض الحروف، وجملة لا تتغير في كل رسالة: "أمّك تسلّم عليك وتقبّل رأسك وتقول لك: أريد أن أفرح بك يا ولدي. اثنا عشر عاما وأنت في الغربة يا حبيب أمّك! أريد أن أراك. أريد أن أفرح بك قبل أن ألحق بأبيك إلى دار الحقّ!". وأثور وأغضب ويجنّ جنوني. أقرأ رجاءها اليائس: أمازلت تبكين والدي يا أمّاه؟! ذرفتِ عليه من الدموع ما يغرق القرية بما عليها من بشر وشجر ودوابّ. ومع ذلك ما زال لديك منها ما يكفي لإغراق قلبي وأنا على بعد آلاف الأميال. أكاد لا أجد صوتي وأنا أتوسّل إليك في كلّ رسالة من رسائلك: أرجوك كُفّي عن بكاء والدي يا أمّاه. فمهما هطلت أمطار عينيك المريضتين، لن تكفي لغسل دمامل جسدك وهو يمزّقك يائسا ومخمورا قبل أن يرتمي جانبا ويشخر كمحرّك مكسور إلى طلوع الفجر.

أقسم أنني كنت سأكسر عليه الباب لأقتله في ليلة من تلك الليالي المغروسة في ذاكرتي كغابة من الشوك الأحمر!

يطلع الدم إلى رأسي في فوران قاتل وأنا أذكر تلك الأيام التي أرادها لنا "سي الهادي". خبز معجون بعرق الإهانة في النهار، يشربه خمرا في حانة اليائسين ليلة بعد ليلة. وكل ليلة عدد الزجاجات يتزايد. فالجمجمة لابدّ لها أكثر فأكثر لكي تدور فتنسى، ثم تنهض فترنّح، ثم تتمايل فتقع على وحل الطريق المؤدي إلى بيتنا. يتقيأ على أحد الجدران أو تحت شجرة التوت الضخمة ثمّ يمسح القذارة عن فمه بكمّ قميصه ويواصل سيره البطيء نحو إثبات رجولته على طريقة الخنازير. يدخل البيت شيطانا فيرمي كل حقد الدنيا على تلك المسكينة. هرمتْ قبل أن تذوق طعم الشباب ولا أظنها عرفت الجنس معه إلا عنوة. أقسم بشرفك يا أبي، ذلك الذي لم يبق لك منه شيء، بأنني عاملتُ أسقط ساقطات حيّ "السّان لوران" أشرف مما كنت تفعل مع أمّي. على الأقل كنت أنظر إليهنّ وأنا أركبهنّ، وكنتُ أدفع لهنّ ثمن تعبهنّ حتى آخر دولار. وأحيانا كنت أصحبهن لاحتساء قدح من النبيذ أو فنجان من القهوة في أي حان من الحانات المتناثرة على أرصفته الليليّة. نسهر ونعربد إلى أن يطلع الفجر، وقد تلعنني إحداهنّ غمزا وتقول ضاحكة: "دعوتني إلى كأس ولكنك ضيّعت على حرفاء ما تبقى من الليل!". أجيبُ بنبرة أتقنتُها بعد ممارسةَ طويلة: "عذرًا، لم أكن أقصد ذلك. حقّا إن الوقت الممتع يمرّ بسرعة خاطفة!". كنتُ أخاف أن تنقلب عليَّ فتطالبني بثمن التعويض. عند الفجر، نفترق عند باب الحانة غرباء كما التقينا. قد أقبّل يدها، وأعيد على مسامعها أن الحديث معها كان أجمل جزء من ليلتي. وقد يحدث أن أصادفها في إحدى ليالي تسكّعي اللاحقة فتعطيني تخفيضًا خاصّا جدّا.

هكذا كنتُ أعامل العاهرات يا أبي. أما أنت فكيف كنت تعامل من

أفْنَتْ عمرها وعظامها في خدمتك؟ ماذا فعلتَ من أجلها حتى تذرف على قبرك وعلى رسائلي من الدمع سيولا جارفة؟ سأجيبُ بدلا عنك لأن الموتى لا يتكلمون: لا شيء! تآمرْتَ عليها مع الزمن فامتصصتما جسدها وبصرها. صحيح أنّك كُنتَ رَجُلَهَا، ولكنّك كنت رَجُلًا دون رجولة!

تذكرتُ أنني أكبَرُ إخوتي الثّلاثة وأنت تبصق على وجهي يوما وتصرخ: "ليس عندي فرَنْك واحد يا ابن العاهرة! إن كنت تريد أن تأكل فاذهب وأنزل سطلا أو سطلين من الأسمنت في أي حظيرة من حظائر البناء كما يفعل الرجال. هيّا اغرب عن وجهي قبل أن أحطّم رأسك بهذا الإبريق!". كثيرون هم الرجال الصّغار في قريتنا. كانوا ولا يزالون يطرقون أبواب المستحيل من أجل وضع خبز وحساء على حصائر القش. تلتهم شمس الظهيرة أجسادهم وهم يحملون أكياس الرمل والطوب من أجل فرنكات قليلة قد ينتهي بها المطاف إلى إطفاء لهيب بطون جائعة، أو إلى إشعال سكرة عابرة في رأس أب غائب.

كنتُ أكره كلّ شيء في المدرسة. على الأقل أعتقد أنني كنت كذلك. أو ربّما لم تكن ستّ سنوات من الابتدائية كافية لأن تُعَلّمني الفرق بين الكتاب والقلم، أو بين المدرّس والألم. أميال شاسعة كنت أقطعها كل فجر لأمدّ قفا يديّ لمساطر معلّمين علّمَتْهم الّدنيا أنّ الضّرب يفتّح المخ ويصنع الرّجال! "ما هكذا تُقرأ الجملة أيها الغبي! ابسط ظهر يدك وإيّاك أن تحاول سحبها وإلا ضاعفتُ لك العقاب!".

أمّي تأكل الضرب في البيت، وأنا آكله في المدرسة. هكذا تتواصل حلقة الحياة! "أقسم بالله أنني حضّرتُ الدّرس يا سيّدي. ولكنني نسيتُ، أرجوك سامحني يا سيّدي!". لم أنس شيئا، لأنني لم أحضّر درس

القراءة كي أنساه. لم يكن لي ليل هادئ أو بيت لأفعل ذلك! كذبتُ على سيّدي، ثم كرهتُ سيّدي ومدرسته القبيحة. سقطت من المدرسة لأنزل في حظيرة بناء. لأكون رَجُلا صغيرا يتكفّل بثلاثة عيال باعهم "سي الهادي" لزجاجات المزاج وقمار المقاهي. أعترف أنه لم يطلب مني مالًا قطّ. هل من المعقول أنه كان يحمل ذرّة من الشرف؟ ربّما يكون الأمر كذلك، فأمّي لم تقل فيه كلمة ذمّ قطّ. وفوق كلّ هذا، تريد أن تلحق به إلى دار الحقّ! على كلّ حال سنترك أمر من سيدخل دار الحق أو الباطل إلى يوم القيامة. ليس هذا موضوعنا الآن. موضوعنا هو أنني سأتزوّج يا أمي! سأتزوّج بمن تريدين وفي أي وقت تحبّين، فقط كي تفرحي في دار الدنيا. قلتُ ذلك في نفسي وأنا أقبّل رسالتها الألف. أطويها وأضمّها إلى صدري قبل أن ألغي كل حق لي في أن أتزوج من أجل الحبّ. وعلى أي حال أنا لم أعرف حبّا في حياتي سوى ما أعطتني "الحاجّة"، فمن الطبيعي ألاّ أتذوّق طعمه مع زوجتي من أجل "الحاجّة". عدتُ إلى القرية لأوّل مرّة منذ تركتها، وكالعادة أخذتْ مني ولم تعطني شيئا.

بعد عودتي بأسابيع اعتلتْ سطح بيتنا أعلام وأضواء وزينة رخيصة، وسمع أهالي الحيّ أغاني فرح لم تصْدُق نبوءاتها إلى هذه الساعة. مسكوا بيَدَيْ أمّي فنهضتْ ورقصتْ وزغردتْ على فرحي وهنائي. أمّا أنا فقد كنتُ صامتا إلى جانب عروس قلتُ على الفور إنها أعجبتني قبل أن يصحو قلبي من سكرة العرفان بالجميل لأمي ليواجه آلام فقدان الحبّ إلى الأبد. اسمها "أحلام". هل هي بنت حلال أم حرام؟ لا يهمّ. فأنا هنا من أجل أن ترقص أمي ويفرح إخوتي ويتعذّب أبي تحت التراب. لم يكن يهمّني لِمَ وافقتْ أحلام أن تتزوجني، ولم يكن يهمّني إن كانت

أمها صادقة أم كاذبة حين كانت تلوّح في وجهي بأصابعها السمينة وهي تقول: "لقد أعطيناك أحسن نساء القرية. خير سند لك في غربتك. أرجو أن تحفظها وتصونها!!" كلّ الأمهات كاذبات في مدح بناتهن. في أغلب الظنّ أنها أُعْطِيَتْ إليَّ كي "تتستر" قبل أن يزلّ بقدميها أحد أولاد الكلاب فيخترق بكارتها في ساقية مهجورة. غشاء تافه بنوا كلّ شرف الدّنيا عليه. كيف يصمد أي شيء بُنِيَ على قشرة قد تمزقها نفخة هواء طائر. كثيرات هنّ بنات قريتي ممّن دفعن ثمن وعود الزواج مسبّقا، فغول الجنس لا يرحم الشباب هناك. والعار لا يرحم بنات قريتي! أمّا أحلام، فقد فازت بزوج سيخلّصها من القرية ومن شبابها العابث بالأغشية المقدّسة. آلام غربتي وعذاب لياليها أضعها اليوم طوق نجاة حول خصرها السمين. ستطبخ.. وتكنس.. وتبتسم.. ثم تفتح رجليها لي في عتمة اللّيل مقابل ذلك!

سكتَتْ الأغاني فجأة. تبخّر الناس من حولي وبقي اسم "أحلام" يرقص في رأسي رقصة الألم الأخيرة، وأجد القدر يسخر منّي ومن الأسماء مرّة ثانية! تراءت لي ابتسامة أمّي بعيدة وأنا أقطع المحيط غربا وشمالا عائدا إلى مناخات قطبيّة مع امرأة قررت أن تكون راضية عن أي شيء، ورغم كلّ شيء. لا ألومها على ذلك.. ولا يهمّني كثيرا!

... أفاق من ذكرياته على صوت نفس الممرّضة العجوز وهي تأمره بمغادرة الغرفة. موعد الزيارة انتهى. هذه اللعينة لا تريد أن تتركه وشأنه. "سأعود لك غدا صباحا!" قال ذلك لزوجته الملقاة على السّرير وغادر الغرفة مسرعا دون أن يحضنها أو يقبّلها، فهو لا يعرف فعل ذلك خارج دائرة الجنس! ركب سيّارته القديمة وأدار المفتاح بتثاقل.

تململتْ ومرّت بضع دقائق قبل أن يسمع أنين المحرّك وهو يشرع فيما يشبه الّدوران. سبع وعشرون درجة تحت الصّفر كفيلة بأن تشلّ حتى الحديد. درجة حرارة عادية في معظم مقاطعات كندا في هذا الوقت من السنة. ستة أشهر من الشتاء يتجمّد فيها كل شيء: العواطف والمبالاة والحبّ.. وحتّى البنزين في شرايين السيّارات! الشتاء هنا ضيف ثقيل جدّا، لا يترك للربيع فرصة ليلتقط أنفاسه حتى يجد السكّان أنفسهم أمام صيف لاذع برطوبته. ولا يكاد المرء يحتضن حرارة الصّيف، حتى يطلّ الشتاء بسحنته المتجهمة من جديد!

أخذتْ أنوار ليل المدينة تعبث بعينيه، ولم تترك مجالا للنعاس كي يفعل بهما ما كان يتمنّاه كلّما وجد نفسه وراء المقود. كان يتمنى دائما أن يحمله النّوم بغتة أثناء قيادته للسيارة فينتهي به المطاف إلى حفرة يختفي بعدها كل شيء. كان يدرك في أعماق نفسه بأنه جبان لتفكيره هذا، ولكنه لم يحرمها من استنفاد تلك اللذة الخفيّة التي نجدها في التلاعب بفكرة الانتهاء من أجل الهروب. وسمع صوتا يتلوى بداخله قائلا: ها هي الهلوسة تعود إليّ بشراسة من جديد! أكانت كل حياتي هروبا في هروب؟ منْ أسياد المدرسة إلى سطول الرّمل والأسمنت! لا، كان ذلك فقرا واضطرارا وانتقاما لأمّي. ماذا بقي بعد ذلك؟ قدومي إلى هنا؟ إلى بلاد الدّببة؟ أكان ذلك فرارًا أم قرارًا؟ لا أعرف. كل ما أعرفه هو أن الأمر ولد بين سُحُبِ أدخنة الحشيش في ليلة صيف. هناك على أحد الأسطح العارية لأحد البيوت التي كنّا نرمّمها طوال النهار ونلتحف بفضائها ليلا. لا أستطيع عدّ الليالي الّتي كنت أمضيها مع ذلك الملعون "أشرف". نتسامر ونشرب الشاي المطبوخ فوق كانون فخاري قديم. ندخّن السجائر أو نتبادل لفة

من "الزطلة" إلى أن يحملنا النوم كلٌّ في موضعه فلا نفيق إلا على صياح ديكة الفجر. عندئذ نستأنف عملنا وقد احمرّت أعيننا من تأثير السّهر وتدخين الحشيش الملفوف بالتبغ. أشرف صديق الطفولة. بيته لا يبعد عن بيتنا كثيرا، وكان يكبرني بسنتين. عندما كان في الخامسة من عمره، كاد أن يضيع فريسة لمرض الجدري. ولكن الجرثومة الكاسرة التي لا ترحم نفسا تراجعت عنه في آخر لحظة تاركة آثارها البشعة محفورة على وجهه الصغير. قلتُ له متبرّما ذات ليلة قمراء وأنا أضربه على يده كي يحترم دوري في لفّة "التّسطيل": "عيشة تقصم الضّلوع وتحرق الكبد! أريد أن أترك.. أن أسافر بعيدا.. بعيدا جدّا! كلّهم سافروا وعادوا بجيوب ممتلئة وأصبحوا لا يسلّمون على أحد في الطريق. منهم من لم يعد ولكن سمعنا عنهم أخبارا تسيل اللعاب. ماذا ينقصنا نحن.. هه؟ ماذا ينقصنا؟! صحّة كالبغال وعيون سوداء قادرة على تكبيل أطول شقراء سويدية بأغلال الحبّ. رجالهم هناك ليسوا برجال! فهم لا يملكون تلك الأشياء العربيّة الأصيلة التي نخفيها نحن بين أرجلنا. تلك التي تجعل المرأة منهن تلهث وتشهق بأسمائنا طوال الليل على فراش اللذة، وتدفعها مغمضة العينين إلى توقيع عقد الزواج وأوراق الإقامة الدائمة. زد على ذلك أن الأوروبية ليست كبضاعتنا هنا، فهي لا تبكي ولا تولول ولا تلطم عندما تلقي في وجهها ورقة الطلاق. آه يا أشرف، أغمض عينيك وتخيل للحظة بأنك تعيش في السويد وتغرف من أموالها أطنانا. تنعم بالأفخاذ البيضاء الطرية. تغوص في الشّعور الشقراء الناعمة، وتسبح في زرقة العيون الواسعة إلى أن ينقطع نفسك!!"

يختطف أشرف لفة الحشيش مني فيسحب منها نفسا أعمق

من حفر الجدري التي تملأ وجهه المشرق، ثم يقول بصوت يشبه الحشرجة: "قطع الله أنفاسك أيها الأبله. عن أي سويد تتحدث؟ تلك بلاد امتلأت أراضيها بأصنافنا من الصعاليك الذين لا هدف لهم سوى اقتناص النساء الساذجات، وخنقهن بالخيوط الناعمة للعشق المزيف. ألا تعلم أن الدولة هناك ترجع آلافا من أمثالنا إلى مواطنهم كل سنة. تعود بهم مقيدين، مكمّمين، كتماسيح البحيرات العكرة! صدّقني، إن أردت أن تسأل أحدًا، فاسألني أنا! هل تذكر عندما عادوا بي من إيطاليا؟ كانوا سيطلقون النار عليَّ وهم يطاردونني في شوارع نابولي المظلمة. لعن الله وشايات أبناء الكلب من أبناء بلدك! احذر أن تعطي سرّك لأيّ أحد منهم هناك! إن لمحتَ واحدا منهم على أيّ رصيف، فانتقل إلى الجهة الثانية. ذلك أكرم لك إن كنت تريد البقاء! هم يشمّون رائحة أصنافهم عن بعد. يتودّدون إليك ويتقرّبون، وعندما تدير لهم ظهرك.. الطعنة الأولى تكون من خناجرهم دوما! لقد فعلها فيَّ أقرب أصدقائي بسبب مشاجرة بسيطة. تليفون خاطف إلى شرطة الهجرة وجدتني إثره أقفز عبر نافذة المطبخ الذي كنت أعمل فيه "تحت الطاولة" كغاسل للمواعين. الكلاب المسعورة تلاحقني في عتمة الليل. تحاصرني وتسدّ عليّ المنافذ. ثم شرطيّ إيطالي محترف يتقدّم نحوي ويطرحني أرضا وهو يهذي ببعض الجمل القانونية تعني في مجملها أن الزيارة قد انتهت! قيد حديدي ومخفر، ثم حجز وقتي.. فباخرة وترحيل. بعد أيام وجدتُ نفسي في مقهى "عمّك الجيلاني"، ألعب الورق وأتظاهر أمام النّاس بأنّ إيطاليا لم تعجبني، لذلك غادرتها بمحض إرادتي. ولكن هل يخفى خبرٌ في قرية النحس هذه! علم الجميع بحقيقة ما جرى، وبقيت غصّته دامية إلى يومنا هذا في قلبي! ولكنّك تفتح شهيّتي للهجرة من جديد. تشعل

نار الانتقام من الحظ العاثر. تنفض الرّماد عن قلب ظلّ يتأجج بلهيب الثّأر من القدر التعيس أياما طويلة! ما رأيك أمير أن نفعلها معا.. هه؟ أن نهرب دون رجعة في عتمة الليل؟ ولكن ليس إلى إيطاليا هذه المرّة وإنّما إلى...! وأقاطع أشرف مسطولا: أذهبُ معك ولو إلى جهنّم الحمراء. المهمّ هو ألاّ أكون تحت سماء هذا البلد المشؤوم! يبتسم أشرف ابتسامته الشيطانية، ويهمس لي وهو ينفث الدخان في وجهي: اترك الأمر عليَّ، فأنا أعرف أنذالا كثيرين!

- ٢ -

تنحرف به السيّارة يمينا إلى شارع Guy وعيناه لا تكادان تفارقان بياض الأرصفة الثلجية. بينه وبينها أسرار قديمة وحسابات بالية لا يعرف إلى الآن كيف يصفّيها. "الرّصيف هو أحنّ من تجد بانتظارك هنا وأنت تنزلق من مدرّج الباخرة مبتسما للحياة الجديدة!". فكّر في ذلك وهو يتذكّر يوم وصوله إلى مونريال مع ذلك الإبليس الآدميّ الّذي يدعى أشرف. راحت نفسه المتعبة تجترّ ذكرياتها الغابرة وتهمس له بحشرجتها المعتادة: "لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم! جنونُ أحاسيسي فيه كان يعادل في قوّته واندفاعه نفس الجنون الذي جعلني أقهقه وأرقص كالمعتوه لحظة جاءني خبر وفاة أبي وأنا أحشّش فوق أحد الأسطح ذات ليلة. كان أشرف يمسك بي يومها ويهزّني قائلا: "أجننت يا حيوان؟!.. وجدوا أباك ميّتا في بركة من فضلاته جنب البئر، وأنت تقفز وتهلّل؟! لعنة الله على سجائر الحشيش الّتي لم تترك بداخل جمجمتك عقلا!".

داس على فرامل السيّارة عند الإشارة الحمراء وعاد يفكّر: "لم أعترف له بأنني لم أكن قد سحبت أوّل نفس من لفّة الحشيش بعد. وأنّ الدمعة الوحيدة الّتي ذرفتها على سي الهادي وصندوقه ينزل رويدا نحو ديدان

الأرض الجائعة، كانت من وراء تثاؤبي خفية من تعب ليلة طويلة كنت أمارس فيها أرذل أنواع اللذة مع أوسخ متشرّدات القرية! بكلّ تلك الأشياء ودّعت أبي. بقطرة ماء نعاس، وبذكرى ليلة رخيصة على السّطح دفعتُ ثمنها للقذرة "سعديّة" سيجارتين وعلبة حليب. هيه، السّطح يبتسم مرّة أخرى ويخرج لي بلسانه كالكلاب التي تتسكّع فوقه أحيانا!

على السّطح اقترفتُ كلّ الأشياء القبيحة دون أن يراودني الخجل. وفوقه باغتتني دون استحياء كل الأخبار الحاسمة في حياتي: أوّلها خبر انتهاء أبٍ كان لي منتهيا منذ وقت طويل. منذ ولادتي ربّما. وبعد ذلك خبر تهريبي من قرية البؤس على يد أشرف وأصدقائه "الأنذال". "سيتم تهريبنا ليلا من السّاحل الشماليّ إلى حدود إسبانيا في زورق صغير! هل لديك الشجاعة الكافية؟ هيه...؟ أجبني الآن! ماذا قلت؟.. الآن.. نعم الآن! الآن تعطني جوابك وإلا سأبحث عن أحد غيرك! نغادر عند الفجر إلى الساحل، نبيت اللّيل في أي مكان ونهرب بعد غد تحت جنح الظلام. لا تتعلل بالنقود، فقد اقترضت مبلغا من "الحاج" سأسدده له بعد أن نصل بالسّلامة وتترتّب أمورنا! لماذا تنظر إليّ كالصنم؟ تكلّم.. قل شيئا! ماذا قرّرت؟ أتغادر أم تبقى؟".

... هناك ثلاثة أشياء لم أستطع إلى هذا اليوم اتخاذ أي قرار حبّ أو كره فيها: السّطح، والرّصيف، و"أشرف"! كنت أعلم أنّ أباه "الحاج علي" رجل متوسّط الحال، متردّي الصحّة، طارت إحدى رجليه في حادث شغل في أواخر خدمته كعامل صيانة بشركة سكك الحديد. لم يكن له أكثر من مبلغ التأمين الشهري يعيل به عائلته، إلى جانب ما تضعه زوجته بين يديه من أجر شغلها في بيوت بعض الميسورين من أهل القرية.

و أتذكّر...

أتذكّر أنني لم أستطع مقاومة عرض أشرف تلك الليلة! ليلة اختلط فيها كلّ شيء بكلّ شيء: الحياة والموت والأمل والخوف. انصهار رهيب لألف شعور وشعور، وجواب سريع ينطلق من حنجرتي كقذيفة اللّهب. عيناي تلتقيان بعينيه لتتزوّدا بوقود غامض، ويشتعل لساني بكلمة واحدة: أغادر!!

قبل سويعات من طلوع الفجر، وجدتُ نفسي أتسلل داخل بيتنا كاللّصّ والجميع يغط في نوم عميق. دفنتُ ما تيسّر لي من ثياب داخل كيس قماشيّ وغادرتُ دون أن أضمّ أو أقبّل أحدا. دون أن أسمع دعوات أمّي أو بكاءها وهي تترجّاني ألا أغادر. لم أكن أظنّ أنني سأعود في يوم ما. فعلام تبادل آمال اللقاء وأنا ألمح الشبح الأزرق للموت يتربّص بي مبتسما ولا أكاد أقوى على مقاومة سحر إغرائه. أشر ف يسرق من والده ليهدي لي حياة كان والدي قد سرقها مني طيلة واحد وعشرين عاما. إنّه القدر اللعين الذي لا ينفكّ عن معاملتي بطريقة معكوسة وكأنه ساعة عبثت بعقاربها أياد عفاريت خفيّة. أقلعتُ عن التفكير وأنا أهرول عائدا إليه تحت جنح الظلام. لم يكن يبلغ سمعي سوى عواء الكلاب وحشرجة أنفاسي اللاهثة.

كان ينتظرني على السّطح وهو يدخن سيجارته في هدوء الشياطين. يسألني وهو يسحب نفسا: "هل أخذت كلّ ما تحتاجه؟". ثمّ يُردف قبل أن أجيبه: "موعدنا أمام الباب الرّئيسيّ لمحطة القطار بعد ساعة. عليّ أن أعود إلى البيت لأحضر المال الّذي أخفيته قبل أن يُكتشَف أمري وتفسد الخطّة!". امتثلتُ لكلامه كعبد مطيع، ولم يخطر ببالي أن أحتقره

لطعن والده المعاق في الظهر. كنت أعلم مدى استعداد البشر لاقتراف أي خطيئة من أجل "حبّ البقاء". وحبّ البقاء عند أشرف كان يعني الرّحيل! بعد سويعات وجدتني قبالته داخل عربة القطار وهو يلتهم سكّة الحديد التهاما في اتجاه الساحل الشمالي.

بلغنا وجهتنا بعد ست ساعات. أخذ أشرف يسأل المارّة أمام المحطّة: "قهوة الصيّادين.. من فضلك يا سيّدي.. ألك أن تدلّني عليها؟". لم يكن ذلك بالأمر الصّعب، فالبلدة كانت أصغر مما تصوّرنا، وكان بها مقهى واحد يحمل ذلك الاسم. التقينا بصاحبه المزعوم. كان نحيف الجسم، رفيع الشوارب، يدخن نارجيلته بهدوء ويحتسي شايه المنعنع مصمصا شفتيه بعد كلّ رشفة بطريقة مثيرة للضحك. أصله من قريتنا واسمه "مختار". كان هو الذي هرّب أشرف منذ سنوات إلى إيطاليا عندما كان يمارس نفس المهنة في بلدة ثانية لا تبعد كثيرا عن هذه المنطقة. مهنته كانت استقبال اليائسين من الشباب في ذات الرّكن من ذلك المقهى الشعبيّ. ذلك هو مكتبه الرّسمي، حيث يقع الاتفاق على الثمن ووجهة الرّحلة وغيرها من التفاصيل الخاصّة بالعبور إلى الضفة الأخرى من الموج. هناك حيث الجنّة الموعودة رابضة في صمت الليل، فاغرة فمها العملاق. ذلك الفم المتعطّش دوما إلى المزيد من اللّحوم البشريّة السّمراء.

انتبَه إلى صوت محرّك السيّارة وهو يتأوّه فجأة في صعود مؤلم على طريق شديد الارتفاع. هو ذات الطريق، يتغيّر اسمه تماما عند تقاطعه مع شارع Sherbrook فيتحوّل إلى اسم أكثر شاعريّة، أو ربما أكثر واقعيّة. قرأ اللافتة البيضاء الناصعة وتلذذ بترديد الاسم بين شفتيه. همسَ: شارع "أكمة الثلج". لم يكذب قطّ من أطلق عليه هذه التسمية!

فهو يبتدئ على سفح هضبة شديدة الارتفاع، لا تكاد تبلغ ذروتها حتى تنحدر بك في سرعة مذهلة فتجد نفسك على الجانب الآخر منها. هناك، تنفرج الستائر على حيّ مستقلّ بذاته. عالم غريب لا يستطيع وصفه الآن دون أن يضحك ويبكي في آن واحد! كثير من الذين يصلون إلى مونريال دون نقود ودون أوراق عمل قانونيّة ينتهي بهم المطاف إلى هذا الحيّ! تتشظى أحلامهم وهم يتدحرجون من أعالي الهضبة لتلتقطهم أيادي استغلال من فصيلة أخرى ومن لون آخر. أياد غير تلك التي عبروا المحيط فرارا منها. الفصيلتان مختلفتان شكلا. أما الضراوة والوحشيّة.. فواحدة!

انحدرتْ به السيّارة مسرعة، وفجأة تراجعت به أمواج الذكرى إلى لجّة الماضي السحيق....

-٣-

على قمّة هذه التلّة نفسها وقفتُ مع أشرف منذ عشرين عاما. حقيبة واحدة وبعض من المال. كنّا متعبْين جدّا ومحظوظيْن جدّا. يومها، كان بإمكاني نسيان التعب الجسدي، أمّا الحظّ فلم يكن من المسموح تجاهله. وأقسِمُ أنه لو كان رجلا لمرّغتُ وجهي في تراب قدميه تقبيلا وشكرًا. لم يكن لغيره الفضل في وصولنا أحياء إلى سواحل إسبانيا بعد أن هلك منّا الكثيرون على متن ذلك الزورق اللعين. وبعد سنتين من ذلك التاريخ، لم يكن لغيره الفضل في تمكيننا من عبور الخط النّاريّ لشرطة الهجرة الكنديّة، بعد رحلة عذاب دامت ما يقارب الشهر على ظهر سفينة عبرت بنا المحيط من شرقه إلى غربه. بادرنا الحظ بمزحة ثقيلة عندما هوى "مختار" كقطعة لحم زرقاء، بعد أن قررت شرايينه أن تنفجر في نوبة قلبية مفاجئة ونحن على مشارف الوصول. قرأنا عليه الفاتحة وألقينا بجثته إلى سمك المتوسّط ليدفنه بمعرفته. وعلى أي حال فهو قد وفّر بميتته هذه تكاليف الكفن والدّفن على أهله. هذا في حالة إن لاحظوا غيابه الطّويل. تركَنا مختار على أغرب سفينة نوح في التاريخ. لم يجمع بين أي زوجين منها سوى اليأس القاتم وألسنة تلهج بالتوسّل والدّعاء.

فالكلّ يبثُ وعوده للإله بشيء مقابل النجاة. الكلّ نسي سكره وعربدته، والكلّ لعن حشيشه وعاهراته، والكلّ تذكّر أمّه وأباه! ثمّ ارتفع صوت الجميع إلى السّماء في نغمة واحدة: "اللهمّ نجّنا يا ربّ العالمين". تلك هي حقارة ابن آدم في أرذل وأقدم صورها. في قمّة جبنه يتخيّل أن الله سينجيه لأنّه اختار التوبة في لحظة لم يكن له فيها أيّ خيار! لدينا قدرة عجيبة على التمييز بين الخبيث والطيّب ونحن على مفترق الحياة والموت. قوّة اكتشفتها لأوّل مرّة في تلك الليلة المشؤومة. جلستُ على حافة الزورق أضرب رأسي بكفيَّ وأشرف ينظر إليّ في صمت وقد امتقع وجهه. أحسستُ بالدموع تنهمر حارّة على وجنتيّ وباختناق جعلني أحسب أنني لاحق بمختار إلى أعماق البحر في القريب العاجل! ودوّى صوت رهيب داخلي غطّى على كلّ الأصوات المحيطة بي: "يا ربّ، يا ربّ نجّني من ليلة الموت هذه! أغرقهم جميعًا.. ونجّني أنا! أنا عبدك الفقير الذي سيمضي ما تبقى من عمره في عبادتك وطاعة أوامرك! يا ربّ، أعترف لك الليلة تائبا بأنني اقترفتُ الكثير من الأشياء المخجلة التي لا ترضيك. ولكنّك تدرك بحكمتك الواسعة أنني غبيّ وضعيف، وأنني لم أكن أقصد شرّا لأحد بذلك! يا إلهي ماذا سيكون مصيري؟ لا أحد يعرف أسرار هذه المياه ومسالكها سوى ذلك الذي قذفنا بجسده البارد إلى أعماق اللّجة منذ قليل! كيف ستكون نهايتي؟ غرقًا، أم جوعًا، أم عطشًا؟ أمن العدل أن أموت عطشًا وأنا محاط بكل مياه الدنيا؟! يا ربّ، سأصلّي، وأصوم، وسأزكّي إن أصبح لي مال. سأسخّر جسدي وروحي لخدمتك ونيل رضاك، فخذ بيدي ولا تجعل هذه هي النّهاية.

لم أجد ليلتها في قلبي متسعا لأدعو بالسّلامة لرفقائي، وكأنني أردتُ أن أستأثر بانتباه كل ملائكة السّماء. تلك ليلة تلتها ليالٍ لا تحصى، كثرتْ

خلالها وعودي للإله بحياة نقيّة سأسلكها إن كُتِبَ لي الخروج حيّا من هذا الزورق اللعين. استبدّ بنا الجوع والعطش، حتى كدنا نفترس بعضنا بعضا من أجل البقاء. مات منّا الكثيرون بعد أن دفعهم جنون الظمأ إلى الإسراف في شرب مياه البحر فتسمّموا. الواحد تلو الآخر لحقوا بمختار في مقبرته المائيّة دون دمعة تذرف عليهم. لم يبق في أجساد المودّعين قطرة ماء. ماتوا دون شهادات وفاة تستخرج لهم، فليس من المعقول أن تعلن وفاة شخص قبل أن يعرف طعم الحياة!!

أنا لا أعتقد بأنّ الآلهة تنصت لأمثالي، أو تعبأ بأيّ وعود توبة تنطلق إلى السماء من قلب كقلبي. ولهذا، فلم أشعر بالكثير من الذنب وأنا أتناسى كلّ ما لهَجَتْ به ألسنة روحي من نذور ووعود بالتوبة. كان ذلك فور ما اختتم الحظّ مزحته الثقيلة بلفظ زورقنا على رمال مهجورة في مكان ما جنوب إسبانيا. لا أذكر لتلك البقعة من الأرض ولا لتلك الشواطئ اسما أو موقعا إلى يومنا هذا. كلّ ما أعرفه هو أنّها رُسِمَتْ بداخلي في شكل امرأةٍ عذراءُ الرّوح والجسد. امرأة لم تتردّد على الرّغم من قلّة تجاربها السّابقة في رمي كلّ ما تملك من دفء تحت أقدامنا المشقّقة من الملح وتحت أجسامنا المنهكة من يأس الوصول. كانت قائمة الّذين كُتِبَتْ لهم رؤية شروق الشمس على تلك السّواحل صغيرة ومعقولة في آن واحد. صغيرة لأنّها لم تكن تتضمّن سواي أنا وأشرف وثلاثة شبّان آخرين. وكانت معقولة لأننا -وحسب ما أتذكّر- كنّا الأصغر سنّا مقارنة بالّذين دُفنوا في أعماق المياه، وبالتّالي كنّا أكثر قوّة وتحمّلًا لأنياب الجوع والعطش، وأشدّ قدرة على تحمّل سياط البرد وصقيع الليالي في عرض البحر. وصلنا إلى تلك الأراضي دون أحد في استقبال أجسامنا المتعبة. لم يكن هناك أصدقاء ولا

أقارب ولا شرطة حدود. لم تكن هناك أسماء حدود! وصلنا كما يجب أن يصل أي إنسان إلى أي منطقة في العالم: بإصرار على الرّحيل، وتحدٍّ لكل خطوط الوهم. خطوط رسمها المنتصرون ندوب عار على وجه أرضٍ كانت قبلهم نقيّة القلب، صافية الملامح.

أتذكّر جيّدا أنني وجدت لذة غريبة في بلوغي تلك الأراضي. وكأنني في تسللّي إلى رمالها المترامية كرقائق الذهب تحت أشعة الشمس، أسترجع شيئا ما كان قد سُلب منّي منذ زمن بعيد! شيء اسمه حقي في التنقل... في العيش... في الحياة! تلذذتُ بذلك الوصول الذي حبكتْ أنسجته أيادي القدر العابثة، وارتميتُ في أحضان تلك العذراء لتفعل بجوعي وعطشي وأحلامي ما شاء لها أن تفعل. وفي حُمّى لقائي بها، لم أنس أن أبصق في وجوه كلّ شرطة الحدود وكلّ من زرَعَهُم كأشجار الصبار في الصحاري القاحلة لأحلام الضعفاء. بصقتُ في وجوه كلّ هؤلاء، لأنهم كاللصوص... يحرسون ما لا يملكون!

من بعيد، حملتْ لنا النّسمات البحريّة أصواتا اختلطتْ ذبذباتها بصخب الأمواج وضوضاء طيور النورس الّتي كانت ترفرف فوق رؤوسنا بأجنحتها البيضاء وكأنها سرب من ملائكة الفردوس. تبيّن لنا في النّهاية أنّها أصوات عربات وسيّارات تقطع أحد الطرق غير البعيدة عن الشاطئ. تلاشت كلّ آثار الإنهاك فينا وركضنا نحو مصدرها آملين أن تكون طريقا يحملنا إلى بداية الطريق!

يصيبني دوار شديد إلى هذه الساعة كلّما تذكرتُ تتالي الأحداث بعد ذلك. شاحنة نقل تحمل على متنها عجولا وأبقارا تتوقف لنا، وترمي بنا إلى الوراء مع بقية حمولتها. بعد سويعات قضيناها نوما على وقع

ارتجاجاتها العنيفة، تتوقف العربة أمام الباب الخلفي لمذبح عصريّ في شارع منعزل من شوارع برشلونة. يأخذ العمّال في جرّ الأبقار إليه الواحدة تلو الأخرى، لتتحوّل إلى لحم يؤكل، ونقف نحن أمامه وأمعاؤنا تعصف جوعا، لا نجد أمامنا غير مزابل خالية من العظام! الجوع صديق قديم لنا، لا يتوانى عن مصاحبتنا أينما توجهنا. ركبنا ظلمات البحر فرارا من شبحه المخيف، فإذا به أول من يستقبلنا على الضفة الاخرى من البؤس. في هذه المدينة التي لا تجد فيها أمّا تسقيك قطرة ماء أو أبًا يطعمك كسرة خبز، كان لابدّ لنا أن نفترق، كلّ منّا إلى وجهة بحثا عن شيء يطفئ نيران المعدة المتأججة. من الغباء أن ننجو من براثن الموج لنقع فريسة سهلة بين أضراس اليابسة. إذا كان البحر أبًا قاسي القلب، فالأرض أمّ حانية الصدر.. لا يمكن لها أن تنسى أطفالها وإن فقدت ذاكرتها.

إذن فلنفترق!

بقيتُ أنا وأشرف، ومضى الثلاثة الباقون إلى حال سبيلهم بعد أن تبادلنا بعض عبارات الوداع الفاترة. أحدهم طلب مني سيجارة قبل أن يلحق بأصحابه وقال لي: "ربيّ معاكم.. ومعانا"، ثم توارى كطيف من الدخان وراء صخب المدينة. مغامرتي أنا وأشرف بدأت شريفة، رغم قلّة الدّوافع التي تشجع على ذلك. كنّا جائعيْن وعطشانيْن ومعدميْن، لا وجهة لنا ولا مأوى! ورغم ذلك، فقد تسلّقنا سلّم الشرف من أسفل درجاته، حاوية قمامة وراء أخرى. بعض ما كنّا نجده فيها من أكل كان مقززا، ولكن الجوع كافر كما يقولون! أمّا البعض الآخر فلم نكن نحلم بتناوله على أشهى موائد القرية. "ألم تقل لي إن معك ما سيكفي لسدّ رمقنا لبضعة شهور أيّها النصّاب! ماذا سنفعل الآن.. هه؟

لا أحد مستعدّ لأن يشغّل متشردين لا يتكلّمان الإسبانيّة. روائح جسديْهما كفيلة بأن تصيب نصف سكّان المدينة بحالة من الاختناق المزمن! لقد تعبتُ من ارتياد الأرصفة. تعبتُ من النّوم على مقاعد الحدائق العموميّة! ملّت معدتي أكل المزابل ومياه حنفيّات المقاهي! شهران ونحن على حالة الكلاب هذه! قل لي ما العمل الآن؟ ما العمل.. هه.. ما العمل؟". ويجيبني أشرف وقد فارقت وجهه المثقوب تلك الابتسامة الهادئة. حلّت مكانها زمجرة ذئب جريح: "ماذا تتوقع أن أفعل لك أيّها الأحمق؟! أكنت تنتظر منّي أن أنزل حضرتك في فندق فخم، أو أطعمك لحم خروف كلّ يوم؟! هي مائة وخمسون ورقة اختلستُها من "عمّك علي" تبخّرتْ كلّها بين سفرنا إلى السّاحل وطمع ذلك اللعين "مختار"! اللعنة عليه، تفقدتُ كلّ ثنايا ثيابه قبل أن نلقي به في أعماق اللّجة، فلم أعثر على ملّيم واحد. الوغد! كان يدرك جيدا أنّه يسافر مع أسماك القرش، لذلك لم يكن يترك على جسده أي أثر لرائحة الدّماء! أمير! أنظر إليّ جيّدا... أقول لك أنظر إليّ!! أكنت تتوقع الوصول إلى هذه البلاد حيّا بعد أن وقع ما وقع من موت مختار وضياع زورقنا في عرض البحر؟ أجبني.. هه؟ لِمَ تشيح بوجهك عنيّ؟ طبعا جوابك لا! طبعا لم تكن تتوقع وصولك بمعجزة من صنع الرّياح إلى هذه السواحل؟ إذن فاصبر قليلا! بداية الغربة لأمثالنا تكون دائما صعبة ومرّة الطّعم. يجب أن يكون جِلدُك سميكًا. يجب أن يكون قلبك مصنوعا من الأسمنت الجاف! الغربة حيّة رقطاء، تعرف رائحة ضعفاء القلوب على بعد أميال. تسعى إليهم على مهل لتتلذّذ بالتهامهم أحياءً.. أتفْهَمُ؟".

" أسمنت القرية وأسطالها أرحم لي من هذا الذلّ!". قلتُ ذلك

وأنا أضربه على مؤخرة رأسه وأهرع مسرعا إلى رصيف إحدى الحدائق العمومية الجاثمة بصمتها على صدر المدينة. تلك الحدائق التي تخفي في ثناياها الكثير من سكّان الليل.

يلحق بي أشرف ضاحكا، ويمسك بي من ذراعي في محاولة لإرضائي:" أقسم لك أن الحال ستتحسن يا صديقي! تمسّك بالصبر وحاول أن تجد شيئا من قوة التحمّل في نفسك! سنجد حلا، أعِدُك بذلك! نعم أعِدُك!". ووجد أشرف حلاّ. بل وجد حلولا كثيرة وضعها ألجمة بين فكيَّ المطيعيْن. امتطاني كأغبى حمار عرفتْه حقول قريتنا ليرسم بمحراث جهلي خطوط أيامي المقبلة! كان أشرف أسرع مني بكثير في تعلّم الإسبانيّة لعدّة أسباب: أوّلها أنه كان يفوقني تعليمًا، وثانيها أنه عاش فترة غير قصيرة في إيطاليا حيث تتقارب اللغة. كان -رغم بشاعته- قريبا إلى القلب، ذا نكتة سريعة ولسان يقطر شهدًا. كان أستاذا في فنّ الإقناع، يشبه أولئك السّحرة المتجوّلين، القادرين على تنويم مشاهديهم.. لإيهامهم برؤية أشياء خياليّة وكأنها واقع حيّ! ما زلتُ أذكر شكله وهو يستوقف حسناوات برشلونة متصنّعًا بلاهة سائح أضاع طريقه، ومستفسرًا عن عنوان هذا المطعم الوهميّ أو ذاك. وما هي إلا لحظات، حتّى تجده قد شرع في إضحاكهنّ وملاطفتهنّ. وإذا بهن يستجبن بعفويّة الأطفال لعرضه المجّاني وينثنيْن نشوة وطربًا لوقع لكنته الإسبانية الركيكة على آذانهنّ الرقيقة. هذه الموهبة التي كان يتفرّد بها ما لبثتْ أن وضعتْنا على طريق جديد وخطير في آن واحد. طريق أجمل ما فيه أنّه انتشلنا من شرف الأكل من مزابل الشوارع إلى بريق المال في لمح البصر. طريق الأزقة الملتوية والحارات المتشعّبة.

هناك حيث كنتُ أقبع في زاوية أحد المنعطفات المؤدية إلى الشوارع الرئيسية بينما أشرف يستوقف إحدى ضحاياه. يشرع في طرح أسئلته السياحيّة المطعّمة بالنكت والدّعابات قبل أن يختطف من يدها حقيبة، أو يقتلع من رقبتها سلسلة ثمّ ينطلق فارّا بسرعة الفهد. بعد لحظات، ألمحه مقبلا نحوي بذات السرعة الجنونيّة وقد احمرّ وجهه، وانتفختْ وجنتاه من شدّة الركض. يصفّر لي بفمه علامةً بأن العمليّة قد انتهتْ وأن الفرار واجب محتوم. حطّمنا جميع الأرقام القياسيّة في الركض عبر كلّ شوارع المدينة. لم يحاول أحد الإمساك بنا ولم يعبأ أحد لصراخ الضحايا صباحا كان ذلك أم مساءً. كجرذان المجاري سلكنا أسفل الطّرق وأحقرها في السّرقة والنهب. ولكي تسمن الجرذان كان لابدّ لها أن تقابل من يفوقها قذارة وطمعا ليكشف أمامها الأسرار الرّهيبة لتلك المسالك السّفليّة الملطّخة بآلام الآخرين! كان اسمه "بيدرو"، وكان جرذا غجريّا في منتصف العمر. ذا شعر متجعّد وطويل.. بطول اللّيالي الّتي كان يمضيها ساهرا على الأرصفة مستبدلا بأنغام "جيتارِهِ" المتكرّرة كرم ما تجود به أيادي المارّة من متذوّقي الفنّ الرخيص. أغلب الظن أنه شاهدنا ذات يوم ما ونحن نركض فرارًا إثر إحدى غاراتنا على إحدى الفتيات من ذوات القلائد الذهبية اللامعة. لا أدري كيف عرف أننا نفعل ذلك كي لا نموت جوعا. ورغم أننا كنّا شديدي الحرص على الانفراد بالضحايا في الأزقة الخاوية، إلا أنه توصّل بحسّه الإجراميّ إلى تقفّي أثرنا حتى عثر علينا داخل حانة حمراء ونحن نحاول استبدال شيء من الأكل الرديء بذهبنا.

كنّا نركّز في معظم عمليّاتنا على حقائب اليد. فهي عادة ما تحتوي على

قدر من المال الكافي لإطعامنا بضعة أيّام قبل أن يدفعنا الجوع إلى ترصّد الأزقة المنزوية من جديد. أمّا القلائد والأساور والخواتم.. إلى غيرها من أنواع المصوغ، فقد كنّا نضطرّ إليها اضطرارًا، لاحتمال أن تكون من النّوع المزيّف فيذهب تعبنا سدىً. كان التصرّف في مثل هذه الحليّ صعبا من جرّاء رفض معظم الخمّارين وأصحاب المطاعم قبولها كأجر. كانوا يخشون أن تكون مسروقة أو مزيّفة. زد على ذلك ما قد تثيره هذه المبادلات من شبهات!

كلّما اضطررنا إلى استعمال إحدى القطع الذهبيّة كي نأكل أو نشرب.. كانت قصتنا واحدة، لا تتغيّر. نقف أمام صاحب المطعم متقمّصين دور سائحيْن شابّيْن فقدا كلّ ما يملكان إثر وقوعهما ضحية لعملية نشل سريعة من الّتي يتعرّض لها السوّاح كلّ يوم في شوارع برشلونة. ندّعي بأننا بصحبة رفيقتين لنا، وبأنهما تنتظراننا بالخارج بعد أن تبرّعتا بما تملكان من ذهب حتى يتسنّى لنا سدّ رمقنا لبضعة أيّام إلى أن يحين موعد سفرنا. الأشياء الوحيدة الّتي نجت من عمليّة السطو المزعومة هي تذاكر سفرنا! حكاية سخيفة وليس من السّهل تصديقها، ولكنّ بعض أصحاب الحانات والمطاعم الوضيعة كانوا يُقْدِمُون على مساعدتنا بدافع الشفقة حينا.. وبدافع الطّمع في معظم الأحيان. انتهتْ مدة استعمال تلك الحكاية ليلة وضع "بيدرو" يده ذات الأظافر الطويلة المتّسخة على كتف أشرف.

كنّا جالسيْن إلي قدحين من البيرة وصحن من المحّار الرديء في ركن معتم من أركان حانة قذرة. دون استئذان سحب كرسيّا وجلس قبالتنا. همس وعلى وجهه ابتسامة واثقة: "المعذرة على الإزعاج أيها الرّفيقان.

لن آخذ من وقتكما الكثير. أعرف أنكما سارقان، ولا مانع عندي من أن أجد لكما من يعطي هذا الذهب الذي بحوزتكما القدر الذي يستحقه. أليس من السخيف أن تغامرا كلّ يوم بإمكانيّة الدخول إلى السّجن، فقط من أجل حفنة من الساندويشات النتنة؟". يهزّ أشرف رأسه مبتسمًا. كان قد أدْرَكَ، بحاسّة شمّه المرهفة، أن هذا الغجري القذر الّذي يجلس أمامه سيغيّر الكثير من أيّامنا المقبلة.

انسحبنا مع بيدرو إلى مقهى قريب. جلسنا في ركن هادئ بعيدا عن صخب موسيقى الحانات وضوضاء زبائنها السّكارى. ذلك الركن من ذلك المقهى الصغير كان شاهدا على ميلاد شبكة خطف ونشل جديدة. حافظتُ فيها أنا وأشرف على وظيفتنا التنفيذية واعتلى فيها صديقنا الغجري الغامض منصب الموزّع والسّمسار. وهكذا تضاعفت مبالغ المال في جيوبنا. كَسَتْ جلودنا ملابس نظيفة غير متناسقة الألوان. وأحاطتْ برقبتينا قلائد ذهبيّة سميكة وأساور رجاليّة برّاقة. كانت هيئتنا تشهد بألوان صارخة على أننا لسنا بأشرف من مشى على أرض برشلونة! ولكنّ آراء الناس لم تكن تهمّنا ما دام الذهب يقتطف من أعناق الجميلات ليستقرّ بين يدينا كعناقيد من عنب الجنّة. بعد ذلك يتحوّل على يدي "بيدرو" إلى رزم من الأوراق النّقدية يحتفظ هو بنصفها ويعطينا النصف الآخر.

سبعة أشهر عشنا فيها كما يعيش المترفون في برشلونة. مطاعم فخمة ونبيذ معتّق. أطباق شهيّة وعاهرات جميلات باهظات الثمن في فنادق شاهِقة الغرف. ما أكثر الليالي التي كنا نمرّ فيها ببيدرو ونحن سكارى، نترنّح على أكتاف غانياتنا وقد ملأت عربدتنا سكون الليل. كان يلذ لنا

عند نهاية السهرة أن نمرّ على مسرحه الليليّ الّذي لا يتغيّر. هناك تحت تمثال ضخم في إحدى الساحات العامّة، حيث يفرش سجادة بالية يفتح عليها الغطاء الخشبي لجيتاره في انتظار عشاق أنصاف الليالي وما تجود به أياديهم السّكرانة من قطع نقدية. كنّا نعرض عليه أن يصاحبنا لنكمل السهرة في إحدى العلب الليليّة الّتي يمتدّ صخبها إلى طلوع الفجر، أو إلى أن يركب أيّ امرأة ممّن كنّ معنا على حسابنا. ولكنّه كان يرفض دائمًا. يبتسم دون أن ينقطع عن العزف ويغمزنا بخبث متمنيًا لنا قضاء بقيّة سهرة جميلة.. في انتظار موعد مقبل، لتسليمه الدفعة الجديدة من الحليّ والمجوهرات.

هو كما هو. متسخ دائما وبوهيميّ دائما. فيه إغراء واستثناء الفنان الضائع. لم تغيّر الأموال التي كانت تدرّها عليه سمسرة المسروقات من هيئته شيئا. لا أحد يدري إلى هذا اليوم أين كان يدفن كنوزه المتراكمة. ذلك سرّ أخذه معه إلى قبره بعدما سمعنا ذات ليلة مشؤومة خبر مقتله في نفس المكان. تحت التمثال طعنه أحد المتشردين من أجل حفنة قليلة من النقود المرمية في قعر العلبة الخشبية ذاتها. كأحد الدّراويش المجهولين مات بيدرو: بخنجر ملوّث بسمّ الطمع، وكنز مجهول المدفن، ولعنة نزلت بعده علينا أنا وأشرف. لعنة كادت أن تلقي بنا في زنازين المجرمين والقتلة، ومنها إلى قوارب الترحيل الجماعيّ!!

وأسمع نفسي مرّة ثانية وأنا أصرخ في وجه أشرف. وكأنني أدمنت لومه على كلّ قرار كنت أنا أوّل من يطيعه في تنفيذه. أصرخ بأعلى صوتي ولعابي يتناثر على وجهه: "لِمَ أخاطر بحياتي كي يعودوا بي إلى خرب الفقر وحظائر الأسمنت هل تفهم؟! كنّا سنقع بين براثن الشرطة اليوم

لولا ستر ربّك! ألا تنظر حولك مليّا قبل أن تمدّ يديك إلى رقبة تلك العاهرة؟!"

شرطيّ جالس على درّاجته الناريّة تحت شجرة شاهدَ كلّ شيء! كيف لم تلاحظ ذلك؟ هل جننت؟! كنّا سنبيت الليلة في السجن!! هل تعرف ماذا يدور بداخل السّجون وما كان يمكن أن يحلّ بنا؟"

كنتُ أرتجف من الخوف والغضب معًا! وكدت أن أقتلع رأسه من بين كتفيه في ذلك اليوم الفاصل. يومٌ قضينا آخره ونحن نسترجع أنفاسنا. لهثاتٌ تركناها مبعثرة على كلّ شوارع وملتويات برشلونة ونحن نعدو فرارا من حارس أمن قرّر أن يشتغل بضمير مهنيّ مفاجئ. هو و"موتوسيكله" اتّحدا في شكل قذيفة من اللّهب طاردتنا في كلّ مكان ودفعتنا إلى سرعة عدْوٍ لم أكن أتصوّر أنه من الممكن لأي إنسان بلوغها! حُبّ البقاء ينزل علينا كشيطان الرّحمة مرّة أخرى. يقذف بأقدامنا إلى كهف سكّة أحد قطارات الأنفاق حيث توقّف ضمير الشرطيّ ودراجته عن العمل وعادا أدراجهما في انسحاب يائس! مشينا طويلا بعد ذلك ولم نحسب إمكانية مرور قطار في الاتجاه المعاكس لسيرنا في ذلك النّفق المظلم. ربّما لم يكن لنا خيار سوى تجاهل ذلك إلى أن تقيّأنا الكهف على شوارع ضيّقة ووسخة لمنطقة بدت لي صناعيّة في ذلك الوقت.

بقوة يُنْزِل أشرف يديّ الماسكتين بياقة قميصه ويجيبني باقتضاب جافّ: "لا أدري من أين طلع عليَّ ذلك اللّعين كعفريت أزرق! لكن ذلك لا يهمّ الآن، فقد نجونا وانتهى الأمر! أخبرني حالًا: هل معك مال كاف لكي نمضي ليلتنا في إحدى البنسيونات هنا؟ لا أريد أن أعود إلى قلب المدينة اليوم. قلبي لا ينبئني بخير إن فعلنا ذلك!".

كانت لأشرف قدرة عجيبة على حسم أصعب المواقف وأطول النقاشات في بضع كلمات قليلة، تجعل الطّرف المقابل يحسّ بأنّ الأمر قد أخذ ما يستحقّه من الوقت وأن أهمّ شيء هو تحديد الخطوات المقبلة. لقد مارس عليّ تلك السلطة وتلك السيطرة اللاّشعوريّة منذ عرفته. ولذلك فإنني لم أجد مخرجا سوى الكفّ عن الصراخ، واستبداله بالتفكير في التطوّر الخطير الّذي دفعنا في لحظات إلى التمهّل ألف مرّة قبل التجرّؤ ثانية على اقتلاع أي عقد من عنق أي فتاة على قارعة الطريق.

كان لنا اعتقاد راسخ حتى ذلك اليوم بأننا لم نكن نسرق أحدا. وبأننا كنا نمارس حقنا الشرعي في العيش. وبأننا كنا نستوفي ذلك الحق بالانتقام من أهالي هذه المدينة التي أوصدت أبواب فرص العمل في وجوهنا. حتى ذلك اليوم، لم نكن نشعر بدناءة اللصوص. حتى ذلك اليوم، لم نكن نرأف لرعب الضحايا. وحتى ذلك اليوم لم نكن نستوعب سلطة القانون! ولكن اقتراب رائحة السجون من أنوفنا بعد تلك الحادثة أيقظت بداخلنا شبح الغاية التي لا يمكن لها أن تبرر الوسيلة مهما كان الأمر! أصبحتْ الرؤيا واضحة وجليّة أمام أعيننا: كلّ الّذي اقترفناه كان إجراما وليس اضطرارا. فإمّا الاستمرار.. فالسّجن، وإمّا التوبة.. فالحريّة! أحسست يومها بأننا، وقبل ذلك الحادث، كنّا في عرين أسد نائم. نلعب بفروته ونتجاذبها بحماقة الأطفال دون أدنى تقدير لما يمكن أن يجرّه علينا لهونا من وبال لو استفاق ذلك الوحش الكاسر فجأة وانقضّ على أحلامنا ليفترسها الواحد تلو الآخر.

هل كان ذلك هو اليوم الفاصل بالنسبة لي؟ اليوم الفاصل بين الطيش والتعقّل؟ لا أدري! كل ما أعرفه هو أنه كان اليوم الوحيد الذي

كان فيه أشرف طوع أمري ورهن إشارتي. "اسمعني جيّدا!". قلت له بعد أن تغلّب على جسمي الهدوء وعاد عقلي إلى رشده من جديد: "لديَّ ما يكفي من المال لقضاء ليلة أو ليلتين هنا أو في أي مكان آخر. ولكنّ الأهم من ذلك هو أنني توقّفتُ منذ هذه اللحظة عن مصاحبتك في رحلات الخطف والنهب. إن كنت تريد أن تستمرّ في ذلك فأنت حرّ! ولكنك ستفعل ذلك من دوني، وهذا يعني أنّني لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن. أتفهم؟!". وكأنه كان مقتنعا ومستسلما لمشيئتي من قبل أن أنطق بحرف. أجابني وقد اكتسح الذبول قسمات وجهه: "الأمر أصبح مختلفا بعد شؤم ما حدث اليوم! لا أدري إن كنت سأستطيع العودة إلى القرصنة في تلك الشوارع حتى وإن كنت أريد ذلك فعلا! لا أدري إن كان قد بقيت ذرّة هدوء في يديّ لاقتلاع أي شيء من رقبة أي عاهرة!"

وكان ردّي غير قابل للنقاش: "إذن فقد حُسِمَ الأمر وانتهينا! نمضي بضعة أيام هنا في أحد البنسيونات الرخيصة. نخرج كلّ يوم للبحث الجدّي عن عمل شريف. بضعة أيام إلى أن يهدأ الأمر ونعود إلى وسط المدينة. لابدّ أنّ نعود إلى غرفة الفندق حيث تركنا متاعنا وما تبقى لنا من مال. ندفع إيجار تلك الحجرة الباهظة ثمّ نودّع أيام الرزق الحرام إلى الأبد. سنتصرف فيما بقي لنا من نقود بحرص شديد إلى أن تجود السّماء على أحدنا بشغل تحت الطاولة!."

وكان لي ما أردت.

- ٤ -

مصباح قديم يتدلّى من خيطٍ طويل. يكاد يلامس طاولة متآكلة تحتضن كرسيّين شبه مكسورين. ما زلتُ أذكر نوره الباهت المنعكس كشبحٍ مريض على جدران تلك الغرفة الخندق. هي أشبه بقبو لم ير لشعاع الشمسٍ وجها منذ قرون. صاحبته امرأة متقدمة في السنّ لم تشمّ رائحة جسد رجل منذ نفس الزمن. ها هي تشرح لنا نظام الدخول والخروج وتتباهى بأنّها قررت الإقلاع عن تأجير الغرفة منذ سنة نظرا لمشاكل الإزعاج التي كان يسبّبها السكان عادة. ولكنّها لا تمانع اليوم من إعطاء فرصة جديدة لشابّين مهذّبين مثلنا.

تحت الشعاع الباهت لذلك المصباح، كنا نضع الخريطة كل ليلة لنحدّد المناطق التي سنجوبها بحثا عن عمل في اليوم التالي. على وقع ذلك الشعاع يأتيني صوت أشرف كلّ فجر وهو يركلني بتكاسل: "الساعة السادسة الآن.. هيّا انهض!". ركلة واحدة منه كانت كافية لأن تجعلني أهبّ من سريري منتصبا على قدميّ بحماسة الاشتياق ليوم جديد قد يخفي في طيّاته ما يمحو مرارة الأيام الماضية. يوم قد يقرّر فيه أحدٌ ما.. في مكان ما...أن يعطينا فرصة إثبات النفس.. فرصة الحياة.. فرصة التوبة!

تضيق بنا الشوارع والأزقة ونحن نجوبها طولا وعرضًا، أفرانًا ومَطاعم، حاناتٍ ومقاهيَ. أبواب تتشابه في قسوتها وضراوتها، تُفتَحُ لتسألنا ماذا نريد ثمّ تُغلَقُ بذات الطريقة وذات الكلمات: "لسنا بحاجة لأحد الآن... يمكن لكما العودة بعد بضعة أشهر فربّما أصبحت بعض الوظائف خالية!" هكذا يتشابه أرباب الاستغلال في طريقة المشي والمصافحة والكلام.. وحتي في كيفيّة سدّهم لأنوفهم خوفا من عفن اللّحوم السّمراء!

وتمرّ الأيّام طويلة وشاقّة. تتقلّص النقود في الجيوب ويصبح صوت صاحبة البيت وهي تطالب بالمبلغ الشهريّ للإيجار أغنية صباحيّة نستيقظ عليها في معظم أيّامنا. يفتح لها أشرف الباب ويمارس عليها ما تبقى في جعبته من كلام منمّق. يعدها بأيام قليلة مقبلة ستعوّض صبرها خيرًا. يلامسها في أماكن حسّاسة من جسدها بعفويّة شيطانيّة. تقتنع "كلارا" بكل وعوده وتمنحنا فرصة كانت "أخيرة" في كل مرّة. بعد ذلك تنسحب في استحياء خفيّ إلى شقتها في الدور العلويّ لتعيش لياليها على بقايا لمسات أشرف ومعسول كلماته. ثم لا تلبث أن تعود بعد أيام معدودات لتطالبنا بنفس الحقّ. ومع كلّ مرّة تتزايد حلاوة العبارات على شفتي أشرف وتتوغل يداه في أماكن أكثر سخونة من جسدها النحيف المقزز. عبر الأسابيع يتحول غضبها إلى عتاب... ومن عتاب إلى دلال... ومن عتاب إلى غنج... ومن عمق كلّ ذلك يعود لينفجر صرخات لذة تحت جسد أشرف. ها هي تنتفض تحت جسمه العاري كالفرخة المذبوحة وتشهق زفرات رجوع الرّوح إلى الجسد بعد موت طويل!!

أدرتُ وجهي باشمئزاز وأنا أفتح عليهما باب الغرفة ذات مساء. أغلقت الباب بعنف وهرولت مسرعا إلى الخارج. جبت الأرصفة دون

وجهة محدّدة إلى أن وجدتني جالسا في ركن منزوٍ من إحدى المقاهي القريبة. طلبتُ espresso وكوب ماء باردا وأخذتُ أدخن السيجارة تلو الأخرى في صمت. أدركت منذ ذلك الوقت في لذّة خفية أن الإيجار أصبح قضيّة منتهية، ملفّ أرشيف كان أشرف في تلك اللحظات يدفع ثمنه على الجاهز! من أغرب الأشياء في الدنيا أن ينصهر اثنان في فوران لذة واحدة ولكن بأهداف معاكسة. هو يريد سكنا ولقمة دافئة وهي تسكن رجلا خوفا من أن يلتهمها شبح الوحدة الدائمة! أشرف ينقذنا من الضياع مرّة أخرى. وفي كلّ مرة تتزيّن الخطيئة باللون الشاحب للفقر. بدأتْ بطعن الوالد في الظهر. ثمّ مرّت بالسرقة والنهب. وها هي الآن تتحوّل إلى رذيلة مع امرأة في سن أمّه. امرأة كان يؤكد لي أنه لا يطيق النظر إلى جسدها، وأعرف أنه صادق في ذلك. في كلّ مرّة تتغير عُمْلَة أشرف لشراء نفس الشيء: العيش بكرامة! هل كلّ العملات مقبولة لشراء هذا الشيء بالذات؟ تساءلتُ وأنا أطفئ آخر سيجارة قبل أن أغادر المقهى مسرعا: هل يمكن للغاية فعلا أن تبرّر الوسيلة؟

وصلتُ إلى الغرفة متأخرا. كنتُ أحمل معي قرارًا بألا أفتح موضوع كلارا معه. ولكنني لم أجده. على السرير العابق بالرائحة الطازجة للجنس وجدت مكانه رسالة وجملتين:

" أنا في الطابق العلويّ عند كلارا... هناك عشاء ساخن على الطاولة!".

لم أر أشرف في الأيام التي تلت تلك الحادثة. لم يخرج معي لرحلة البحث عن عمل كلّ فجر، ولم أصرّ على أن يفعل. علمتُ بعد ذلك أنّه كان -في ذلك الوقت بالتحديد- بصدد إعطاء كلارا وجبة الحبّ الصباحيّة. كلّ عمل حلال ما دام العرق لم يتصبب لسرقة أو شحاذة. وأشرف كان ينهض باكرا لعملٍ مضن في حقل حرمان شاسع صاحبته عجوز كريمة الأجر! عرقه كان ينهمر بغزارة لسقي ذلك الحقل الذي لم يطأه محراث رجل منذ أجيال! كنت أعود كلّ مساء محمّلا بأكياس ثقيلة من الخيبة. أفتح الباب وأرتمي على الفراش منهار القوى. ينتزعني نعاس التعب من مرارة يومي ساعة أو بضع ساعة، ثمّ أصحو على صوت أشرف ووجهه المبتسم كالعادة. يتجاذب معي أطراف حديث لا معنى له، ثم ينسحب عائدا إلى مخدع عروسه العجوز ليزاول مهنته الليليّة.

أذكر عندما بادرني حانقا ذات ليلة: "قم خذ حمّاما دافئا، وعد لتناول هذا العشاء الساخن الّذي أحضرته لك. أنت لا تريد أن تسمع كلامي! لماذا تصرّ على البحث الذي لا يجدي شيئا؟ هه قل لي لِمَ العذاب.. لِمَ؟! العاهرة التي تنتظرني في الدور الأعلى على وشك أن تفتح كلّ خزائنها تحت ذكورتي، وأنا أتعب كثيرا في تحمّل بشاعتها من أجل ذلك الغرض.. أتفهم؟!لقد أعفتنا من دفع الإيجار، وهي تزوّدنا بكلّ ما نحتاجه من مال

وطعام. ماذا تريد أكثر من هذا..هه.. ماذا تريد؟!". أجيبُه وقد عصفت رياح الغضب بأعصابي: "ماذا تريدني أن أصنع بيوم طويل عريض؟ أتريدني أن أتقاسم معك سرير كلارا، أو أنوب عنك في مضاجعتها إن نال منك التعب؟! أم أنّك تريدني أن أجلس في الغرفة المجاورة لمخدعكما لأنصت طوال اليوم لشهيقها وزفيرها تحتك وهي تنادي باسمك وتترجاك بأن تغوص فيها بقوّة أكثر؟! بلّغها رسالة عاجلة منّي. قل لها أن تقلع عن ارتياد الكنيسة كلّ يوم أحد، فقد عثرت هي الآن على إله جديد تعبده!"

- لماذا تخاطبني بهذه الطريقة؟ هيه؟ لماذا؟... ماذا تريد منّي؟ أنا لا أفهم شيئا!

- أنا لا أريد شيئا. ما نحن فيه الآن حلّ ثمين للفترة التي نمرّ بها. ولكنني لا أطيق البقاء طوال اليوم دون القيام بأي عمل. أريد أن أشعر بأنني لستُ في عداد الأموات! زد على ذلك أن كلارا لن تدوم لنا. قد تجد لها شابّا آخر تشبع به نهم جسدها الجائع. عندئذ، ستلقي بنا إلى كلاب الشوارع.. فنعود إلى نقطة الصّفر من جديد! أشرف، صديقي العزيز. اسمعني قبل فوات الأوان.. يجب أن نواصل البحث عن عمل. هذا هو حلّنا الوحيد وليس لنا غيره!

- معك حق...

شيء جميل أن يعطيني أشرف الحق، وأن يوافقني على ضرورة استمرار البحث عن شغل. ولكنه كان ينسى بسرعة غريبة. لم ينقطع عن قيام الفجر من أجل إشباع جسد كلارا. ولم تنقطع الأزقة الخالية عن استقبالي وحيدا مع كلّ صباح.

أتذكّر أن عزيمتي في البحث أخذت تفتر يوما بعد يوم. فعندما يكون الجيب ممتلئا بنقود سهلة المصدر فقد تضعف الهمّة بعض الشيء. وعبر الأيام، تتحوّل نبرة صوتي التي كانت مستعدّة للنبش في الصخر من أجل لقمة العيش إلى سؤال عابر لمجرّد قتل الشعور بالذنب:

- هل تحتاجون أحدا للقيام بعمل كذا؟

- لا... ليس لنا مكان شاغر الآن... ارجع بعد مدّة كذا..

- شكرا.

"فلتذهب جميع أشغالكم إلى الجحيم!!". أصرخ في وجوههم بصوت محبوس في أغوار قلبي. "معي ما يكفي لأعيش. بل معي ما يكفي للجلوس على طاولات مطاعمكم كزبون تتسابقون لإرضائه بِذُلٍّ يا عبدة الذهب! أدام الله صحّة أشرف، وزاد الله في ظَمَأ كلارا وفي تضوّر جسدها جوعا! لا شكّ في أنها سيّدة دميمة الشكل، وأشرف يضاجعها وعيناه شبه مقفلتين. طبعا أنا لا ألومه على ذلك. ولكن في نهاية الأمر هي امرأة. وهي تملك ما يكفي لإفراغ ما يحمله هو من رجولة "زائدة". رجولة قابعة بوحشيّة في دهاليز جسده. رجولة عاطلة عن العمل، تريد أن تتفجر في وجه نذالة الأقدار!"

تستبدّ بي حمّى الشهوة، ويعصف بي صوت داخليّ مجنون: "وأنا! من سيأخذ رجولتي العاطلة اليوم؟ من سيطفئ ظمئي؟ ليس لبقايا رجل مثلي سوى بقايا امرأة لا تريد حبًّا!". أتمتم بذلك وأنا أدفع ثمن قدح البيرة الرديء وأغادر الحانة على عجل. أدخل ماخورا قديما وأتقاسم نفسي مع شبه امرأة، ثم أتقاسم ما في جيبي مع البدينة الشمطاء تاجرة

النّساء. كلّ أصحاب المواخير يأخذون أجورهم مسبّقا، إلا ذات الأنف المعقوف تلك! تعلم جيّدا أنّه لا مخرج إلا من أمام دكّتها. وتعلم جيّدا أنّ أنصاف الرجال ليست لهم القدرة حتى على الفرار من عاهرة! من الغريب أن أنفق مال أشرف على نساء يتقاسمن معه نفس المهنة ويفرزن نفس قطرات العرق! ابتسمتُ لهذه الخاطرة وأنا أرمي بآخر أوراقي المالية أمام صاحبة الماخور ثم أغادره مسرعا وفي جسمي راحة وقتيّة!

وأعود إلى غرفتي الكئيبة... وإلى عشائي السّاخن!

كنت أقضي معظم اللّيالي بمفردي في تلك الحجرة الصغيرة. مرّة أو مرّتين في الأسبوع ينزل أشرف من عند كلارا ليمضي معي جزءًا من أطراف اللّيل. في تلك الأمسيات تمتلئ المنفضة ببقايا سجائر رخيصة، وتتلاعب الكحول برأسينا في نشوة لذيذة، ويعبق جوّ الغرفة بحكايات ممتعة تتراقص حولنا كأشباح تطاردها آلام الذكريات البعيدة. لأخبار الطفولة طعم غريب وساحر وأنت في مجاهل الغربة. لم أعرف أشرف بقدر ما عرفته في تلك الخلوات الليليّة. وكأن استحواذ كلارا عليه دفعني إلى اعتصار صداقته اعتصارا في تلك السّويعات القليلة من الأسبوع. غصتُ معه في أعماق صباه، وفي أعماق ذكريات الوطن سبحنا معا. عشتُ بخيالي مع أبيه وأمّه وإخوته، ومع المرض الذي قتل جمال وجهه ولم يقتله. تذكّرنا لعِبَنا جنب بئر القرية، وكرة المطاط الحمراء التي كنّا نتقاذفها ونحن صغار. أيام كان سي الهادي يصطادنا وهو في طريق العودة إلى القيلولة: "ألم أقل لكما ألّا تلعبا أمام البئر... ألا تفهمان؟! أشرف! اغرب إلى دارك، سأشكوك إلى أبيك وسترى ما سيفعل بك! أمّا أنت، فتعال معي. حسابك معي سيكون عسيرا في البيت!

أمّا هذه الكرة اللعينة، فأقسم أنني سألقي بها في البئر!". فعلها سي الهادي دون أن يرفّ له جفن. ألقى بكرتي المطاطيّة الحمراء في أحشاء الحفرة المائية العميقة! الشيء الوحيد الّذي امتلكته في طفولتي. الشيء الذي أعطتني أمي ثمنه خلسة، قتله أبي غرقا أمام دموع عينيّ المقهورتين!

أعرف أنني كرهته لأوّل مرّة في تلك اللحظة. لعنته في داخلي، وأقسمت برجولة طفوليّة أنني سأنتقم لي ولكرتي ذات يوم. وكأن ذلك الكائن المطاطي الأحمر قد سبقني إلي الانتقام فوجدوه بعد تسع سنوات من ذلك اليوم ميتا في نفس مكان الجريمة! بحرقة بكيتُ على صدر أمّي يوم ضاعت مني كرتي. لم أبك لأنّ سي الهادي حفر بحديد حزامه أكثر من أخدود دم على جسدي الصغير. لم أبك لأنه أسمعني من بذيء الكلام ما انتزع آخر آثار للبراءة في أذنيّ. ولم أبك لقارورة الزيت التي كاد أن يحطّمها على رأسي لولا تدخل أمي في اللحظة الحاسمة! لم أبك لأيّ شيء من ذلك. فقط لأجل الدّموع المعذّبة التي رأيتها في عينيك يا حبيبتي بكيت!

"سأشتري لك غيرها يا حبيب أمّك، أقسم لك بذلك!".. تضمّني إلى صدرها. أتوحّد برائحته وأذوب في دفئه. أمتزج بحنانه فيصبح حزني وحزنها واحدا، ثمّ أنام. لم أكتب لها رسالة واحدة منذ وصلتُ هذه البلاد. لا تدري هي أين أنا الآن. أحيّ أم ميّت؟ أجائع أم ممتلئ؟ أحزين أم تعس؟ أسئلة محرقة أعلم أنها تضطرم في قلبها مع طلوع كلّ شمس وغروبها! كيف لورقة صغيرة تركتُها ليلة غادرتُ متخفيّا بأجنحة الظلام أن تخفّف عنك لوعة الفراق يا أمّي!

أرجو أنّ أخي "أسعد" كان قادرًا على فك خطّي الرّديء ليطمئنك بأنني وجدت عملا لا يحتمل الانتظار، وبأنني اضطررت للسفر إليه بسرعة قبل أن يفلت منّي. عمل في السّاحل الشمالي للبلاد. ذلك الّذي اختلقتُ تفاصيل قصته في زحمة تشتت أفكاري تلك اللّيلة. ليلة الرّحيل إلى المجهول!" أميّ ما زالت تظنّ أنني هناك يا أشرف! أيعقل هذا؟ لم أكذب عليها يومًا في حياتي أتعلم ذلك؟". يجيبني أشرف بهدوء "أعْلَم أنّها العزيزة الغالية عليك يا صديقي وأعْلَمُ أن هذا أمر يثقل صدرك ألما. ولكنّها كذبة بيضاء. تريحها من أرق الليالي وفحيح الوساوس، ثمّ لِمَ لا تريد أن تبعث لها برسالة؟ هه.. لم لا؟ لنا عنوان الآن ولدينا مال، فماذا تنتظر؟" أقاطعه بتشنّج: "وماذا تنتظر أنت لتبعث برسالة لأهلك؟".

يطرق أشرف رأسه لبضع ثوان، ثم يرفع عينيه ويرمقني بنظرة كئيبة بارزتُه بمثلها في الحين. من أنفي يتدفق دخان فضيّ، وتحت الشعاع الباهت للمصباح يلتقي بدخان أشرف في شكل كلمات لم تُنْطَق ولكنّها في صمتها حسمتْ كلّ شيء في رأسينا: "لا مفرّ من العثور على عمل، أيّ عمل! لا للعيش هذه المرّة بل لرفع الرّأس فوق أنوف الجميع!".

ينفض أشرف غبار الصّمت بمهارة، وبحرفة المدمن يستنشق بعمق بقايا سيجارته. يقرع كأسه الممتلئة بالبيرة. يقرعها بكأسي الفارغة القابعة على الطّاولة، ثمّ يقول في خبث: "في صحّة ليلة جميلة. وفي صحّة حبيبتي العانس!!". أبتسم له بامتثال حزين بينما يمضي هو في حديث عابر عن كلارا. يحدّثني عن حانة أبيها الّذي احترفتْ فيها توزيع أقداح البيرة والنبيذ منذ سنّ السّادسة عشرة على سكارى الليل، وعن طلباتهم التي تجاوزت حدود الخمر والعربدة الصاخبة إلى براءة جسمها الصغير.

يحدّثني عن الّذي قضى بها حاجته غصبًا في أحد حمّامات الحان دون رحمة أو شفقة. وعن استنجادها الذي ضاع بين ضجيج المخمورين وصخبهم في تلك اللّيلة المحفورة كالجرح السّاخن في ذاكرتها!

"هل تعرف ماذا فعل أبوها عندما علم أنّ أحد خنازير حانته اغتصبها على بعد بضعة أمتار منه؟ لا شيء! صفعها واتهمها بالعهر، ثم رمى بذلك الحيوان على قارعة الطريق وعاد إلى مجالسة بقية الخنازير وإلى الرّكض وراء تلبية كلّ طلباتهم وكأنّ شيئا لم يحدث! هل تعرف ماذا حدث بعد ذلك؟ ربّك لا يمهل أحدًا! لم تمض على تلك الواقعة أسابيع قليلة حتى وجد زوجته -أمّ كلارا- ترقص السّامبا عارية بين أحضان جنديّ شابّ كانت قد ارتبطتْ به في علاقة سريّة منذ مدّة غير بعيدة! قتلها بمسدّس يد صغير كان يلازمه طول الوقت، ثم سلّم نفسه للشرطة بعد سويعات!

حُكِمَ عليه بالسجن المؤبّد. ولم تمض شهور إلا وانتابته نوبة قلبيّة حادّة قضت عليه قبل أن يهرع إليه طبيب السّجن. ورثت كلارا الحان عنه، وهذا المبنى الّذي نسكنه. تمرّستْ هي بحرفة الحانات ووارت أنوثتها وراء ستار كثيف من الحزم لتتعايش مع الضّباع التي كانت ترتاد خمارتها كلّ ليلة إلى مشارف الفجر. أخبرتني بأنها اعتزلت الرّجال لفترة طويلة ولم تفق إلاّ على قرع أجراس سنّ الأربعين. لم يبق في وجهها أو جسدها شيء يغري أيّ أحد بالزواج. لازمت بيتها واكتأبت. ولكي تُبْقي على الأرباح التي تدرّها الحانة، وضعتْ كلب حراسة عليها يدعى " خوانيتو".

كان يأتي إليها بالمحصول عند أوّل كلّ شهر بعد أن يسرق منه ما يسرق. أخبرتني بأنّها مطّلعة على عدم أمانته ولكنّ ذلك لا يهمّها. فالحانة

تدرّ أموالا طائلة، وخوانيتو له أولاد كثيرون. أتعرف ماذا قالت لي كذلك؟ قالت لي إنها قادرة ماليّا على العيش في منزل فخم إن شاءت. وأردفتْ ضاحكة بأن البعوض يموت خارج المستنقعات! كما اعترفت لي بأنّها ليست في حاجة ماديّة لأن تؤجّر هذه الغرفة لأحد. ولكنّها وصفة قديمة كتبتها لنفسها كي تشفى من سقم الوحدة القاتل. وصفة خلقت نوعا من الضوضاء اللذيذة حولها، وأفرزت في الآخر رجلا مثلي اضطرّه الإفلاس لمضاجعة أي شيء! تطير السّكرة من رأسي على وقع هذه الكلمات وأجيبه بحدّة: "تنتظر كلّ هذا الوقت لتخبرني بأن كلارا صاحبة محلّ! أمغفّل أنت أم تعمّدْتَ إخفاء الحقيقة لتظل ناعما بحضنها الدافئ؟ لِمَ لمْ تعلمني بهذا الأمر من قبل... لِمَ؟! أتعلم ما معنى ذلك؟ معناه أن العمل الذي حفيت من أجله أقدامنا دون جدوى كان جالسا ينتظرنا بذراعين مفتوحتين في الشقّة العلويّة!"

ينتبه أشرف لغبائه، ونادرًا ما كانت تنتابه لحظات غباء، ثم يجيبني: "معك حقّ! كيف فاتتني هذه!". يردف بابتسامة شيطانيّة: "اترك هذا الأمر لأخيك. فعندما تكون كلارا تحتي، أصبح أنا صاحب الحان!". وهكذا تم الأمر. في أوّل مناورة حبّ ساخنة على سرير كلارا لبس أشرف دور البطولة في تمثيلية متقنة تقمص فيها دور الشاب المكافح الذي أعياه العيش عالة على حبيبته. الشاب العربيّ الذي لا تسمح له كرامته بالتقاط ما تذرّه هي عليه من صدقات. الرّجل الذي يفضّل فراقها على أن يعيش معها حياة الذلّ والهوان. ولم تلبث كلارا أن خرّت ساجدة لطلباته في الحين. فتَرْكُ أشرف لم يكن أمرا قابلا للنقاش مهما كانت العواقب. قرّرت أن تضمن بقاء حبيبها موظفا في فراشها بأن تجعله (وأنا في أذياله) موظفا في خمّارتها.

وها نحن ننتصب أمام "خوانيتو" بكلّ ثقة تصاحبنا رسالة كتابيّة منها تأمره فيها بتشغيلنا على الفور. رسالتها لم تحدّد نوع الشغل، ولكن خوانيتو كان من الذكاء بحيث أدرك أن أمْرَنا يهمّ كلارا كثيرا. ولأنّه لم يكن يريد أن يجلب لنفسه أي مشاكل مع ربّة عمله، فقد تعمّد غض النظر عن قلّة خبرتنا في دنيا الخمور والمخمورين وغرَسَنا في الحين وراء خوان البار لتلبية طلبات أسمن الحرفاء جيوبا. باستسلام مسبق احتجّ ذلك المسكين "سانتو" (هو الذي قضى نصف عمره وراء الخوان) بأننا لا نملك المعرفة الكافية بأصناف الشراب وبمختلف طرق عرضه وتقديمه، هذا طبعا زيادة على إسبانيّتنا الضعيفة. ولكن خوانيتو لم يكن مستعدّا لأي نوع من أنواع النقاش! وفي الحال أصدر له أمرًا بتعليمنا كلّ أسرار الصّنعة، وأعلمه بأنّه سينتقل إثر ذلك إلى عمله الجديد المتمثل في خدمة زبائن الطاولات. لم يكن بوسع سانتو سوى تلبية أوامر سيده الصّارمة، ولا أذكر أننا أشفقنا على وضعه الجديد. لم يُعِرْنا أحدٌ من قبل ذرّة من شفقة أو عطف ونحن نلهث وراء أصحاب الشغل في شبه توسّل من أجل أي عمل يسدّ الرّمق، فلِمَ نشفق الآن على سانتو... لِمَ؟ بالنسبة لنا، كان رجوع سانتو نادلا يتجوّل بين الطاولات يمثّل دوران الحياة في عدلها الطبيعيّ، ولا أظنّ أنّ سانتو شعر بالذنب عندما استغنى خوانيتو في لحظة خاطفة عن الجرسون النحيل ذي الوجه الطفوليّ!

استلمنا الشغل. وقبل أن أستوعب حلاوة هذه المعجزة، وجدتُ نفسي منتصبا أمام خوانيتو ذات مساء سبت وهو يضع بين يديّ أوّل أجر أقبضه عن عمل منذ وصولنا إلى برشلونة. مبلغ عاديّ دخل جيبي بعد تعب شهر بأكمله ليتحوّل في لحظة إلى حفلة من النشوة في كل خلية

من خلايا جسدي، إلى سيل من الرّاحة الغريبة في كلّ مجرىً من مجاري عروقي. أخيرا يرفرف الفرح كعلم نصر ذهبيّ على هذه الرّوح المتعبة! أجمل ما في ذلك المال أنه جعل وجه أميّ المرسوم على مرآة أحلامي يبتسم بعد عبوس طويل. مبالغ طائلة وُضِعَتْ بين يديّ قبل ذلك اليوم. ولكنّها لم تكن قادرة على إزاحة الغيوم عن وجهها الهادئ وهي ترافقني في المنام واليقظة. ما أصعب اقتطاف بسمة رضاء منك يا حبيبتي! وما أجمل أن أشتري بهذه النقود مرآة جديدة لغرفتي. مرآة أستطيع النظر فيها إلى وجهي دون اضطراب!

تمرّ الأسابيع بخطىً عاجلة. ينقصم ظهر سانتو وهو يركض بأطباق اللّوز المقليّ والمحّار وبأقداح البيرة والنبيذ بين طاولة وأخرى، بين حريف مخمور وآخر! أمّا نحن، فقد أصبحتْ منطقة ما وراء خوان البار ملعبنا الذي نحسن فيه السّيطرة على رؤوس جمهوره المعتاد. نادرًا ما كانت تتغير الوجوه التي تتقارع الأكواب أمامنا كلّ ليلة. ونادرا ما تتغيّر مواعيد دخولها وخروجها من الحان. وحتى الوقار الذي يصطحبها كلّ مساء ثمّ ينفلت عنها هاربًا كلّ فجر.. هو نفسه لا يتغيّر!

عرفتهم واحدًا واحدًا. وكرهتُ قصصهم المعتادة ليلة بعد ليلة. وضربتُ على رؤوسهم الثقيلة لإيقاظهم من غفوة السكرة..رأسًا بعد رأس! لم يكن لأي أحد منهم قصّة حزينة أو بؤسٌ يترصّده. فقط كانوا مدمني كحول وهروب من اللاّشيء. كثيرا ما كنت أتساءل: هل يتساوى أيّ منهم مع "سي الهادي؟" وغالبًا ما كنت أترك الجواب معلّقا في الهواء حتى لا أعيد النظر في قضيّة احترامي له. لم تكن براءة أبي تهمّني كثيرًا آنذاك بعدما انتقلت روحه إلى يَدَي مَن هو أعلم منّي بتفاصيل العدالة،

ومن هو أقدر منّي على إغداق المغفرة! أحببتُ تلك الأيام كثيرًا رغم تعبها المضني ورغم سهرها المتواصل. كان ليلنا نهارًا ونهارنا ليلًا، ولم يعد اتجاه دوران الكرة الأرضيّة يعني لنا شيئا ما دامت رؤوس زبائن الحانة تدور. ما دامت محافظهم تنفتح لنا في ابتسامات بلهاء بعد بضعة أقداح ملوّنة!

كلّ ما كان علينا فعله هو حفظ نوع الشراب الذي يدمنه كلّ زبون عن ظهر قلب وإشغاله بالحديث لكي يشرب أكثر فاكثر. كانت هذه العمليّة تتطلّب صبرًا وحنكة عظيمين، وخاصّة في توزيع الوقت بين كلّ تلك الأجسام المرتمية على خوان البار. أدركنا مع مرور الوقت أنّ هؤلاء الأوغاد يبحثون عن أي تبرير لوجودهم في مثل ذلك المكان القذر. ولهذا فقد أصبحنا العين التي تنظر إليهم باهتمام، والأذن التي تلبّي نداءهم في الحين، والشفاه التي تبتسم لنكتهم المتواصلة مهما كانت بلاهتها. أصبحنا اليد التي تربت أكتافهم في حال ما بثّ أحدهم من صدره شكوى حزن سخيفة. وإذا بي وأشرف نمتزج بالقوارير الزجاجية الخضراء لنصبح صديقا واحدا وموحَّدًا لكلّ فرد من هؤلاء الحمقى. ماذا يهمّني إن كنت إنسانا أم زجاجة بيرة مًا دمت أقبض ثمن مصادقتي الوهميّة لهؤلاء. مال يتناثر كلّ ليلة كالأرز على طاولة البار الطويلة. أوراق يفوق مجموعها قيمة مرتبي المعتاد، ذلك الذي كنت أستلمه من خوانيتو آخر كلّ شهر تحت نفس الطّاولة! وماذا يهمّني إن كنت لا أكنّ أيّ نوع من الاحترام الحقيقيّ لهؤلاء المخمورين. هل كان "داسي" خمّار قريتنا يحترم أبي؟ لا أظن ذلك على الإطلاق! لكن ذلك لم يمنعه من الابتسام في وجهه من أجل أن يختلس من جيوبه حقنا في الحياة! في طريقي إلى المدرسة فجرا

كنت أرى ذلك الخنفس الأصلع أحيانا وهو يقفل باب حانته ليدرك صلاة الصّبح. لم يكن يتعاطى الخمر لأنّ ذلك حرام. كان يفضّل عليه امتصاص دماء الأطفال الصغار وذرّات الملح الباقية من دموع لياليهم الجائعة. بعد أن تركتُ المدرسة، أصبحت ألاقيه صبحًا وأنا في طريقي إلى حظيرة بناء جديدة أعوّض بها أمّي وإخوتي ما اغتصبه هو منهم في الليلة الماضية. كانت نظراتنا تتلاقى في اشتباك عنيف لا تنهيه سوى كلمة "صباح الخير". بحقد خفيّ تنزلق تلك الكلمة على لساني حتى لا يشكو لأبي قلّة أدبي، وبلا مبالاة فاضحة يرميني هو بمثلها!

ماذا يهمّني من كلّ هذه الذكريات الجرداء وأوّل رسالة منّي تطير الآن في الهواء فرحة ومشتاقة لأنامل أمّي. أوّل مكتوب منذ أن وطئت قدماي أراضي برشلونة كان يحمل اعترافا لها بحقيقة مكاني. يحمل اعتذارًا من كلّ قلبي عن كذبتي السّوداء، ويحمل في طيّاته نصف ما جمعتُه من مال في محاولة منّي لجعل ما بقي من أيّامها بيضاء. تتالت رسائلي عليها بعد ذلك حاملة الكثير من الأخبار المُطَمْئِنَة. أخبار ملفوفة في أوراق إسبانيّة ملوّنة. أوراق شاءت سخرية الأقدار أن تغيّر قدَر بيت يبعد آلاف الأميال عن مكان إصدارها. أعلمتُ أخي "أسعد" بأنّه أصبح رجل البيت الآن، وبأنّه أضحى المسؤول عن والدته وأخويه الصغيرين، "يوسف" في العاشرة من عمره، و"مراد" الذي أوشك على بلوغ سنّ السادسة. كان أسعد يصغرني بعامين وهو الذي كان يقرأ الرسائل لأمّي. من خطّه الرّديء كنتُ أستنشق رائحة دموعها وهي توصيني بالانتباه إلى صحّتي والتدثّر جيّدا عند النّوم. كما أخبرتني في إحدى المناسبات بأنّهم استعملوا جزءا من المال الذي بعثته لدهن البيت وإصلاح الحمّام،

وبأنّ أسعد تمكّن من فرش حصير في ركن من أركان السّوق وضع عليه بعض أكياس التوابل ليضيف للعائلة دخلا جديدا، هذا إلى جانب المعاش الحكوميّ الضئيل الّذي كان قد تركه لنا سي الهادي دون قصد!

-٦-

" هل تعرف ماذا فعلت معي كلارا ليلة أمس؟". بادرني أشرف ذات فجر ونحن عائدان إلى البيت من صخب ليلة عمل عاديّة. لم أجبه بكلمة لأنني أعرف أنّه لا ينتظر إجابة منّي قطّ ليستمر في أي نوع من أنواع الحديث. "استرقتْ من جسدي عمليّة جماع كاملة الشروط وأنا نائم في سابع نومة! هل من الممكن لشيء كهذا أن يحدث؟ هل جُنّت هذه المرأة؟ لم تكلّف نفسها حتى مشقة إزالة ثيابي السفليّة هل تصدّق؟ لقد أخذتْ من جسمي الشيء الوحيد الذي يعنيها وانزلقت فوقه مكملة بمفردها ما تبقى من إجراءات اللّذة وكأنها تعبئ استمارة حكوميّة! لم أفق إلاّ على النصف الأعلى من رأسي وهو يطير في نشوة ما كنتُ أحسبه حلما من أحلام المراهقة المبكّرة!؟ أفقتُ مذعورا وحدّقت فيها بذهول. ولكنّها كانت قد غادرتني إلى أخذ دشّ بارد وكأنّ شيئا لم يحدث قبل لحظات.

بقيتُ جامدا ومنفصلا عن ذاتي لفترة لا أعرف مدى طولها، وشعرتُ بالوسخ يتصاعد من ذلك السرير ويغمر كلّ أرجائي. بعد ذلك، خرجتْ هي من الحمّام في حالة برود مرضيّة وجلستْ على حافة الفراش

تنشف شعرها أمامي نصف عارية. كانت تدير ظهرها لي في تعمّد مستفزّ وكان الصمت ثالثنا. تسمّرتْ عيناي عليها أوّل الأمر وشعرتُ بأنني حيوان ينظر ببلاهة إلى مالكه. ولكن سرعان ما استفاق نخيل "البلاد" بداخلي وكأنه اشتاق إلى عاصفة رمليّة يثبتُ بها صلابة جذوره. خرجتُ عن وعيي وعدتُ إليه مئات المرّات في تلك الثواني القليلة. ثم بدأتْ قباحة جسدها الهزيل تتضاعف أمام عينيّ إلى درجة الطوفان. انتابتني رغبة إجراميّة في اقتلاع عمودها الفقري المحفور على امتداد جلدها ولفّه حول رقبتها المعروقة لأنهي ما تبقى من روحها المريضة. كنتُ أعلم أنها كانت تعاني من حالة اكتئاب شديدة وأنّها تتعاطى أدوية كثيرة لمقاومة ذلك. وكنتُ أدركُ تمام الإدراك أن تلك العقاقير المتعدّدة الألوان هي السبب الرئيسي في ضعف جسمها الشديد وقلة أكلها، ولكنها في الآن ذاته سببٌ لا يمكن تعويضه في الحفاظ على توازنها النفسي والعقليّ. تساءلتُ بيني وبين نفسي: "هل نسيتْ هذه المجنونة أن تأخذ حبوبها اليوم؟ ألذلك عاملتني منذ قليل كقطعة لحم ميتة؟ أم لأنني لم أقربها في الفراش منذ أسابيع عديدة! وكيف لي أن أفعل ذلك، وأنا أنام طوال النهار مهدود القوى من جنون عملي اللّيليّ! ثم كيف لي أن ألمسها وأنا أمضي معها بضع سويعات لا أطيق خلالها النّظر إلى وجهها، خاصّة بعد أن أصبح لي عمل جديد أرتزق منه! أعرف أنها ربّة ذلك العمل، ولكنّ جزءًا مني كان يتعمّد نسيان ذلك كي أستطيع الصمود أمام قدر رماني إلى سواحلها كسمكة ميّتة. ماذا أصنع بهذه المعتوهة الآن.. ماذا أصنع؟!".
بلغتْ عاصفتي الرّمليّة ذروتها. في مهبّها الجارف، كادت أن تبتلع جذوع النخيل. تساءلتُ ثانية: "لن أسمح لأي قوة بأن تقتلع نخيلي من أرضها. لن أسمح بهذا أبدا! ماذا سيبقى لي بعد ذلك..ماذا سيبقى؟!".

بلغ هذيان العاصفة بداخلي حدّه المعقول. وكدت ألمح في غمرة جنوني مشارف اللاّمعقول قبل أن أحوّل وجهة الرمل المتوحش إلى شعر كلارا الذي لم يكن قد جفّ بعد. اقتلعتُها من موضعها لأرمي بها عارية -وبكلّ قوة الصحراء- عرض الحائط الأصفر!

ثمّ ساد صمت مفاجئ وظلام ثقيل ولم أر شيئا بعد ذلك.

اختفى عنيّ منظر الغرفة بكلّ محتوياتها لفترة لا أذكر مدى زمنها. وغبتُ في عالم عجيب فيه ألوان كثيرة. كانت تتموّج وتصرخ بقوةٍ تعادل قوة جذب الدوامة التي أحاطت بكلّ فضاء أتحرّك فيه. لا أعرف إلى هذه اللحظة ما فعل ذلك الإعصار الرّهيب بي وبكلارا وبأثاث الغرفة. كلّ ما أعرفه هو أن إدراكي عاد فلبسني في حركة مفاجئة فوجدتني إنسانا مرّة ثانية. وجدتُ نفسي في غرفة كل شيء فيها مقلوب ومحطّم. صحوتُ على خدوش دامية محفورة على صدري وذراعيّ، ثم انتبهتُ إلى صوت نحيب مختنق منبعث من حنجرة كلارا. كانت تجلس القرفصاء في ركن يصاحبها فيه كرسيّ مكسور وشظايا مرآة!

أجبته وأنا أحاول بصعوبة بالغة إخفاء دهشتي وكتم نوبة الضحك المجنونة التي انتابتني: "ألهذا السّبب لم تنزل أمس لمصاحبتي إلى الحان كالعادة؟ لقد طرقتُ الباب عليكما طويلا ولم يستجب لندائي أحد. تملكني شعور خفيّ بأنّ أنفاسا بشرية كانت تهتز بصمت وراء تلك الجدران، وكأنها كانت تتعمد الانزواء حتى أنصرف إلى حال سبيلي. أصدقك القول إنني شعرتُ بانقباض رهيب، ولكنني سرعان ما لعنتُ شيطان خيالي وأرجحتُ الأمر على أنك ربما غادرت إلى العمل مبكّرا بأمر مفاجئ من خوانيتو. قلتُ: لعّل كلارا غادرت لقضاء بعض الشؤون الخارجية.

لذلك، فأنا لم أستغرب عندما وجدتُك في انتظاري وراء خوان البار! لماذا لم تخبرني بهذا الأمر منذ بداية الليلة؟ الآن عرفت سرّ عبوسك المفاجئ وأنت تُحادث زبائن هذا المساء! أين كلارا الآن؟ وماذا حصل بعد ذلك؟"

أجابني أشرف بهدوء تتخلّله نبرة جدّية: "لا أدري، فقد تركتها مرميّة بين أنقاض حجرتها وغادرتها دون أن أنظر إليها بنصف عين. أنا لا أشفق على العاهرات عندما يتجاوزن حدودهنّ! قد أعود إلى الشقة الليلة فأجد الباب موصدا أو ربّما أجد الشرطة في انتظاري، ولكنّ ذلك لا يهمّني طالما أنّني ثأرتُ لنفسي!". في تلك اللحظة التي أكمل فيها أشرف جملته، انتابتني رجفة قلق رهيبة. اكتسحتني بعنف وزعزعت كلّ أرجاء كياني المتعب. هذه الحادثة التي استقبلها إدراكي المحدود أوّل الأمر بصيغة الهزل والطرافة كفيلة بأن ترمي بنا من جديد على قارعة الطريق: حفاة نمشي على زجاج مكسور وعراة نسبح في بركة مسامير صدئة. لم تكن لديّ طاقة لخوض تلك الأدغال الموبوءة مرّة ثانية مهما كان الأمر! ولم أكن مستعدّا لأن أسلّم مصيري ريشة هواء تافهة يتلاعب بها نهم جسد كلارا الشاذ ورجولة أشرف المفاجئة! "إن غيّرتْ اللعينة أقفال باب الشقة، فسأنزل لأنام عندك الليلة!".. كان ذلك آخر ما سمعته من أشرف قبل أن نفترق عند الدّرج. كلّ منا إلى مصيره: أنا إلى حجرتي ووساوسي، وهو إلى ساحة معركته السّابقة حيث أعلن البارحة نصرا رجوليّا وهميّا على امرأة -قد تكون ضعيفة الجسد- ولكنّها تملك من القوّة ما قد يحطّمنا في لحظة. ما أرْعنك يا أشرف وما أحمقك! كيف لك أن تنتصر على من تملك بيدها كلّ أسباب بقائك؟ وأي انتصار هذا الّذي تكون أنت فيه أوّل المقتولين؟ ألا تدري أنّ فقد أعصابك البارحة قد يتفجر في كلارا غضبا أنثويّا جارفا

بوسعه أن يرمي بنا مرّة ثانية إلى أوحال الأزقّة المهجورة حيث تتربّص بنا كلّ الأفاعي التي لا ترحم؟! ازداد خوفي وهلعي. تسارعتْ دقات قلبي تُسابق وقع خطى أشرف وهو يصعد متئدا إلى فوق. تراءت لي أشباح كثيرة ومرعبة: منها صورة بيدرو وهو يهوي مقتولا على الرصيف. ثمّ رأيتُ أبوابا حديديّة عالية، صريرها كعواء الرّيح، تفتح وتقفل مئات المرّات في ارتطامات مريعة تشققت لها الجدران!

من تلك الشقوق الموحشة، خيّل إليّ أنّ عيونا ناريّة كانت تتبعني أينما توجّهتُ وتدفعني إلى التقهقر بذعر شديد! لم أشكّ للحظة في أنّها كانت عيون أصحاب العمل ذوي الوجوه الباردة. دوّى صوت مكتوم بداخلي: "أقسم برأس أمّي يا أشرف إن عدت إليّ الليلة لتعلمني بأنها آخر ليلة لنا في البيت، وبأن سانتو سيعود ليتربّع على عرش ما وراء البار، لأهشّمنّ رأسك. ولأركعنّ بين يدي كلارا مقبّلا رجليها، وماسحا بدموعي جروحها في سبيل الحفاظ على ما بقي لي من كرامة. الكرامة هي أن تحافظ على أسباب رزقك لا أن ترمي بها على قارعة الطريق! سأتنكّر لوجودك في حياتي، وسأعلن انتهاء صداقتي بك إلى الأبد، وسأضع يديّ مقسما بذلك على كلّ كتبها المقدسة! وقفتُ عند باب غرفتي منصتا إلى أشرف وهو يُدْخِل مفتاحه حيث كانت تكمن كلّ مخاوفي. أداره بهدوء ليليّ متوجّس، وإذا بالباب ينفرج في أجمل صرير سمعته في حياتي. انسل هو إلى الدّاخل بعد أن لمحتُ بعض الأضواء الخافتة تتسرّب من فتحة الباب لتتكسّر على جدار الدّرج العلويّ. إذن لم تغيّر كلارا القفل! ولم تستدع الشرطة للقبض على أشرف وربّما عليَّ معه! ظلّت ساهرة في ركنها لتعتذر لصديقي "الفحل" عن فعلتها الشنيعة.

وعدته بأن تقلع عن اقتراف أيّ عمل يهينه أو يقلق راحته في المستقبل. هكذا أخبرني هو في اليوم التالي. وأضاف على عجل بأنه لن يذهب إلى الشغل لمدّة أسبوع بأكمله. أسبوع أعلنته كلارا تحت راية رجولته الزائفة هدنة حبّ واعتذار وصفاء. فترة نقاهة لتعويض كلّ ما أتلفته العواصف الرّمليّة نتيجة صحوة مفاجئة للكرامة! تثاءبتُ بكسل صباحيّ وهو يلقي إليّ بتلك الأخبار في جوّ غرفتي الشاحب. غرفتي التي كانت الشاهد الوحيد على أرقي وتقلّبي منذ أن توارى عنيّ شبحه متسللاً إلى شقة كلارا في الليلة الماضية. ساعتان أغمض الإجهاد فيهما عينيّ بتعسّف. أصحو بعدهما لأجد مثقوب الوجه واقفا أمامي مبتسما: "هكذا هنّ العاهرات من فصيلة كلارا. لا يخضعن إلاّ لقوّة السّواعد المفتولة، ولا ينحنين إلا لصلابة الشوارب المعقوفة! سترى الآن أنّها ستصبح خاتما أديره في إصبعي كما يحلو لي!". أجيبه في قرارة نفسي وأنا أبتسم له في موافقة اضطراريّة: "ليست لك شوارب أيها الأبله! وحتى إن كان لك ذلك. فهي لا تخيف أحدا! من الأجدر بك أن تُقلع عن استمداد قوّتك من عصر جدّك. كلارا لم تركع إلاّ لمرض الوحدة القاتل، وأنت لست سوى قرص من بين الأقراص المهدّئة التي تتناولها هي كلّ يوم دون تفكير!".

مرّ أسبوع التّصافي عليَّ ثقيلا ورتيبا. عاملتُ خلاله "سانتو" ببرود مقصود عندما كان يساعدني وراء خوان البار من حين إلى آخر. لم أر أشرف خلال تلك الفترة ولم يخطر ببالي أن أسأل عنه. كل ما كان يقلق فكري من أمر خصامه مع كلارا أصبح أمرا منتهيا من تاريخ هواجسي اليوميّة. ارتياعي من الضياع في تلك الليلة بدا لي في الأيام التي تلت أمرا

مبالغا فيه. قمّة الغباء والجبن. هل كنتُ جبانا فعلا؟ أم أن المخاوف تبدو سخيفة.. فقط بعد أن تتلاشى أسباب وجودها!

أصبح الأسبوع أسبوعين. وكبر الأسبوعان فأصبحا شهرا. لم يزل أشرف غائبا عن حياتي غيابا كليّا وكأنّه لا يفصل بيننا سلّم درج وبضعة جدران! "هل تكون قد قتلته تلك المعتوهة؟ هل يجوز الانتقام في أسابيع الحبّ؟ اللّعنة على الوساوس التي لا تريد أن تكف عن نخر الجحور المتعفنة في قلبي! لن أسمح لها بالاستمرار في تعذيبي بهذا الشكل. لن أسمح! هل أصابه مكروه أم أصبح عبدا للكسل المدفوع ثمنه مسبّقا؟ سأتوقف عن التفكير في هذا الأمر الآن. هذه بداية ليلتي، ولابدّ لي أن أوزع شرابا واهتمامًا للقطاء الليل هؤلاء. عندما أنتهي من ذلك مع ظهور الفجر، سأذهب للسؤال عنه قبل أن آوي إلى فراش غرفتي. لا يهمّني إن كنت سأزعجه أو أزعجها، فأمر سلامته قد أصبح يهمّني بعد هذه الفترة الطويلة من غيابه غير المتوقع!

كنت بصدد إعداد قدح من السانقريا لأحد الزبائن. كان عقلي يعمل كطاحونة الهواء قلقا على سلامة صديق غربتي الوحيد. فجأة، توقفتْ كلّ خواطري عن الدّوران وكفّت الهواجس عن افتراس قلبي وعقلي. وكأنّ هواجسي اشتمّت عن بعد رائحة حيوان يفوقها ضراوة ووحشيّة. ذلك هو صديقي أشرف، يطلّ بابتسامته الشيطانيّة في الوقت المناسب ليضفي على حياتي طمأنينة.. أو ليقذف فيها خطرًا. ابتسمت في ارتياح حقيقي فور رؤيته وهو ينساب كحيّة الرّمل من تحت خوان البار لينتصب أمامي حاملًا جميع أنفاسه دون أن ينقصه عضو واحد! "الآن كنت أفكّر فيك!" بادرته بعفويّة صادقة إثر عناق رجوليّ خشن وسريع. إذن لم تهشّم كلارا رأسه،

ولم تقتله إلاّ حبّا. هكذا أخبرني ذلك المساء وهو يشعل السيجارة بالسيجارة. وعاد سانتو إلى التجوّل الدّائم بين الطاولات، وكنت على يقين من أنّه كان يتمنّى لنا الفناء العاجل!

-٧-

تشابهت الأيّام في تعاقبها الرتيب. وعاودت كلارا نوبة جنون ثانية.. تلتها نوبات أخرى. أخذ سلوكها المضطرب في تعكير مزاج رفيقي المدلل مع كلّ طلّة فجر. بمرور الوقت، بدأ عقلها المشوش يتأرجح في كلّ الاتجاهات، مختلقا كل أنواع القصص المأساويّة المفعمة بالغيرة القاتلة. أفكار قاتمة ومعتوهة، سببها الرئيسي هو تعلّقها المَرَضِيّ به. خيالاتٌ وهواجس كانت تولد في رأسها مع خروج ذلك المسكين إلى العمل. تنقلب مع مرور ساعات الليل الموحشة إلى حقائق ملموسة وأدلّة قاطعة على تصرّفاته المريبة وخيانته المشينة. والمضحك في الأمر أن ذلك المسكين لم يخنها قطّ. لم يخنها لأنّه لم يضاجع امرأة غيرها في تلك الفترة. والسبب الفعلي لذلك لم يكن وفاء لها أو خشية منها، وكذلك لم يكن حرصا منه على سلامة مصالحنا المهنيّة معها. السّبب كان جسديّا بحتا. مصدره استنفاد تعب العمل الليلي لصحّته وقوّته بحيث جعل الجنس واشتهاء الأنثى أمرا ثانويا مقارنة بحاجته الماسّة إلى الراحة والنوم العميق. كان أشرف حريصا طوال تلك الفترة على تحصيل أكبر مبلغ ممكن من المال لغاية لم أدرك كنهها إلا فيما بعد. ولهذا فإنه كان يستوفي كلّ طاقات جسمه

في إرضاء زبائن الحانة ليستلّ من جيوبهم أكبر عدد ممكن من وريقات النقد. ولنفس السبب الغامض، لم يكن يحبّ إنفاق تلك الأوراق الثمينة على مومسات المدينة.

لكلّ تلك الأسباب لم يكن أشرف يتعاطى غير جسد كلارا المقتول بالأدوية. ولكلّ تلك الدوافع كانت براءته من خيانتها أكيدة وحتميّة. كان ذلك هو الواقع، وكانت تلك هي الحقيقة. ولكن واقع كلارا كان مستمَدّا من أحداث غير أحداث هذا العالم. عالم غريب وغامض. أبطاله نساء كثيرات. يعاشرهنّ أشرف في فترة غيابه الليليّ عنها. يستمتعن بكلّ ما هو ملك لها من أعضاء جسده. غرف حبّ.. وأضواء حمراء. تأوّهات مكتومة.. وأخرى صارخة. ملابس داخليّة وخارجيّة منثورة في كلّ مكان، وأوضاع جنسيّة مختلفة يبتسم لها أشرف بحسّ لذة حقيقيّة. في خضمّ هذه الخيالات المجنونة، كانت هناك عاهرات ينظرن إلى كلارا بشماتة وقحة وهنّ يهمسن بأصوات مبحوحة: "هكذا يؤخذ الرجل أيتها الجاهلة بقوانين الحبّ!". كلّ هذه الخيالات الرهيبة كانت تخرج من رأس كلارا المعذّب لتنتصب أمام عينيها وقائع إدانة فعليّة. وثائق تستوجب محاكمة ذلك المسكين وهو يعود إلى غرفتها مكدودا مع أوّل خيوط الفجر!

وبدأ الحزن يكتسح صوت أشرف وهو يحدّثني عن معاناته اليوميّة مع رفيقته المريضة. أخبرني عن اتهامها له بالخيانة والغدر، وعن ذكرها لأسماء أماكن لم يسمع عنها من قبل ضاجع فيها نساءً لم ير وجوههن قطّ. حدّثني عن تمالكه لأعصابه وعن فقده لأعصابه. وحدّثني عن صراخه في وجهها وعن كفكفته لدموعها. ثمّ حدّثني عن مناورات حبّ متعبة

كان يتخذها جواز سفر وقتيا يتسرّب بواسطته إلى راحة سريره. راحة في انتظار موعد نوبة مرضيّة جديدة. ثمّ انفجر حانقا ذات ليلة ونحن في طريقنا إلى البيت:

- لم أعد أستطيع التحمّل! ولا أريد أن أمضي ما بقي من عمري في السجن من أجل لحظة تهوّر قد تدفع بي إلى دفن آخر أنفاس تلك العجوز المعتوهة تحت أصابع يديّ. ولن أرحمها! أقسم أنني لن أرحمها! اسمعني جيّدا، ليس لنا بقاء في هذا البلد. كم مرّة سمعنا من مختلف الأشخاص أن التحصّل على أوراق عمل قانونيّة في إسبانيا صعب، بل يكاد يكون مستحيلا بالنسبة للاجئين مثلنا. نحن إذن نعمل كالبهائم كلّ يوم من أجل الأكل والشرب فحسب. بل إنّ شغلنا مهدّد بالزوال في أي لحظة قد يخطر فيها لشرطة الهجرة اقتحام الحان في دوريّة تفقد عاديّة. لا، وألف لا... بل مليون لا! لن أسمح لشبح إيطاليا أن يطاردني من جديد... لن أسمح!

أجيبه بهدوء: لا أفهم ما تقصد؟

يواصل كلامه وكأنّه لم يسمع حرفا ممّا قلته:

- سمعتُ من أحد زبائن الحان أنّ "كندا" سهلة العيش، وفرص التحصّل على أوراق الهجرة فيها متوافرة بكثرة. فلم لا نجرّب حظنا هناك..هه... لم لا؟! لم لا نلتمس منه المساعدة على مغادرة بلاد النحس هذه.. لم لا؟!

لم أكد أتهيّا لإجابته، حتى ألقى في وجهي قرارا لم تشُبْهُ أي نبرة تردّد:

- سنرحل من هنا. فلتذهب كلارا.. بل أوروبّا كلّها إلى الجحيم.

لم أعَقّب على كلامه بحرف، ولم أعر سخطه أيّ اهتمام. اعتبرتُ عزمه على الرحيل مرحلة هذيان طارئة سببها انتهاؤه لعالم كلارا الغريب. ذلك الذي اختلط فيه الخيال بالخيال إلى حدّ الحقيقة: "أيّ كندا.. وأيّ سفر.. وكيف؟ من المؤكّد أن استفزازها له قد حمّل عقله ما لا يطيق هذه المرّة! أراهن أنّه لم ينم ليلة البارحة. بل إنّه لم ينم منذ أيّام عديدة. ذلك هو مصير كلّ من ركب امرأة مجنونة! المسكين يريد أن يتنفّس بقول أيّ شيء. يحلم بالهرب إلى أقصى أقاصي الدنيا وينسى أنّ نهاية حلمه ستكون على صوت ارتطام رأسه بوسادة كلارا. لا بأس، فالخيال جميل لنسيان الهموم، ولن أعكّر صفو خياله الليلة. لن أضايقه..ولن أنفجر في وجهه هازئا من تخاريفه الليليّة. فقط سأناوله هذه السيجارة الإسبانية وسأشعلها له بصمت.

سأشعل واحدة مثلها لنفسي وسأبتسم له بحنان رفيق متفهّم لمعاناة رفيقه. لن يعلم أنني لن أقبل تدخين سيجارة كهذه إلاّ هنا: في البلد الذي لفّت فيه، اليوم.. وغدًا.. وبعد غد، إلى أن تشاء لي السماء بأن أرى أمّي ثانية خلال زيارة غير نهائيّة إلى الوطن! لست متأكدا أين تقع هذه الـ"كندا". كنت أظنّ أنها بجوار السويد. وها هو أشرف يتمتم بكلام عن قربها من أمريكا، أو ربّما عن وجودها في أمريكا. المياه والأراضي مختلطة في رأسي، ولا يهمّني أين توجد هذه المدينة لأنني أرفض أن أكون معه حتى في سفره الخياليّ إليها. إن كان الأمر يفرض أن أصحبه إلى مكان ما في غمرة قتال الليل مع هذا الفجر الوقح، فسيكون إلى ملهى Espedano وعارياته الجميلات! من المؤكّد أنّهن قد بدأن الآن -وبتكاسل فاضح- في عرض ما تبقّى من أجسادهنّ القمحيّة الرّائعة على عيون وأياد لا تشبع! الفجر

يغمزني بإغراء شيطانيّ، وكأنّ بيني وبينه موعدٌ يوميٌّ لإغضاب السّماء وإغضاب أمّي. ثمّ.. ثمّ..لإغضاب من كذلك؟! ماذا؟ عمّ كنتُ أتحدّث؟!! آه نعم، عن سيقان مرمريّة ترتفع في كلّ الاتجاهات، وعن نهود تتلألأ حلماتها أمام عينيّ كنجوم صيفيّة في سماء برشلونة. تلامس وجهي في آليّة واضحة ثمّ تبتعد في خبث قاتل! أقرب شيء لماء البحر هي تلك الأشياء المكوّرة الملساء كالرّخام. لا تسقيك إلاّ عطشا على عطش! ذلك ما كنت أقوله دائما وأنا أغادر الـEspedano فارغ الجيوب وفي رأسي منظر واحد: خيال امرأة تضاريس جسمها تجمع بين كلّ ما شاهدت في ليلتي من نساء. أظنّ أنّ الآلهة تصنع نساء مثلهنّ خصيصا لإغاظة كلّ الرّجال، أيُعقل ذلك؟ ذلك خيال امرأة لا يفارقني إلاّ بعد أن يخرج من جسدي رمادا ساخنا أستنشقه بين جدران حمّام غرفتي وخجلي الخفيّ من نفسي. لهذا السبب كنت أفضّل عاهرات الماخور لأنّهن من لحم ودم، ولأنّهن أرخص ثمنا وأقل تعبا. معهنّ يُبسَطُ كلّ شيء أمامك، ولا داعي لأن تتعب خيالك لاستحضار لذة سريعة في خلوة غرفتك! ولكنّ نساء الماخور بشعات. والليلة أريد أن أرى أجسادا أنثويّة تستأهل أن أبعثر على أقدامها أجر أسبوع بأكمله.

أمسكتُ بذراع أشرف اليسرى في دعوة مفاجئة للتمّهل في السّير. نظرتُ إليه مبتسما وهمستُ: "ما رأيك في ليلة تقتنع خلالها بأن كلارا ليست من صنف النساء؟! ليلة لن تنساها. زد على ذلك أنك لن تدفع في قضائها سنتيما واحدا! أنا الذي سيدفع، وأنت الذي سيشكرني بعد بضع ساعات!".

- ٨ -

... واكتنفتنا موسيقى إبليسيّة الأنغام وأضواء ملوّنة تضطرب كوميض البرق على الوجوه الجامدة في تعبّد. لكلّ رجل منهم قصّة وراء وجوده في مغارة الليل هذه. بعض القصص سخيفة، بعضها مضحكة.. وأغلبها حزينة. منهم المتزوج الذي كفر برائحة جسد زوجته، ومنهم من هجرته حبيبته فلجأ إلى هنا لينتقم لنفسه، ومنهم من في حالة بحث يوميّ عن امرأة خياليّة يملأ بها وحدة غرفته. ومن كذلك؟ آه طبعا: البدين والأجرب والأشوه وذو العاهة.. وكلّ من لم يجد سبيلا إلى الاقتراب من امرأة عاريا كان أم كاسيا!

الجنس كائن عنصريّ بطبعه. ينتقي رجالا ويترك آخرين على حافة الرصيف، مهملين وكأنهم لا ينتمون إلى صنف البشر. الحكم بالحرمان الأبدي على هؤلاء ليس له علاج أو وصفة. فقط متنفّس وقتيّ يُشترى بأوراق مال كثيرة في مثل هذا المحلّ الليليّ. أوراق أراها تندفع كالسّيول بين مرتفعات ومنحدرات أجساد رخاميّة لحوريّات رائحتهنّ كالسّراب!

كانت صالة الملهى تشبه حلما شديد الإغراء. إن صحوتَ منه، تمتلكك رغبة صارخة في العودة إليه من جديد. الأرض سجّاد بنعومة

ريش الطواويس. المقاعد مخمليّة ووثيرة يغلب عليها اللّون البنفسجيّ الدّاكن. أمّا رائحة "السيجار"، فتقتلك شوقا إلى كأس "ويسكي" من النّوع الفاخر، تنتعش على رائحته حواسّك فتجعل رياح العطور النسائيّة التي تهبّ عليك من كلّ صوب أكثر استفزازًا وإثارة! كان الرُّكْحُ يتوسّط القاعة في موقع مدروس بعناية، يسمح لكلّ الجالسين برؤية كلّ زواياه والتمتّع بالرّاقصة التي تتعرّى على صهوته كفارسة "روديو". يعلن المتكلّم الذي لا ترى وجهه اسمها المستعار على صوت مطلع أغنية جديدة، وتصعد هي ملتحفة برداء طويل حالم يتماوج مع بداية نغم مثير. ترشق جميع العيون الظّمأى بنظرة إغراء محترفة، وتبدأ في التحرّك عبر أرجاء الفضاء ببطء ودلال قاتلين. تتخبّط الدماء في العروق الملتهبة، ويقف الشعر على كلّ مسامّ البدن صامدا أمام شلال العرق الجارف. تلتمع العيون مشدوهة في تحرّق عصبيّ لما وراء الرّداء، وتنتصب أشياء أخرى! تلك الأشياء المتسبّبة في وجود كلّ رجل من هؤلاء في مكان كهذا. بل هي الأشياء المتسبّبة في وجود المكان نفسه، كائن ينبض بالحياة وبالمال! هل لا حياة إلاّ على حساب عذاب الآخرين؟ وهل نتعذب نحن تحت مخالب غريزة الجنس؟ أم أنّ هذه الغريزة بالذات هي الدّافع الأصليّ لوجودنا. هي الدّافع وراء كلّ ما نفعله في الحياة؟ أسئلة غبيّة، لا يهمّني إن كانت لها إجابات أم لا. ما يعنيني فقط هو إطفاء لهيب الرّغبة كلّما اجتاحتني كقدر محتوم. ألبّي نداءها الخفيّ دون نقاش ودون تفكير. تلك هي حلاوة اللّذة. لا تفكير فيها ولا جدال. فقط فراغ رائع ومذهل وقصير المدّة إلى درجة البخل الشنيع!

تتصاعَد الأغنية في هيجان ثعبانيّ وتبلغ ذروتها. وفي لحظة خاطفة كلمعة سيف، يرتفع الرّداء في الهواء كغيمة عنيدة ويسقط طريح الأرض.

يتحوّل إلى بركة ماء على خشبة المسرح الأرجوانيّة. ينبثق من وراء كلّ هذا الغليان جسد أنثوي رائع تخرّ له كلّ العيون ساجدة في استسلام وتتوقّف كلّ الحلوق عن البلع! وضعتُ كأسي على الطاولة دون النظر إلى موقعي منها، ونفضت دخان سيجارتي على الأرض رغم وجود منفضة أمامي. استرخيتُ على مقعدي ورمقتُ أشرف بنظرة جانبيّة أدركتُ بها أنّه يحلّق في عالم مسحور مثلي. عدتُ إلى ذلك الجسد الخرافي أتجوّل بعينيّ في أرجائه كمن يرتع في غابة نشوة. لا أظنّ أنّ امرأة بهذا الكمال تقبل أن تعاشرني في حلم أو في يقظة! ولكنّ ذلك لا يهمّني، فأنا الآن أصنع حلمي معها رغما عنها. على المسرح تصبح هي عشيقة لكلّ واحد من طيور اللّيل هؤلاء، وأنا طائر اللّيل والفجر معًا! إذن، فهي لي الآن بمفردي. فلتتجوّل على الخشبة عارية كما يحلو لها. ولتتحسّس كلّ الأماكن المحظورة من جسدها كما لم تفعل امرأة من قبل. لتتمدد على ظهرها فتنشقّ أمامي كلّ البحار التي لن أغوص فيها ولن أذوق طعم ملحها. لتفعل كلّ ذلك! لتدّعي بأنني لست أهلا لعصر نهديها بفمي ولقطف حلمتيهما بأسناني كزهرتي خريف دافئ! ليكن لها ما تشاء! ولكنّها تظلّ عاهرة، ترتزق من شهوتي ومن شهوة كلّ من يعبّئ هذه الصالة يوميًا من غروب الشمس إلى مطلعها!

-٩-

فتحتُ عينيّ بصعوبة ونظرتُ إلى الساعة بجانبي. كانت تشير إلى الثانية بعد الظّهر. شعرتُ بأنني لستُ وحدي على السّرير. أدرتُ ظهري نصف دورة في استطلاع متكاسل. تبيّن لي وجه أشرف تغطّيه مسحة سلام خفيفة. بدتْ لي ملامحه متناسقة مع غرفتي ومع ستائرها التي لم تعرف الشمس قطّ. كان يتنفّس من صدره بقوّة. تخرج من أنفه العريض أصوات تشبه الشّخير ولكنّها كانت أقرب إلى التنّهد المتواصل. عيناه مغمضتان في تشقّق ضئيل تتبيّن بين ثناياه لونا أبيض ولا ترى حدقة. كان مغرقا في نوم لذيذ. بعيدا عن كلّ مشاكل الحياة، منفصلا عن الزمان والمكان. تفحّصتُ في قسمات وجهه مليّا وشعرتُ باطمئنان داخليّ غريب. شعرتُ بأنّ مكانه يجب أن يكون هنا، وبأنّه الجزء المفقود من عالم غرفتي الذي أعود إلى صمته كلّ فجر. عالم بارد ورتيب. يسمع ولا يجيب، يأخذ ولا يعطي. غمرني كُرْهٌ عارم لكلارا ثم أحسستُ بأنني أشبهها كتوأم. استدرتُ في تثاقل بكلّ جسدي. جعلتُ وجهي موازيا لوجهه المستسلم للنّوم في هدوء. ابتسمتُ في كسل صباحيّ، واحتواني اطمئنان طفوليّ أعادني إلى الحصير الأصفر الذي كانت أمّي تفرشه لنا للقيلولة ونحن صغار.

لفحتني أنفاسه وهي تهتزّ في إيقاع منتظم حملني برفق إلى شبه غفوة.

تماوجت الألوان واختلطت الأصوات. فجأة، رأيت أشرف يرتع وحيدا في القرية ويقوم بكلّ الأعمال. كان هو المزارع والشرطيّ، وكان ساعي البريد وقائد الشاحنة. كان عمود النّور والبئر. لم يكن هناك إنسيّ يساعده، وبدا المكان خاليا من الدّوابّ والحيوانات. شعرتُ بأنّني كنت أرافقه من بعيد إلى ذلك العالم المهجور. كنت أحلّق فوق رأسه ربّما؟ لا أدري. كلّ ما أعرفه هو أننيّ كنت معه، رغم أنّني لم أكن قادرا على محادثته مهما رفعتُ صوتي. كان من الواضح أنّه لا يراني ولا يسمعني. علامات التعب والسأم كانت بادية على قسماته رغم أنّ ابتسامته المعهودة لم تزل مرسومة على وجهه. الفرق أنّها كانت ابتسامة جامدة، باردة. ابتسامة محنّطة بين وجنتيه كانفراج شفتيْ رجل فاجأه الموت في لحظة نشوة!

ثمّ رأيته يجرّ عربة عمّي خليفة بائع الحليب، بدل الحصان المريض. لم أستغرب ذلك بقدر ما استغربت غياب عمّي خليفة عن ظهر العربة. ربّما رحل مع الّذين رحلوا! أو ربّما فضّل الموت على الرّحيل! اقتربت لأتبيّن الشخص الذي يقود العربة. دعني أقترب قليلا. أسمع فرقعة سوطه الجلديّ على ظهر أشرف فيقشعرّ جسدي من زوبعة الأصوات. هل هذا حلم؟! كلاّ، الأصوات واضحة وجليّة.. وها هي خيوط الدّماء تسيل ببطء على ظهر صاحبي دون أن تبدو على وجهه أي آثار تدلّ على الألم. قطعا هذا ليس حلما بل هي حقيقة واضحة وجليّة. دعني أقترب أكثر لأتملّى من ملامح هذا الوحش مصّاص الدّماء. صرختُ بصوت مشروخ: "توقّف يا هذا.. توقّف! أرجوك أن تتمعّن جيّدا فيمن تَجْلِدْ. ألا ترى أنّه يمشي على اثنين وليس أربع؟! ألا ترى الآن أنّه قد بدأ في

التأوّه من الألم وأنّه لا يصهل؟! ألا ترى ألاّ ذيل له وأنّ وجهه مشوّه بمرض آدميّ؟!". أخذتُ في الاقتراب أكثر فأكثر، وأخذتْ الرّؤيا تتضح في صورة لا شكّ فيها. كان الرجل "ماتادورا" إسبانيا كنتُ قد رأيتُ وجهه على الصفحة الرئيسيّة لإحدى الصّحف مؤخّرا. أظنّه قد قُتِلَ بعد أن طعنه ثور جامح في بطنه فبعثر مصارينه على الحلبة! إنّه فعلا ذلك المصارع الذي أراه الآن بصدد تعذيب رفيق دربي الذي لم ينفكّ لسانه عن اللّهج بكلّ عبارات الامتنان إثر كلّ ضربة سوط! صرختُ بكلّ قواي وأنا أركض تجاه ذلك المشهد البشع: "أتشكره يا أشرف؟ هل جننت أم أصاب عقلك مسّ من الشيطان؟! أتشكره وهو يريد قتلك! دعني أفكّ قيدك يا صاحبي. دعني أخلّصك من هذا العذاب الأليم!". ولم أكد أضع يديّ على اللّجام لأفكّه حتى نظر إليّ أشرف في إصرار وتحدّ ثمّ صرخ بفم يقطر دما: "ابتعد عنّي أيّها الغبيّ، لماذا تريد أن تحرّرني من لجام الرّحمة! اغرب عن وجهي وَعُدْ عندما تعرف ما ستفعل بي بعد أن تعتقني!". تفحّصتُ وجهه في رعب شديد وأطلقت صرخة لم تتجاوز النصف الأسفل من صدري. لم يكن صوته المشروخ سوى صوتي، ولم يكن وجهه الدّامي سوى وجهي!

انفجرتْ صرخة ثانية من أغوار صدري. هذه المرّة، كانت قادرة على اختراقه إلى فضاء الغرفة المظلم. انتفض أشرف كمن أصابته صاعقة كهرباء وأشعل نور الأباجورة الصّغيرة بحركة ميكانيكيّة سريعة:

- بسم اللهّ الرّحمن الّرحيم... ما بك يا صديقي؟

- اللّعنة. أظنني كنت أحلم. رؤيا سخيفة ورهيبة! قبّح اللهّ الخمر، تملأ رأسك نشوة في اللّيل ثم تتخذه مصبّا للمزابل عند طلوع النّهار!

- معك حق. ناولني سيجارة.

- سيجارة؟ قبل الفطور؟ ألا تنتظر لنشرب قهوة معا؟

- فيما بعد.. ربّما. أمّا الآن فناولني سيجارة... آه، رأسي يؤلمني!

مددتُ يدي إلى الأرض. أمسكتُ بعلبة السّجائر والقدّاحة ورميتُ بهما على صدره الممدّد. أشعل واحدة وارتفع بنصفه الأعلى متخذا وسادته فاصلا بين ظهره والحائط. رفع رأسه عاليا ونظر إلى السقف في شرود فاتر. أخرج دوائر دخان من فمه وظلّ يتابع تحلّلها في الهواء بسذاجة طفل صغير. انطلقت من فمه سعلتان ثقيلتان سمعت لهما خشخشة سوائل متعفّنة في صدره. بلع ريقه بكلّ ما أخرجتْ رئتاه من وسخ وقال بصوت مبحوح لم يزل النعاس يشوب نبراته: ليلة أمس... الـ Espedano... مذهل! لم أر حريما في حياتي بهذا الجمال! من أين يأتون بهنّ؟ شيء لا يصدّق!

- ألم أقل لك إنّك ستنسى اسمك عندما تدخل ذلك المكان!

- من دلّك عليه؟ أم أنّك اكتشفته مصادفة؟

- "أناتوليا" المومس. المومسات يا صديقي يعرفن كلّ شيء ويتعاملن مع كلّ الأشكال. إن أردت أن تعرف أيّ شيء عن المدينة: مطعما، حانة، حلاّقا أو حتى كنيسة، فهنّ خير دليل. قد ننسى أحيانا، أو ربّما تنسينا صفقة الجنس السّريعة التي نبرمها معهنّ أنّهنّ يستقبلن الحرفاء من كلّ أنحاء برشلونة.. بل من كلّ أنحاء إسبانيا. ينمن مع كلّ أصناف الرّجال، وفي بعض الأحيان مع النّساء أيضا.

- النّساء؟ هل يُعقل هذا؟!

- والمتزوّجات أيضا! للشهوة أسرار خفيّة يا عزيزي. لو علمت ما يختبئ في رأس كلّ شخص تقابله لتصدّعت عظامك روعًا..أو ربّما قرفا .... ها ها ها!

- اللّعنة على صنف النّساء!

- أخبرتني أناتوليا وأنا أنتهي منها ذات ليلة، أنّ الكثير من الرّجال الّذين يتعاطونها متزوّجون بنساء في قمّة الجمال. هم يأتونها طلبا لتغيير مذاق الجسد لا غير! الجمال يتحوّل إلى قبح إن امتلكته يا صديقي، وللأجساد الممنوعة -مهما بلغت بشاعتها- إثارة من نوع خاصّ! أناتوليا مثلا ليست جميلة، بل هي أقرب إلى الضخامة والترهّل من أيّ امرأة أعرفها، ولكن لها ميزة عن باقي العاهرات. تحبّ أن تتحدّث طويلا بعد العمليّة.. وتحبّ أن تسمع! كلّ ما يحتاجه رجل من امرأة أحيانا: أذنان وابتسامة! أناتوليا عاهرة خاصة جدّا. لديها حبّ استطلاع كطفلة في الخامسة عشرة. لكنّها في الخامسة والأربعين، وزوجها الدنيء اختطف ابنتها الوحيدة قبل أن يرحل إلى مكان مجهول. كانت عيناها تشتعلان كقنديلي زيت عندما كانت تسألني عن حياتي وعن الظروف التي قذفتْ بي إلى فراشها. لم أر وجها بذلك التوهّج وتلك اللهفة إلاّ وهي تتبادل معي الحديث! عندما أمتطيها، تتحوّل عيناها إلى عدستين ثابتتين كعيني دمية من الشمع. وبعد أن أطلق صرخة الخلاص من سوائلي الداخليّة، تعود الرّوح إليها لترتمي معي في أحضان أحاديث عابرة. أحاديث فيها الكثير من رائحة "البلاد" وكذلك الكثير من روائح أخبار ابنتها الضائعة التي بلغت الخامسة من العمر منذ تسعة عشر عاما! لم تفقد هي الأمل في الاهتداء إلى مكانها، ولم تتوقف عن شراء الهدايا لها عند حلول ذكرى ميلادها كلّ عام!

يجيب أشرف بصوت مبحوح لم يتخلّص بعد من آثار النّعاس:

- أمومس هي أم عشيقة لك؟

- مومس طبعا! وأنا أحتقر ما تفعله.. بل أمقته! ولكن أحيانا، عندما أجد نفسي ضجرا إلى حدّ الاختناق، أتجه ناحية الماخور القديم وأطلبها. كثيرا ما كنت أجلس طويلا في انتظار أن تفرغ من زبائنها. أفضّل الانتظار على أن أدخل غرفة أخرى فيها امرأة شاغرة لا أعرفها!

- هل يُعقل هذا؟ تدفع المال من أجل رؤية نفس الجسد مرّات ومرّات؟!

- لا أدري... ربّما.. لا أعرف! كنتُ أشعر بدفء في وجودي معها، وكانت تداعبني كطفل لا ملجأ له. قالت لي ذات مرّة، في مزحة ذات معنى: "إن استمررت في انتظاري عند الباب في كلّ زيارة.. سأقع في حبّك!". غيّرتُ وجهة الحديث بسرعة وسألتها إن كانت تعرف مكانا يمكن لي أن أشاهد فيه نساء عاريات من الصنف الفاخر! تلبّدتْ ملامحها بغيوم من الضّيق المفاجئ، وقالت: "كلّ النساء فاخرات يا عزيزي. أنت فقط محتاج لأن تكبر أكثر لتدرك ذلك!". بعد ذلك، لبستْ قميصها الخفيف ولبستُ ثيابي. عند خروجي، قبّلتني على وجنتي وأخبرتني عن الـEspedano. ومنذ ذلك اليوم، أقلعتُ عن انتظارها، وعدت إلى الصفقات الباردة مع ساكنات الغرف المجاورة.

نهضتُ بتثاقل، وقبل أن أغسل وجهي.. وضعتُ قهوة تغلي على السخّان البدائي:

- سآخذ دشّا ساخنا... انتبه للقهوة!

تركته يدخّن سيجارته الثالثة في نفس وضعه الامتداديّ ودخلتُ الحمّام آملا أن يأتيني الماء السّاخن عبر الأنابيب. دخلتُ عاريا تحت قطعة الحديد الصّدئة وأدرتُ مقبضين أحدهما أحمر والآخر أزرق. من الثقوب الصغيرة اندفعتْ مياه باردة وخزتني كالإبر في كلّ مكان. لعنتُ السّماء وارتجفتُ كجروٍ لقيط. تكيّفتُ مع برودة الماء بعد لحظات، وبدأتُ في فرْك أعضائي وأنا أعطس من حين لآخر. أقفلتُ المقبض الأحمر. لم تعد لي حاجة به: "الماء السّاخن لن يأتي اليوم.. فهو يأتي مرّة كلّ شهرين... يظنّ أنّه يغيظني بذلك.. ولا يعلم أنّ جلدي تعوّد معانقة الكائنات الباردة!". أغلقتُ المقبض الأزرق فتوقف المطر البارد. ظللتُ أرتجف إلى أن لففتُ المنشفة البالية حول جسدي. تذكّرتُ الفوطة ذات الخطوط الخضراء التي كانت أمّي تلفّها حولي وأنا صغير أقطر ماءً. كانت تسخّن الماء على الوابور لكي نستحمّ في الشتاء. كنّا نفعل ذلك في المطبخ.. وكانت حيطانه دافئة. تذكرتُ عندما كانت تحملني وأنا ملفوف في تلك الفوطة إلى الغرفة المجاورة. كانت تلبسني ثيابي وتقبّلني قبلة "حمّام الشفاء" وهي تغنّي أغنية من أغاني الأفراح. دفعتُ باب الحمّام لأستطلع أخبار القهوة. كانت أخبارها لا تسرّ. فارت وانسكب نصفها على السخّان. احترق ما بقي منها في قاع "الجزوة" الحديديّة وتصاعدتْ منها رائحة فحميّة. أطفأتُ اللّهيب الأزرق الذي كان يشتعل على الكانون والتفتّ حولي بحنق:

- ألم أوصيك أنت تنتبه إلى...!!

وجدتُ نفسي أخاطب فراشا منفوش الأغطية، عليه منفضة نحاسيّة وعلبة سجائر مفتوحة. لم تكن هناك أنفاس بشرية في الغرفة سوى أنفاسي،

وصفعني الصّمت بقفا يده اليسرى كما كان يفعل بي سيّدي في مدرسة القرية. بللتُ خرقة ماء في الحوض ومسحتُ آثار الحريق. عصرتُها فنزلت منها سوائل بنيّة تشبه الدّم الفاسد. تمنّيتُ أن يعصرني أحد بنفس الطريقة لتخرج منّي نفس الموادّ المحترقة فتصبح الرّؤيا أكثر وضوحًا.

وضعتُ قهوة ثانية تتدفّأ على نار هادئة، وجلستُ على الكرسيّ القديم أنتظر فورانها. أشعلتُ سيجارة وأنا أنظر إلى البخار المتصاعد بهدوء من فوق إناء المعدن. كانت ربّما أوّل سيجارة أدخّنها قبل الأكل في حياتي. يقولون إنّ التدخين قبل تناول الفطور أكثر مضرّة. حمير وأغبياء! التدخين قاتل في كلّ وقت وفي كلّ زمان ومكان. أدركتُ وأنا أتجرّع مرارة قهوتي، في نفس الفنجان الأبيض العتيق.. وفي نفس الغابة الكثيفة من الصّمت.. تماما مثل عصر كلّ يوم، أنّ للتدخين أخا توأمًا اسمه الوحدة. ارتسمتْ على وجهي ابتسامة ساخرة وشعرت بعجز دفين يتخبّط بداخلي. انتفضتُ من مكاني قائلا لنفسي في تكبّر يائس: "الجبان صعد بسرعة خوفا من كلارا، سأرمي بهاتين الكلمتين في وجهه عندما أقابله في الحان بعد ساعتين. سيهزّ بكتفيه كالعادة وسينكر. ولكنّني أعلم بأنّ ذلك سيؤلمه كثيرا.. وهذا وحده كفيل بأن يطفئ النّار المتأججّة بداخلي!".. بقيتْ ساعة ونصف على موعد الشغل.. ماذا أفعل الآن؟ لا أريد أن أبقى هنا. جوّ الغرفة خانق وممتلئ برائحة النّوم والملل. أحتاج لأن أشمّ قليلا من الهواء! خرجتُ شبه راكض. تعمّدتُ ألاّ أنظر إلى فوق... إلى باب كلارا. من الأكيد أنّه الآن أمام محاكمة صعبة! كم سيسرّني سماع شكواه هذه اللّيلة!

-١٠-

لمست وجهي خيوط حريريّة لشمسٍ تستعدّ بتأنّ حكيم للغوص في أفق الغروب. أيام معدودات ويعود الرّبيع إلى برشلونة. كلّ عام مع رحيل الشتاء يغمرني شعور غامض بأنّ الطبيعة تحتفل بالشفاء من أزمة موجعة.. وبأنّها تنتصر من جديد على الزوابع والأعاصير... وبأنّها تحمل لي أخبارا سارّة... وبأنّ أشياء بداخلي ستتغيّر. إحساس غامض وخاطئ يفرض نفسه عليّ كلّ عام. إحساس لم أبذل جهدا في مقاومته قطّ. أتركه يداعب حواسّ الأمل في قلبي لمدّة وجيزة، أتلذذ خلالها بطعمه قبل أن يذوب في الهواء كأغنية قادمة من بعيد.. ذاهبة إلى البعيد! الرّبيع والصّيف -فصول الفرح التي تأتي جديدة كلّ عام ثمّ تصبح قديمة بعد فترة- لا يمكن لها أن تغيّر ما بنفسي! حزني على أمّي، مقتي لوالدي، خوفي من سيّد المدرسة... ووحدتي! وحدتي في القرية وبين سكّانها. ووحدتي على سطوح المنازل. ووحدتي هنا! هل يمكن لبضعة فصول أن تخمد سيلان أنهار بركانيّة كهذه؟ لا أظن! ما يلفظه البركان من حمم لا يمكن أن يعود إلى جوف الأرض. وما تفعله الحياة بالإنسان لا يمكن أن يعود إلى هوّة النسيان. السوائل الحمراء الحارقة التي تسيل على أغشية قلوبنا تحتاج إلى أزمنة

ودهور طويلة كي تبرد وتتحجّر. وعندما يحدث ذلك، تتبعثر الأحجار على دروبنا فنصطدم بها ونتعثّر. تدمي أقدامنا وجباهنا. نصرخ.. ولا يسمع صراخنا أحد!

تذكّرتُ أمّي فجأة! تملّكتني رعشة خفيفة وإحساس بقوّة خفيّة تدفعني إلى الأمام كسيل جارف. قرّرتُ أن أمشي على صخوري. كنت أعرف أنني لن أقدر على تحطيمها، لن أقدر على تفتيتها ونثرها في الجوّ كالغبار الأحمر. كنت أعرف ذلك! ولكنني صمّمت أن أدوس عليها! لابدّ أن تدمى قدميّ لكي أنجح في رحلتي هذه. لن تضيع دموع أمّي هباء ولا بدّ أن أعود يوما إلى قبر "سي الهادي" لأهمس لحجره الأبيض: "انظر كيف أصبحتُ بدونك!!".

الحانة لا تبعد كثيرا عن البيت. تباطأتُ في المشي لأقتل الوقت. كان الوقت يقتلني ببطء أكثر. وقفتُ أمام بائع الكتب فاشتريت قلما وبضع أوراق. منظر كتب لا أستطيع فهمها كان يوجعني دائما. لطالما تمنّيت أن أكمل تعليمي وأصبح ضابط شرطة. وهأنذا في بلاد غريبة أحاول أن أمشي جنب الحائط حتى لا تلاحظ الشرطة أنّني بلا هويّة. دخلتُ مقهى "التريفلو" لأشرب "إسبريسّو"، فأنا أعشق ذلك الطّعم المركّز للقهوة في هذه السّاعة من اليوم. جلستُ في زاويتي المعتادة. لم يكن هناك سوى زبون واحد يجلس في الزاوية المقابلة صامتا، ينظر بشرود من النّافذة. إحساس دفين ما أوحى لي بأنّه لم يكلّم أحدا منذ أيّام. عندما يكون الإنسان وحيدا، لا يجرؤ على النّظر إلى عيون النّاس في المقاهي. يتصنّع الشرود أو قراءة المجلاّت.. أو ربّما كتابة الرّسائل. نريد أنّ نوهم النّاس بأنّنا مشغولون دوما وبالتّالي نحن سعداء. يفوتنا بأنّهم لا يهتمّون

في الحقيقة لأيّ شيء نفعله... وأننّا في الواقع لا نخادع إلاّ سعادتنا.

"أرماند" صاحب المقهى، وهو النّادل الوحيد فيه. في منتصف الأربعينيات، ورأسه فضّي اللّون من الشّيب. إذا تملّيتَ في وجهه لاحظت ضياءً وهدوءًا يملآن قلبك تفاؤلا وطمأنينة. قويّ البنية، وعضلات ساعديه بارزة كمصارع رومانيّ. على ساعده الأيمن وشم لصورة امرأة منكسرة الملامح، قد تكون حبيبته أو أمّه. لم أسأله قطّ من تكون تلك السّيدة الحزينة المنحوتة ملامحها على جلده رغم أنّني أعرفه منذ زمن وصولي إلى هذه المنطقة. كان عندي اقتناع دفين بأنّنا نرسم أوجاعنا على جلودنا، ولم تكن لديّ رغبة في إثارة أيّ حزن في قلب هذا الرّجل المريح. كان طيّب القلب بعكس ما توحي به صلابة تكوينه الجسمانيّ. يعشق الحديث عن الصّيد وعن كرة القدم، وكان يعتبر نجوم فريق برشلونة آلهة تمشي على وجه الأرض. ضرب على كتفي بحرارة وسألني عن حالي. تعجّب لغيابي عن المقهى لفترة أسبوعين فطمأنته بطريقة آليّة بأنني بخير وبأنّ مشاغل الحياة قد تمنعنا عن بعض الأمكنة المحبّبة إلى قلوبنا أحيانا. تبادلنا أحاديث سريعة وعفويّة فيها الكثير من حبّ الحياة ومن التفاؤل بحلول الرّبيع. كان يعرف نوع القهوة الّتي أشربها بحكم العادة: فنجان "إسبريسّو" دون سكّر وكأس ماء بها قطع من الثلج المكعّب. انصرف ليعصر القهوة وانفردت أنا بوحدتي مرّة أخرى. لاحظتُ أنّ الرّجل الصّامت في الزّاوية قد شرع في تصفّح مجلّة فأطرقتُ مبتسما وشرعتُ في كتابة رسالة لأمّي. أكملتُ الرّسالة وتجرّعت ما بقي في الفنجان الصّغير بعجل. نسيتُ أنني أحتاج إلى ظرف وطابع بريد! أصبحتُ أنسى كثيرا هذه الأيّام! دفعت لأرماند ثمن القهوة.

شكرته على حُسْن خدمته واعدًا إياه بالعودة في القريب العاجل، وغادرت مسرعا.

كانت الشّمس قد اختفت. حلّت مكانها أضواء مصابيح المساء المغروسة كأشجار اللّؤلؤ على جوانب الطّريق. بدأتْ قطرات المطر تداعب وجهي كحبّات العقيق وأحسستُ بالانتعاش. تحسّستُ جيبي الخلفيّ لأتأكّد أنّ الرّسالة محميّة من البلل، وأسرعتُ الخطى متجّها إلى نفس بائع الكتب. اشتريتُ ظرفا وطابع بريد. أخفيتُ الرّسالة وبعضا من الأوراق الماليّة في المستطيل الأبيض ممرّرا لعابي على شفتيه. أغلقته برفق ودوّنتُ عليه عنوان أمّي وفي قلبي طوفان من الحنين. قذفتُ به في العلبة الحديديّة متمنّيا أن أكون مكانه. كنت أحسد الرّسائل كثيرا لأنّها تسافر حيثما شاءت دون تأشيرات عبور!

اشتدّ المطر فتحوّلتْ خطواتي العجلى إلى ركض سريع. دفعتُ باب الحانة بقوّة من يريد الاحتماء، واندفعتُ إلى الدّاخل. صفعتني رائحة الدّخان والأكل. كنتُ متأخرا عشر دقائق عن موعدي. رشقني خوانيتو بابتسامة مسمومة ونظر إلى ساعته خفية. لعنته في داخلي وأومأتُ له برأسي في تحيّة باردة.

دخلتُ الحجرة الخلفيّة. استبدلتُ قميصي بقميص الشّغل البنفسجيّ. في طريقي، مررتُ بالمطبخ وسلّمتُ على "عيسى" الطبّاخ الصّوماليّ الخفيف الظلّ. تحادثتُ معه قليلا وأخبرني نكتة بلهجته العربيّة الخاصّة. معظم نكته كانت قبيحة المعنى ولكنّها كانت تضحكني دائما. لم يكن المطبخ في حالة هيجان بعد، فاللّيلة كانت في بدايتها ولم يكن في الحان سوى بعض الزبائن. كان الأخ عيسى من فصيلة "تحت الطّاولة" مثلي

أنا وأشرف تماما. وكان ينفرد عنّا بعشقه المفرط للنّساء المكتنزات. قال لي ذات مرّة: "الأوغاد ممن يعيشون تحت الطّاولة، هم في بحث دائم عن النّحيفات أو العجائز لسهولة الزّواج منهّن من أجل تضبيط الأوراق. أمّا أنا، فيلزمني امرأة بخصوبة الأرض. المرأة المكتنزة هي الأنثى، هي التي تملك ما لا يملكه غيرها من النساء!"

- "ربّما تحبّ الجسد المكتنز لأنّك لم تذقه بعد يا عيسى!" رددتُ عليه بسخرية.

- رّبما، لا أدري. لم أفكّر في ذلك قطّ.

- والأوراق؟!

- عندما يحين وقتها، ستأتي دون عناء أو تفكير. المهمّ أنني آكل وأشرب ولا أمدّ يديّ لأحد. أمّا المرأة التي سأتزوّجها في يوم ما، فلن تكون جوفاء.. حتى وإن كلّفني ذلك العيش في حَرِّ هذا المطبخ طوال عمري!

أذكرُ أنّني حسدتُ عيسى على قناعته ذلك اليوم. وأذكر أنّني احترمتُ أنّه ما زال يضع "الحبّ" في أوّل قائمة أسباب وجوده. برز وجه خوانيتو من وراء باب المطبخ صارخا: "صحنان من المحّار المغليّ وصحن بطاطا مقليّة، هيا فلنتحرّك!". كان ذلك أسلوبه السّاذج في إعلامنا بأن الحديث في المطبخ قد انتهى، وبأنّ عيسى مزروع في تلك الغرفة التي تشبه جهنّم فقط ليجهّز أطباقا للسّكارى. عندما تكون "تحت الطّاولة".. لا فرق بينك وبين "الطّاولة": لا حديث ولا تنفّس، تحمل ما يضعوه فوقك ولا تنطق!

"سأتركك لعملك الآن، الوغد بدأ في حركاته السّمجة! عليّ أن أنسحب إلى البار. أراك فيما بعد يا صديقي!". غمزني عيسى موافقا، ثم سمعته -وأنا أدير ظهري له- يزمجر ببعض الكلمات الغريبة المتداخلة. أدركت بحدسي أنّها لعنات صوماليّة على رأس خوانيتو! فتحتُ زجاجة بيرة ووضعتها أمام "فرناندو" أوّل زبائني. تبادلنا أحاديث عابرة وسألته -دون اكتراث داخليّ- كيف كان يومه. مضى يهذي ولكنّني لم أكن أصغى لما كان يقول. رأسي كان مشغولا، وطرف عيني اليسرى كانت تترصّد أشرف الّذي كان يصغي باهتمام شديد لشابّ أصلع على زاوية خوان البار. أذكر أنني رأيت هذا الشاب يرتاد الحانة في الماضي القريب ولكنّه لم يكن من زوّارها المواظبين. كان يهزّ بيديه وهو يحادث أشرف وكأنّه يصف شيئا. أمّا أشرف فقد كان يسمع ويهزّ برأسه ولا يجيب إلاّ قليلا. تولّد لديّ شعور بانقباض شديد لذلك المشهد، ولم أبذل جهدا في معرفة السّبب. سقيتُ فرناندو بيرته الثانية وانشغلت معه من جديد في توافه الحديث. بدأت الحانة تمتلئ بالخفافيش من الحرفاء. أدار خوانيتو زرّ المسجّل ليرفع من قوّة صوت موسيقى الفلامنكو المنبعثة منه. هذا الوغد لا يفعل شيئا في ليلته سوى التّجوّل متبخترا كملاكم منتصر في صالة الحانة. يوزّع ابتسامته الصفراء على الجميع. ينهر سانتو بصوت مرتفع ليحثّه على المزيد من الخفّة في تلبية طلبات الحرفاء. يدخل إلى المطبخ من حين لآخر ليستعجل الأطباق من بين يدي "عيسى" الملوثتين بزيت للقلي لم يتغيّر منذ شهور. أمّا نحن (أنا وأشرف) فقد كان دائم الحرص على عدم مضايقتنا. خيال كلارا كان بيننا وبينه طوال الوقت. كان ثعلبا عجوزا، يتقن فنّ اختيار المعارك التي يخوضها. في آخر الليل، يقفل الخمّارة. يحمل معه حصيلة اليوم من المال إلى بيته. هناك، يفعل ما

يشاء، ويحسب كيفما يحلو له. هناك، يلمع الذهب تحت الضوء ثمّ يختفي منه الكثير تحت الأرض. الباقي يسلّمه في آخر الشهر إلى كلارا المريضة ولا يدور في ذهنه أنّها قد تكون مجنونة ولكنّها ليست غبيّة!

في تلك اللّيلة لم أعاتب أشرف على تركه غرفتي دون استئذان عصر ذلك اليوم. لم أرد أن أرمي أمامه حقيقة جبنه أمام سيّدته. أصبح حسّاسا تجاه مثل هذه المواضيع ولم أشأ أن أعقّد العلاقة بيننا أكثر. قرّرتُ ألاّ أتدخّل في شؤونه وأن آخذ من صحبته بقدر ما يحلو له أن يعطي. تلك الليلة كان مشغولا مثلي بخدمة الخفافيش السكارى ولم نتحدّث طوال السّهرة إلاّ قليلًا. أراد أن يلّمح لي بأنّ كلارا عاملته ككلب وسخ جرّاء قضائه اللّيلة في صحبتي، ولكنني غيّرتُ مجرى الحديث في تعمّد واضح. بين حين وآخر كان يعود إلى التهامس مع صاحبه الأصلع وكان ينظر إليّ مبتسما.

ضايقني ذلك بعض الشيء ولكنّني تظاهرتُ بعدم الاكتراث. انتابني شعور خفيّ بأنّه يدبّر أمرا ما ولكنّني كذّبتُ نفسي في مراوغة ساذجة. حاولتُ بكلّ قوتي تجاهل تلك الأفكار وانهمكتُ في صنع إبريق "سانقريا" كان سانتو قد طلبه مني لأجل زبون مخمور في الرّكن. "سانتو" لا يحادثني خارج نطاق طلبات الزبائن، وأنا أبادله نفس الشعور. وضعتُ الإبريق على طبقه وأدرتُ له ظهري لأرصّف بعض زجاجات النبيذ داخل الثلاّجة. بعد ذلك شرعتُ في مسح الخوان وإفراغ المنافض. فجأة نهض الأصلع عن المقعد الخشبي الطويل الملاصق للخوان وبدا أنّه يستعدّ للمغادرة. تمّليتُ في هيئته دون أن يلاحظني. كان متوسّط القامة، لا يتجاوز منتصف الثلاثينيات.

من أذنه اليسرى تدلّى قرط ذهبيّ مستدير، وكانت بطنه متوسّطة الانتفاخ تحت قميصه الأسود الضيّق. كان يلبس بنطلونا أبيض وحذاء رياضيّا خفيفا. فوق ظلمة قميصه اشتعلت قلادة ذهبيّة تدلّى منها صليب لامع. كان أوروبيّا دون أدنى شكّ، وكان وجهه يتقد ذكاءً كذلك الذي نلمحه في وجوه السّحرة المتجوّلين. تفوّه ببضع كلمات لأشرف لم تحمل لي منها موسيقى الفلامنكو شيئا. بعد ذلك ودّعه بحرارة وتعانقت إبهاما يديهما وكأنّهما أصدقاء منذ زمن بعيد! أشار إليه أشرف وكأنّه يعده بمخابرة تلفونيّة، ثمّ افترقا كلٌّ إلى جهة. عبر النافذة اليسرى للحانة لمحتُ الشابّ الأصلع يركض منحنيا تحت وطأة المطر، ثمّ أحسستُ بيد أشرف تقبض على ذراعي اليمنى من الخلف بقوّة.

حملتْ كلماته رائحة الكحول إلى أنفي، واستقرّت جملة واحدة في رأسي: "ذلك هو الشخص الّذي حدّثتك عنه!". التفتُّ بوجهي ناحيته ورأيتُ عينيه تلمعان في خبث. قبل أن أتفوّه بكلمة، أشار لي بما معناه أنّ الوقت الآن لا يتّسع للشّرح ثمّ انزلق كحيّة رقطاء داخل المطبخ. عاودني نفس الشعور بالضيق خالطه الكثير من الغيظ هذه المرّة. فتحتُ زجاجة بيرة وتجرّعت نصفها دون تنفّس. احترقتْ حنجرتي واندفعتْ فقاقيع الهواء كالخناجر من أنفي. وضعتُ الزجاجة على الخوان لبضع ثوان ثمّ أفرغتُ ما بقي بها في جوفي دفعة واحدة. تذكّرتُ أنّني لم آكل شيئا منذ استيقظتُ ثمّ تجشأتُ كخروف متعب. اشتدّتْ الغوغاء في القاعة ودارت في رأسي سكرة مفاجئة داهمتني كقطار.

نبّهنا خوانيتو عديدًا من المرّات إلى أن تعاطي الخمر أثناء العمل ممنوع، ولكنّني لم أنصع لذلك الأمر قطّ. ذلك لأنّني كنت أدفع ثمن ما

أشربه في الحين. وكذلك لأنّني كنت أشعر باحترام أكثر لزبائني ورأسي في حالة دوران. أشرتُ لخوانيتو بأن يحرس خوان البار لبضع لحظات فهزّ رأسه موافقا في ضيق واضح. دلفتُ إلى المطبخ فوجدتُ أشرف يأكل على طاولة خشب صغيرة متخذا صندوق نبيذ فارغ كمقعد. كان عيسى يقشّر بعض الخضراوات ويتحدّث بصوت عال ليتغلّب على زَئيرِ الثّلاجة العملاقة وعلى هدير محرّكات التهوية المتهرئة. تظاهرتُ بأنني كنت أريد سيجارة من سجائره الثقيلة لكي "أعمّر" رأسي. أشار إلى جيبه بيديه المبلّلتين ففهمتُ قصده. زرعتُ يدي في جيب منديله المتّسخ. سحبتُ علبة السجائر الزرقاء وأخذتُ منها سيجارة. ألحّ عيسى في كرم صحراويّ على أن آخذ من العلبة قدر ما أريد، ولكنّني شكرته مكتفيا بواحدة. رمقتُ أشرف بنظرة خاطفة وأنا متّجه إلى الخارج، فغمزني بلؤم موحيا لي بأنّه سيلحق بي في الحال. كان خوانيتو قد شرع في خدمة أحد الحرفاء عندما عدتُ وراء خوان البار. أعرف أنّه يكره انقلاب الموازين ولو لفترة قصيرة، وكنت أتلذذ برؤيته وهو يفتح زجاجة لأحد الخنازير بامتعاض وكأنّ يديه لم تخلقا لمثل هذه الأعمال الحقيرة. أخبرني أشرف أنّ خوانيتو بدأ حياته بمسح الطّاولات وإخراج أكياس القمامة.. هنا في هذا الحان.. أيّام كان والد كلارا يديره. الزّمن يتحرّك إلى الأمام. يكبر معه الكثيرون ويعلو شأنهم، ومع ذلك العلوّ تصبح الذاكرة ضعيفة وجاحدة. انتبهتُ على صوت خوانيتو وهو يأمرني بلهجة جافّة بمحاسبة أحد الزبائن، وأضاف بأنّ فرناندو يريد زجاجة بيرة أخرى. فرناندو لا يغادر الحانة إلاّ بعد أن يتقيّأ في الحمّام ليفيق ويعود إليه رشده. أسقيه فنجان قهوة ثمّ أطلب له تاكسي قبل أن أقفل المحلّ. كنت أتساءل دومًا إن كان له زوجة وأولاد ينتظرونه في المنزل كلّ ليلة.

تجرّأتُ ذات مساء وألقيتُ عليه السّؤال. أجابني بأن ليس له في الحياة سوى كلب صغير يترك له الأكل والماء قبل أن يغادر كلّ مساء. عندما يعود مع الفجر، لا ينام إلاّ وكلبه في حضنه. اقشعرّ جسمي لذلك الجواب. شعرتُ بحقد دفين يصحو بداخلي، ثمّ غيّرتُ مجرى الحديث. ومنذ ذلك اليوم لم يعد وجه فرناندو يذكّرني بوجه "سي الهادي".

انسحب خوانيتو من وراء البار، وقام بجولة متأنّية بين الطّاولات. تجوّل بعينيه في وجوه الزبائن وكأنّه يتفقّد جثثا بعد انتهاء معركة. لاحظ أنّ طاولة في الرّكن أضحت شاغرة وعليها بعض الزجاجات الفارغة، فأصدر إشارة سريعة لسانتو بأن ينظّفها ويكنس ما ترامى تحتها من قشور وأوساخ. اتجه بعد ذلك إلى المطبخ في ملل واضح. اختفى وراء الباب، ثمّ عاد بعد بضع دقائق. كان أشرف بصحبته. تحادثا بعض الشيء وتبادلا بعض الابتسامات الصّفراء، ثمّ مسح أشرف فمه بكمّ قميصه واستدار قادما باتجاهي. تلاقت نظراتنا فشكّل قسمات وجهه على هيئة قبيحة تثير الضحك. وصلتني رسالته الصّامتة: "خوانيتو قرد منافق ودنيء!". ابتسمتُ موافقا، ولاحظت أنّ فرناندو قد تجرّع بيرته كزجاجة ماء. أشار لي بيده بأنّه يريد أخرى، وناولني مبلغا سخيّا مقابل خدمتي. لم يكد أشرف ينزلق وراء البار، ولم أكد أبادره بالسّؤال عمّا كان يقصده بخصوص الشاب الأصلع الذي يشبه السّاحر، حتى ركض خوانيتو باتجاهنا وكأنّ حريقا شبّ في مؤخّرته. صاح بأشرف بصوت مبحوح كادت أن تبتلعه أصوات أغاني الغجر: "كلارا اتصلتْ. تريدك في البيت الآن!" احمرّ وجه أشرف حتى كادت ثقوبه أن تتفتّق. أفرز فمه سبابا شنيعا بلغة لم يفهمها أحد غيري. اهتزّ الكون لذلك السباب في رأسي

المخمور. تذكّرتُ ما كان سي الهادي يطلقه في فضاء البيت من لعنات على السّماء عندما كان يغضب. كانت أمّي تستغفر بصوت خفيّ وتتنهّد. وكنّا نحن نرتجف من الوجل ويحاصرنا الصّمت من كلّ ناحية. قفز أشرف من فوق خوان البار دون أن ينظر إليّ. عَبْر النّافذة، وتحت المطر وأضواء المصابيح، تابعته بعينيَّ. رأيته يكمل لعناته ويركض وقد امتلأ فمه ماءً.... ثمّ اختفى!

بلغتْ موسيقى الفلامنكو ذروتها قبل أن تذوب وتختفي. همدتْ أصوات وقع الأكواب والقوارير على الطّاولات الخشبيّة، وارتفعت خيوط الدّخان إلى سقف القاعة فبدتْ كالأشباح المُتْعَبَة. غادر عيسى إلى بيته وشرع سانتو في كنس الأرضيّة ورشّها بماء متّسخ. خوانيتو يعدّ أوراق المال ويضعها بلؤم داخل حقيبة جلديّة. أما أنا، فكنت أطرق الباب بعنف كعادتي على فرناندو. كان يتقيّأ أمواله ورقة بعد ورقة في دورة المياه. "قل له إن لم يخرج الآن، سأقفل الحان عليه.. فلينم مع الجرذان الليلة!". بلغه صدى صوت خوانيتو فظهر من وراء باب الحمّام ووجهه أبيض كمومياء. طلبتُ له تاكسي وشرعتُ في تنظيف خوان البار وترتيب زجاجات البيرة في الثلاّجة. أخيرا.. انطفأت أضواء المكان.

ودّعتُ خوانيتو وسانتو. لم يبق من المطر سوى رذاذ منعش وبرودة مغرية تتصاعد من الأرض. حملتُ جسمي المتعب وألقيت به ككيس ثقيل على سريري. تقلّبتُ مرّة، ثمّ ثانية. عيناي مغمضتان، وأصوات الحان تقرع كالأجراس جيئة وذهابا في رأسي. أجمل ما في النّوم هو "اللا ّخوف" "واللاّ أمن"، "اللاّ حُبّ" و"اللاّ كُره"، "اللّا فرح" و"اللّا حزن"! لطالما تساءلتُ في قرارة نفسي:

إن كنّا نتلذّذ "بلا وجودنا" في النّوم مثل هذا التلذذ، فلم الخوف من الموت؟ ولطالما نهرني أشرف: "أنت تسأل أسئلة أكبر من رأسك دوما! اتركها تسترح ودع الحياة تسير بك كما تسير بكلّ هؤلاء الخلق!". للحظةٍ خاطفة برز لي وجه أشرف وصاحبه الأصلع ذو الملامح الغامضة... ثمّ غصتُ في "لا شيء" لذيذ!

-١١-

في عصر اليوم التالي، نزَل أشرف إلى غرفتي وطلب أن يشرب فنجان قهوة معي في أيّ مكان قريب. حين طرق بابي كنتُ أستعدّ كعادتي للخروج بمفردي للتسكّع في الأحياء القريبة. استجبتُ لطلبه دون نقاش وأغلقتُ الباب ورائي. لفحتْ وجهينا نسمات هواء منعشة ونحن نغادر البناية سائرين جنبا إلى جنب في صمت. فجأة سألني مستفسرا عن وجهتنا. أشرتُ بيدي إلى ثاني منعطف على اليمين وقلتُ باقتضاب شديد: "مقهى التريفلو". عاد الصّمت إلينا من جديد ولكنّني لم أتماسك نفسي فسألته بعد برهة وجيزة:

- لم تتعوّد أن تطلبني لفنجان قهوة في مثل هذا الوقت المبكّر قبل موعد الشّغل. هل كلارا مازالت على قيد الحياة؟

- احتفظ بنكتك لنفسك، ودعك من كلارا. أريد أن أحادثك في موضوع مهمّ.

- صديقك الأصلع؟

- نعم، هو بعينه! لم يكن الوقت مناسبا ليلة البارحة لأخبرك بالأمر.

اليوم أفضل، بعيدا عن الجميع. بعيدا عن البار وعن خوانيتو، بعيدا عن الغرفة وعن كلارا!

- لم تخبرني لِمَ طَلَبَتْكَ هي بالأمس هكذا فجأة؟

- عندما غادرتُ غرفتك عصر البارحة، صعدتُ إليها فاستقبلتني بنوبة جنون كالعادة. تبادلنا السبّ والشتم، ولمّحت هي بأن لا حاجة لها بي، فتركتُ البيت وأنا أتّقد غضبًا. جلستُ أمام الحان أفكّر إلى أن وصل خوانيتو وفتح الباب. سألني عن سبب وصولي المبكّر فتعلّلت بأنني كنت ضجرا وبأنني فكّرت في مساعدته في تجهيز القاعة لاستقبال الزبائن.

... دفعنا باب "التريفلو" وكان أرماند في الاستقبال بوجهه المريح كالعادة:

- أيّ حظ سعيد يحملك إلينا في يومين متتاليين!

أجبته بلطف: "قهوتك الرّائعة يا عزيزي أرماند!"

طلبنا فنجاني "إسبريسّو" ثمّ اتجهنا نحو ركن شاغر وجلسنا.

- هيه أشرف، ثمّ ماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء. شعرتْ المجنونة بالذنب. لم تستطع الانتظار إلى الفجر. وسوستْ لها الشياطين بأنّني قد لا أعود، فاتصلت بخوانيتو لتطلبني على عجل. توسّلتْ إليّ أن أسامحها وطلبتْ أن أضمّها إليّ طوال الليل ولم تطلب جنسا. والمضحك في الأمر هو أنّ شياطينها قد يكونون على حقّ، فقد نترك هذه المدينة الجرباء قريبا جدًّا! اسمعني وافتح أذنيك جيّدا...

اعتدلتُ في جلستي وترشّفتُ فنجاني بعطش شديد لمذاق البنّ.

اختلطتْ مرارته بلعابي وطلب لساني شيئا من الماء البارد من الكوب الصّغير. تسلّلتْ قطعة ثلج إلى فمي، فكسرتها بين أسناني بعصبيّة. أحدثتْ أصواتا كتحطّم الزجاج في رأسي، ثمّ ميّزتُ في خضمّها صوت أشرف وهو يروي لي قصّة الشابّ الأصلع ذي الابتسامة الغامضة:

اسمه "بلانكو". بولنديّ الجنسيّة، ولم يكن ذلك اسمه الحقيقيّ. يرتاد الحانة من حين لآخر لتناول كأس أو كأسين، ولم يكن من فصيلة الخفافيش الذين يقتلون اللّيل بشرب الكحول كلّ يوم في خمّارة كلارا. قام أشرف بخدمته ذات ليلة، وتجاذبا أطراف حديث سريع حول الغربة وظروف العمل. لاحظ الشاب من لكنة أشرف أنّه ليس إسبانيا فسأله عن أصله وعن قصّة وجوده في برشلونة. تعمّد صديقي الدّاهية مراوغته في الكلام مخافة أن يكون عون بوليس سريّ من الذين يندسّون في المطاعم والحانات لاصطياد أمثالنا من الّذين يشتغلون في "الأسود". لذلك كذب عليه في بداية الأمر وادّعى بأنّه مهاجر قانونيّ متزوّج من إسبانيّة منذ بضعة أعوام. أخبره الشّاب آنذاك بأنّه محظوظ جدّا لأنّ الهجرة إلى إسبانيا عن طريق الزّواج أصبحت شبه مستحيلة، خاصّة بالنسبة للذين يقطعون الحدود إلى داخل البلاد في ظلام اللّيل دون تأشيرة دخول. كان أشرف آنذاك في بداية صراعه مع عفاريت كلارا الوهميّة، فلم يزده حديث الشّاب عن استحالة الأوراق وعن هجمات بوليس الهجرة على المقاهي والمطاعم إلاّ اشمئزازا من حياة الاستعباد التي كان يعيشها مع رفيقته المعتوهة.

بحرفته المعهودة حوّل مجرى الحديث ليستطلع ما وراء الشّاب من قصّة وجوده في إسبانيا. أخبره بلانكو بأنّه ليس مقيما فيها

وبأنّه هاجر إلى كندا منذ ستّ سنوات تيسّر له خلالها التّحصّل على الجنسيّة الكنديّة بعد ثلاث سنوات من وقوع إحدى الكيبيكيّات في شراك حبّه. بدأ العمل في إحدى الشركات المتخصّصة في استيراد زيت الزيتون من إسبانيا وذلك ما يفسّر وجوده الموسميّ على أرضها. سأله أشرف عن سرّ وجوده في حان حقير كهذا فأخبره بأنّ له عشيقة تسكن على بعد بضعة أنهج. كان يُمضي معها فترة إقامته القصيرة في برشلونة قبل أن تحمله باخرة الزيت إلى مونريال حيث تنتظره زوجته... فرنسيّة الشمال.. وصاحبة الفضل في استقراره هناك. لم يُخْفِ أشرف تعجّبه من إتقان بلانكو للّغة الإسبانيّة ومن معرفته الدّقيقة بدروب ومسالك برشلونة. لم يكن في الأمر سرّ سوى أنّ بلانكو عاش في برشلونة لفترة طويلة انتهت بترحيله إلى بولندا بعد أن داهمه بوليس الهجرة من الباب الخلفيّ للمطبخ الذي كان يعمل فيه "تحت الطّاولة".

بعد سنوات من اليأس في بلدٍ طوابير الخبز فيها أطول من لياليها المثقلة بالألم والحرمان، هرّبه أحدهم على متن باخرة شحن بضائع إلى كندا... ومن هناك تعرّف على زوجته. تنقّل من شغل لآخر إلى أن فتح عليه الحظّ بعمل جيّد كمسؤول على شحن وتفريغ صناديق قوارير الزيت التي تشق البحار بين إسبانيا وكندا كلّ ستّة أشهر. وهكذا عاد بلانكو إلى برشلونة. هو نفسه، لم يتغيّر فيه شيء سوى أنّه أصبح يحمل جواز سفر أزرق غير جوازه البولنديّ البائس! فتحت له إسبانيا ذراعيها ناسية أنها طردته شرّ طردة منذ سنوات. عاد ليمارس فيها خيانته لزوجته مع عشيقة قديمة كانت تحبّه منذ كان يعمل في برشلونة كآلة في أحد مطابخ مطاعمها. سأله أشرف إن كانت الهجرة إلى كندا على قدر من السهولة، فأجابه بأن

الوصول إليها يحتاج إلى الكثير من المال ولكنّ ذلك يهون لأنّ فرص الاستقرار القانونيّ فيها أسهل بكثير من أوروبّا.

مضى أشرف يحدّثني عن انقطاع الشابّ عن زيارة الحان لفترة، وعن ظهوره مرّة ثانية. استدرجه آنذاك - دون أن يبوح له بحقيقة وضعه - إلى الحديث عن كندا من جديد. عصَرَهُ كإسفنجة معلومات عن كلّ تفاصيل الحياة فيها وخاصّة عن الزواج والإدارة والعمل. تعلّل بأنّ له أخا في الوطن البعيد يرجو الهجرة لأنّه عاطل عن الشغل منذ سبع سنوات قضاها في لعب الورق بين المقاهي. كان بلانكو كريما في وصف تفاصيل العيش في الشمال البعيد. ارتفعتْ الأحلام المغرية كالبالونات الملوّنة في رأس صديقي. قرّر بينه وبين نفسه الهجرة بعيدا، ولم يحادثني في الأمر وقتها. صمّم على ادّخار أكبر مبلغ من المال ليرحل من برشلونة إلى الأبد، واعتبر موافقتي على السفر معه أمرا منتهيا حتى قبل أن يفاتحني في هذا الأمر منذ يومين. "الآن عرفتُ لأيّ سبب كُنْتَ تقتل نفسك في خدمة خنازير الحانة!"... لمعتْ هذه الكلمات في رأسي ولم تغادر فمي. فقط ارتخيتُ في جلستي وأخذتُ أدير بقايا الثلج الذائب في نصف الكأس الضبابيّة. مضى هو في حديثه بتحمّس هادئ تخلّلتْهُ سجائر كثيرة تنطفئ لتشتعل من جديد. شردْتُ عن حديثه وانشغلتُ بالحرفاء الذين بدأوا يتوافدون على المقهى، وبصوت ماكينة الـ"الإسبريسّو" وهي تصفّر كسفينة بخاريّة قبطانها "أرماند". نظرتُ إلى أشرف وكأنّني أتطلّع إلى الفراغ وبلغني صوت هذيانه كضجيج دون معنى. بحثتْ أذناي عن الموسيقى الإسبانيّة الهادئة التي كانت تتجوّل كامرأة حزينة بين ثنايا رائحة القهوة في مقهى التريفلو.

امتطيت تلك الموسيقى الجميلة كقطار صامت انساب بي بعيدا عن كلمات أشرف وعن أحلامه بشقّ البحار إلى أراض مجهولة.

- أتذكُرُ منذ يومين، عندما حدّثتك عن شخص قد يستطيع مساعدتنا في الرّحيل بعيدا عن هذه المدينة النّحس؟ ذلك هو بلانكو! رأيته أوّل أمس وتأكّدتُ أخيرا أنّه ليس كاذبا وأنّه لا ينتمي إلى بوليس الهجرة. لذلك قرّرت أن أعترف له بحقيقة وضعنا، وذلك ما فعلته البارحة عندما رأيتنا نتبادل حديثا مطوّلا في ركن خوان البار".

لم أجب بكلمة. مضى مسرعا في كلماته هذه المرّة. فكّرتُ في تشنّج: "اللعنة على هذا اليوم. لِمَ وافقته على المجيء إلى هنا؟ أرماند.. ألا تقلب الكاسيت في جوف الصندوق الحديديّ! أريد أن أرحل مع الموسيقى مرّة ثانية. أريد الرّحيل بعيدا عن عفن هذا الأبله!". أرماند لا يسمع أصوات الأماني المكتومة ولا صرخات الضجر العابرة. لم يغيّر "الكاسيت"، ولم تأت موسيقى أخرى لتجرفني بعيدا. بقيتُ مغروسا أمام أشرف وهو يمضي في حديثه بنبرة جديّة:

- باخرة بضائع ستقلع إلى مونريال بعد شهر ونصف. بلانكو هو المسؤول عن طاقم الشحن فيها. هو الذي سيتكفّل بدسّنا داخل طاقمها مقابل ٣٠٠٠ يورو على الرّأس. مبلغ ضخم سيتقاسمه مع أحد عمّال السفينة الذي سيتولّى المحافظة على سلامتنا حتى نصل إلى وجهتنا على الضفّة الأخرى من المحيط. هيه... ما رأيك؟ فرصة رائعة أليس كذلك؟ أعرف أنّه مال كثير، ولكن في سبيل الأوراق والعيش في النّور كلّ شيء يهون! ثلاثة أسابيع، أو أربعة على أقصى تقدير، ونكون في أحضان حياة جديدة! لِمَ أنت صامتٌ هكذا؟ ألن تقول شيئا؟"

"سأحطّم هذه الكأس على رأسك!"... انفجرتْ هذه الكلمة في صدري كالرّصاصة، ثم أجبته بغيظ مكتوم:

- لا أدري ما أقول. قبل كلّ شيء، ليس معي هذا المبلغ الذي تتحدّث عنه!

... كنتُ كاذبا بالطّبع. فقد كان معي ما يعادل الألف يورو، كوّمتها ورقة بعد ورقة تحت سرير غرفتي. معظمها ممّا كان فرناندو يجود به على كلّ ليلة قبل أن ألقي بجسده المخدّر بالكحول داخل تاكسي وأعطي العنوان للسّائق. كان يشكرني بلسان ثقيل ويخبرني بأنّني أطيب إنسان وأخلص صديق في الدنيا. بعد ذلك، يفتح محفظته بحركة بطيئة ويعطيني ما تصل إليه أصابعه من مال. الخمر تقتل المبالاة في الرّأس، وأوراق المال الخضراء تصبح مجرّد أوراق لا أكثر!

تقلّبتْ أحشائي وانا أتذكّر سي الهادي عندما كان يصرخ: "ليس عندي فرنك واحد! من أين آتي لكم بالنقود! أتريدونني أن أسرق؟!". كنت أسمع تلك الجملة تتكرّر كلّما مرض أحدنا وكلّما طالبته أميّ في استحياء بثمن دواء!". ما يختبئ في غرفتي من مال.. لن تراه يا أشرف! فذلك ثمن دوائي إن مرضتُ، وثمن طعامي إذا جُعتُ! ليس لي أمّ هنا تقترض النقود من الطيّب والخبيث من أجل أن أشفى أو آكل!". ترشّفتُ آخر ما بقي من فنجان الإسبريسّو. تابعت نهدَيْ فتاة كانت قد دفعت باب التريفلو يُخاصرها شابّ متوسّط الجمال. كان يضع يده اليمنى على ردفها الذي يشبه مؤخّرة فرس. تخيّلتها تحتي تصرخ وفخذاها ملتفّان حولي، فتحرّك نصفي الأسفل في استجابة فوريّة. أظنّني أفكّر بذلك النصف في أغلب الأحيان، وذلك هو حال جميع الرّجال!

أتى صوت أشرف ينغّص عليّ لذّة الحلم مرّة ثانية:

- لا يهمّ، لديّ ما يعادل ال ٤٠٠٠ يورو ممّا ادخرته من الشغل وممّا أتيح لي أن أمتصّه من كلارا بعد عمليّات الحبّ. كان ذلك دوما الوقت المناسب لأدّعي بأنّ أجرة الشغل لا تكفيني وبأنّني أحتاج إلى شيء من المال لشراء هذا الشيء أو ذاك. كان يمكن لها أن تطلب من خوانيتو أن يرفع أجري بسهولة، ولكنّها كانت تتلذّذ أكثر بإعطائي المال مباشرة. شعور فوريّ بالامتلاك، كان يدرّ عليّ أضعاف أجري.

أجبته بفتور فيه الكثير من اليأس المصطنع:

- بقي ألفا يورو إذن! لا أظنّنا قادريْن على تحصيل مثل هذا المبلغ خلال شهر.

إن كان للشيطان قرنان كما يقولون، فأظنّني لمحتهما ينبثقان من رأس أشرف وهو يجيبني على الفور:

- على العكس، هناك حلّ! لطالما فكّرتُ في مخطّط محبوك لحلّ هذه المشكلة... والآن حان وقت تنفيذه!

-١٢-

انقضتْ اللّيلة في الحانة ككلّ اللّيالي. صخبٌ ودخان. مخمورون وهذيان. خوانيتو يصول ويجول في القاعة ولا يفعل شيئا. سانتو يكاد ينكفئ على وجهه من شدّة الرّكض بالقوارير. وعيسى يقشّر البطاطس وهو يبتسم ويغنّي على أنغام غليان الزيت في المقلاة الصّدئة. أشرف يستلّ المال من جيوب الحرفاء بجاذبيّته المعتادة. وفرناندو يقتل المبالاة في رأسه ببيرته العاشرة. ثمّ أنا، جسم بين كلّ هذه الأجسام المتهالكة، وروح تهيم في عالم بعيد عن موسيقى الفلامنكو وصخب الأحاديث السّخيفة. عقلي يتأرجح بين أفكار أشرف الشيطانيّة، وقلبي يتخبّط جزعا في شباك ما اقترحه عليّ منذ ساعات في مقهى التريفلو. لا أدري كيف استجبتُ لمشاركته في شيء كهذا لتجميع ما يحتاجه من مال لرحلته المزعومة. أنا أعلم في قرارة نفسي بأنّني لن أرافقه في تابوت الزيت، على باخرة بلانكو، إلى ما يتصوّر أنّه الخلاص من الحياة السوداء. فلِمَ وافقته... لِمَ؟! لِمَ أوهمته بأنّني سأكون رفيق رحلته الجديدة، وأنا أعلم بأنّني، وفي آخر اللّحظات الحاسمة للسّفر، سأبتسم له معتذرًا! سأعتذر له وأعلمه بأنّني رغم وحدتي قد تعوّدت على غرفتي، وعلى رائحة قهوة أرماند.

سأعترف له بأنّني أدمنتُ عاهرات الماخور وحوريّات الـ Espedano، وبأنّ طوابع البريد التي تزيّن وجه رسائلي لأمّي أصبحت تعرفني ولا تطيق فراقي! لِمَ وافقته على استلاب المال بهذه الطّريقة؟ لا أدري! هل هو الطّمع قد طمس ذكرى الشرطيّ الذي طاردنا منذ شهر كنمر في أدغال برشلونة؟ ذلك الشرطيّ الذي وضعنا كقسّيس على طريق التوبة بدا لي كخرافة لم تحدث وأشرف يضع بين فنجانيّ أسبريسّو خطّة سرقة مختومة بختم أبالسة جهنّم!

مضتْ ثلاث ليال لم تخل فيها أحلامي من شبح الشرطيّ. في اللّيلة الرّابعة، أقفل خوانيتو باب الحانة الحديديّ كعادته وأشار إلينا بيده مودّعا دون أن يفتح فمه بكلمة. في تلك السّاعة التي يشتدّ فيها ظلام اللّيل قبل بروز الفجر، احتضن خوانيتو حقيبته الجلديّة تحت سترته الرّماديّة القديمة وهرول مبتعدا تحت أنوار المصابيح الهادئة. جلس سانتو على حافة الرّصيف وأخذ يربط حذاءه بهدوء ثمّ اختفى في عتمة الأزقّة النائمة بعد دقائق. سكون رهيب كصمت القبور تشوبه من حين لآخر أصوات خربشة بعض القطط الباحثة عن بقايا الطّعام بين أكوام المزابل.

اهتزّ صدري بقوّة التنفّس وكادت ضربات قلبي أن تصمّ آذاني عندما شرع أشرف بفتح كيس بلاستيك في إحدى المنعطفات المنعزلة التي لا تبعد كثيرا عن باب الحان. ناولني جوربا نسائيّا كان قد حوّله بمهارة إلى قناع يلتصق بالوجه. ارتديته على الفور ونظرتُ إلى وجه صاحبي المختفي وراء قناع مثله فلم يتبيّن لي من ملامحه غير معالم مشوّهة. معالم غامضة غموض الليل.

رمى لي بمعطف أسود وحذاء رياضيّ قديم. كانت رائحتهما كريهة،

ولكنّني سددتُ أنفي وأكملتُ ما تبقّى من إجراءات التخفّي باحتراف غريب. انتصب أمامي الشيطان كشبح أسود، ثمّ رفع قناعه للحظة خاطفة وأمرني بإلقاء الكيس الذي يحتوي ملابسنا في إحدى حاويات القمامة إلى أن نعود إليه بعد انتهاء العمليّة. تذكّرتُ صوته المترجرج بين دخان السجائر وعبق القهوة منذ أيّام: "... الوغد خوانيتو. لطالما انتظرتُ له هذا اليوم! مال كلارا الذي يسرقه، نحن أولى به أليس كذلك؟ لقد أخبرتني هي في مناسبات عديدة بأنّه موسوس، وبأنّه يعود أدراجه كلّ ليلة بعد إغلاق الحان ليتأكّد أنّ بابه الحديديّ موصد! نويتها له ذات يوم. صمّمتُ على انتظاره خفية في ركن مظلم لأتأكّد من صحّة الأمر. عاد فعلا أمام باب الحان. نصف ساعة وهو ينظر إلى الباب ويشدّه إليه بقوّة من لا يصدّق أنّه مقفل. أردتُ أن أعود متخفّيا في اليوم التالي لأسلبه كلّ ما يحمل من مال. وددتُ أن أتركه عاريا على الرّصيف، ولكنّني جبنتُ! الآن حان الوقت لكي يسدّد لنا ما نحتاجه لرحلتنا. حان الوقت لكي يدفع الثمن. بعد أربعة أيّام! نهاية الأسبوع. ما رأيك بيوم السّبت؟ أكبر حصيلة نقود من الحان تكون تحت إبطه في نهاية الأسبوع دائما. هيه ما رأيك؟"

في تلك اللحظات الرهيبة، الحالكة كسواد القناع الملتفّ حول وجهي المتجمّد من الخوف، تمنّيتُ ألاّ يظهر خوانيتو. تمنّيتُ أن تخطئه سهام الوساوس فقط ليلتها. تمنّيتُ أن يمضي إلى بيته دون العودة لتفقّد باب الحانة. أن يغلق باب منزله ويعدّ نقود الحان فيسرق منها ما يشاء.. ثمّ ينام. سلّمتُ للشّارع فرصتي الأخيرة للتوبة، وصلّيتُ لكلّ الأحجار المرصّفة على أرضه كي لا ترنّ تحت وقع أقدامه وهو عائد إلى ليلة لا أحد

منّا يعلم كيف ستنتهي.

ركعتْ كلّ حواسّي متوسّلة للمصابيح الشاحبة أن تنطفئ، وللشمس أن تظهر، وللأزقّة أن تمتلئ بجلبة الناس وضوضائهم. تمنّيتُ أن يطلع النّهار فجأة، أنّ يعمّ النّور أرجاء المكان، وتحديدا ذلك الرّكن المهجور حيث كنّا نختبئ كسكاكين مسمومة. تمنّيتُ أن يندلع زلزال، أن يظهر شرطيّ متجوّل، أن تظهر أمّي، أن يحدث أيّ شيء معقول أو غير معقول ليمنعنا ممّا كنّا سنقترفه. ولكنّ قوّة ما كانت تجذبني. تسمّرني في مكاني. تغمرني بلذّة من يحتمي بكمين خفيّ في انتظار عربات العدوّ. "ربّما لأنّني أحقد على خوانيتو سأفعل هذا؟ أم لأجل المال؟ أم لأنّني ببساطة إنسان حقير؟". نفضتُ الفكرة عن رأسي وأسلمتُ نفسي للخوف الممتزج بحلاوة الانتقام. الانتقام الذي أردتُ له معجزة كي لا يحدث، ولم أكن لأرضى بأقلّ من ذلك! تبلّل مقبض الهراوة التي كنت أحملها بعرق يدي اليمنى وتجمّعتْ أصابع يدي اليسرى في التحام عصبيّ شديد، ثمّ التصقتُ بالحائط كصورة. من وراء الجدار، استرق أشرف نظرة خاطفة إلى الأرصفة الخالية ثمّ أعاد وجهه للاحتماء على الفور. لفّ حبلا سميكا حول ساعده وهمزني بهدوء بارد: "أرى شبحا يتهادى من بعيد.. إنّه هو.. ذلك الفاجر..بلى.. تلك هي مشيته... أمير.. أمستعدّ أنت؟"

"الباب كان موصدا أيّها الغبيّ.. لماذا عُدْتَ؟".

كلمات تسلّلت إلى رأسي المختنق بجورب نتن. تلاشتْ بين حشرجة خوانيتو وهو يحاول التملّص من حبل أشرف الذي كان يعتصر رقبته كحيّة إفريقيّة وبين ضربة قويّة من هراوتي هويت بها على جذعه وكأنني أقطع شجرة. برك على ركبته كجمل جريح فوقع معه أشرف دون أن

يفلت بزمام الحبل. كنت أظنّ أنّه سيقاوم أكثر، ولكنّه لم يفعل! فقط انتفض بجسده في محاولة يائسة للإفلات من مشنقة أشرف وبسط يده نحوي متشبّثا بمعطفي وكأنّه يتوسّل لي في صمت ألّا أقتله! عفن ملابس القرصنة التي تحتويني كان كافيا. لم أشأ أن أضيف إلى قذارة ليلتي رائحة روحه وهي تصعد إلى السّماء بين يدينا. أنزلتُ يديه بعنف وتحسّست جسما جلديّا بين خفايا سترته. سحبتُ منها حقيبة النقود كمن يقتطف عنقودا من شجرة عجوز. قطعة الجلد تلك كانت أغلى عندي من موته بكثير! أشرف مجنون! قد يفعلها ويُنهي آخر أنفاسه. لذلك ضربتُه على كتفه ولوّحت بالغنيمة في الهواء.

سحب الحبل من حول رقبة خوانيتو وركله على مؤخّرة رأسه بقوّة. غصنا بسرعة البرق في دهاليز الليل والأزقّة. قبل أن أتوارى نهائيّا عن مشهد العمليّة التفتُّ ورائي فلمحت خوانيتو مستندا على باب الحانة في وضع المتقيّء. سمعتُ سعاله ولم أسمعه يطلب النجدة. كان أجبن من أن يفعل ذلك. لعلّه خشى أن نعود فننهيه قبل أن يستيقظ أحد لإغاثته. لم أنس كيس البلاستيك الذي تركناه ملقى في قمامة الركن. سحبته بخفّة وواصلت ركضي وراء أشرف إلى أن بلغنا مكانا منزويا لا يبعد كثيرا عن ملهى الـ Espedano. هناك، ومع أوّل الخيوط التي بدأ الفجر في غزلها حول خصر الليل، خفتتْ لهاث أنفاسنا وغيّرنا ملابسنا في سباق مع النور. توارتْ المعاطف والجوارب في العجينة السوداء داخل قصدير مزبلة. عجينة سوداء استقرّت بداخلها حقيبة خوانيتو الجلديّة.. فارغة ومنسيّة إلى الأبد!

"يبدو أنّه مال كثير، لا وقت لعدّه الآن. سأتركه معك وأخبرني عن مقداره

غدًا. أخفه جيّدا.. لا أريد الجنّ الأزرق أن يعرف مكانه... أفهمت؟".

هززتُ براسي إيجابا وأنا افتح باب غرفتي وأتثاءب.

... ثم افترقنا.

- ١٣ -

أوصدتُ الباب ورائي برفق، وبحثتُ عن زرّ النّور. بدا لي أثاث الحجرة كئيبا وباهتا كالعادة. اتجهتُ صوب الثلاجة الصغيرة لأبحث عن زجاجة ماء باردة. لم يكن بها الكثير، فقد نسيت أن أملأها البارحة. امتصصتُ ما بداخلها كمن وجد غدير واحة بعد مسيرة عام في الصحراء، ثمّ قذفتُ بها في الحوض إلى جانب الأكواب والملاعق المتسخة. جلستُ إلى الطاولة وبعثرتُ الغنيمة أمامي وكأنّني أستعدّ للعبة قمار أمام المقعد الشاغر أمامي. شرعتُ في العدّ، وكلّما شارفتُ على النهاية، تلاشى تركيزي وعدتُ إلى أحداث ليلتي أعيشها برعب قاتل:

" ماذا يمكن أن يحصل لو كان خوانيتو قد تعرّف علينا؟ لماذا لم يصرخ للنّجدة؟ ألأنّه سينتقم شرّ انتقام غدا؟ سيأتي بالشرطة حتما، وسيقيّدوننا ويحاكموننا، ثمّ سيرمون بنا في دهاليز السجون مع المجرمين. سأقضي بقيّة عمري في السّجن مع القتلة وقطّاع الطّرق. أنا لست سارقا سيّدي القاضي! إنّها زلّة طيش فقط! أشرف هو السّبب! أشرف هو اللصّ! هو الذي يجب أن يتوارى عن حياتي.. وإلى الأبد! مائة.. مائة وخمسون... مائة وسبعون. سأختفي الليلة!

سأضمّ هذا المال إلى ما ادّخرته سابقا، وسأرحل إلى الوطن في أوّل طائرة. لن يجدوا وقتا لإخبار شرطة الحدود، ولن يسألني أحد: كيف دخلت إلى هنا؟ ما يهمّهم دائما هو أنّك في اتّجاه الرّحيل! سأرجع من حيث أتيت! الحمد لله أنّني لم أنس أن أدسّ جواز سفري في جيبي ليلة الهروب المشؤومة! خمس مائة وستون.. خمس مائة وسبعون. ولكنّني بذلك أكون قد عدتُ كما أتيت. في الظلام.. ودون شيء سوى وريقات من العملة الصعبة ستنتهي بعد شهور. بعد ذلك سأجد حظائر البناء وأسطال الأسمنت والأسطح العارية في انتظاري. كلاّ.، لن أعود! ماذا أفعل إذن؟ خمس مائة و....!! اللّعنة اختلطتْ الأرقام ونسيتُ إلى أيّ حدّ بلغ بي الحساب! أعود إلى الصّفر من جديد. أجمع الأوراق لأستأنف عدّها من البداية، فتعترضني هواجسي مختنقة تماما كوجه خوانيتو. مرتبكة ومتداخلة كأحداث كابوس عشته منذ ساعات وكان لي خيار ألاّ أكون طرفا فيه! ولكنّني اخترتُ أن أكون بطلا رهيبا من أبطاله، ولا مجال لتغيير ذلك الآن! قرّرتُ أن أتمالك أعصابي. أن أستردّ هدوئي لأستطيع الوصول إلى الرّقم النهائيّ لقيمة المبلغ الذي بين يديّ! لا أدري كم من الوقت استغرق ذلك. ولكنني في النهاية وصلت إلى رقم وقرار.

الرقم: ما يعادل الألفين وثمانمائة يورو. سأترك النصف لي وسألقي بالنصف الثاني في وجه أشرف. سأطلب منه بعد ذلك ألاّ يريني وجهه إلى الأبد! فليذهب إلى كندا أو حتى إلى بلاد العفاريت. فليذهب إلى القمر لو شاء، ولتحرسه الشياطين الزرق في رحلته الملعونة!

قراري: بعد أن تقاذفتني الأوهام الحمراء في كلّ مكان، وعبرتْ بي حدود كلّ الاحتمالات. بعد أن نهشتْ في عقلي وفي جسدي مدّة لا أدري

كم مداها. بعد أن تصبّب جبيني عرقا وارتجفتْ يداي تحت وقع هجماتها الضارية. بعد أن تبيّن لي وجه أمّي في الرّكن. كانت قابعة على الأرض، مطرقة، تتمتم بدعوات غير مفهومة ولا تنظر إليّ. بعد كلّ الجنون والهذيان الداخليّ المحموم، وبعد أن زارني الانتحار في شكل امرأة هادئة تحمل باقة من الزهور البيضاء. بعد علبة سجائر، وبعد سيل من المياه الباردة التي أطلقتُها على رأسي من حنفيّة الحمّام المكسورة. بعد كلّ ذلك، خمدت النيران وهدأت الزوبعة بداخلي. تبيّن لي جبني وحمقي، واتضح أمامي ما معنى أن يُقدم إنسان على اقتراف عمل ما، في غمرة إحساس عارم ما، دون أن يدرك أنّ عذابه الروحيّ سيكون أشنع وأشدّ فظاعة من أيّ عقاب فِعْليّ يمكن أن يسلّط عليه. أرواحنا هي عقابنا، وهي السجن والقاضي والجلاّد.

هي التي تقسو وهي التي تسامح. تقسو علينا بالوهم والخوف. تعذبنا بما بقي فيها من نقاء داخليّ أو بما نسميه تأنيب الضمير. وتسامحنا بفسح المجال للقلب ليغفر لنا ما اقترفناه. تسامحنا بإعطاء الفرصة للعقل كي يمكّننا من استلال حقيقة الأشياء من حقيبة مليئة بأفاعي الاحتمالات الوهميّة.

قسَتْ عليّ نفسي تلك الليلة، وجلدتْ روحي بسياط حمراء كاللّهب. جعلتني أركض كالمجنون في مائة اتجاه واتجاه ولم أكن قد غادرتُ جدران غرفتي بعد. ثمّ غفرتْ لي نفسي وأنا أستلقي على سريري وأجد في قلبي ما يكفي لأن أكفّر عن كياني المتعب زلّة طيش. زلّةٌ قرّرت ألّا أعيدها ما حييت! أمّا عقلي فقد أتى يتهادى من بعيد وكأنّه زائرٌ غامض لم أره منذ أعوام. استقرّ بين عظام جمجمتي في كسل وتثاقل.

وبين سكرات النعاس، همس لي بالحقيقة. كانت قمرا مضيئا حجبته غيوم الخوف منذ ساعات: "خوانيتو لم ير شيئا. الليلة كانت حالكة السواد، وقناعي كان كافيا لإخفاء ملامحي عن عجوز قصير النّظر مثله. لن أرحل! سأستأنف حياتي وكأنّ شيئا لم يكن!". لم يمهلني النّعاس، ولم يعطني فرصة التلذذ بتلك الفكرة. بذلك السلام الدافئ، بتلك الطمأنينة العذبة التي سعت إليّ متأخرة مع أوّل خيوط الفجر.. وغصتُ في عتمة اللاّشيء.

-١٤-

همد كلّ شيء بداخلي ولم أفق إلاّ على طرق الباب عصر اليوم التالي. تجاهلتُ الصوت المزعج أوّل الأمر لعلّ الطارق ينسحب ويتركني لنومي. ولكنّ الضرب على الباب اشتد حتى كادت الجدران تتصدّع من وقعه. انتفضتُ مذعورا. تردّدتُ أوّل الأمر. فكّرتُ أن الشرطة على قيد خطوة منّي، ولم يكن بغرفتي منفذ للهروب. أحسستُ بشيء يشبه دبيب النمل يسري في جسدي، ووقفتُ جامدا بين السرير والطاولة لا أدري ما أفعل. ارتفع صوت الطرقات أكثر فأكثر. خارت قواي وأحسستُ ببلل خفيف يلامس سروالي فأدركتُ مدى جبني. كان من المفروض أن أرحل البارحة، ولكنّ خوانيتو لم يمهل تردّدي! ثاب إليّ رشدي، وربطتُّ حولي ما تبقّى من أعصابي. فكّرتُ بيأس سريع "قدري.. وسأواجهه.. وليكن ما يكون!". أدنيتُ أذني إلى الباب وأصغيتُ بغريزة حيوانيّة متوحّشة إلى ما يدور بالخارج. كان الطّرق حادّا، ولم يبلغ سمعي أي صوت يشير إلى هويّة الطارق. "المواجهة لا غير! سأندفع بينهم كالقذيفة، فليُلاحقوني في شوارع المدينة. لن يتمكّنوا من الإمساك بي، فأنا مدرّب على الفرار حافيا منذ كان أبي يلاحقني بالحزام الجلديّ وأنا طفل صغير!".

كان ذلك آخر ما دار بذهني قبل أن أدير المقبض بعنف متأهّبا لاختراق السّور البشريّ الذي توقّعت أن أجده أمامي. فتحتُ الباب. لم أقابل سورا.. ولا رجال شرطة! كانت كلارا واقفة أمامي في روب منزليّ، حافية القدمين، تبدو عليها أمارات الشحوب والتعب. لم تترك لي مجالا للكلام أو حتى للتحيّة. بادرتني بصوت فيه الكثير من الحزم: "ارتد ملابسك فورا والحقني إلى فوق. أريد أن أحادثك في شأن مهمّ!".

فتحتْ لي كلارا الباب. كانت لا تزال على نفس الهيئة التي قابلتني بها منذ قليل. لم أكن أراها إلا نادرا. ورغم ذلك، بدا لي أنّ هزالها قد زاد تفاقما، ولاحظتُ عروقا زرقاء بارزة من عنقها. شعرها الأحمر كان مربوطا إلى الوراء فيما عدا بعض الخصلات الضائعة التي كانت ملتصقة بجبينها الضيّق كخيوط من الكتّان الرديء. تحمل بيدها كأسا من النبيذ الأحمر، وعلى كتفها اليسرى تدلّت خرقة بيضاء مبلّلة. دعتني إلى الدخول، فاستجبتُ بهدوء خارجيّ توارت خلفه نفس مضطربة، متوجّسة، تكاد تتفطّر من الخوف: "لم أدخل هذه الشقّة من قبل. فلِمَ أدعى إليها في هذا اليوم بالتحديد وعلى هذا النّحو المريب؟!". قبل أن أتفوّه بكلمة، قالت: "كلّ المصائب نزلتْ في نفس الوقت! صاحبك ينتظر قدومك، وهو ليس بخير!". أشرف ليس بخير؟ ما معنى هذا؟ أيكون قد اعترف بكلّ شيء؟ لا أظنّ ذلك! لا توجد هناك أدلّة! ماذا حصل إذن؟ ما الحكاية؟". لملمتُ شتات اضطرابي وسألتها بهدوء:

- ما به أشرف؟ كان آخر من رأيت البارحة، ولم يكن به شيء!

- حرارته مرتفعة جدّا، وهو غير قادر على الوقوف أو التحرّك. اشتريتُ له بعض الأدوية من الصيدليّة، ومع ذلك فحالته لم تتحسّن.

أنا في ورطة ثانية كذلك....

كان باب الشقّة يؤدّي مباشرة إلى بهو طويل أشبه برواق بنسيون عتيق. تتوزّع الحجرات على جانبيه يمينا وشمالا، وتزيّن جدرانه بعض الصّلبان الحديديّة المعلّقة تقابلها لوحات غريبة أثارت الانقباض فيما بقي من الهدوء بداخلي. ألوانها قاتمة، وعلى سطحها أجساد ملتوية ومتشابكة لا تميّز فيها الرؤوس من الأرجل، بدت لي وكأنّها خيالات جحيميّة تتعذّب. بعد سنوات من تاريخ ذلك اليوم، وفي أحد مقاهي مونريال، رأيتُ تلك اللّوحات معلّقة على الجدران. حملني الفضول إلى ذكرى ذلك البهو وتلك الشقة. سألتُ صاحب المحلّ عن صاحب تلك اللوحات فأفادني بأنّها لرسّام إسبانيّ مجنون. أشار إلى لوحة تمثّل ساعات ذائبة مضيفا بأنّها أشهر لوحاته. يومها تذكّرتُ كلارا وجنونها، ورمى الحزن غيوما رماديّة على قلبي. أذكر أنّني احتسيت قهوتي في صمت محاولا التخلّص من شعور عابر بالذنب لعدم زيارتي لأشرف منذ دخوله إلى السّجن.

البهو شبه مظلم لولا ضوء خافت لمصباحين متدلّيين من السقف أضفى على الصّلبان المواجهة للأجسام الشيطانيّة مسحة من اللّون البرتقاليّ الحزين. بدا لي وكأنّ كلّ شيء يحترق على الجدار. وكأنّ هذا البهو أبى إلاّ أن يواجه الجنّة بالنّار، أن يمزجهما معا، وأن يزيد من تصاعد قلقي عصر ذلك اليوم. كم تشبه هذه الشقّة صاحبتها!

- أتريد أن تشرب شيئا: فنجان قهوة؟ قدحا من النبيذ؟

- لا.. شكرا، أين أشرف؟

– آخر غرفة إلى اليسار. سأبلّل هذه الخرقة مجدّدا وسألحق بك على الفور. لقد طلب أن يراك، لا أدري لماذا. ولكنّه أصرّ على رؤيتك اليوم رغم أنّ حالته لا تسمح برؤية أحد، وخاصّة بالحديث الطّويل. إن لم تنزل حرارته بعد سويعات، يجب أن يرى الطّبيب وإلاّ فإنّ وضعه سيستمرّ في التدهور! أنا في ورطة ثانية كما سبق وأن ذكرت لك. مصيبة من مصائب ذلك البار اللّعين. اذهب إلى صاحبك الآن، وسنتحدّث فيما بعد. أنا بحاجة إلى مساعدتك!" أظنّني أدرك ما هي المصيبة. ولكنّها تلتمس مساعدتي! لماذا.. وعلى ماذا؟ لا يهمّ، فهذا مؤشّر طيّب على أنّ هويّة اللّصين لم تُكشَف بعد. ماذا يريد أشرف منّي.... "

تركتني كلارا لذلك البهو الغريب، فأسرعتُ في اجتيازه وكأنّني أريد التخلّص منه ومن رائحة الخشب العتيق التي كانت تنبعث من أبواب الغرف المغلقة. كانت كلّ الحجرات مظلمة ما عدا غرفة أشرف. كان نورها منعكسا على آخر لوحة حائطيّة في البهو. لم أُخْفِ إعجابي بمربّعات الزجاج الملوّن التي كانت تعتلي باب كلّ حجرة، وخمّنتُ أنّ الهدف من وجودها هو تسريب أشعّة الشّمس عبر نوافذ الغرف إلى حيطان هذا البهو الحزين. لِمَ غياب هذه الأشعّة ونحن في عصر يومٍ ربيعيّ جميل؟ أتخاف كلارا من فضح عالمها أمام أشعّة الشمس؟

كانت أرضيّة البهو على شكل مربّعات بيضاء وسوداء متقاطعة، وكنت أتقدّم عليها رويدا كبيدق يعتلي رقعة شطرنج. تلك لعبة تعلّمتها بعد سنوات من ذلك اليوم الغريب. علّمتني إيّاها زرقاء العينين، طيّبة القلب. تلك التي تزوّجتها قبل "أحلام"، وهي التي وضعتني "فوق الطاولة" في مونريال، ثمّ وضعتُها أنا بعد ذلك في أوّل مزبلة صادفتُها

في طريقي. علّمتني تحريك البيادق في ليالي الشتاء الثلجيّة، تلك التي لا يجرؤ فيها أحد على تجاوز عتبة بيته. كانت تتقن اللّعبة إلى حدّ مذهل. غلبتها ذات يوم، وأيقنتُ بعد ذلك بأنّني لست غبيّا كما كان أبي يزعم، ولستُ حمارا كما كان سيّد المدرسة يصرخ في وجهي دوما!

دفعتُ باب غرفة أشرف برفق. جوّها كان مفعما بعبق الأدوية ورائحة النوم. كان هو ممدّدا على السرير وملتحفا حتّى العنق بغطاء بنيّ سميك. جبينه يتفصّد عرقًا وعيناه زائغتان، ضائعتان، مثبّتتان في الفضاء وكأنّهما تحت تأثير جسمٍ لا مرئيّ، سلبهما ذلك البريق الخاطف الذي طالما سحرني. تذكّرتُ إحدى جاراتنا في القرية. كنت أزورها مع أمّي عندما كنتُ صغيرا. كان لها ولد ينام وعيناه مفتوحتان أحيانا. لم يكن ذلك بالشيء الغريب بالنسبة لأمّه، فقد تعوّدتْ ذلك. ولكنّني كنت أرتعد خوفا ويقشعرّ جسمي والأمّ تداعبني قائلة: "تأمّله جيّدا الآن، إنّه ينظر إليك ولا يبصرك! من الأكيد أنّه غارق في أحلام رائقة!".

أعادني منظر أشرف إلى وجه ذلك الطّفل الغريب. ولولا أنّه حرّك حدقتيه السّوداوين تجاهي، لخلته في عالم الأحلام كذلك. ابتسم بعطف وطلب منّي الاقتراب منه بصوت مرتعش. سحبتُ كرسيّا وجلست قبالته. بعد ذلك، وضعتُ يدي على وجهه فلسعتني حرارة مرتفعة تنذر بتدهور خطير إن لم يتم تداركها. قلتُ بحنان أبويّ استغربتُ له: "أنت بحاجة إلى طبيب، وفي الحال!". أجابني وهو يبلع ريقه بصعوبة بالغة: "أعرف ذلك. دع أمر الطبيب لكلارا. سأكون بخير إن شاء الله. المهمّ الآن أنّني أحتاجك في مهمّة عاجلة يتوقّف عليها مصيرنا. أوّلا خذ هذا الكيس ودسّه في ثيابك جيّدا قبل أن تعود تلك العاهرة.

أنا لست قادرا على الوقوف، وقد أبقى على هذه الحال لمدّة أيّام. لذلك أريدك، وفورا، أن......

أصغيتُ إليه باهتمام، واستوعبتُ مهمّتي الأولى. ثمّ دلفتْ كلارا إلى الغرفة بعد هنيهة وعلّقتْ على كتفي مهمّتي الثانية. بعد ذلك تركتُ الشقّة وبارحت البناية. أخذتُ أتجوّل في الشوارع المكتظة وأبحث عن أيّ مكان أخلو فيه إلى النفسي لأفكّر فيما كلّفتُ به منذ لحظات. في عصر ذلك اليوم، كان بي ظمأ شديد للارتواء من سخرية الأقدار!

في إحدى الحدائق جلستُ على مقعد خشبيّ وتأمّلتُ ما حولي. أحسستُ بعطف أشعّة الشمس وهي تداعب وجهي بأناملها الرّقيقة. راودني شعور بأنّ شيئا من ذلك الدّفء قد تسرّب إلى داخلي فأضفى على روحي شيئا من الهدوء والسكينة. تصاعدتْ أنفاس الارتياح من أعلى صدري.. وخيّل إليّ أنّني أراها تحلّق في الفضاء البعيد في ألوان رائعة، شفافة. تعانق المباني، تشدو مع طيور الرّبيع، وتلفح وجوه المارّة المسرعين. كانت تناجي كلّ ما يتحرّك حولي وتقول: "شكرا لوجودك هنا، في هذه اللّحظات! شكرا لمشاركتك إيّاي روعة السلام الداخليّ!". عندما تنقضّ علينا زوابع القلق وتنشبُ مخالبها المسمومة في قلوبنا، تنطفئ الأضواء وتتلاشى كلّ الكائنات من حولنا. لا يبقى في وحشة ذلك الليل النفسيّ المقفر سوى عواء الوساوس وهي تحيط بنا كالذئاب الجائعة. تحوم حولنا وعيونها تلمع بلون الدّم. تحوم.. وتحوم لتضيّق علينا دائرة الهواء والأنفاس. وفي لحظة خاطفة، تنقضّ علينا فتغرس أنيابها الحادّة في كلّ موضع من أجسادنا. تمتصّ الحياة من شراييننا دون رحمة أو شفقة. وعندما نقترب من الأنفاس الأخيرة، تتركنا للحظات معدودة

ثمّ تعود لتستأنف هجومها بضراوة أكثر وبتعطّش أكبر لطعم الدّم المرّ! في هذه المعركة الشرسة، تجدنا نقاوم وندافع بأقصى ما أوتينا من قوّة. نصدّها تارة، وتطرحنا هي أرضا في أغلب الأحيان. ويستمرّ الصّراع، ويشتدّ الليل ظلاما! تعوي الرّياح بوحشيّة، وتتكسّر مخالب الذئاب لتنبثق أخرى. نتمزّق نحن.. ثم نعود لنلتئم من جديد. يمضي الأمر على ذلك الحال. لا غالب ولا مغلوب، ولا يبقى للانتصار أو الهزيمة مكان على أرض المعركة!

لا وجود لليل أو نهار في مدن القلق. لا هزيمة ولا انتصار في وجه أنياب الخوف. كلّ ما نحتاجه هو وقت محدّد فقط! بعده تستعيد النفس هدوءها مهما كانت وحشيّة القتال الدّاخليّ! وقد يحدث شيء ما فجأة، فينهي الليل والرّيح والذئاب في لحظة خاطفة. شيء ما قد ينبثق من اللاّشيء، فيسكب ضوء الرّاحة بين جوانحنا لتعود الكائنات إلى الظهور بيننا من جديد. نتقاسم معها فرحتنا ببزوغ فجر الاطمئنان، ويغمرنا شعور جارف بضمّ كلّ من يعترضنا إلى صدرنا. ويهتف صوت داخليّ: "آه كم أحبّ النّاس... حقّا ما أجمل الحياة!".

ذلك هو أقرب وصف لما ألمّ بي من أحداث نفسيّة منذ حادثة خوانيتو، ومنذ زوبعة الخوف في غرفتي، مرورا بزيارة كلارا المفاجئة وطلبها الغريب، وانتهاءً بمرض أشرف المباغت..ذلك الذي أرغمه على تكليفي بمهمّة طارئة كان هو من سيقوم بتنفيذها.

حطّ عصفور بالقرب منّي وأخذ ينظر في جميع الاتجاهات. حاول أن يلتقط ما يصل إليه منقاره من ذرّات تؤكل. قفز مرّة، ثمّ ثانية. بعد ذلك نفض ريشه وارتفع في خفّة ليحطّ فوق غصن شجرة لا ثمار عليها.

وكأنّني به قد مُنِيَ بخيبة أمل لعدم توفّر الأكل على الأرض وبين الشجر، فأخذ يحرّك رأسه الصّغير متأسّفا بصمت. بعد هنيهة، عقد عزم جناحيه على معانقة سماء المدينة بحثا عن مكان آخر للارتزاق. طار عاليا في الفضاء البعيد. وددتُ من كلّ قلبي أن أحادث ذلك المخلوق الصغير. شعرتُ أنّه من الممكن أن تربطنا صداقة حميمة لأنّنا نتحدّث نفس اللّغة اللاّمرئيّة. وددتُ أن أسأله كيف يبدو منظر برشلونة من أعلى؟ هل هي جميلة وأخّاذة كما هي على الأرض؟ هل هي جديرة بأن نجوب كلّ أطرافها بحثا عن الرّزق؟ وهل هي -إن عثرنا على ذلك المورد- جديرة بأن نستقرّ بها ولا نبارحها إلى مدينة أخرى أكثر بريقا وإغراءً؟ هل ستكفيك برشلونة أيّها الطّائر المعذّب؟ أم ستحلّق فوق بخار سفينة لتحطّ بقدميك الضئيلتين فوق أرصفة ميناء بعيد؟ ميناء المدينة الجديدة، المدينة الأكبر..والأشهى.. والأكثر زخما بفرص الحياة! وهل ستكون تلك المدينة هي الأخيرة في سجلّات رحيلك؟ أم ستتبعها موانئ أخرى... وبحار.. ومدن مبعثرة لا أوّل لها ولا آخر!

بحثتُ عن الكيس في جيبي وفتحته بحذر. سحبتُ منه قصاصة ورقيّة صغيرة الحجم وقرأتُ ما عليها من أرقام. كانت هي كلّ ما أحتاجه لأسمع صوت بلانكو على الطّرف الآخر من سلك الهاتف. رفعتُ بصري باحثا عن كابينة تليفون، فتراءت لي واحدة في زاوية الشارع. هممتُ بالنّهوض لأقصدها ثمّ عدلت عن ذلك عندما لمحت شابّا في مقتبل العمر بصدد استعمالها. كان وجهه رائقا والسّمّاعة تتنقّل بين الأذن والأخرى في حركات رشيقة دون أن تفارق الابتسامة وجهه النّحيف. ربّما كان يغازل حبيبته أو يمازح صديقا. فقد كان اليوم يليق بسماع الأصوات

التي نحبّها. تأمّلتُ ذلك الشابّ لفترة ثمّ أشحتُ بوجهي عنه مسلّما بأنّ محادثة المحبّين قد تطول، وبأنّ مكالمتي التي تبعد كلّ البعد عن العواطف الدّافئة يمكن لها أن تنتظر. لكي أملأ فراغ انتظاري، عدتُ إلى تأمّل ما بداخل الكيس، وشرعتُ في العبث بالأوراق الماليّة التي تملأ أحشاءه. بين الفينة والأخرى كنتُ أصوّب نظرة سريعة باتجاه الشابّ والكابينة من منطلق حرصي على أن أستعمل سمّاعة الهاتف بعده مباشرة. وكأنّني كنت أريد أن أشمّ أو أتذوّق ما قد يكون قد علق بها من كلمات معسولة حتّى وإن لم تكن قد صُنِعَتْ لي! لم أكن قد فرغتُ من عدّ النقود بعد، عندما لمحتُ الشابّ يعيد السمّاعة إلى موضعها ويدفع باب الكابينة في عجلة من أمره. بعد لحظات، غاب طيفه في الزّحام فتوقّفت عن العدّ. لم تكن بي حاجة إلى ذلك. قال لي أشرف وهو يسلّمني الكيس بحذر شديد: "هذه ثلاثة آلاف يورو بالتمام والكمال. لا داعي لأن تعدّها، فقد فعلتُ ذلك من قبلك! كان من المفروض أن أتّصل ببلانكو اليوم لأحدّد معه موعدا لتسليم نصف المبلغ. ولكن، كما ترى، أنا لا أستطيع النّهوض ولا الحديث معه على التيلفون بسبب ملازمة كلارا لي. يجب ألاّ تعرف هي عن أمر رحيلنا شيئا. يجب أن يتمّ هذا الأمر في طيّ الكتمان وإلاّ ستكون العاقبة وخيمة! كلارا طيّبة دون شكّ، ولكنّ انتقامها وحشيّ إن شمّت رائحة الغدر من قريب أو بعيد! سأترك لها رسالة في البريد. ستصلها عندما تكون السفينة قد ابتعدت بنا عن شواطئ هذه المدينة الجحود. المهمّ الآن، هذه هي النقود، ومعها ستجد رقم بلانكو. أعطه المال ولا تسأل كثيرا فانا أثق به تمام الثقة. إن لم يأته خبر منّا اليوم فسيتصوّر أنّنا عدلنا عن رأينا وستضيع الفرصة. لا تنس أن تعلمه بظروف مرضي وأخبره بأنّني سأتصل به قريبا!".

-١٥-

... اتفقتُ مع بلانكو على لقائه في اليوم التالي بمقهى التريفلو. حدّدنا موعدا على الساعة الرّابعة مساءً، ودعاني بحزم إلى أن أكون على الموعد بالدّقيقة لأنّه مشغول جدّا ويومه لا يحتمل أيّ تأخّر أو مماطلة. رددتُ على طلبه بالإيجاب حفاظا على آداب اللياقة، ولكنّني سخرتُ بداخلي من هالة الأهميّة التي أحاط بها نفسه. كُتِبَ عليّ أن أرفض الصّعود على متن تلك الباخرة، وأن أستهزئ بكلّ من يسوّل له غباؤه بأن يختنق في ظلمة صندوق عائم لأجل مدينة ثانية. كُتِبَ عليّ كلّ ذلك، وعلى الرّغم من كلّ ذلك.. هأنذا أوّل من يدفع ثمن تذاكر الرّحيل لمهرّب سافل صوّرتْ له حماقته بأنّ يومه يفوق يَوْمِيَ أهميّة، وصوّر له غروره بأنّ الصّعاليك أمثالي قد يتأخّرون حتى عن الموعد المحدّد لاستلام أطواق نجاتهم. تلك دعابة قَدَرِيَّةٌ ثقيلة، تقبّلتها بابتسامة صفراء وأنا أقفل الخطّ مع بلانكو. لعنتُ أشرف بكلّ ما أوتي لساني من بذاءة. تبخّرتْ لعناتي بين ضجيج المارّة وأصوات السيّارات. بعد ذلك تذكّرتُ وجهه الذابل، المريض، فإذا بي أسامحه على الفور وأتمنّى له حظّا سعيدا في حياته المقبلة التي اختارها. أسرعتُ في خطاي معانقا نور الشّمس من جديد، ثمّ هبّت نسمة خفيفة

البرودة لثمتني بدلال منعش تاركة على شفتيّ مذاقا حُلوًا يشبه مذاق عصير التمر المثلّج في ليالي قريتي الصّيفيّة. أردتُ استبقاء تلك النّسمة، فأبت إلاّ أن تتملّص منّي لتوزع القبلات على غيري من البشر والكائنات. ثمّ هبّت نسمة ثانية بعد لحظات، لازمتني هذه المرّة، ودفعتني بشوق إلى طريق الحانة، إلى مهمّتي الثانية! فكّرتُ براحة نادرة على أمثالي: "بلانكو سيأخذ ثمن تهريب أشرف غدًا. هذا يعني أنّه سيرحل بعد شهر على أقصى تقدير. سأرمي بهذا الماضي وراء ظهري بداية من الآن! عليّ أن أهتمّ بمستقبلي، بمصلحتي لا غير! من المؤكّد أنّ ما كلّفتني به كلارا اليوم سيفتح لي أبوابا مستقبليّة رائعة!". تحسّستُ مفاتيح الحانة القابعة في جيبي. أوصتني كلارا بأن أحرص على عدم ضياعها، فقد كانت نسختها الأخيرة. خوانيتو كان يملك النسخة الثانية، ولكنّه لن يفتح باب البار عشيّة هذا اليوم. لن يفتحه ولن يغلقه لمدّة أسبوعين على الأقلّ. كان قد اتصل بكلارا إثر الواقعة وروى لها التفاصيل بتوتّر شديد، ثمّ استأذنها في طلب الشرطة. فقالت بأنه لا داعي لذلك، فالمئات يتعرّضون لِما تعرّض له هو بصفة يوميّة في برشلونة. الشرطة لا تفعل شيئا سوى الوصول إلى مكان الحادثة بعد ساعات من وقوعها. تسأل الضّحيّة أسئلة روتينيّة ثمّ تملأ فراغ ورقة "محضر". ورقة قدرها المحتوم خزائن الأرشيف المليئة بالغبار وأنياب الفئران. أخبرتني كلارا أنّ خوانيتو عاد ليتّصل بها ثانية ليعلمها بأنّ حالته النّفسيّة لن تسمح له بالعمل في الأيّام المقبلة. أسبوعان على الأقلّ، يريد خلالهما أن ينفض عن روحه آثار الصّدمة ويريح جسده من عناء الحان وزبائنه وعمّاله.

لم يكن لكلارا من خيار سوى قبول طلبه، فقد كان وكيلها الوحيد

في إدارة العمل، كما أنّه لم يأخذ إجازة من العمل منذ سنوات طويلة.

ازداد تأكّدي من أنّ عمليّة السّطو على خوانيتو مرّت بسلام. فلو لم يكن الأمر كذلك، لكنت الآن تحت أضواء الاستجواب في أحد مخافر الشرطة، ولما طلبتْ صاحبة الحان منّي التعهّد بإدارته طوال مدّة غياب مديره! في ذلك اليوم المشمس، العابق بحبّي لتلك المدينة ولشوارعها وسكّانها، لململتُ ما بقي من تلك الحادثة وما علق بها من مخاوف وألقيتُ بها في ركن مهجور من الذاكرة. عبرتُ الشارع إلى نوافذ الحانة المظلمة وبابها الموصد.

بين الرّصيف والرّصيف خُيّل إليّ بأنّني أقطع نهرا من الأحلام المزعجة. أعبره إلى حقيقة تعدني بمستقبل مشرق وأيّام جميلة. حقيقة صدحتْ أنغامها السّاحرة في قلبي في صوت يشبه في عذوبته صوت أمّي. صوتٌ ناعم قادني كسرب من أسماك الدّلفين الوديعة إلى مرفأ لا يخرج عن إطار المدينة، بل يعيش في قلبها وفي حضنها الذي أدمنتُ قسوته وعطفه. في صميم ذلك الإطار، كانت الحانة تنتصب أمامي بحيطانها البيضاء وبابها الحديديّ الذي أملك مفاتيحه. كانت تدعوني لأن أكون سيّدها الجديد وقائدها المطاع ولو لفترة وجيزة. ثقة كلارا بي، وما وضعتْه على عاتقي من مسؤوليّة كانا يحملان أكثر من دليل واضح على أنّني، عاجلا أم آجلا، سأحتلّ مكان خوانيتو. فقد كنت أدرك تمام الإدراك أنّ قرارها بتعييني كان مستمدّا من حرصها على استبقاء أشرف على فراشها أطول مدّة ممكنة. وبما أنّ سانتو غبيّ ولا يصلح إلاّ لحمل القوارير على الأطباق، وعيسى مخلوق ضعيف لا يمكن له العيش أو التنفّس خارج جدران المطبخ والأواني وبخار الزيت المقليّ، فلم يكن

أمامها غيري تستأمنه على مورد رزقها. ربّما كان أشرف هو الذي دعّم تلك الثقة ووطّد أركانها في رأسها المريض. ربّما لم يكن يهمّه أن أكون أنا سيّد البار بدلا عنه. فقد كان يتصوّر أنّنا سنسافر معًا بعد شهر وأنّ أمر الحان لم يعد من الأهميّة ممّا يستحق المنافسة والتخطيط. ربّما كان الأمر كذلك، ولكنّ أسباب تلك الثقة لم تكن على قدر كبير من الأهميّة بالنسبة لي. كان ذلك لسبب بسيط جدّا، وهو أنّ مشارف المستقبل بدت لي واضحة وضوح وجه الشمس في سماء ذلك اليوم: "أشرف سيختفي من برشلونة، وخوانيتو عجوز ولن يدوم على رأس الحان إلى الأبد. سأثبت لكلارا بأنّني أهل لهذه المسؤوليّة. وعندما يحين الوقت وتسنح الفرصة، لن يكون أمامها غيري!". فتحتُ النوافذ للتهوية وأضأتُ أرجاء القاعة. خيّل إليّ أنّني أرى كلّ شيء فيها لأوّل مرّة: الطّاولات الخشبيّة وقوارير الكحول المصفّفة على الرّف الحائطيّ المعلّق وراء خوان البار. أخذتُ أتجوّل في كلّ ركن من أركانها تحملني طاقة غريبة من الحزم والإصرار. عبرتُ الباب الخشبيّ المؤدّي إلى المطبخ لأتفقّد مخزونه من اللّحوم والخضراوات. كان كلّ شيء جاهزا لقدوم عيسى ولاستئناف دورة الصّحون والطّلبات. عند عودتي إلى القاعة الرّئيسيّة، صادفني موضع خوانيتو. هناك حيث كان يجلس نافشا ريشه كالطّاووس. "هذا هو مكاني الآن! أكان عليّ أن أسطو على مال كلارا حتّى أصبح المؤتَمَنَ الوحيد عليه؟ هل الخطأ هو السبيل الوحيد لبلوغ المكان الصّحيح؟!".

كان عيسى أوّل القادمين، ثمّ تلاه سانتو بعد فترة قصيرة. لم يبد على كليهما أيّ أمارات الاستغراب من وجودي بدل خوانيتو. علمتُ بعد ذلك بأنّهما تلقّيا مكالمة من كلارا وَفَّرَتْ عليهما وقع المفاجأة.

كان عيسى كعادته في موجة فرح دائمة، وفي حالة حبّ متواصل لكلّ ثانية يعيشها. بادرني بخبث أوّل وصوله: "أهلا بالمعلّم الجديد! أرجو ألاّ تكون شديدا علينا خلال الأسابيع المقبلة كالمعلّم القديم!". أجبته مازحا: "بل أنا أشدّ دناءة منه! إن لم تغيّر ملابسك ولم تشرع في العمل خلال الدّقائق العشر التالية، سأفصلك فورا وسألقي بك من الباب الخلفي للمطبخ!". في حركة مسرحيّة، أمسك عيسى رأسه بكفّيه وانحنى انحناءة خفيفة وهو يركض ويتمتم: "اللّهمّ سترك... اللّهمّ سترك!". ثمّ التفت إليّ وهو يكاد يتوارى خلف باب المطبخ. ابتسم مصدرا بإصبعه حركة قبيحة أجبتُ أنا بمثلها. انسحبتُ وراء خوان البار وفتحتُ الثلاّجة العريضة التيّ تمتدّ على طول المنتصف السفلي للحائط. أخذتُ في رجّ أواني الثلج على الأرض لأفصل بين المكعّبات البيضاء الملتصقة ببعضها بعضا، ثمّ أعدت الأواني إلى مكانها داخل الثلاّجة. قبل أن أقفلها، لاحظتُ أنّ بها فضاءً يتّسع للمزيد من زجاجات البيرة. قصدتُ المخزن الخلفيّ لأبحث عن صناديق الكحول المختبئة في أركانه المظلمة. أشعلتُ النّور الخافت للمخزن، وشرعتُ في تغيير قميصي لأرتدي اللون البنفسجيّ الذي كنتُ أقابل به الزبائن كلّ ليلة. لم يتغيّر أيّ شيء في الحانة اليوم. كلّ ما تغيّر كان ما بداخلي فقط: ثقتي بنفسي وبجدوى غربتي الموحشة، ذلك كلّ ما تغيّر. لا أكثر! قرّرتُ ألاّ أجلس في موضع خوانيتو، وأن أستمرّ في المزاح مع عيسى وفي تجاهل سانتو طالما هو يتجاهلني بوقاحة هادئة. المهمّ هو أن أكون حازما مع الأخيرَيْن إن لاحظت تكاسلا منهما في العمل، أو تثاقلا في خدمة الزبائن. عدتُ بالزجاجات ورصّفتها بإحكام داخل الثلاّجة. بعد ذلك، فتحت درج "الكاسة" وأخذت في عدّ النقود التي سأبدأ بها ليلتي.

فجأة سمعتُ وقع خطوات أقدام ثقيلة تعبر هدوء القاعة لتخترق حفيف الأوراق التي بين أصابعي. سانتو كعادته، لا يعرف الابتسامة قطّ. العبوس هو عالمه الذي لا يعرف الخروج من دائرته أبدا. تجاعيد جبينه المقطّب تمتدّ على وجهه كالوديان السحيقة قاطعة كلّ الطّرُق بينه وبين كلّ من يحاول مصادقته أو ممازحته أو حتى تبادل أطراف الحديث معه من حين لآخر. حاولتُ مرارا أن أنفذ إلى ما وراء جدار الصمت الذي يفصلنا، أن أكسره لأعرف منه أين يسكن؟ هل هو متزوّج وله أولاد؟ ماذا يحبّ وماذا يكره؟ ما مشروبه المفضّل ومن يشجّع من فرق كرة القدم؟ ولِمَ يُصِرُّ على إبقاء شاربين رماديّيْن تحت ظلّ شعر مسترسل كثيف السّواد؟ هل هو بذلك يستعجل الزمن أم يستدرج الوقار؟ أم أنّه يبحث عن شيء من الفوضى والتناقض ليكسر بهما رتابة تنقّله اليوميّ بين طاولات السكارى واضعا القوارير في أيادٍ مرتخية لا تكفّ عن تحريكه في فضاء القاعة ضدّ مشيئته. أياد تطلب المزيد من الكحول، المزيد من وقود النسيان. رؤوس مشلولة، لم تفكّر قطّ في التوقّف للحظة لتتساءل عن سبب وجود كهل بهذا العبوس البارد في مكان زاخم بحمّى الصّخب. أغلب الظنّ أنّ سانتو كان يبادلهم نفس الشعور، يستنشق اللاّمبالاة من أنفاسهم الكحوليّة ويعود لينفثها في وجوههم من جديد. لم يكن يربطه بهذه المخلوقات الغريبة عن عالمه السريّ سوى مرتّب ينتظره كلّ شهر. ولم يكن يربط الزبائن به سوى سكرة تنتظرهم كأرق مزمن في ذات الرّكن من ذلك الحان القذر! حاولتُ مرّات عديدة أن أنفذ إلى عالم ذلك الكهل الملتزم بالصّمت، أن أقارن بين ما يخفيه كلانا من آلام الوحدة. فالصّمت في نظري قناع رديء لإخفاء الألم، لا يقلّ رداءة عن تعاطي الخمر. الألم لا يختفي إلاّ بالثرثرة مع من نحبّ، كائنٌ مسموم لا يُذبَحُ إلاّ بسكّين المواجهة.

حاولت مع سانتو كثيرا: بالأسئلة، بالابتسامة، بالنّكت... دون جدوى! كان ذلك في بداية التحاقي بالخدمة وراء خوان البار. ولكنّه كان يصدّني دائما ويحوّل مجرى الحديث ببرود سرّيّ. يحوّله إلى سياق ما يطلبه زبون مخمور في هذا الرّكن أو ذاك! في نهاية الأمر، توقّفتُ عن محاولاتي اليائسة وقرّرتُ أن أقلع عن مضايقته، أن أدعه وشأنه، أن أتجاهله كإنسان وأستعمله كآلة مبرمجة لتوزيع الخمر على أفواه السّكارى!

كان ذلك هو سانتو بالنسبة لي، وكانت تلك هي علاقتي معه. ولم تكن لتتغيّر أو لِتُنْفَخَ الرّوح في موتها المبكّر يوم لمحته ذلك اليوم وهو يتقدّم نحوي بنفس الخطى المتثاقلة، بنفس الثياب غير المتناسقة، ونفس الحذاء القماشيّ المتّسخ بياضه. أشار إليّ بيده في تحيّة فاترة، ثمّ انحرف يسارا إلى ناحية المخزن حيث القميص البنفسجيّ ينتظره.. يدعوه بمكر لأن يرتديه دون مجادلة أو نقاش. يجرّه مُكْرَهًا إلى ليلة ليست كاللّيالي. ليلة سيكون فيها تحت إمرتي المطلقة. عاد بعد برهة، وأخذ في مسح الطّاولات وتكليلها بمنافض السجائر النحاسيّة. سألني بوقاحة باردة عن مدّة غياب خوانيتو، وكأنّه يؤكّد لي رفضه التامّ لوجودي في ذلك الموقع منه، موقع المدير الآمر من العامل المأمور. جوابي له كان بنفس حجم سؤاله، بذات درجة الفتور: "أسبوعان أو ربّما أكثر، لا أدري!". بعد ذلك، أغلقتُ درج "الكاسة" بعد أن وضعتُ فيها ما عددته من مال، وانصرفت باتجاه آلة التسجيل لأدير شريطا موسيقيّا. انطلقت الأنغام عبر فضاء القاعة. لحظات وطفت تموّجاتها فوق ذلك التوتّر المسائيّ الصامت بين سانتو وبيني. الحان الآن يستعدّ لاستقبال أوّل زبائنه. لم يخطر ببالي أنّ سانتو كان يضمر شيئا. وأنّه سيغيّر مجرى حياتي بعد ثلاثة

أسابيع من ذلك المساء بالتحديد. لم أكن أعلم أنّه يعدّ لي يوما مشؤوما حبَك خيوطه المسمومة في الدهاليز السريّة لعالمه الغامض.. المجهول. ذلك العالم الذي طالما حاولت النفاذ إليه دون جدوى. لا أملك دليلا قاطعا إلى هذه اللحظة بأنّه هو الّذي دبّر ذلك اليوم الأسود لينتقم لنفسه ولصمته. ولكنّني كنتُ أعرف.....

لم يكن لغياب خوانيتو أيّ أثر يذكر على سير تلك اللّيلة. الجميع ملتزم بعمله كما يجب الالتزام. بعض الزبائن -وأوّلهم فرناندو- تساءلوا عمّا حدث له، ذلك الرجل الطيّب حسب قولهم. تساءلوا إن كان قد خرج من حادثة السّطو سليما معافى. في ذلك المكان كانت الأخبار تسافر بسرعة النار في الكحول، وكنت متأكّدا بأنّ فرناندو هو الذي أشعل أوّل فتيل. ومن غيره؟ فعيسى لا يغادر المطبخ إلاّ نادرا، ولا يتحدّث مع الحرفاء لأنّه لا يتقن من الإسبانيّة إلاّ بعض الكلمات القليلة، نصفها شتائم قبيحة.

يأخذ فرناندو رشفة من بيرته ويحادثني بصوت عال. يؤكّد لي بأنّه لو كان في مكان خوانيتو لما خرج اللصوص من بين يديه أحياءً. أومأتُ إليه مصدّقا على كلامه، فلا المكان ولا المزاج كانا يسمحان بأن أذكّره أنّ طليقته كانت تضربه وتطرده من المنزل في أنصاف الليالي! الأخبار تسافر بسرعة في ذلك المكان، وما يخفيه أحدهم من أسرار.. لا يلبث أن يدلي به من تلقاء نفسه بعد بضعة أقداح. سانتو يلتزم بالصّمت دوما، فلِمَ ألقى بكلّ ما كان يحمل في جعبته من أخبار مزعجة هذه المرّة؟ من الأكيد أنّه فعل ذلك متعمّدا ليقذف الرّعب في قلوب الزبائن: "ماحدث لخوانيتو يمكن أن يحدث لكم أيّها السّفلة! الأحياء المحيطة بهذا المكان أصبحت خطرة،

فتجنّبوا البقاء هنا إلى ساعة متأخّرة من الليل. الأوباش سطوا على رجل في كامل صحّته وعنفوانه، فما الذي سيمنعهم من السطو على أجسادكم المترنّحة وأنتم تغادرون هذه الجدران!". أذلك ما كان يقصده سانتو؟ أكان يريد لعدد زبائن الحانة أن يتقلّص؟ أن تعلن الحانة إفلاسها وتقفل أبوابها إلى الأبد؟ أمن المحتمل ألاّ تكون له الشجاعة الكافية لمغادرتها بمحض إرادته، ففضّل أن تستقيل هي منه؟!

-١٦-

كانت عقارب ساعتي تشير إلى الثانية والنّصف بعد الظّهر. تردّدتُ لبضع لحظات قبل أن أنقر باب الشقة بظهر سبّابتي اليمنى متعمّدا أن يكون طرقي خفيف الوقع على الأذن. انتظرتُ قليلا لعلّي أسمع وقع خطوات قادمة. لم يحدث شيء. تساءلتُ إن كانا لايزالان نائِمَيْن، واشتدّ بي الشّوق لمعرفة أحوال أشرف. أردتُ أن أعرف إن كانت حرارته قد انخفضتْ وأصبح قادرا على الحركة.

استأنفتُ الطّرق على الباب وتعمّدتُ أن يكون أكثر حدّة هذه المرّة. بعد هنيهة، تناهى إلى سمعي وقع خطوات بطيئة تقترب. انفرج الباب عن وجه كلارا الهزيل ذي العينين الغائرتين. تبادلنا تحيّة العصر، واعتذرتُ بأدب عن الإزعاج المفاجئ. أجابت بأنه لا يوجد داع للاعتذار. أشارت لي بالدّخول، ثمّ سارت بي إلى أوّل غرفة على اليسار، إلى المطبخ. استرقتُ النظر إلى البهو. كان لا يزال على حاله من الكآبة والحزن.. تماما كما تركته في عصر اليوم السّابق. أمّا المطبخ فقد كان أكثر بهجة وإشراقا. حيطانه زرقاء بلون السّماء، وعلى الطّاولة القابعة في الرّكن انتصبت مزهريّة شفّافة تحتضن أزهارا فاقعة تنتمي إلى فصيلة عبّاد الشّمس.

كان لون غطاء الطّاولة بنيّا داكنا. بدت الأزهار وكأنّها منبثقة لتوّها من تلك المساحة الطّينيّة اللّون معلنة ولاءها الدّائم لأشعّة الشّمس المتسرّبة عبر زجاج النافذة المطلّة على الشارع الخلفيّ. فتحتْ كلارا باب الثلاّجة وناولتني زجاجة بيرة بعد أن أدارت غطاءها الحديديّ بحرفة خمّار قديم.

تناولتُ الزجاجة شاكرا وتجرّعتُ أوّل دفعة منها. أشارتْ إليّ بالجلوس على أحد المقاعد، فسحبتُ أحد الكراسي المحيطة بالطّاولة وجلستُ بهدوء يشوبه نوع من الخجل. أخذت هي في تحريك خلطة كانت تغلي في قدر نحاسيّة على السخّان. كانت رائحتها تشبه رائحة شوربة البصل. تحرّكتْ معدتي في اشمئزاز بغيض، فأسرعتُ إلى أخذ جرعة ثانية من زجاجة البيرة المثلّجة. لم أكد أهمّ بسؤالها عن حال أشرف، حتى أحسستُ بكلماتي تتراجع بعنف إلى عمق صدري حيث استقرّتْ جرعة مرتبكة في رئتيّ بدل أن تنزل إلى معدتي.

انتابتني نوبة سعال شديدة، وشعرتُ بأنّ الدّم سيتفجّر من عروق وجهي. بحثتُ عن شيء من الهواء، فلم أجد غير فراغ قاتل. أصبحتْ كلّ الأشياء حولي رماديّة، قاتمة. شعرتُ بأنّ قلبي توقّف عن النّبض: سأموت حتما! هرعتْ إليّ كلارا بكوب ماء بارد أفرغتُه في أمعائي كدواء سحريّ نزل من السّماء فجأة. دواء أعادني ثانية إلى الجدران الزّرقاء بلون السّماء، وإلى زجاج النافذة البلّوريّة وأشعتها المنسكبة على أوراق أزهار عبّاد الشّمس.

ثمّ وجدتني أمام ذلك الوجه الشّاحب الذي يكاد يلامس وجهي، وتينكِ العينين الذابلتين المحدّقتين في عينيّ بعطف طفوليّ. شفتان مرتخيتان تدعواني إلى سحب نفس عميق. بعد أن استرجعتُ أنفاسي،

انفجرتْ كلارا في ضحكة عابثة وعادت إلى حسائها تحرّكه بهدوء. قالت: "كيف لي أن أعهد لك بإدارة الحانة بعد اليوم وأنت لا تتقن أبسط قواعد تناول البيرة..هه.. هه!". بلعتُ ريقي وأجبتُ خَجِلًا: "معك حقّ، كان من المفروض أن أنتظر حتى تستقرّ الجرعة في معدتي قبل أن أقرّر فتح فمي بالكلام!". ابتسمتْ ثمّ أردفتْ:

- كيف كانت ليلة البارحة؟ هل وجدت ذلك صعبا؟

- على العكس، كلّ شيء مرّ على أحسن وجه. هذا الظّرف لكِ، فيه وصل بكلّ المبيعات إلى جانب مبلغ محصول اللّيلة. أتريدين عدّه للتأكّد من صحّته قبل أن أتركك؟.

- لا داعي لذلك. سأراجع الحسابات فيما بعد! الآن وجب عليَّ إعداد هذا الحساء لصاحبك، فهو لم يتناول شيئا منذ ليلة البارحة!.

- كيف حاله الآن؟ هل يمكن لي أن أراه؟

- لقد تحسّن تدريجيّا وهو نائم الآن. أتيتُ له بالطّبيب وأحضرتُ كلّ الأدوية التي طلبها. أفاد الحكيم بأنّها جرثومة لا تُقْهَرُ إلاّ بالرّاحة التامّة وشرب الكثير من السّوائل بصفة مستمرّة. عليه ألاّ يغادر الفراش لمدّة لا تقلّ عن أسبوعين. أرجو أن يلتزم بهذه النّصائح، أنت تعرف كم هو عنيد!.

ابتسمتُ موافقا، وتذكّرتُ الجوارب النّسائيّة والأقنعة المتعفّنة. لا يمكن لجرثومة كالّتي وصفها الطّبيب أن تعيش إلاّ بين تلك الأنسجة القذرة. أرجو ألاّ يصيبني ما أصابه، فأنا بحاجة إلى كامل قواي الجسديّة والعقليّة في الأيّام المقبلة.

- إذن.. سأمرّ لرؤيته غدًا.. أو خلال الأيّام المقبلة. بلّغيه تمنّياتي له بالشفاء السّريع!

- سأفعل ذلك. إن واجهتك أي صعوبات في الحانة.. فأنت تعرف رقم تيلفوني.. لا تتردّد في الاتّصال بي.

أومأتُ بالإيجاب، وتمتمتُ ببضع كلمات شكر مرتبكة. ثمّ وجدتني بعد ذلك أمام فنجان "إسبريسّو" فائح الرّائحة من صنع يديّ صديقي أرماند. هناك.. على طاولة الرّكن الأيمن حيث كنت أجلس دائما في مقهى التريفلو.

مضت خمس وأربعون دقيقة وأنا جالس على نفس المقعد. قضيتُ معظم الوقت في تصفّح جريدة إسبانيّة مبهمة الكلمات، وتأمّل أرماند وهو منهمك في عمله بجدّ ونشاط. كان يحلو لي متابعة ساعده ذي الوشم وهو يتحرّك في الفضاء حاملا أشياء وواضعا أخرى. كان يخيّل إلي أنّ الرّوح قد نُفِخَتْ في المرأة الحزينة المرسومة عليه. بين حين وآخر، تشغلني نغمة موسيقى أو حركة زبون قادم أو مغادر. وقد تلهيني الضوضاء المتسرّبة من الشارع كلّما فتح أحدهم باب المقهى الخشبيّ ذا النّافذة البلّوريّة المستديرة. لأوّل مرّة ألاحظ أنّ ذلك الباب كان يشبه مدخل كابينة قبطان. في ذلك اليوم بالتحديد.. كان كلّ شيء يشبه الرّحيل!

وجه من الصّعب نسيانه. وجه بلانكو. عيناه الذكيّتان، وابتسامته الغامضة. لا يمكن لأحد أن يمرّ بتلك الملامح دون أن يتوقّف ليتساءل عن سرّ ذلك الغموض وعن باطن تلك الجاذبيّة الهادئة. على السّاعة الرّابعة إلاّ دقيقة لمحتُ ذلك الرّأس الأصلع يلمع تحت أشعّة الشّمس المتسرّبة عبر النافذة المستديرة لمقهى التريفلو. ظهر بلانكو بقامته

المتوسّطة، وصليبه المتوهّج على صدره. بذلك الحضور الصّامت.. المدهش. أجال بصره في كلّ أرجاء القاعة باحثا عنّي. لم أمهله طويلًا. رفعتُ يدي محيّيا ومشيرا إلى مكان جلوسي. ابتسم بطريقة أوحتْ لي بأنّه تذكّر وجهي، ثمّ تقدّم نحوي بهدوء وجلس قبالتي. لم يصافحني، ولم تصدر عنه أي عبارة تفيد التحيّة. في قريتنا، ذلك "عيب" كبير وقلّة أدب قد يُكسَرُ من أجْلِهِ كرسيّ على رأس أحد، أو تتحطّم طاولة في مقهى. أمّا هنا، فالتحيّة أمر ثانويّ، شيء اختياريّ، ليس من المفروض على أحد الالتزام به! هنا، قد يدخل أحدهم معك في صلب موضوع ما دون أي مقدّمة، وربّما دون خاتمة كذلك! صلب الموضوع، ذلك ما كان يهمّني.. وذلك ما كان يهمّ بلانكو!

"الرّحيل بعد خمسة أسابيع. يوم السّبت على وجه التحديد، على العاشرة صباحًا. سأمهّد لدسّكما في قلب الباخرة قبل يوم من ذلك التاريخ. في غالب الأمر سيكون ذلك ليلًا، أو ربّما مع بزوغ الفجر. تلك تفاصيل سنناقشها فيما بعد. المهمّ أن يكون النّصف الثاني من المبلغ في حوزتي قبل موعد العمليّة بأيّام! بلّغ أشرف بذلك، وأخبره أن يتّصل بي في أقرب فرصة ممكنة!"

"ما أجمل أن ينتهي موضوع لا يهمّك بهذه السّرعة.. بهذا الحَسْم!". قلتُ ذلك في نفسي وأنا أرقب بلانكو وهو يدسّ كيس النّقود في جيبه ويغادر المقهى دون تحيّة تختم لقاءنا. تَعَبُ أشرف وعرقه، حصاد اللّيالي.. وتحمّله لجنون كلارا. كلّ ذلك اختفى أمام عينيّ في ثنايا سترة مهرّب غامض دون إيصال بالاستلام ودون أيّ ضمان يُذكر. خشيتُ أن يفيق أشرف من حمّاه ليجد خيبة الأمل في انتظاره!

ما المانع أن يكون بلانكو محتالًا من الدّرجة الأولى؟ ما الّذي يمنع ذلك؟.. لا شيء! من الغباء أن يضع هو ثقته بشخص مريب من أمثال بلانكو دون أن يحسب حسابًا لضربة غادرة من الخلف، أو لسفينة قد تغادر مرافئها من دونه، أو ربّما لسفينة لا وجود لها على الإطلاق!

تتابعت الأيّام متشابهة وسريعة. لم يظهر خلالها أيّ أثر أو خبر لخوانيتو. دسستُ رأسي في رمل "الرّوتين" وتناسيتُ يقين ظهوره في أي لحظة. أجّلتُ شعوري بالذنب تجاهه إلى يوم عودته، وانغمستُ في إدارة الحانة وفي كتابة الرّسائل لأمّي. كلّما صادفتني لحظة فراغ يوميّة، أطلَّ عليَّ بوجهه الأسمر وحاجبيه الكثيفيْن. بحبل ملتفّ حول رقبته، وبإصرار مقيت على إعادتي إلى أحداث تلك اللّيلة الرّهيبة! كنتُ في حالة هروب دائم من ذلك الوجه، باذلًا كلّ ما أوتيت من جهد في الانشغال عنه بممارسة أيّ عمل أو نشاط مهما كانت تفاهته كعدّ الشّقوق المتشعّبة على سقف غرفتي أو محاولة تذكّر أسماء كلّ من كان معنا على زورق الموت إلى إسبانيا!

في اليوم الموالي للقائي مع بلانكو، عدتُ لزيارة أشرف. تلقّاني البهو بحزنه المعتاد. أغلقتْ كلارا الباب ورائي ثمّ انسحبتْ إلى المطبخ في صمت. مضيتُ في طريقي إلى الغرفة متحاشيا النظر إلى اللّوحات والصّلبان، ولكنّني لم أستطع تجاهل أبواب الغرف المغلقة وزجاجها الملوّن. كان الذبول لا يزال يكسو وجهه، وبدا عليه الضّمور رغم قصر مدّة مرضه. كان جالسا على سريره، مستندا بنصفه الأعلى إلى الوسادة الفاصلة بينه وبين الحائط، وكان الغطاء البنّي يكسوه حتى جذعه. ازدحمتْ الطّاولة الصّغيرة التي تحاذيه بزجاجات وعقاقير يتوسّطها

كوب ماء تغطّيه علبة أقراص وجريدة مطويّة بعناية. الجرائد لا تعني لأشرف شيئا أكثرمن متابعة الصّور الملوّنة التي تغطّي معظم صفحاتها وخاصّة الرّياضيّة منها. هناك كان يتوقّف عن التصفّح محملقا في صورة لاعب كرة قدم من الجيل الجديد ومتفوّها بنفس الجملة المتحسّرة: "أصغر منّي... ويلعب بالملايين، لعنة اللهّ على الدّنيا الكلبة!". كنّا نتشابه في تصفّح الجرائد مع فارق واحد وبسيط: الصّورة الوحيدة التي كانت تعنيني.. هي صورتي. كنت دائم الخشية أن أراها ذات يوم تتوسّط صفحة الحوادث!

- يكاد المرض أن يمتصّ الدّم من وجهك... وما زلت تدخّن؟!

- ليس لدي حلّ ثان سوى الحديث مع الجدران... أترضى لصاحبك أن يحادث نفسه؟!

- وكلار؟

- الحديث مع الجدران أرحم. أخبرني... هل نفّذتَ ما كلّفتك به؟

- بلانكو استلم المبلغ. هل أنت واثق من وعوده؟ أخشى أن يكون محتالا!

- دعك من الخوف! ذلك هو الشيء الوحيد الذي يجب أن تخشاه! لو خفت، لما وصلت إلى هنا... أتذكر؟

- نعم أذكر، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- لن أكون معك هذه المرّة!

تدفّق دخان كثيف من أنفه، ثمّ أطفأ نصف سيجارته في المنفضة الجالسة على ركبتيه. لم أكن قد رأيت في حياتي أشرف يستغني عن سيجارة قبل أن يكاد لهيبها يلسع أصابعه. كان يحبّ أن يفنيها دومًا إلى آخر نفس، أن يطفئ لهيبها في صدره بدل أن يستأثر به قاع منفضة. ركّزتُ نظراتي على يده المرتعشة وهي تحاول إخماد الرّماد المشتعل، وانبعثت رائحة حريق كريهة. لكلّ شيء قوانين وأصول، حتّى إطفاء السجائر! لكلّ شيء قوانين وأصول حتى إلقاء الأخبار المزعجة على الأصدقاء! تسرّب إلى نفسي ندم شديد على تسرّعي، وحبستُ أنفاسي منتظرا ردّ فعله. لم تكن أوّل مرّة أقدم فيها على أمر قبل أن أفكّر في عواقبه، وقطعا لن تكون آخر مرّة! أهمّ ما في الأمر هو أن نتقن فنّ ترويض النّدم، عندئذ تصبح الحسرة سيجارة سهلة الإخماد، لا رائحة لها ولا دخان!

- ماذا تعني بذلك؟

- أعني ما قلت. سأبقى هنا.. سأستمرّ. لا أرى موجبا للرّحيل، كدنا أن نموت في طريقنا إلى إسبانيا، فلم المغامرة من جديد؟!

- حياة أفضل.. وأوراق.. وعمل في النّور. إلى متى ستبقى "تحت الطّاولة" هنا..هه.. إلى متى؟!

- من أقنعك بهذا الهراء، بلانكو؟ أنا لا أثق به ولا بقصصه. قد يكون الأمر مشابها هناك، أو ربّما أصعب! سمعتُ أنّها بلاد صقيع وجليد. تتجمّد العروق فيها والأطراف، وقد يموت الإنسان بردًا على قارعة الطّريق ولا ينجده أحد! لن تحمينا الحدائق العموميّة والأرصفة هذه المرّة. وأخشى أن..

- تخشى أن تعود إلى القرية في تابوت من الثلج ولا تخشى أن تكون سجين هذه المدينة الجحود إلى الأبد! في كلا الحالتين أنت ميّت، وقد...

- ما الفرق بين هنا وهناك.. هه.. أجبني.. ما الفرق؟!

- الفرق بسيط جدّا. مهما فعلت هنا، فلن ترى الأوراق في حياتك.. حتّى وإن تزوّجت. أتعلم لماذا؟ لأنّك دخلت إلى هنا "حارقا" منذ البداية. أثبتّ سوء نيّتك بدخولك إلى أراضي هذا البلد كلصّ متسلّل في الظّلام. لكي تثبت حسن نواياك، ستطلب الدّولة الإسبانيّة من زوجتك الرّحيل معك إلى بلادك إلى أن تنتهي إجراءات الموافقة على طلبك للهجرة. ذلك أمر قد يستغرق أعوامًا وأعواما. ماذا ستفعل بالعاهرة إن عدت بها إلى القرية، هذا إن وافقت على العودة معك طبعا! ولنفرض أنّها وافقت، فكم من المدّة سترضى بالعيش معك بين الدّواب والأوساخ؟! في مونريال.. الأمر مختلف جدّا، إذ لا يهمّهم هناك كيف دخلت إلى البلاد. المهمّ أن تظهر لهم أخيرا وبيدك واحدة من نسائهم. وإلى أن يحدث ذلك، فلا يحقّ لشرطيّ أن يستوقفك أو أن يسألك من أنت أو كيف أتيت! بوليس الهجرة هناك لا يهجم غدرا.. أفهمت ما الفرق الآن؟

- لا ضمان لأيّ شيء في هذه الدّنيا. بلانكو أخذ ثمن تهريبك، أمّا أنا، فلن أسافر معك.. وذلك هو قراري النّهائيّ!

- ألا تخشي أن تصبّ كلارا جام غضبها عليك بسبب هروبي.. كأن تطردك من الشغل مثلا؟

- ذلك وارد طبعا، ولكنّني لم أفكّر بالأمر. لا أظنّها ستفعل ذلك، سأدّعي بأنّني قد خُدِعتُ كذلك وبأنّني لم أعلم بالأمر مثلها تماما.

قد تصبح صداقتنا أكثر متانة بحكم أنّنا ضحيّتان لشخص واحد!

غمزتُ له مبتسما، وأقسمتُ له بأنّنا سنبقى صديقين مهما كلّف الأمر ومهما بعدت المسافة. الرّسائل والتليفونات اختراعات رائعة!

- أين المال الذي أخذناه من خوانيتو؟

- في الغرفة، في الحفظ والأمان. سأعطيك نصفه قريبا فورما تتحسّن حالتك ونلتقي خارج هذه الشّقّة.

- إذن فقد أقدمت على مشاركتي في عملية السّطو.. فقط من أجل المال؟

- لا أدري... ربّما!

احتلّ الصّمت بيننا مساحة بضع دقائق. أشعل أشرف سيجارة ثانية حين سمعتُ وقع خطوات كلارا تقترب من الحجرة. هممتُ بالنهوض ونظرت إلى ساعتي متظاهرا بضيق الوقت. بعد ذلك اقتربتُ من أشرف وقلتُ مبتسما:

- سأراك عمّا قريب. خذ نصيبا وافرا من الرّاحة، أنت في حاجة لاستعادة عافيتك في أقرب وقت.

- فكّر بالأمر جيّدا. ما زالت هناك فرصة لمراجعة نفسك. ستندم إن بقيت هنا!

أراد لتلك الكلمات أن تخرج في شكل إنذار أو ربّما نصيحة. ولكن بين عينيه المكسوّتين بطبقة بلّوريّة من الدّمع وذلك الصّوت المتهدّج المتعثّر بين الحروف، وجدتني في مأزق ضرورة الاستجابة لصديق يتوسّل.

مأزق استعجلني لمغادرة المكان قبل التورّط في الالتزام بوعود تفوق حجم شجاعتي. قراري بعدم السّفر معه كان قرارا نهائيا، ولم أرد لنفسي التفوّه بأي كلمة قد تحمل في طيّاتها أملا بإمكانيّة التراجع. لذلك اخترتُ الصّمت. ثمّ ظهرت كلارا...

-١٧-

تعوّدتْ حاسّة الشمّ عندي على عطر "كلارا" منذ دخلتُ تلك الشقّة لأوّل مرّة. كانت تجرّ معها تلك الرّائحة أينما ذَهَبَتْ. تنثر بقاياها على الجدران، وبين ذرّات الهواء الحزينة في عتمة ذلك البهو، وحتّى على قماش ملابسي. يوم سلّمتني مهمّة إدارة الحانة، وضعتْ يدها على كتفي وجزمتْ بأنّها متأكّدة من أمانتي ومن قدرتي على تعويض "خوانيتو". يومها لفحتني تلك الرّائحة كموجة عنيفة ولم تدر حواسّي كيفيّة التعامل معها أو حتّى تصنيفها بين ما عرفت في حياتي من روائح. دواء مركّز؟ ربّما! بخور عتيق من الشرق؟ قد يكون! عطر رخيص من أحد دكاكين الشعوذة؟ من الجائز جدّا!

يومها تركتُ الشقّة مسرعا وذلك المزيج الغريب يتدفّق من ذلك الموضع من جسدي، هناك..حيث ألقتْ بيدها عليَّ لأوّل مرّة منذ عرفتها. موجة عطر مسحورة تكتسحني من رأسي إلى قدميّ.. وتحيط بي من كلّ ناحية. تتسرّب منّي إلى وسادة سريري، ومنها إلى أرجاء غرفتي.. لتصبح جزءًا من وحدتي عند طلوع كلّ فجر. لم أجد لذلك العطر اسمًا أو تفسيرًا.. فأطلقتُ عليه اسم صاحبته. فالكثير من الأشياء في حياتي

كانت تحمل أسماء أشخاص معيّنين. فمنهم من أصبح فصلا من فصول السّنة، ومنهم من تحوّل إلى ركن في مقهى، ومنهم من صار شجرة زيتون خلف بيتنا العتيق في قريتي البعيدة. وها هي كلارا تبدأ في حياتي امرأة وتنتهي في ذاكرتي عطرًا.. ولم يكن ذلك بالأمر الغريب عن ذاكرة تتنقّل بين سكك الجنون في حذر دائم!

– مدّة إدارتك للحانة قد تمتدّ لفترة أطول!

قالت ذلك وهي تستخرج حبّة بيضاء من علبة الأقراص. وضعتْها بين أسنانها ثمّ رفعتْ رأسها إلى فوق في حركة عموديّة خاطفة لتبتلعها بنهم واضح. لم أدر بماذا أجيب، فلزمتُ الصّمت منتظرا تينك العينين المرفوعتين إلى السّقف كي تعودا إلى النّظر إليّ حتّى أهمّ بالسّؤال أو بمتابعةِ الحديث. ولكنّها بقيتْ على تلك الحال لمدّة دقيقة أو أكثر. رأسها المحدّق في الفضاء أفرز عنقا شديدة النّحول، برزتْ منها عروق شديدة التّشعّب تشبه في تفرّعها خطوط أوراق التّين. بعد ذلك أخذتْ في إصدار أصواتٍ وتأوّهات خافتة توحي بتلذّذها بشيء ما. تململ أشرف في سريره، ونظر إليها في ضيق ثمّ تابع تدخينه دون أن يعير تغيّر لون وجهي أيّ اهتمام. شعرتُ بالحرج أكثر فأكثر، وهممتُ بقول أيّ شيء لأقطع غرابة ذلك الموقف، لأنهي تدفّق تلك الأنّات عبر تلك الحنجرة المعروقة، لأتخلّص من ذلك العطر... لأهرب! تذكّرتُ قول أشرف ذات مساء: "لا أدري ما مدى جنون كلارا، فأنا لم أعرفها قطّ دون أقراص تلتهمها كالحلوى الشهيّة كلّ يوم. الله وحده يعلم ما يمكن أن يكون عليه حالها لو لم تتناول تلك الأشياء بصفة مستمرّة. بعضها يجعلها تتحدّث دون انقطاع، والبعض الآخر يجعلها تنام كالقطّة في أقرب ركن يصادفها!".

ظل أشرف ساهما، ينظر أمامه في شرود صامت. يستنشق الدّخان، ثمّ ينفثه سحابا كثيفا حول سريره. بين الصّمت ورائحة التبغ، بحثتُ عن عطر كلارا فلم أجده. بحثتُ عن كلمات أتنصّل بها من كآبة تلك الغرفة ومن الجنون الذي يلفّها، فخانني صوتي واختنقت الحروف في حلقي كنائم خذله الصّراخ في خضمّ حلم مزعج. تظاهرتُ بالهدوء ونظرتُ إلى ساعتي من جديد. كنتُ محتاجا للاختلاء بنفسي، لأنْ أرتمي في أحضان الطّريق المؤدّي إلى الحانة فأهرب إليها وإلى صخب زبائنها السّكارى كي لا أفكّر بأي شيء آخر. كنتُ أشعر بانكسار أشرف وبمرارة حزنه الخفيّ. ولكنّني كنت متأكّدا في نفس الوقت بأنّه سينسى حتما! مجاهل رحلته المقبلة، وبريق المدينة البعيدة النّائمة خلف أمواج المحيط. بردها القارس وثلوجها البيضاء النّاعمة، شقراواتها الجميلات اللّواتي يوزّعن أوراق الإقامة على كلّ من يهمس لهنّ ببضع كلمات حبّ. كلّ ذلك سيُنسيه حتما. سينسيه برشلونة بشمسها وأزقّتها ومقاهيها النّابضة بالحياة في ليالي الصيف المقمرة. أمّا أنا وكلارا، فسنصبح جزءا مشلولا من ذاكرته. صورا ضبابيّة في السجلّات المنسيّة لأيّام قديمة!

استقرّت عينا كلارا على وجهي. رماديّتان وباردتان كمدفأة هجرتْها النّيران منذ سنين. لم أرتبك، لم أقل شيئا. توغّلتُ في الصّمت وانتظرت.

- وصلتني أخبار من خوانيتو. قد يتمادى في الغياب أكثر من المتوقّع. لم يعطني أجلا محدّدا لعودته، وهو الآن في إجازة مفتوحة. البار مسؤوليّتك أنت إلى أجل غير محدّد. إن كان الأمر لا يناسبك فيجب أن أعرف الآن، وأرجو ألا يكون في هذا التأخير مضايقة لك!

تحاشيتُ النظر إلى أشرف وأنا أجيبها بصوت هادئ:

– ذلك أمر لا يضايقني بالمرّة. العمل يسير بانتظام، وبإمكان خوانيتو أن يعود في الوقت الذي يروق له.

أومأتْ كلارا برأسها علامة الرّضا وخيّم الصّمت على جوّ الغرفة من جديد. رعشة ابتهاج رقصتْ بين جوانحي: "ها هي الأحلام تتحقّق بسرعة تفوق تصوّري!". سرحتْ خواطري في تلك الفكرة اللّذيذة، وأيقنتُ بشروق الشمس على أيّامي المقبلة: "الثعلب العجوز يفسح لي المجال، يمهّد لي الطّريق دون أن يدري. لم يجل بخاطري أن حادثة سطو كالتي يتعرّض لها المئات من سكّان برشلونة كلّ يوم قد تؤثّر إلى هذا الحدّ على شخص مغرور، معتدّ بنفسه كخوانيتو! ولكنّ ذلك لا يهمّ الآن، فالحياة فرص.. وهذه هي فرصتي الذهبيّة. لن أدعها تمرّ دون أن أقتلعها وأضمّها إليّ. سأعتصر رحيقها كبرتقالة شتويّة، سأشرب منها. سأشرب منها إلى آخر قطرة.. لأرتوي.. لأشبع.. ولتشبع أمّي. كم ستفخر بي عندما يبلغها بأنّني أصبحت مدير محلّ! ستدعو اللهّ لي بالتوفيق.. وستبكي. ثمّ ستتمادى في الدّعاء ويشتدّ بكاؤها أكثر! و كلماتها الطّاهرة ستنشقّ أبواب السّماء، وستنبثق من وراء الغيوم أشعّة نوريّة تصاحبني وتحميني أينما كنت وحيثما ذهبت. أشعّة سحريّة ستصهر أبواب برشلونة المغلقة أمام وجهي، تذيب أقفالها الحديديّة الباردة وتفتحها أمامي دون عناء. لا حدود لما يمكن لي تحقيقه في هذه المدينة. سأجمع المال، وسأشتري البار من كلارا. سيصبح خوانيتو موظّفا عندي، وسأجبره على رمي أكياس القمامة من الباب الخلفيّ كما كان يفعل بي، وسأجبر سانتو على الحديث معي.. ولو بالقوّة! انتبهتُ على صرير السرير وكلارا تحاول أخذ مكان لها عليه جنب أشرف. كان الامتعاض يكسو وجهه المحفور،

وتعمّد ألاّ يترك لها مساحة كافية للجلوس. ورغم ذلك، فقد وجدتْ هي مجالا لكي تحاذيه.. وأخذتْ في تقبيل رقبته والتلاعب بشعره وهو بين يديها كالمصلوب. عادت إلى التأوّه من جديد والتفّتْ برجليها حوله كالأفعى. عاد عطرها إلى الانسياب داخل أنفي وأخذتني رغبة في التقيّؤ. كانت فرصة سانحة للانصراف: "عن إذنكما!". لم أتلقّ جوابا، ولم أنتظر لأسمع ردّا على تحيّتي. البهو... ثمّ باب الشقّة.. ثمّ الرّصيف وأشعّة الشّمس. تباطأتُ في المشي وعدتُ إلى التلذّذ بأحلامي. تسكّعتُ لمدّة ساعة أو أكثر، ثمّ لاحت الحانة لي عن بُعْدٍ. ابتسمتُ لنوافذها المظلمة وأنا أسحبُ مفاتيحها من جيبي... وأتوكّل على اللهّ في سرّي.

- ١٨ -

أفقتُ مبكّرا على غير عادتي. تقلّبتُ في فراشي. جرّبتُ كلّ الأوضاع لأستدرج النّوم مرّة ثانية، ولكنّه أفلت هاربا. تملّص منّي، وتركني أستجدي بقاياه دون جدوى. عانقتُ وسادتي، وضعتُها بين رجليّ، ثمّ على رأسي. محاولات يائسة. اليقظة كانت حقيقة، والنّوم أصبح سرابا. استلقيتُ على ظهري محدّقا في السّقف، متأمّلا شقوقه المتفرّعة. السقف كان لعبتي المفضّلة، أعود فيه طفلا يلهو بتلك الخطوط، يتخيّلها أنهارا تنبع، تجري، تتشابك، تتفرّع، ثمّ تعود إلى التلاقي من جديد. كنت أتخيّل أناسا يعيشون في ذلك السّقف، ينعمون بحياة هادئة على ضفاف تلك الأنهار. يزرعون ويحصدون ويصيدون الأسماك ويعصرون نبيذ قصب السكّر ثمّ يحتسونه في ليال مرصّعة بفضّة النّجوم. الأنهار كانت هي التي تسافر وهم باقون.. لا يبارحون الانتظار. تمنّيتُ لو كنت قادرا على التقلّص إلى حجم سكّان ذلك السّقف القديم لأعيش بينهم. أشاركهم أحاديثهم وأسمارهم. تمنّيتُ أن أشرب من تلك المياه العذبة ولو مرّة واحدة. أخذتُ في متابعة أحد الشقوق بعينين نصف مغمضتين. من أين ينبع؟ وأين يصبّ؟ ولكنّني تهتُ في زحمة التشابك. أعيد الكرّة، فأتوه من جديد!

أيأسُ من لعبتي الطّفوليّة. من تلك المحاولة الصّباحيّة لتأجيل النّهوض ومعانقة الصّباح، فأعتدل فوق سريري استعدادا لمواجهة يومي. في ذلك الصّباح كان لي متّسع من الوقت قبل موعد فتح الحانة. صحّة أشرف عادت إلى التدهور من جديد إذ لم يكن ملتزما بتناول الأدوية في مواعيدها، وكان يمتصّ السيجارة تلو الأخرى كالمجنون. كلارا كانت تشكو لي تهوّره وتجاهله لنصائح الطبيب الذي عاده أكثر من مرّة. زياراتي له لم تكن تتعدّى الأيّام التي كنت أراها فيها لأعطيها إيراد الحانة. زيارات خاطفة، كلماتها جافّة، قليلة ومختصرة: "صحّتكَ قبل كلّ شيء! انتبه لنفسك... موعد سفرك قد اقترب!". في ذلك اليوم، كان لديّ الكثير من الوقت. لم أخطّط لتلك الصّحوة المبكّرة، ولكنّها أتتْ. فرضتْ عليّ نفسها بتعسّف، ووجب على أن أقرّر ما سأفعل بتلك السّاعات الطّوال قبل موعد الشغل. جلستُ على سريري وفركتُ شعري بتكاسل. تثاءبتُ، ثمّ اتجهت حافيا نحو الحمّام. ألقيتُ شيئا من الماء البارد على وجهي، ثمّ تطلّعتُ إلى نفسي في المرآة. شعري منفوش وعيناي منتفختان تحيط بهما ظلال سوداء. ذلك ما يخلّفه السّهر وشقاء اللّيالي. لبستُ ثيابي على عجل ثمّ ترشّفتُ نصف قهوتي واحتسيتُ قليلا من الماء. بحثتُ عن مفاتيحي. رميتُ بها في جيبي وبارحتُ الغرفة تاركا رائحة النّوم تتخمّر أكثر فأكثر بين شقوق الجدران. ماذا كان سيحدث لو كانت لتلك الغرفة نافذة أو ثقب صغير للتهوية؟ ذلك ما كنت أحتاجه لكي أمضي وقتا أطول بين جدرانها. حينئذ، كنت سأشتري مذياعا أو تليفزيونا لأنعم ببعض الرّاحة والتسلية دون اضطرار لخروج يوميٍّ ناتج عن الاختناق. الرّوائح كانت تتكوّم بعضها فوق بعض، لا تجد لنفسها منفذا ولا مهربا. كانت سجينة مثلي تماما، ولكنّني كنت سجينا يملك مفاتيح زنزانته. حاولت إبادة تلك

الرّوائح فاشتريت "بخّاخًا" معطّرا رششته بأكمله في جميع أنحاء الغرفة وفي جميع الاتجاهات: على الجدران، وفوق الأغطية. لا شيء. لم يتغيّر شيء! في لحظات كان العطر ينهزم أمام جيوش العفن. حلّي الوحيد كان قضاء أقلّ وقت ممكن بين تلك الجدران، ومعظم ذلك الوقت كان نوما!

في ذلك اليوم كان لديّ الكثير من الوقت. قطعتُ الشوارع دون وجهة محدّدة. كنت أدور في حلقة تعود بي دوما إلى البناية حيث كنت أقطن. أتلاعبُ بفكرة العودة إلى الغرفة واستدراج النّوم. أتذكّر رائحتها والكآبة التي تحتويها، فأستأنف الدّوران من جديد. تذكّرتُ أيّام كنت عاطلا عن العمل، عندما كنت أجوب الأرصفة حاملا الوقت على ظهري كجبل من الثلج. لعنتُ تلك الأيّام في سرّي، وعدتُ إلى التفكير في يومي وما أنا فاعل به. غيوم كثيفة تكسو وجه السّماء، متكتّلة على صفحتها كالمتاريس الرّماديّة الدّاكنة فاصلة الشّمس عن المدينة. بين الحين والآخر، تنفرج كوّة في الأفق فتنبعث منها أشعّة قويّة حارّة تضيء الشوارع. ثمّ لا تلبث أن تتسرّب غيمة فضوليّة إلى تلك الفتحة فتغلقها، وإذا بنور الشمس يرتدّ منهزما وتعود المدينة إلى الالتحاف بذلك الرّداء الأزرق من جديد.

الجوّ خانق بالرّطوبة، واليوم ينذر بعاصفة مطريّة موعدها مجهول ولكنّه مؤكّد. للغيوم نفس طويل في هذه المدينة. قد تتكوّم وتتعانق لساعات وساعات، بل لمدّة أيّام وأسابيع. في لحظة خاطفة، وكجوقة موسيقيّة، تهتزّ بالأنغام لحركة واحدة من عصا قائدها وتنفجر السّماء بشلال من المياه. ترسلها كالإبر على الأرصفة وفوق الأغطية القماشيّة للمحلات فتسمع لها صدى كوقع الأصابع الملساء على الطّبول.

تُفتَحُ المظلات وتتموّج ألوانها مسرعة في جميع الاتجاهات. تهرول متوحّدة كخرقة قماش متنوعّة الرّقع لتحمي الشّارع والمارّة من البلل. بين حين وآخر، تقفل مظلّة وتختفي مع صاحبها داخل سيّارة أو خلف باب أو دكّان. في الآن نفسه، تُفتَحُ مظلّة أخرى وتستمرّ قطعة القماش متوحّدة الألوان في انسيابها على الطّريق في تماوج مثير. تنزلق على جوانب المطريّات قطرات الماء، منكسرة، مهزومة، يائسة من التسرّب إلى الرّؤوس المحتمية.

ومع كلّ ذلك تبقى دائما، على هذا الرّصيف أو ذاك، رؤوس عارية لم تقرأ لذلك اليوم حسابا. رؤوس استخفّت بتكتّل الغيوم وبنذير السّيول، فبارحت بيوتها دون مظلّة أو قبّعة تقيها من البلل في حال ما قرّرتْ السّماء فتح فكّيها بشلاّل جارف. هي ذات الرّؤوس دائما، أكاد أراهن على ذلك! هي ذات الرؤوس التي تقول، دون استخلاص العبرة من العواصف التي مضت: "لن تمطر اليوم. مجرّد غيوم عابرة، قد تحملها الرّيح إلى أطراف المدينة، أو قد تبقى مكانها لتمطر غدا، أو بعد غد". تلك هي الرّؤوس التي تستحقّ أن تتورّم تحت وطأة المياه المتدفّقة، تلك التي تعطي الغد أكثر ثقة ممّا يستحقّ!

لم أكن قد قرّرتُ ما سأفعل بتلك السّاعات الطّوال قبيل موعد الشّغل. ولكن مهما كان قراري، وأينما كانت وجهتي، فإنّ مسألة العودة إلى غرفتي كانت أمرا ضروريّا لا إفلات منه. مطريّتي السّوداء ذات المقبض الحديديّ الصّدئ كانت قابعة هناك في الرّكن الأيسر من حجرتي العفنة بمحاذاة الثلاّجة. صحيح أنّني كنت أنساها في معظم الأوقات، بل إنّني كنت من الّذين تباغتهم الأمطار مكشوفي الرّأس في معظم الأحيان.

ولكن في ذلك اليوم كانت الأشياء بداخلي تُحْسَبُ بطريقة مختلفة. كنت أشبه ذلك الصّباح إلى حدّ بعيد، أشبهه في انقباضه ورصانته وهدوئه. لذلك قرّرتُ أن أتجهّز بما قد يخفيه لي طقسه من مفاجآت. عادت بي قدماي إلى بنايتي العتيقة. فتحتُ باب الغرفة على عجل وتعمّدتُ أن أتنفّس من فمي فقط. سحبتُ المطريّة ووضعتها بسرعة تحت إبطي. لمعتْ في ذهني فكرة قضاء اليوم في مكان محدّد. مكان اشتقتُ إليه كثيرا. بعد عشر دقائق وجدتني أمام شبّاك التذاكر لمحطّة القطار. سألني ذو الوجه النّحيل بابتسامة فاترة: "إلى أين يا سيّدي؟". أجبته دون تردّد: "إلى وسط المدينة!".

اتّخذتُ مكانا إلى جانب النّافذة، وأخذتُ في تأمّل حبّات المطر التي بدأت تطرق سطحها بخفّة. كانت عربة القطار شبه خالية إلاّ من بضعة شبّان تشابكتْ أذرعهم في لهو عبثيّ تخلّله حديث متقطّع لم تصلني منه إلاّ بعض العبارات البذيئة. المقعد المواجه لي كان خاليا، مغريا، يدعوني إلى اتخاذ وضع أكثر راحة. في هذه السّاعة النّادرة من يوم يمكن فيه لمقعدين شاغرين أن يتواجها في عربة قطار، جعلتُ من قدميّ الممدّدتين جسرا بينهما ووضعتُ مطريّتي على ركبتيّ استعدادا للرّحلة. قطرات الماء على وجه النّافذة كانت تنزلق إلى الأسفل كالدّموع الفضيّة، تحاول التشبّث بالمساحة الملساء بقدر ما تملك من قوّة ولكنّها كانت تنتهي بالانحدار فيما يشبه الانهيار الكلّي. عدتُ إلى التخيّل من جديد. القطرات أرواح تحاول التعلّق بالحياة. تقاوم لآخر لحظة. تنزلق من أعلى زجاج النّافذة إلى أسفلها في خطّ مستقيم يشبه البداية والنّهاية. لم يكن لتلك الصّورة أثر طيّب في قلبي. تعلّلتُ لنفسي بأنّني لم أتجاوز العشرين بعد،

وبأنّ النهاية ما زالت بعيدة. بيني وبينها المال الّذي سأكوّمه، والحانة التي سأشتريها، والنّساء اللّواتي سيرقصن عاريات فوقي. بيني وبين النّهاية كانت تنتصب قريتي التي سأعود إليها، والسيّارة الفارهة التي سأوقفها أمام بيتنا ليراها الجميع، وزيارتي الخاطفة على متنها إلى قبر أبي!

أشياء كثيرة كانت تفصلني عن النّهاية. هذا إذا كانت هناك نهاية من الأساس. إحساسٌ داخليّ ما، محنّك في طريقة إقناعه، كان يهمس لي بأنّ الموت سينحرف عنّي. سينساني ولن يعرف لي مقرّا أو عنوانا. الموت والشيخوخة كانا الشيئين الوحيدين اللّذين ينزلان فوق رؤوس الآخرين. أمّا أنا، فلن يتغيّر وجهي، ولن تضعف بنيتي، وسيظلّ عضوي شامخا كالنّسر فوق الجبل لا يعرف انحناءً أو خيبة. قرّرتُ أن أبقى في سنّ العشرين رغم بلّور هذه النّافذة الذي يقطر أمطارًا حزينة!

العاصفة لم تبدأ عزفها بعد. قطرات الماء اليتيمة على الزجاج ماتت كلّها، ولم يبق سوى غلاف رقيق من الضّباب يحجب رؤيتي عن الخارج. مسحتُ النّافذة بكمّ قميصي. بدت وكأنّها شاشة عادت إلى البثّ بعد طول انقطاع. لم تكن هناك أخبار جديدة: عتمة تنذر بعاصفة هوجاء، دكاكين مفتوحة للبيع والشّراء، أرصفة ضيّقة وملتوية يمتطيها المارّة بين مهرول ومطمئنّ وسيّارات صغيرة الحجم، فاقعة الألوان كألعاب الصّغار، تتدافع في شكل عشوائيّ، تتذمّر من بعضها بعضا نافخة أبواقها بشكل مثير للأعصاب. شاشة من مشهد واحد فرَضَهُ عليّ تلكّؤ هذا القطار اللعين بتكاسله عن الحركة. تأمّلت ذلك المشهد المملّ والضّيق يعتري نفسي. بدأ الشوق لمغادرة المنطقة يدفعني إلى شيء من العصبيّة. فكّرتُ في مغادرة مكاني بحثا عن أحد أعوان المحطّة لأستنكر هذا

التباطؤ في الإقلاع، ولكنّني عدلتُ عن ذلك. لا يمكن لك تغيير الوجهة إذا كان المقود في يد غيرك. أمامك طريقان: إمّا أن تفتكّه بالقوّة وإما أن تصمت! اخترتُ الصّمت، وحوّلت عصبيّتي إلى رِجْلَيَّ المُمَدّدتين على المقعد المواجه. أخذتُ أحرّكهما بشدّة محدثا صوتا مكتوما متولّدا من ارتطام كَعْبَيَّ بجلد المقعد. صعد رجل يرتدي ثوب قسّيس على ظهر العربة ومضى إلى الأمام يستكشف مقاعدها. بعد هنيهة، عاد والحيرة تكسو وجهه. المقاعد الشاغرة كثيرة، متناثرة في كلّ أرجاء المكان، ومع ذلك ظلّ متردّدا لا يعرف أين يستقرّ. قرار بسيط كاختيار موضع الجلوس كان كفيلا بمحو آثار السّلام والهدوء على وجه راهب لم يضايقه في الماضي الإقلاع عن كلّ نساء الدّنيا من أجل نفس السّلام ونفس الهدوء! لعلّ السّعادة الحقيقيّة تكمن أحيانا في عدم توفّر خيار لنا. لو كان على عربة القطار مقعد شاغر وحيد لما استبدّ بهذا الرّجل الصّالح كلّ هذا القلق والتبرّم. القلق مسألة شخصيّة بالدّرجة الأولى، لا علاقة لها بقربك من الآلهة أو بعدك عن الشياطين. أخذ يتنقّل بقميصه الأسود الجليل جيئة وذهابا لمدّة لا تقلّ عن خمس دقائق، ثمّ استقرّ به الجلو، ينتاب المقعد المواجه لي من النّاحية اليسرى. اتّخذ النّافذة المقابلة بيت أو حول له. كانت مثل نافذتي ضبابيّة اللّون. لاحظتُ أنّه ا، واستسلموا لسباق وراء البلّور الأبيض من مشاهد أو حركة. فتحي تفكير بريء طغت عليه عادت أمارات الهدوء إلى عينيه، ثمّ أبحر فيها إلى التهامس والتغامز، ثمّ وجهه الصّافي الجميل، وعينيه الزرقاوين على أخبار القسّيس، فوجدته الكتاب كنبعين تفرّعا من ذات البحين يديه.. ونام. بين الحين والآخر تربطني بهما، وبخيوط شفّافة.. لإلى شعوره، فيرسل بصره إلى الفضاء. ما لأتجاذب معه أطراف حديث

كان جزيرته المنعزلة حيث لا شيء سوى الخشوع والصّلاة. إذن، فمن أين لمتطفّل مثلي أن يقطع لحظات تألّقه الرّوحيّ هذه، أو يكدّر صفاء ارتباطه بكلمات قد يكون من شأنها أن تشعّ في قلبه بأنوار الطمأنينة والسّلام. كيف أسمح لنفسي بأن أقطع ذلك؟ ولِمَ؟ لأحادثه عن ماذا؟ عن توجّهي إلى وسط المدينة؟ عن الحانة أم عن كلارا؟ ليس لديّ ما أقوله حتّى وإن دعاني من تلقاء نفسه إلى الحديث. أخيرا فضّلتُ الاستئناس إلى صحبته وإلى الطّمأنينة التي تشعّ من الرّكن الذي يجلس فيه دون الاقتراب من سكينته. بين الحين والآخر، وفي غمرة الانتظار الذي كان لا يزال رابضا كالحجر فوق صدري، كنتُ أعود إلى شاشة النافذة لأعيد اجترار ذلك المنظر الرّتيب عبر زجاجها الضبابيّ. ومن هناك، أتنقّل ببصري عبر المقاعد الخالية ثمّ أنتهي به إلى ذلك الرّجل الجالس بسلام في ثوبه الأسود المهيب. أهمّ بمحادثته... وأحجم في آخر لحظة!

رنّ جرس القطار معلنا أنّ أبواب العربات على وشك الإغلاق. استمرّ الصّوت المزعج برهة وجيزة ثمّ انقطع فجأة. سمعتُ أصداء طوْلْ ،اب وهي تتلاقى في تلاحم مدروس. أصبحتْ العربة علبة مغلقة دكاكين مفتوْحه ات الشارع عن الآذان. ظلّ القطار دون حراك. كدت بين مهرول ومطمئنّ الرّحلة: "لا حاجة لي بالذهاب إلى وسط المدينة إن الصّغار، تتدافع في شكل عثار لكي يستفيق هذا القطار الأحمق من سباته. بشكل مثير للأعصاب. شاشلة قد تستغرق نصف ساعة أو أقلّ؟". قرار القطار اللعين بتكاسله عن الحركتْ الأمر ولم يكن أمامي غير الانتظار. يعتري نفسي. بدأ الشوق لمغادرة المنضذتْ العربة في التململ، ثمّ شرعتْ فكّرتُ في مغادرة مكاني بحثا عن أخر كان يتلذّذ بالعبث بذرّات الصّبر

الباقية في أعماق نفسي. أردتُ أن أدوّن في ذاكرتي عتابا رسميّا ضدّ هذا القطار وضدّ هذه المحطّة المتواطئة. نظرتُ إلى ساعتي لأسجّل طول المدّة التي استغرقتها آلام الانتظار، فإذا بي أفاجأ بأنّها لم تتجاوز العشر دقائق. سكنتْ حركة رجليّ واتخذتُ وضعا مريحا على المقعد. أسندتُ رأسي إلى بلّور النافذة وغاص بصري في تفاصيل المشاهد الخارجيّة. في بداية انطلاق القطار كانت هذه المشاهد مفهومة الشّكل والمعنى، ولكن سرعان ما أخذت المناظر تتوالى بسرعة وكأنها أوراق كتاب تتصفحه أصابع رياح مجنونة. بعد لحظات، لم أعد أرى سوى أشباحًا ورموزًا مبهمة!

سرعة القطار كانت تصاعديّة، ولم تحتج لأكثر من دقائق معدودات لكي تبلغ ذروتها. عندما يحدث ذلك، تشعر بأنّه ارتفع عن سكّة الحديد وأصبح محلّقا في الفضاء، يسابق الزّمن وكأنه يعتذر عمّا فات من طول انتظار المسافرين. وكأنّه يريد أن يبرهن أنّه قادر على أن يلهي ركّابه الضجرين باندفاعه الخارق عبر زوبعة المطر التي انفجرت فجأة كقربة مهترئة، فيداعبهم بنوع من الكسل اللّذيذ كذلك الذي ينتاب الإنسان عند احتمائه من مخالب الطّبيعة خلف جدران بيت أو حول موقد نار. آوى الشبّان المشاغبون إلى الصمت، واستسلموا لسباق الآلة مع المسافة والعناصر. سرح كلّ منهم في تفكير بريء طغت عليه موجة راحة وقتيّة لم يلبثوا أن عادوا بعدها إلى التهامس والتغامز، ثمّ إلى الصّمت من جديد. عدتُ لأطمئنّ على أخبار القسّيس، فوجدته قد طوى كتابه واحتضنه مغلقا بين يديه.. ونام. بين الحين والآخر تعيده ومضة برق أو زَئيرُ رعد إلى شعوره، فيرسل بصره إلى الفضاء.

إلى تلك الزّاوية من سقف العربة حيث ينبعث عادة ذلك الصّوت الآليّ معلنا بلوغ المحطّة الأخيرة. ذلك الصّوت لم يتدفّق بعد، فالمسافة لا تزال طويلة رغم إصرار القطار على تحدّي جنون العاصفة، ورغم اختراقه شلالها الهادر في استخفاف مغرور. الطّريق لا تزال طويلة، ولا توقّف إلاّ عند بلوغ وسط المدينة. لا وجود لمحطّات عابرة في هذه الرحلة. نقطة انطلاق ونقطة وصول، ولا شيء يفصل بينهما عندي سوى دقائق تمرّ، ورياح تولول بالخارج، وقسّيس يشبه قطة تركيّة في هدوئه وجمال عينيه وحتّى في غفوته المفتعلة في أثناء عاصفة مطريّة كاسرة. انتابتني رغبة جارفة في التدخين ولكنّه لم يكن مباحا. العلامة الحمراء كانت تعلن عن ذلك بوضوح لا يحتمل النقاش أو الجدال، كانت مختومة على جدار العربة، يصاحبها رقم ماليّ وجب دفعه إن سوّلت لأحدهم نفسه أن ينفث الأدخنة السّامّة في مثل هذه الأجواء النقيّة. مبلغ المخالفة كان يضاهي أجر أسبوع من الشغل في الحانة، بما في ذلك هبات "فرناندو" السخيّة. لكن المانع من عدم تدخيني لم يكن العلامة الحمراء، ولا المبلغ، ولا خشيتي من المراقب الغائب عن ذلك المشهد. لم أكن متحرّجا من القسّيس النائم أو الشبّان المنغمسين في ضحكهم. ما كان يمنعني عن ذلك فعلا، هو خوفي أن يظنّ بي أحدهم الجنون، حيث إنّ المجانين وحدهم يخرقون القوانين في هذه البلاد. أخذ النّعاس -الذي ارتدّ عنّي مدبرا منذ ساعات- في الرّفرفة حول جفوني. حاولتُ مقاومته ببسالة، ثمّ غبتُ، ثمّ عدتُ إلى وعيي ثانية. وظلّ رأسي يفلت منّي فتهوي ذقني على صدري. أغيب عن كلّ ما حولي ثمّ أعود لأتدارك أمري فأفتح عينيّ في عناد يائس مستعينا بهدير القطار وقصف الزّوبعة. بعد ذلك، لم يعد لتلك الأصوات معنى رغم قوّتها، ولا للمسافة التي تفصلني عن المحطّة

القادمة أي قيمة رغم طولها. غمرني النّعاس بأجنحته الدّافئة وسقطت مطريّتي عن ركبتيّ. جفّت قطرات اللّعاب على شفتيّ ولم أفق إلاّ على صوت خافت ويد تطرق كتفي في أدب وحياء شديدين. رفعتُ نظري وقد اختلط عليَّ الأمر. كان القسّيس واقفا أمامي، كتابه تحت إبطه الأيسر وعيناه تشعّان وقارا وهيبة:

- أظنّك تريد النزول هنا. لقد بلغنا المحطّة.

احتواني ذلك الاضطراب الذي ينتابنا حالما نفيق من النّوم. حينما لا ندرك لبضع لحظات أين نحن، وما هو موقعنا من الزّمان والمكان. كان حلقي خاليا من الرّيق، متشققا كبركة أصابها الجفاف منذ سنين. أصابني دوار اليقظة المباغتة واعتدلتُ في جلستي شاكرا الرّجل الطيّب في ارتباك. ابتسم لي بوداعة وتحوّل عنّي متوجّها نحو باب الخروج يتبعه المراهقون الشبّان وقد علا صخبهم. كانوا يحملون حقائبهم المدرسيّة على ظهورهم في استهتار فاضح وكان واضحا أنّهم قرّروا نبذ ذلك اليوم الدّراسيّ. أظّنهم خيّروا قضاء صباح حرّ في وسط المدينة، بعيدا عن انضباط المواعيد وهمّ الدّروس والواجبات اليوميّة. تطلّعتُ إلى وجوههم الخافقة بحبّ الحياة، المفعمة بلذّة الاستمتاع بحريّة الأوقات الممنوعة، تلك التي نختلسها عمدا بين حين وآخر انتقاما لأنفسنا من وحش المسؤوليّة الرّابض فوق قلوبنا باستمرار. نحبّ الاختلاء بتلك اللحظات كمن يختلي بامرأة متزوّجة، يقبّلها في وضح النّهار على الرّصيف المواجه لبيتها غير عابئ بما سيسفر عنه مثل هذا الفعل من ندم أو عقاب. أفسحتُ المجال لهؤلاء الشبّان ليمرّوا أمامي فلفحتني رائحة أعرفها جيّدا!

تلك النّبتة المسحورة التي لم أستنشق بخورها منذ وصلتُ إلى برشلونة

خوفا من أن تكشفني رائحتها الفاضحة فتعتقلني الشرطة. لفّة حشيش! اللهّ... كم يروق لي أن آخذ واحدة اليوم. كم سيروق لي أن أعبّئ رئتيّ من رحيقها. أطير وأحلّق، أضحك وأقهقه، أغتسل ولو للحظات من آلام الوحدة ومن شبح أبي الماسك بذكريات طفولتي كالماسك بديك مذبوح. آه... شفطة واحدة لا غير! سيّدة نباتات الجبل، أوراق مطحونة داخل لفّة لا يتجاوز طولها بضعة سنتمترات كفيلة بأن تحوّل قطرات الأمل العالقة بين جوانحي إلى أنهار متدفّقة من السّعادة.. إلى طوفان عارم من اللّامبالاة. حتى حنيني إلى أمّي وإلى قريتي يتحوّل بفضلها إلى بخار. ملكة نباتات الغابة! أين أجد من يبيعني إيّاك في هذا اليوم بعد أن أثار هؤلاء الشبّان الأوغاد حواسّ أنف تذكّر شيطانك كسمكة قرش باغتتها رائحة الدّم فجأة. استفاق وحش الإدمان بداخلي. تراءت لي حظائر البناء تحت ضوء القمر وبينهما أشرف وهو يتسلّل إلى السّطح ويلكزني بعنف: "قم ناولني سيجارة أيّها الكسول. أفرغ ما بها من تبغ بسرعة. معي شويّة "أخضر" سيرفعك فوق السّحب... صلّ على النّبي وأشعل لفّة!" لو كان بيدرو لا يزال حيّا، لذهبتُ إليه عند التمثال ولرميتُ إليه بكلّ ما أملك من مال في سبيل أن يدلّني على من يبيعني جراما أو جرامين". تعقّبتُ آثار الشبّان حتى بلغت باب النّزول.

أرضيّة المحطّة مبلّلة، ولا أثر لغير رائحة الطّين إثر عاصفة كادت أن تقتلع الأشجار من جذورها. برزت الشمس كعروس من ذهب، وانعكس نورها على طبقة الماء الشفّافة الطافية فوق الأرصفة فبدت وكأنها سجّاد من بلّور ملوّن. تضايقتْ عيناي من انعكاس الأشعّة في بداية الأمر وشعرتُ بتوغلها بين خيوط العنكبوت التي نسجها النّعاس

حول جفوني. ركّزتُ بشدّة لأتبيّن طريقي وراء الشبّان. بدت أطيافهم وكأنها ظلال تتأرجح على الطّريق المنبسطة أمامي. كانوا يتهادون كالبطارق بسراويلهم الواسعة المثيرة للاستهزاء، وبأحذيتهم الرّياضيّة السّميكة وقبّعاتهم القماشيّة المقلوبة إلى الوراء. كلّ شيء فيهم كان إعلانا عن ثورتهم على كلّ ما هو مألوف، وعن احتجاجهم على كلّ ما هو طبيعيّ في الحياة. وكأنهم كانوا يخاطبون الجيل الّذي سبقهم فيقولون: "انظروا إلينا مليّا، انبهروا بإيقاع مشيتنا الفريدة، تهامسوا بتقزّز على عدم تناسق ألوان ملابسنا، وراهنوا على أنّ الزّمن وحده كفيل بإثبات عقم أفكارنا الملوّثة بأبخرة الحشيش والدّخان والمخدّرات! قولوا ما شئتم، والعنوا بقدر ما تسمح لكم ألسنتكم المجعّدة وقلوبكم المتهرئة! فأنتم في النّهاية لا تسبّون إلاّ أنفسكم، ولا تهاجمون إلاّ امتدادا طبيعيّا لأفكاركم! نحن هنا لنبقى، نحن هنا لنعانق الحياة والشّباب، نحن هنا لنعيش ونرتع، نحن هنا لنقفز من فوق أسوار المدارس فنتعاطى الجنس والأفيون، ونتبادل الأمراض عبر الإبر الملوّثة بدماء إهمالكم! ناموا، واشبعوا نوما! ولكم أن تستفيقوا لتتمتموا ببعض اللّعنات اليائسة تعودون بعدها إلى النّوم من جديد. عودوا إلى الحلم بزمن جيلكم الذي كان يرتدي الأزياء المتناسقة والأحذية اللامعة. الجيل الذي لا يقلب الطّاقيّة إلى الوراء والّذي يصفّف الشّعر لامعا تحت أشعّة الشّمس صباحا، وتحت أضواء السّهرة مساءً. بيننا وبينكم حصن منيع، منسوج من ثياب الزفاف البيضاء، نقف نحن على الجهة الثانية ساخرين من كلّ الألوان النّاصعة، متمرّغين في أوحال لذيذة من سموم تُسْكِرُ قبل أن تقتل! نغوص في الأوحال رويدا، وتجذبنا دوّامتها إلى القرار ببطء. نستغيث بكم فلا نسمع منكم سوى ثلاث كلمات رصّفتموها على شفاهكم

بعناية حتّى تنفضوا أيديكم من غبار المسؤولية: " كانت الدّنيا بخير!". قطع الشبّان الطّريق في لهو وضحك، غير مبالين بإشارات المرور وبزمامير السيّارات التي كانت تلعن استهتارهم وتهوّرهم. أمّا أنا، فقد التزمتُ بقانون المرور الذي كان يستدعي التوقّف قبل العبور إلى الرّصيف المقابل. تابعتهم بنظري حتى لا تضيع منّي فرصة تدخين لفّة حشيش معهم. كنت مستعدّا لبيع ملابسي من أجل ذلك لو اقتضى الأمر.

كنت على يقين أنّهم ما زالوا يحتفظون بحفنة من تلك النّبتة المسحورة تحت طيّات ثيابهم الفضفاضة. تابعتهم وهم يبتعدون عن نظري رويدا محاولا كظم غيظي قدر المستطاع. الإشارة الحمراء اللّعينة لا تزال مشتعلة أمامي في توهّج وقح. لا تزال منتصبة أمامي كعجوز شمطاء في صمت بغيض. كاد الشبّان يتوارون عن أنظاري وراء إحدى الكاتدرائيّات العتيقة. لا أشكّ في أنّهم لا يزالون يحتفظون بكيس صغير من اللّفائف الفائحة. أشرف كان يسمّي لفة الحشيش "صاروخا". كان يتغزّل بها كامرأة رائعة الجمال، وكان يحادثها أحيانا قبل أن يضعها بين شفتيه الزّرقاوين. يشعلها.. ثمّ يسلبها الرّوح وهو يبتسم. "صاروخ".. "لفّة".. "سيجارة".. الاسم لا يهمّني الآن! ما يهمّني فعلا هو اللّحاق بهؤلاء الأوغاد قبل أن يتواروا عن أنظاري إلى الأبد! عزمتُ أن أعرض عليهم صفقة رابحة قد يتمكّنون بفضلها من شراء ضعف ما سيقدّمون لي من حشيش. هل سيرضون يا ترى؟ هل سيرأفون لحالي؟ هل سيرون في عينيّ خيال الإدمان الذي تقمّصني كروح شيطانيّة فيستغلّون بذلك ضعفي وقلّة حيلتي؟ من المحتمل جدّا أنّهم قد يمتنعون عن بيعي بعض الجرامات ظنّا منهم أنّني قد أكون رجل شرطة مندسّ. ولكن ما جدّد

الأمل في قلبي هو أنّني كنت في سنّهم تقريبا. لماذا أنسى ذلك دوما؟ لماذا أنسى؟ ألأنّ أكياس الأسمنت وأكوام الرّمل في حظائر البناء جعلت منّي كهلا ولم أكن قد جاوزت الحادية عشرة من عمري؟ ألأنّني الآن مسؤول عن حانة بأكملها وعن موظّفين وزبائن؟ أم لأنّ أمّي وإخوتي ينتظرونني شهرا بعد شهر.. فاتحين مناقيرهم لما ألقيه فيها من حبوب ضئيلة وكأنهم عصافير كسرت أجنحتها أعاصير الزّمن!

لا، لا أظنّ أنّ هؤلاء الشبّان سيشتبهون في أمري. كلّ ما أريد فقط هو أن أتقاسم معهم يوم هروبهم من المدرسة كواحد منهم. كمراهق، كشابّ عاديّ ليس له من همّ سوى كتبه وفصوله ودفاتره وكيف سيقفز الأسبوع المقبل من سور المحطّة فيستقلّ القطار ليتسكّع مع أقرانه في وسط المدينة ليراقب الفتيات الحسناوات ويدخّن سيجارة حشيش مسحورة في إحدى الزوايا المنعزلة. سأتخيّل اليوم أنّ لي مدرسة وكتبا ودفاتر. لا حانة ولا قوارير ولا سكارى اليوم! سألحق بهؤلاء الّذين يكادون أن يتواروا عن نظري وسأعرض عليهم صداقتي. سندخّن معا وسنستمتع بفتنة النساء الرّائعات وبلمعان سيقانهنّ البرونزيّة الإسبانيّة الصّلبة، تلك التي برزت للشارع بعد هدوء العاصفة وأخذت تتشابك جيئة وذهابا على أديمه المبتلّ ناثرة نوعا من الرّذاذ المنعش في الفضاء. كانت السّاعة تعلن عن اقتراب خروج الموظّفين للغداء وعن موعد امتلاء المقاهي والمطاعم بالمرتادين من سوّاح وعملة ومتسكّعين.

الإشارة لا تزال حمراء.. تستفزّني وتتحدّاني، ولكنّني لم أكن قادرا على العبور. خرق القوانين في وضح النّهار - لأمثالي من ذوي "تحت الطّاولة"- أمر لا يحتمل المغامرة.

قد يوقفني شرطيّ من أجل مخالفة بسيطة كعبور الطريق قبل أن تسمح الإشارة، فيسألني عن هويّة لا أمتلكها وأوراق لا أعرف شكلها ولا لونها. بماذا أجيبه عندئذ؟ سأتلعثم، وسيتغيّر وجهي إلى مائة لون. قد أركع أمامه وأستعطفه أو قد أطلق ساقيّ للرّيح فلا تنقذاني كما فعلتا سابقا. وعندما يقبض عليّ ، سيؤول بي الأمر قطعا إلى سفن الترحيل الجماعيّة.. إلى الوطن.. إلى القرية.. إلى رياح البؤس الصّفراء.. إلى الموت. كلّ هذا من أجل ماذا؟ من أجل قطع الطّريق أمام إشارة حمراء.. خرساء.. شامتة كهذه؟! لا، لن يحدث ذلك أبدًا. لست بهذا الغباء ولن أكون! سأنتظر إذن، هيّا أيتها العاهرة، ارْتدِ ثوبك الأخضر الزّاهي ودعيني أعبر... ألا تسمعين؟!

- كيف الحال Amigos؟

لم ينبسوا بكلمة، وتطلّعوا إلى بعضهم بعضا في تفاجئ واستفهام. كانوا ثلاثة، لا يختلف في إسبانيّة ملامحهم عاقلان. عيون سوداء وبشرة متألّقة السّمرة. أومأ إليّ أقصرهم وقد ارتسم على وجهه مزيج من الاستخفاف والتحفّز كذلك الذي نستقبل به متسوّلا وقال:

- ماذا تريد؟

بلعتُ ريقي بصعوبة، وأجبتُ محافظا على هدوئي:

- أنا غريب عن هذه المدينة وأبحث عن مكان أقضي فيه بضعة أيّام. هل تعرفون فندقا قريبا من هنا؟

تلقّوا سؤالي بشيء من الذهول، وسرعان ما اكتست ملامح وجوههم أماراتُ الجدّ عازمين على أن يساعدوا هذا الغريب التائه على قضاء

حاجته. أخذوا ينظرون حولهم باهتمام محاولين تبيّن الشوارع والمفترقات في عمليّة تذكّر مضنية تقطّبت لها جباههم. كان من الواضح أنّهم ليسوا من المنطقة، وأنّ درايتهم بمسالكها ودروبها محدودة. تبادلوا التمتمات بالإسبانيّة مستشيرين بعضهم بعضا في حيرة استمتعتُ بها لأنّها أكسبتني شيئا من الوقت للسيّطرة على اضطرابي استعدادًا للولوج في صلب الحاجة التي تبعتهم لأجلها.

"هناك نزل الماجستيك وهو ليس بعيدا عن هذه المنطقة..على ما أظن!".. أجاب أحدهم بنبرة غير واثقة، ثم استطرد يشرح كيفيّة الوصول. أخذ يشير بيديه في جميع الاتجاهات متجاهلا الشابّين الآخرين الذين أخذا يتغامزان ويتهامزان على ارتباكه بعد أن يئسا من مساعدتي وأسلما المهمّة لصديقهما المسكين. أمّا أنا فلم أكن بصدد الإصغاء لهذيانه، وحاولت جاهدا تصنّع الاهتمام بالمعلومات التي كان يمدّني بها، بل أخذتُ أعيد على مسامعه اسم كلّ طريق يذكرها لأوحي له بأنّني أدوّنها في ذاكرتي بحرص شديد. أنا الغريب التائه! أنا الذي تمرّس بكلّ فنادق هذه المنطقة من أحقرها إلى أفخمها. أنا المسكين الحائر الذي يتحرّق شوقا لإلقاء سؤال قد يروي ظمأه!.. سيكون ذلك بعد أن يفرغ هذا الغبيّ من وصفه المختلق لشوارع ومنعطفات ستفضي بي -حسب تأكيده- إلى أفخم فنادق المدينة وأجملها. هذا الأحمق يتصوّر انّ شابا في مثل سنّي قد تسمح له محفظته بأن يقيم نصف ليلة في نزل بمثل فخامة "الماجيستيك". هل يبدو عليّ الكبر لهذا الحدّ؟ أم أنّ هيئتي وملابسي ولساني الملتوي بإسبانيّة ركيكة قد صوّرت لمخيّلة هذا المراهق المسطول بأنّني من أصحاب الأموال وأرباب الأعمال؟! تصنّعت السّذاجة وأجبتُ قائلا:

"جميل جدّا، وأشكرك كثيرا، ولكن على ما أظنّ أنّ الماجيستيك قد يكون باهظ الثمن بالنّسبة لطالب مثلي جاء للسياحة المتواضعة. لقد وصلت إلى مدريد منذ ثلاثة أسابيع حيث كنت مقيما عند خالة لي هناك. وقد سمعتُ عن جمال برشلونة، فقدمتُ لقضاء بضعة أيّام لاكتشافها...". قبل أن يجيب أحدهم، واصلتُ بخبث: "وبحثا عن فتيات لذيذات وشيء من الماريوانا!"، ثمّ أدرتُ أصابعي في حركة لولبيّة راسما في الهواء إشارة اللفّ لأبيّن لهم بأنّني من أصحاب الخبرة في عالم "الكيف". كنت متأكّدا من أنّ مقدّمتي هذه ستجذب اهتمامهم، وجاءني الردّ المؤكّد لذلك من الشابّ القصير الذي أجابني ضاحكا:

- في البلد التي قدمت منها لا يوجد كلّ ذلك؟

- موجود طبعا! ولكن لكلّ بلد أصنافها... وأنا لم أتذوّق أصنافكم بعد!

قلت ذلك وأنا أتابع بعينين لامعتين امرأة مرّت بجانبي، عضضتُ على شفتيّ متابعا تحرّك جسدها الغضّ بنظرات ملتهبة، متلهّفة إلى استكشاف ما وراء الفستان الضيّق من مفاتن صلبة، شامخة. تعمّدتُ فعل ذلك بطريقة تمثيليّة متقنة تعلّمتها من أشرف. كان لما فعلته وقع لذيذ على قلوب الشبّان فاستجابوا لي بضحكات عابثة، مملوءة بالشوق إلى مزيد من التعرّف على قصّة هذا السائح الجرئ ذي اللكنة الإسبانيّة المضحكة.

تحت رذاذ إحدى النوافير المتناثرة كالفطر البريّ بين حدائق المدينة أطلقتُ لخيالي العنان. أخذتُ أحدّثهم عن خالتي وعن زوجها الإسبانيّ الذي توفّي منذ سنتين بعد زواج دام نصف قرن. زوجها الذي زار بلادي

أيّام شبابه في رحلة تنقيب عن الآثار فاعترضتْه هي بعينيها السّوداوين الواسعتين ذات صباح في أحد الأسواق القديمة. سلبتْ لبّه، وأصبحت هي منحوتته الأثريّة التي بات يلاحقها أينما ذهبتْ. كاد يفقد عقله من شدّة حبّه لها، وكان يهمل الاستحمام وحلاقة ذقنه لمدّة أسابيع قضاها جالسا في مقهى الرّكن المحاذي لبيتها، يتجرّع القهوة تلو الأخرى ويدمن الشاي الأحمر الذي كان ينفذ بين تلافيف دماغه كالقذائف. كان يشعل السيجارة بالسيجارة ويتنفّس الدّخان أكثر من هواء الشارع منتظرا أن تطلّ هي من باب العمارة بجسمها الممتلئ الصّلب ونهديها اللذين يشبهان في انتصابهما رمّانتي خريف. عندما يلوح خيالها على الرّصيف وتشرع في المشي بدلال متوجّهة لزيارة إحدى صديقاتها أو لقضاء حاجة من السّوق المجاور، يقتفي أثرها كالجرو اليتيم. ذيله بين رجليه وأذناه مرتخيتان تكادان تكنسان أرضيّة الطّريق. كان يعشقها، يعبدها، وظلّ شهورا يتبعها ولا يتفوّه بكلمة. صوته متصلّب في أعماق حنجرته، وعيناه غائبتان عن كلّ ما حوله..إلاّ عنها! خالتي - أيّام شبابها - كانت فتاة جريئة، شائكة المزاج، تدخّن ونشرب الخمر في الخفاء. والدها - جدّي- لم يكن يعلم عن ذلك شيئا. لو علم بربع ما كانت تفعله، لقطّعها إلى نصفين ولرمى بجسدها إلى الكلاب الجائعة التي كانت ترابط وراء الباب الخلفيّ لمجزرته!

جدّتي كانت هي التي تتوسّط لها عنده كي تستطيع قضاء ليلة أو ليلتين عند صديقة لها في مثل سنّها من اللّواتي ينتمين إلى العائلات الميسورة. أيّام الصّيف السّاخنة، ثلاث أو أربع فتيات في سنّ العشرين كنّ يتجمّعن في غرفة واحدة. بعد منتصف اللّيل، يفتحن زجاجة حمراء سريّة ويشرعن في إشعال لفافات التبغ جنب النّافذة تحت أشعّة القمر الفضيّة.

يستمعن إلى أغاني الأعراس المقبلة من بعيد، ويتحدّثن عن ذلك الشابّ أو ذاك الفتى من سكّان المنطقة. يتساءلن ضاحكات عن حجم عضوه ويتراهنّ عليه كاتمات ضحكهنّ خشية أن تفضحهنّ سكينة اللّيل. كنّ يتحدّثن عن الرّجال كما يتحدّث الرّجال عن العاهرات في أثناء جلسة خمريّة وضيعة. قبل أن يطلع الفجر، ترشّ إحداهنّ العطر بين أرجاء الغرفة لطرد رائحة الدّخان، وتقفز ثانية إلى الحديقة لتدفن الزّجاجة تحت إحدى الأشجار، ثم ينمن وفي حلم كلّ واحدة منهنّ ذاك الفتى.

لم أكن أعلم أنّني أمتلك هذه القدرة الهائلة على الكذب! ومن أجل ماذا؟ من أجل اكتساب صداقة هؤلاء الحمقى لأقتنص منهم لفّة حشيش صغيرة؟! أعن الحشيش أبحث أم عن صديق؟ لا يهمّ. المهمّ أن أتحدّث، وأن يسمعني أحد. اليوم، ثلاثة شبّان في مثل سنّي ينظرون إلى وجهي في عجب، فاغرين أفواههم أمام قصّة خالتي ومغامراتها اللّيليّة السّاخنة. ثلاثة قد يصبحون أصدقاءً جدد لي، أو قد يستمعون إلى ما تبقّى من قصصي المفتعلة ثم يختلقون بعض الأعذار الواهية للتملّص منّي. للتّملّص من لكنتي الغريبة.. المتكسّرة. بعد ذلك، سيعودون إلى بيوتهم، وأعود أنا إلى الصّمت والاستماع إلى أحاديث السكارى وعلى رأسهم فرناندو. قد تكون ساعة أو نصف ساعة من الأحاديث العابرة.. من الصّداقة المؤقّتة. ولكنّني لم أحسّ بمثل تلك السّعادة منذ قدمتُ إلى هذه المدينة الجاحدة.

بادرني أحدهم.. ولهفة الاستطلاع تلتمع في عينيه:

- كيف وصلتْ خالتك إلى هنا؟.. هل تزّوجت ذلك الرّجل؟!

.. أظنّ انّه ما زال تحت تأثير سيجارة الحشيش! ألم أخبره منذ البداية أنّها أصبحت زوجته؟! تجاهلتُ غباءه، ومضيت ألهو بعقله وبعقول زملائه في لذّة خفيّة:

توقّفتْ عن السّير ذات عشيّة، والتفتتْ نحوه دون سابق تمهيد. تفجّر جسدها في وجهه بأنوثة صارخة. تسمّر في مكانه كتمثال، وارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء.. حائرة. استخرج سيجارة من جيبه وأخذ يبحث عن علبة ثقاب. أخذ يتحسّس جميع جيوبه في ارتباك مثير للضحك مختلسا النظر إليها بين الحين والآخر. أشعل سيجارته بيدين مرتجفتين وواصل السير باتجاهها في تجاهل متعمّد وكأنه لم يكن يلاحقها كظلّها منذ أسابيع عديدة. كلّ هذا وهي منتصبة أمامه، مصوّبة إليه عينيها كمدفعَيْ رشّاش. تقدّم نحوها محاولا الانحراف عن موضعها وكأنّه يمرّ بشجرة أو بشخص لا يعنيه من قريب أو من بعيد. أخبرتني أنّها كانت تتلذّذ بشقائه منذ أوّل يوم تبعها فيه. كانت تستمتع بتعذيبه وبمنظر حذائه المعفّر بالتّراب وهو يقطع وراءها المسافات الطّويلة غير عابئ بشمس أو بمطر. عند الضّحى، في أثناء القيلولة، أو في أواخر المساء. مهما كان الوقت من اليوم، وأينما كانت هي.. كان هو في ذيلها! يحرسها بعينيه في خطوات بطيئة، خجولة، متعثّرة وحازمة في نفس الوقت. كانت تتعمّد تمديد المسافات التي تفصلها عن وجهتها وتكثر من اتخاذ المنعطفات الإضافيّة لتختبر إصرار هذا الفتى الغريب على مرافقتها. كانت تتحسّس صلابة كلب حراسة قبل أن تشتريه من صاحبه. ولكنّه كان أكثر من ذلك. كان أجمل شيء وقعتْ عليه عيناها منذ أوّل وهلة. يوم كانت تتحسّس إحدى قطع القماش في أحد الدّكاكين بصحبة والدتها.

لمحها وهي تقطع عتبة الدكّان دالفة إلى الدّاخل ببطء مثير، فتقفّى أثرها وجعل يتنقّل بين لفائف الأقمشة متفحّصا أنسجتها بين أصابعه وكأنّه خيّاط محترف قدم من بعيد بحثا عن قطعة نادرة. شعره الأسود المسترسل إلى الوراء كان يلمع تحت أشعّة الشّمس المتسرّبة إلى الدّكان، وهي فتاة عشرينيّة لم تكن تعرف قبل ذلك اليوم أنّ رجفة الحبّ الأولى قد تباغت القلب في أيّ مكان دون سابق تمهيد. شعره اللّامع، عيناه البنيّتان الذابلتان، فكّاه القويّان اللّذان يحكيان قصّة أصله الأوروبيّ بسخاء فاضح، ولحيته الخفيفة المزروعة بعناية على امتداد وجهه الذكيّ. كلّ هذا فجّر تحت فستانها سوائل الأنوثة الحارّة، الجارفة، الصّامتة، بينما ظلّت قسمات وجهها محافظة على حيادها التامّ تجاهه. كانت تتصنّع متابعة جدال أمّها مع بائع القماش حول تخفيض ثمن قطعة حريريّة. أدركتْ هي من اللّحظة الأولى أنّ ذلك الجميل الأوروبّي لم يدخل ذلك المحلّ إلّا ليكون على مقربة منها. ليتأمّلها، ليأكلها بعينيه دون شبع، ثمّ ليتبعها بعد ذلك لمدّة شهر أو شهرين وقد طالت لحيته وتغيّرت هيئته فأصبح شبيها بصعاليك "الهيبيز" الذين نراهم من حين لآخر على شاشات التليفزيون. طوال تلك الفترة، كانت تشفق عليه من الضّياع وراءها وتتمنّى أن تراه نظيفا، رائعا، متألقا كأوّل يوم لمحته فيه أمام باب الدكّان في ذلك السوّق العتيق. ولكن رغم ذلك الإحساس الجارف بالشّفقة، خيّرت أن تعذّبه. اختارت أن تذيب قلبه تحت نار الشّمس لأنّ التعذيب عند المرأة أمتع من الحبّ، ولأنّها أدركتْ أنّها امتلكته. في ذلك اليوم قرّرتْ بجرأتها التي تفوق جرأة الرّجال أن تواجهه، أن تضع حدًّا لمعاناته. قالت له وهو يسير في اتجاهها برصانة فاشلة. قالت له وقد توازى جسداهما في تقاطع حتميّ. قالت له وقد رسمتْ على شفتيها ابتسامة متحدّية..

عاهرة. قالت له بعد أن قرّرت أن تسحبه، أن تباغته، أن تختطفه كما تُخْتطَفُ السّمكة من أعماق اللّجة. قالت له: "قد تكون جميلا، ولكنّك أخرس. أعرف مصحّة للخرسى على مقربة من هنا، أتريدني أن أدلّك عليها؟!". احمرّ وجهه الشّاحب، وأشعّت أساريره بابتسامة مؤدّبة حملتْ في طيّاتها بريق الانتصار. تمتم بكلمات مضطربة، متكسّرة ثمّ استجمع كلّ ما كان يملك من المفردات العربيّة القليلة التي كان يملكها. كان يريد أن يشرح لها أنّه لم يكن يقصد مضايقتها. همّ بالانصراف عن وجهها بعد أن خرجت كلمات الاعتذار من فمه كحشرجة شيخ يحتضر. ولكنّها استوقفته بصلابة.. وضعتْ يدها النّاعمة على ساعده القويّ غير عابئة بضوء الشّمس الفاضح، ولا بامتداد الطّريق المرصّع بعيون المارّة:

- إن كنت تريدني حقا، وأعرف أنّك تريدني، فعليك أن تحلق ذقنك وتستحمّ قبل كلّ شيء. عيب على فتى في مثل سنّك أن يتجوّل في الطّريق بهذا الشّكل. من الواضح أنّك أوروبيّ، ولا يهمّني ما الّذي أتى بك إلى هنا أو ما تفعله في هذه المدينة. قد لا يهتمّ النّاس في بلادكم بالشكل أو المظهر. ولكن هنا الأمر مختلف، معاكس تماما. الكلّ يرى، الكلّ يهتمّ والكلّ يتحدّث. بيت صديقتي نرجس. أظنّك تعرف طريقه حقّ المعرفة. غدا السّاعة السّابعة مساءً بجانب عمود النّور المقابل للبيت. وسنرى إن كان لعقدة لسانك حلّ، أم إنّني سأضطرّ إلى جرّك ورائي إلى إحدى مستشفيات الخرسى!

- ١٩ -

شمس وسط المدينة. اشتقتُ إليها كثيرا. تربّعتْ على عرش السّماء في ذلك اليوم كملكة دون منازع. هزمتْ العاصفة، قهرت الأمطار والزّوابع، وأرسلت جنود الدّفء لتجفّف المياه الرّاكدة على الأرصفة، ولتلثم النّدى على عشب الحدائق كأمّ عطوف. النّافورة ترسل بريق مياهها إلى أعلى في نشاط دائريّ مسترسل لا يعرف الملل. ساعة الغداء حانت، وأخذت الحديقة في الاكتظاظ شيئا فشيئا. برز العمّال والموظفون حاملين ساندويتشاتهم الملوّثة بالورق الأبيض. منهم من كان يتناولها ماشيا، ومنهم من جلس على حافة النّافورة مستسلما لموسيقى المياه الصّاخبة، يمضغ ولا يتذوّق.. مسترقا النّظر إلى ساعته من حين لآخر. هناك أفواج جلسوا على الكنبات المزروعة بين أرجاء الحديقة يتبادلون أطراف حديث لا علاقة له بروعة ذلك اليوم الرّبيعيّ الذي ابتلع العاصفة من أجل أن يستمتع النّاس بجماله. كانوا يجترّون أكلهم كآلات الحصاد، دون متعة، دون حاسّة تذوّق أو حاسّة شمّ. ألسنتهم نسيت تذوّق الأشياء لأنّها مشغولة بالحديث عمّا حدث، وعمّا سيحدث في المكتب أو في المصنع أو في الفصل. ألسنتهم مشغولة بالحديث عن غد قد لا يأتي أبدا!

ثمّ تجدني أنا. منهمكا في سرد حكاية خالتي مع حبيبها الأجنبيّ، تلك

الحكاية التي نسجتُ أحداثها من وحي خيالي. قصّة تلذّذت بحبك كلّ خيط من خيوط الكذب فيها ببراعة مخرج مسرحيّ مجنون، مستجيبا بدقّة مدهشة لأسئلة "هافيير" و"ماركو" و" نستور" الملتهبة بحرارة الشّوق لمعرفة النهاية.. شعرتُ - ولأوّل مرّة - بأنّني أنتمي إلى ذلك العالم، وبأنّني جزء حيّ من تلك الحديقة. كنت كائنا مشعّا باختلافه، وطائرا مزهوّا بجمال ريشه الملوّن. طائر قادم من غابات بعيدة!

أخرج نستور من جيبه كرة مطّاطيّة زرقاء صغيرة وأخذ يرمي بها عاليا في الهواء ثمّ يتلقّفها بيد واحدة وبمهارة مثيرة للأنظار. تمعّن في وجهي قليلا ثمّ قال:

- لو خاطبتني فتاة بمثل الطّريقة التي واجهت بها خالتك ذلك الفتى، لفررتُ هاربا. على كلٍّ، لا أظنّ أنّ فتيات بهذا الشّكل لا يزال لهنّ وجود في هذا الزّمن. في أيّامنا هذه، لو ركضت وراء عاهرة آلاف الأميال، لو طالت لحيتك وتعفّر وجهك ترابا وأنت تلاحقها، لو قفزت في الشّوارع عاريا كالمعتوه، لو مشيت على رأسك كالبهلوان أو قذفت النّار من فمك كالسّاحر. لو فعلت الأعاجيب وأنت تتبعها، لما التفتت إليك إن لم تفتح فمك أوّلا.. ثمّ جيبك ثانيا!

قاطعتُه مبتسما وأنا أشير إليه بأن يقذف الكرة الزّرقاء باتجاهي:

- امرأة في السّبعين من عمرها الآن. طاعنة في السنّ، شيخة. تقترب من سواحل الموت وقد يباغتها في أي لحظة. بيدها المرتجفة تحمل كأس الويسكي وتقرع جوانبه اللاّمعة بقوالب الثلج الطّافية فوقه كقوارب النّجاة في عرض البحر. تأمرني بأن أشعل لها سيجارة ثمّ تأخذها منّي بأناقة وتكبّر. تنسى أنّني ابن أختها وتحادثني كشيخ من جيلها يقاسمها أحلام الصّبا.

تعبر بي جسرا من الذّكرى يعود بامتداده خمسين عاما إلى الوراء. تكلّمني كأنّها تكلّم نفسها، وتنسى أنّني بجانبها. أصغي بصمت وأمتصّ كلماتها بكلّ ما أوتيتُ من حواسّ، بدم يفور من الدّهشة والانبهار. تتجاهل وجودي على الكنبة المجاورة لمقعدها المفضّل، هناك في ركن صالون شقّتها الصّغيرة. صالون عتيق، خافت الضّوء، مزدحم بعبق الذّكريات النّائمة بصمت بين التّماثيل واللّوحات والصّور. لم تكن تبالي باحتمال تقزّزي من كلماتها العارية من كلّ تحفّظ، الزّاخمة بكل ما هو محظور أن يتحدّث به أحد في مثل سنّها لأيّ مخلوق كان.

لم يمنعها من الحديث الماجن كلّ ما قصصته عليها من أخبار والدتي، وما كانت تكنّه لها من كره وحقد جارفين. ولم تعلّق بكلمة واحدّة عمّا كنتُ قد رويته لها من تفاصيل الصعوبات التي واجهتها في سبيل إقناع أمّي بالسّفر لزيارة خالتي الوحيدة، المنبوذة من كلّ أطراف العائلة. خالتي التي قرّرت أن تعيش حلمها إلى آخره. خالتي التي قرّرت أن ترافق حبيبها إلى آخر أطراف الأرض تاركة خلفها عبوة ناسفة في شرايين التقاليد والأعراف. أمّي التي كانت تصغرها بعشر سنوات، ترعرعت على مقت كلّ ما يمسّ أختها الوحيدة من قريب أو بعيد. "العاهرات فقط يتبعن رجالا ليسوا من دينهنّ أو ملّتهنّ.. ويهربن معهم في عتمة اللّيل دون رجعة!". هكذا كنت أسمعها خلسة وهي تتقيّأ أمام والدي ما زرعته السّنين في رأسها من أفكار. كنت أتساءل إن كانت تكرهها فعلا أم أنّها لم تكن تملك غير ذلك الشعور لتختار؟ هل يمكن لإنسان أن يكره شخصا لا يعرفه؟ كان عمرها عشر سنوات حين فرّت خالتي، حين ذهبتْ إلى الجحيم كما كان جدّي يقول! آه كم كان ذكر اسمها يغمرني

بالإثارة وسحر الغموض!

الشّوق كان يستعبدني لرؤية هذه التي جعلت جدّي لا يحتمل حتّى ذكر اسمها أمامه وهو على فراش الموت. جثوتُ على ركبتيّ أمام أمّي متوسّلا أن تعطيني فرصة لزيارتها. كانت ترفض بعنف شديد في كلّ مرّة. صرختُ في وجهها ذات يوم: "لي خالة من لحم ودم في أوروبّا.. وأنا لستُ صغيرا الآن. أردتني أن أكون متفوّقا في دراستي وكان لك ذلك. أردتني أن أكون طوع أمرك في كلّ شيء ولم أخرج عن طاعتك يوما! أريد أن أرى الدّنيا ولو لأسبوع واحد. أريد أن أكون أنا... ". ولكنّها كانت تتركني لصراخي وتكتفي بهزّ رأسها علامة الرّفض المطلق. تترك المكان وتمضي لقضاء شؤونها. ولكنّني لم أستسلم. وعندما قرّرتُ الاعتصام وراء باب غرفتي المغلق مضربا عن الحديث والطّعام لمدّة أسبوع أو أكثر، لم يكن لها خيار سوى الاستجابة لأمري. في النّهاية، ألقت بظرف أصفر على سريري عليه اسم وعنوان، وقالت في استسلام: "تلك رسالة قديمة من خالتك، لم نسمع عنها شيئا بعد ذلك. إن كان والدك موافقا على سفرك فلم يعد لي رأي في الأمر! بعد أن تعود من السّفر هناك أشياء عديدة ستتغيّر!". يومها أدركتُ بغريزة خفيّة أنّ بداخلها حبّا دفينًا لأختها الغائبة، حبٌّ لم يذق طعم الهزيمة بعد!

الكرة الزّرقاء الصّغيرة. ناعمة الملمس كممحاة جديدة. طريّة الأطراف كألعاب الصّلصال التي كنّا نلهو بها ونحن صغار. في أثناء حديثي مع الشبّان، كنت أدنيها من أنفي من حين لآخر. رائحة المطّاط كانت تستهويني منذ زمن بعيد. أين الرّائحة؟ لا شيء! خدعة ثانية من خدع هذه المدينة. شكل، وملمس، ولكنّ الرّائحة غائبة.

الرّائحة شيء يشبه العدم! لا أعرف من امتصّها بهذه البراعة.. وكيف؟ لم يمتصّها من الكرة فقط، بل من الفاكهة ومن أزهار الحدائق، من أدخنة الأفران، ومن عينيّ كلّ امرأة تصادف طريقك. لم تكن الكرة المطّاطيّة صالحة للاستنشاق، كانت صالحة لأن تقذف في الهواء فقط! قذفتُ بها عاليا حتّى صارت حدقة في عين الشّمس ثمّ عادت فاستقرّت بين يديّ. بعد ذلك، رميتُ بها في اتجاه نستور في حركة رشيقة، ولكنّه لم يستطع تلقّفها من شدّة تركيزه على بقيّة الحكاية. حكاية خالتي، منذ خمسين عاما، وذلك الشابّ الهائم الذي واعدته في اليوم الموالي. من أين سآتي له ببقيّة الحكاية؟ هل سيرويها لأصحابه في الفصل غدا؟ هل سيرويها لأمّه وأبيه؟ أو ربّما لأقرانه في الحيّ؟ حكاية أرويها لهؤلاء الأغبياء، قد تلوكها الألسنة في مكان ما من هذه المدينة.. غدا أو بعد غد، وربّما بعد عشرين عاما. شيء جميل ورائع! لهذه الخاطرة، تمدّد غروري كزئبق وُضع في جوف الفرن فجأة. لهذه الخاطرة انتفخت أوداجي كطائر اكتشف مصادفة أنّه ينتمي إلى سلالة متفوّقة الجمال. طائر عاش طوال عمره مقتنعا بأنّه غراب بشع المنظر، قبيح الصوت، تنفر الآذان لصوت نعيقه المزعج، وإذا به يكتشف أنّ لصديحه موسيقى عذبة تتناقلها الألسن والشفاه. لأكمل لهم القصّة إذن! سأملأها بالفقاقيع الجوفاء الملوّنة. خالتي العاهرة، العاشقة الجريئة، التي تملك شقّة عتيقة في قلب أحياء مدريد القديمة: فقاعة صفراء! أنا الطّالب المتفوّق الذي قدم إلى هذه المدينة سياحة، آه لو علموا بأنّني لم أدخل مدرسة ثانويّة في حياتي، لو علموا كم جسدا في الماء دفنتُ قبل أن يرتطم زورقي برمال إسبانيا: فقاعة زرقاء! أنا الشابّ المدلّل الذي سمح له أبواه بالسفر على متن الطّائرة وزوّداه بمصروف جيب سخيّ ليزور خالته في أقاصي الأرض، آه لو سمعوا نحيب أمّي المكتوم

خلف الجدران المتشقّقة، لو سمعوا زئير «سي الهادي» وهو يضربها في ليالي الشتاء الباردة، لو سمعوا ذلك لانحنوا إجلالا للدّيدان التي تلتهم الآن لسانه وكفّيه: فقاعة حمراء!

عادت الكرة الزرقاء المطاطيّة للطّيران عبر فضاء الحديقة. استقرّت بين كفيَّ واستمررتُ في الحديث ضاغطا عليها بين الحين والآخر:

- بلغ مكان الموعد قبل ساعة مرتديا أجمل ما يملك من ثياب. ذقنه نظيفة وشعره مسرّح يلمع تحت أضواء المساء. قبل أن يترك بيته للقائها، أفرغ زجاجة عطر على جسده واشترى ولاّعة فضيّة جديدة متناسقة مع سلسة ساعته السويسريّة الثمينة. وصل مبكّرا عن الموعد، وأخذ يختلس النظرات لساعة يده بين الحين والآخر. كان يستعجل عقاربها ويرجوها أن تتمهّل في نفس الوقت. ولكنّ العقارب ظلّت تطوي الزّمن في زحفها الدّائريّ المتواصل متهادية بقلبه كسفينة ثقيلة نحو مشارف لقاء طالما حلم به. نحو حلم طالما استنزف عقله وقلبه وجسده. قد تصل هي في أي لحظة! ماذا سيقول لها؟ هل سيتلعثم؟ هل ستتطاير قطرات اللعاب من فمه بحثا عن بقايا كلمات عربيّة شحيحة يركّب بها جملة يستطيع بها التعبير عن مدى حبّه لها؟ قد تموت الجملة بين ألياف لسانه وينتهي كلّ شيء! هل سيغفر للسانه جهل اللغة؟ انتظار من نحبّ. أوّل ساعة انتظار. أعذب سوط يلسع قلبك وأعنف ريح تهزّ شرايينك! أوّل ساعة انتظار. مرجل حديد ذائب يغلي بين جدران المعدة! أزبدت معدته بكل أنواع الأصوات، منها ما يشبه العواء ومنها ما دفعه إلى الضغط على عضلات بطنه حتى لا يتسرّب شيء من أسفله. ضغط بشدّة، لا وقت للذهاب إلى الحمّام ولا يوجد حمّام على مقربة منه. أوّل ساعة انتظار!

حادث مستقلّ بروعته عن كلّ ما عشناه وما سنعيشه من أحداث. عنوان فاتن لقصّة صفحاتها لا تزال ناصعة. أوّل ساعة انتظار هي حياة بأسرها. هي الشيء الوحيد الذي قد يضيء بين رئتي شخص مختنق بظلمة أنفاسه الأخيرة.

من عاش تلك الساعة بكلّ ألوانها، بحرائقها وجليدها، بكلّ السّوائل التي تتفجّر من فوهة المعدة وبركض القلب كحصان شارد على جدار الصّدر.. فلا موت له! تلك الساعة الجسر هي الخطّ اللاّزورديّ العابر بنا من ضفّة الرتابة إلى ضفّة تشبهنا تماما. تلك السّاعة هي علامة الاستفهام، نقطة الذهول، هي التحام كلّ المشاعر المضادّة في مخاض رائع يقذف بنا فجأة إلى أعلى القمّة. هناك حيث تتذوّق الحواسّ المعنى الحقيقيّ للحياة، هناك حيث نريد أن نستقرّ إلى الأبد فلا نستطيع. لا نستطيع لأنّ ما يجعل المتعة متعة هو عدم استمرارها.. هو قصر عمرها. ساعة الانتظار.. وأوّل لقاء! عنيدة كالدّهر تلك السّاعة، زاحفة كسلحفاة مسنّة، نفّاثة كالرّصاصة. سائل سريّ الوصفة، إن سُكِبَ في شرايين الزّمن جعله يدور بسرعة بطيئة وببطء سريع. يحوّلُه إلى فراغ يشبه العدم. ساعة انتظار من نحبّ تجعل ألوان الأفق غير الألوان، ومذاق الهواء غير المذاق. هي الشيء الوحيد الذي من أجله يجب أن نعيش، وبعده لا يمكن لنا أن نموت. هي الضوء الذي يسافر بنا في عمق الليل دون أن نسأل إن كان لطريق العودة عنوان!

ساعة الانتظار أصبحت نصف ساعة، عشرون دقيقة، ذابت كقطعة حلوى إلى خمس دقائق. أمعاؤه تتخبّط كأخطبوط جريح في حفرة بطنه.. ولا حمّام هناك، لا وقت للتحرّك. قد تظهر تلك الرّائعة في أي لحظة.

السّابعة تماما... ولا شيء غير سكون المساء، وبعض الجيران الذين كانوا يظهرون بين الآونة والأخرى لرمي أكياس النفايات أمام منازلهم من أجل أن يلتقطها عمّال البلديّة. دقيقة تجاوزت ما بعد ساعة الصّفر، ولم يلمح في الأفق سوى صفر عبرت حلقته خفقة جناحي طير كان يتنقّل بين أغصان الشجر وكأنّه يشاركه الحزن والانتظار. سمع نباح بعض الكلاب المتسكّعة. شعر أنّه أصبح واحدا منها! تعذّب بثقل جسده المستند إلى عمود النّور شاعرا بأنّ عيونا خفيّة تراقب حزنه وتسخر من وقوفه المريب في خلاء الرّصيف. أين هي؟ هل أخطأ الموعد، أم أربكه الموقف حينما لفظتْ شفتاها المكتنزتان عنوان اللقاء فاختلطتْ عليه الأمكنة؟! قالت: "بيت صديقتي نرجس"، ولم تكن تزور صديقة غيرها. إلى هذا البيت تبعها في كلّ مرّة، ولا وجود لغيره في سجلّ ذكرى رحلاته المعذّبة وراءها. بلى، هذا هو البيت، وهذا هو السّور الأبيض المتوّج بالقرميد الأخضر الذي أصبح أزرق تحت كآبة أضواء المساء! هذا هو الباب الحديدي الصغير، وتلك هي أنوار الغرف. طاف حول البيت مرّة.. واثنتين.. وعشرا. السّاعة أصبحت تشير إلى الثامنة والرّبع وسَمْعُهُ المرهف ينزف تحت مدية الصّمت. عاد إلى مكانه تحت الضوء المنفلت كشبح من زجاج المصباح العموميّ. مرّ شرطيان ولم يعيرا وجوده أيّ اهتمام، ثمّ قفلا راجعَيْن على الناحية الثانية من الرّصيف. رمقاه بنظرات عابرة.. خالية من أيّ شكّ، ثم اختفي شبحهما في عتمة المساء. بعد هنيهة، توقّفت شاحنة رماديّة متّسخة قفز من ذيلها رجل ضئيل الجسم وأخذ يقذف في جوفها أكياس النفايات. كاد أن يتوسّل لعامل النظافة أن يعامل جسده كتلك الأكياس. أن يَطحَن قلبه مع القوارير الفارغة والخبز المتعفّن حتّى تظلّ رائحة دمه الممتزج بلامبالاة الليل صامدة

أمام هذا البيت في انتظار أن تأتي هي أو لا تأتي. تكبّلت مسالك جسمه السفليّة بطوفان من البول وبسلاسل أليمة أفقدته القدرة على الحبّ وعلى الانتظار. نفقد الرّغبة في كل شيء عندما تتزاحم سوائل الجسم داخل الجسم. الثامنة والنّصف، ونصفه الأسفل أصبح باردا.. مشلولا كسدّ توشك مساميره على التفتّق من مواضعها أمام سيل غاضب. لابدّ من الإفراغ، لابدّ من طلب الراحة. أين سيفعلها؟ ليس هناك مقهى أو دكّان قريب. راودته فكرة حيوانيّة محشوّة برغبة بشريّة في الانتقام بأيّ شكل: لأنّها قرّرت الاّ تأتي الليلة، ولأنّها استخفّت برجولتي وبحبّي، فبالبول سأدوّن اسمها على صفحة هذا السّور الذي واعدتني أمامه. بعد ذلك لن ترى وجهي إلى الأبد!

مشّط بنظره أرجاء المكان ليتأكّد من خلوّه من العابرين، ثم قطع الطّريق بسرعة فائقة. فتح أزرار سرواله وشرع في زخرفة الحائط بالسّائل الأصفر الحارّ ناثرا عليه ما يشبه حروف اسمها....م...ر...يم ! تأوّه من لذة الخلاص النفسي والجسديّ معا. أقفل أزرار بنطلونه مبتسما وتراجع إلى الخلف متأمّلا توهّج الاسم على الحائط الأبيض في اعتزاز يائس. فجأة، سمع صوتا يباغته من الوراء كضربة مطرقة: "خطّك جميل يا عزيزي!".

انتفض هافيير إلى الوراء حتى كاد يقع في حوض النّافورة.. ثمّ صرخ مذهولا:

- يا إلهي.. من؟ هي؟! كيف يكون ذلك.. ومن أين أتت؟!

انفجر ماركو ضاحكا...وبادره وهو يضربه على كتفه في استخفاف:

- خالته شبح. شبح خطير وجميل! ذلك موقف لا يُحْسَدُ عليه أحد. ماذا فعل ذلك المسكين بعد ذلك؟ هل........

قاطعته متعمّدا وقد سرت الأفكار في رأسي كالزيوت الخالصة:

- كانت موجودة طوال الوقت. تلهو بطول انتظاره في استمتاع صبيانيّ من وراء ستائر إحدى الغرف العلويّة للبيت. هي وصديقتها كانتا تتناوبان النظر من بعيد إلى شبحه المتململ تحت أنوار الرّصيف، وتتراهنان على الساعة التي قد يرمي فيها بمنديله الأبيض معلنا استسلامه لمرارة الموعد المبتور. كانتا تنتظران اللّحظة التي يعود فيها أدراجه ساحبا خيبته وراءه كالنّعش. أضواء الغرفة العلويّة كانت مطفأة عَمْدًا حتّى لا يلاحظ هو شيئا. عيناه المتلهّفتان كانتا تدرسان كلّ حجر في أركان البيت، وتتسلّقان أغصان كلّ شجرة في الحديقة المعتمة. تحاولان العبور إلى ما وراء أنوار النوافذ حتى كاد حزنهما أن يُفتّت خلايا الزجاج. بعدها، كان يُطْرِقُ برأسه وتتوهّج بين شفتيه شعلة سيجارة برتقاليّة بانت للفتاتين من بعيد كالشمعة الكئيبة في عتمة ذلك المساء. بعد ذلك، تعود تلك العينان إلى مناجاة جدران البيت وتعجزان -في أثناء كلّ محاولة- عن العثور على فجوة الستائر الصغيرة التي جَعَلَتْها هي وصاحبتها مرصدا سريّا لمراقبته في ظلام الغرفة. ستارتان مغلقتان بإحكام، انفرجتا عن كوّة ضئيلة تتّسع لعينين تتلذّذان بصمود ذلك الفتى أمام غياب حبيبته عن الموعد. "العشق لا يقاس إلاّ بمدى الصّبر على انتظار من تحبّ!". هكذا أخبرتني خالتي وبريق ذلك المساء البعيد لا يزال متوهّجا في نظرات عينيها. عندما اختفى لأوّل مرّة، ظنّت أنّه قرّر الانسحاب نهائيّا من أمام البيت. كادت أن تفتح زجاج النّافذة وتشعل الأنوار لتناديه،

ولكنّ نرجس نبّهتها إلى أنّه يطوف بالبيت لا أكثر. بعد ذلك تتالى طوافه حول السّور، وعاد الضحك المكتوم والعبث الصبياني إلى أجواء الغرفة المظلمة. أخذت الصديقتان تتدافعان لافتكاك مكان وراء فجوة الستائر لمراقبة الشابّ المسكين. أصبحت الفجوة عدسة سحريّة تختلسان من خلالها مشهد الانتظار بكلّ تفاصيله الحزينة: عمود النّور والشرطيّان، عامل البلديّة والشاحنة الرّماديّة، ثمّ هو وقد بدت عليه علامات الضيق الجسديّ فيما أوحى بأنّه يريد التبوّل. هو من؟... أوف.. يجب أن أجد له اسما قبل أن تتهشّم أحداث القصّة كآنية الفخّار على رأسي!.. أوم.. آه... ما اسمه؟ كارلو.. نعم اسمه كارلو! هافيير كان يتابعني ببلاهة ولسانه يكاد يتدلّى من بين فكّيه. كان ينتظر بقيّة الحكاية، ولم أكن ممّن يبخلون بالأحاديث الكاذبة. واصلتُ مبتسما:

- انتفض كارلو فجأة. ثمّ لمحتْه هي من وراء الكوّة وهو يقطع الطّريق كالمجنون نافضا عن كاهله كلّ أردية التأنّي والرصانة الذين تحلّى بهما إلى تلك اللحظة. أصبحتْ نواياه واضحة حينما انتصب أمام سور البيت وشرع بفكّ حزامه. انفرجتْ الستائر بقوّة كباب مغارة ووقفت الفتاتان مشدوهتين أمام منظره المضحك وهو يرقص بحزامه في حركة تموّجيّة.. مزركشا الحائط بكلّ ما انحصر في جسمه من سوائل مكبوتة. قفزت هي راكضة عبر أدراج السلّم العلويّ غير عابئة بقهقهات نرجس وبعينيها المتعطّشتين لرؤية ما كان يخفي ذلك الفتى الوسيم خلف أزرار ثيابه من أسرار.

ما هي إلاّ لحظات قصيرة حتى كانت واقفة وراءه، متأملة بهدوء أسلوبه الشاذّ في الانتقام لنفسه منها. في تلك اللحظة أدركتْ أنّه رَجُلُها،

وأيقنت بأنّها لن تكون لغيره مهما حصل. ذلك الموقف السخيف الذي قد يشمئزّ له قلب أي فتاة عاديّة كان بالنّسبة لها بداية حبّ دام خمسين عاما. بما كان يملك هو في لحظات الانتظار القاسية.. عبّر عن عشقه وعذابه وثورته. ذلك هو الرّجل الذي يستحقّها! فجأة استيقظ ذلك الشيطان العابث، الجامح دوما بين خلايا جسدها المتأجج بالشهوة والغرور. ذلك الشيطان ألهمها أن تباغته في لحظة الخزي تلك لتختبر ردّ فعله على الطّبيعة، دون أقنعة، ودون أدنى مسافة من الوقت تكفيه لتبرير فعلته. "إن تلعثم أو خجل من نفسه، فسأتركه وأعود إلى البيت بعد أن أصفعه وأحذّره من مغبّة اللحاق بي في المستقبل. رَجُلي هو الذي يقف شامخا، معتزّا بحبّه وبنفسه مهما كان الموقف محرجا، هو الذي يجعل وجه الخجل يحمرّ خجلا!". فكّرت بذلك قبل أن تفاجئه من الخلف بكلماتها الساخرة التي عبرت أذنيه وانغرست في غشاء دماغه كالإبر الساخنة وكأنّ لا جمجمة له. الألم الذي لا يَقتُلُ..هو الألم الذي يجب قتْلُه!".

... قاطعني هافير وقد بدا أكثرهم تجاوبا مع أحداث القصّة:

- كمين بشع ذلك الذي نصبته خالتك لذلك الشابّ المسكين... أووم.. ما اسمه؟

أجابه ماركو بتهكّم:

- كارلو... اسمه كارلو. ذاكرتك كالقربة المثقوبة دوما! أقسم أنّك ستنسى اسمك يوما.. هذا أكيد!

اغتاظ هافير وأخذ يغرف بيده من ماء حوض النّافورة راشّا به وجه صديقه السّاخر. أخذ ماركو في تغطية وجهه بكلتا يديه محاولا دفع الهجوم المائيّ.

رنّت قهقهاته عاليا:

- ستبقى غبيّا طوال عمرك يا هافيير!

في تلك اللحظة اشتدّ حنق هافيير، فوثب على قدميه وهمّ بالانقضاض على ماركو الذي لم يترك لصديقه الغاضب فرصة القبض عليه فأفلت هاربا وضحكاته العابثة لا تزال تملأ أرجاء المكان لافتة إليه أنظار الكثير من زوّار الحديقة. عاد هافيير إلى الجلوس على حافة الحوض وهو يتمتم بلعنات ساخطة متوعّدا ماركو بكسر رأسه. أمّا هذا الأخير، فقد أخذ يحوم حول النّافورة عن بعد وكأنّه ذبابة خريف عنيدة عزمت بغريزتها على أنّ تُقِضَّ راحة الآخرين. بعد ذلك، أخذ في استفزاز هافيير بحركات يد قبيحة واصفا إيّاه بالحمق والغباء كأن يضع سبّابتيه فوق رأسه مشبّها إيّاه بالحمار. بين الحين والآخر، تشتدّ وطأة الاستفزاز على كاهل هافيير، فيهمّ باللحاق به من جديد. يهمّ بذلك فعلا، ثمّ لا يلبث أن يعود إلى حافة النافورة لاهثا، مزبدا، فلا يجد لحمّى الانتقام من شفاء مؤقّت سوى تعريض وجهه لرذاذ الماء المتناثر في الهواء. كان المشهد على سخافته مبعثا للضحك والتسلية، ولكنّ عندما استمرّ الأمر على حاله لمدّة لا تقلّ عن عشرين دقيقة كاد الدّم خلالها أن يتفجّر من عروق وجه هافيير المسكين، صاح به نستور:

- هذا يكفي! ألم أنصحك أكثر من مرّة بأن تتجاهله.. هه؟! كم مرّة نصحتك بهذا؟ مئات المرّات ربّما! أنت طبعا تعرف ما سيحدث الآن! سينسحب هو فورا إلى بيته وسينسى الأمر تماما. أمّا أنت فستتفجّر شرايين قلبك من الغضب ولن تقدر على فعل أي شيء أكثر من ذلك! سأقولها لك لآخر مرّة: لا تُعِرْ كلامه أيّ اهتمام. دعه يهذي بما يشاء. اتركه يسخر

بقدر ما يسمح له لسانه السّليط بأن يفعل! إن أقلعت عن التفاعل.. أقلع هو عن الاستفزاز. الأمر بهذه البساطة. متى ستفهم هذا الأمر.. متى؟!

لم ينبس هافيير بكلمة وظلّ صدره ينتفض صعودا ونزولا من شدّة اللهث وراء صديقه الذبابة. بعد ذلك غاب ماركو عن الأنظار كما توقّع نستور، وعدتُ أنا إلى تقاذف الكرة المطاطيّة الزرقاء معه.. تاركين لهافيير فرصة ثمينة لاستعادة هدوئه. كانت الكرة في منتصف طريقها باتجاهي حينما باغتني سؤاله:

- ماذا حصل لكارلو بعد أن فاجأته خالتك من الخلف؟

التفتُّ إليه مبتسما، متطلّعا إلى وجهه البنّي المستدير، ومتعاطفا مع عينيه الصغيرتين المرفرفتين فوق أنفه العريض كخطّافين أعياهما البحث عن الماء. الطيبة كانت تتدفّق من تلك الملامح بلون دافئ غمر قلبي بسيل من مشاعر العطف تجاه علامات الاستفهام المرتسمة على جبهة رأسه الحائر. أجبته مازحا:

- ما زلت ترجو استكمال بقيّة الحكاية يا هافيير. ألا تريد أن تلحق بماركو لتشبعه ضربا لاستخفافه بك؟

- اللعنة عليه! سوف يرى ما سأفعل به يوم غد! سأكسر قدميه وسألقي بهما إلى كلاب الطّريق.. أمام باب المدرسة.. وأمام الجميع! عندها سيتعلّم أن يعدّ إلى المائة قبل أن يطلق عقال لسانه النّتن. أمثاله لا يرتدع إلاّ بالقوّة، وقد آن الأوان لغروره أن يُسْحَق.. وذلك سيكون على يديَّ هاتين!

طفت على وجه نستور ابتسامة هازئة، ما لبث أن تداركها ليعود

لإخفائها بين طيّات شفتيه الغليظتين، ثمّ علّق باقتضاب:

- سوف نرى!

همّ هافيير بالرّدّ عليه وقد عادت آثار الضّيق إلى قسمات وجهه الطيّب، ولكنّني قطعتُ حبل كلماته قبل أن يمتدّ إلى نستور فيسحب الموقف إلى ضفاف التوتّر من جديد:

- عزيزي هافيير، هل تريد سيجارة؟

أومأ برأسه علامة الإيجاب فألقيت بالكرة المطاطيّة على الأرض. سحبتُ علبة السّجائر وعلبة الثقاب وقذفت بهما الواحدة تلو الأخرى باتّجاهه. لم يكن بارعا في عمليّة التّلقّف فارتطمت العلبتان بمشارف أصابعه ثمّ وقعتا على الأرض. انحنى فالتقطهما ثمّ انشغل بإشعال سيجارة وقد عادت ملامحه إلى الهدوء من جديد. بعد ذلك تقدّم نحوي متهاديا ووجهه الأبنوسيّ يلمع تحت أشعّة الشّمس. قدّم لي العلبتين وقال مبتسما:

- شكرا أيّها الصّديق. اسمك أمير، أليس كذلك؟

- نعم...

- هل يعني اسمك شيئا؟

"اسألْ سي الهادي! ".. أجبتُ في قرارة نفسي. ثمّ قلتُ: "لا أدري. ربّما. لم أفكّر في هذا الأمر قطّ. هل يعني اسمك أنت شيئا؟"

- لا أعرف. قد يكون اسم قدّيس ربّما؟ نستور، هل تعرف ماذا يعني اسمي. هل تعرف إن كان لاسم "هافيير" معنى محدّدًا؟

أجاب نستور بالنّفي وقد عادت نفس الابتسامة السّاخرة إلى البروز حول شفتيه:

- لا أدري. قد يكون اسم قدّيس. في النّهاية، الأسماء لا تعني شيئا!

عاد هافيير إلى الجلوس على حافة حوض النّافورة مستنشقا ما تبقّى من سيجارته بشراهة. في تلك الآونة، حطّ عصفور على الضفّة المرمريّة ثمّ تبعه عصفور ثان. ارتويا من المياه الصّاخبة بنقرات واثقة، ما لبثا بعدها أن ارتفعا في الجوّ مطلقين أنغاما عذبة.. رائعة.. امتزجت رقّتها بإطلالة الألوان السّاحرة لقوس قزح. لم تمض لحظات معدودات حتّى جلس على حافة الحوض سائحان عجوزان وقد أمسك كلّ منهما بيد الآخر. أسلما عينيهما الغائرتين لجمال الحديقة. نفضا عن شفتيهما غبار الكلمات الصّدئة فكان الصّمت بينهما أشبه بالموسيقى الآتية من بعيد!

كنتُ أتابع كلّ ذلك دون أن أتوقّف عن إطفاء نهم نستور وتعطّشه لمعرفة ما حدث لكارلو ولخالتي الوهميّة بعد أن حدث ما حدث أمام سور البيت:

- تسمّر في موضعه للحظات معدودات أحسّ خلالها بأنّ السّماء تتهشّم كسقفٍ زجاجيٍّ على عظامه المرتخية. بعد ذلك، ثبّت بصره على صفحة السّور البيضاء حيث أخذت آثار البلل تسير إلى أسفل متفاعلة مع ذرّات هواء الصّيف الحارّ حتّى تشوّهتْ حروفها ثمّ تبخّرتْ في أحشاء الليل الهادئ. كأرنب فاجأته أضواء الصّيد الكاشفة تجمّدت أعضاؤه وجميع حواسّه، فلم يقو على الحركة أو الهروب. ورغم أنّ الفرار لم يكن من أساليبه في التّعامل مع المواقف الصّعبة إلاّ أنّ هذه المرّة

كانت له رائحة مغرية. كان أوّل طوق نجاة تلقي به الغريزة أمام عينيه. منطقة ما -في خضمّ عجز دماغه عن التفكير- كانت تطوي كلّ الاحتمالات في سرعة البرق. منها أنّ الصّوت الّذي ورد إلى سمعه منذ لحظات قد يكون همسا داخليّا شكّلتْهُ أيادي جنونه بتلك الفتاة فحوّلته إلى ذبذبات مسموعة اخترقت أذنيه لتعبث بما بقي من عقله. أرهف السّمع ليتيقّن من معقوليّة احتماله اليائس. إن كان الصّوت حقيقيّا وإن كانت هي موجودة خلفه الآن فعلا، فمن المحقّق أنّها ستقول شيئا آخر خلال اللّحظات القليلة المقبلة. مثلها لا يصمت طويلا بين الجُمَل. ولكنّها لم تلفظ بكلمة. شيطانها المعربد كان له من الصّبر ما يكفي لصلب حبيبها بين نار الحقيقة واحتمال الجنون. هذه الأنفاس الحارّة التي تلفح رقبته، وهذا الانعكاس الدّقيق لخيالها على جدار السّور بكلّ تضاريسه الفاتنة وبامتداد خصرها الرّقيق إلى حافة ردف ممتلئ بالأسرار والشّهوة، كلّ هذا لا يمكن أن يكون وهمًا! حضورها الغامض كان هادرا كالطّوفان رغم الصّمت، كان صارخا، متوعّدا، ساخرا، مقهقها، ومغرقا في طريقه كلّ احتمال بأنّ وجودها لم يكن حقيقة في عتمة ذلك المساء.

اتّسعت عينا هافيير من الدّهشة، ومضيتُ أنا في الحديث:

- بقي على حالة من الذّهول مرهفا سمعه إلى ما قد يصدر حوله من صوت أو حركة قد يكون من شأنها أن تنفي حضورها أو تؤكّده. أطلق بصره إلى واجهة البيت. كانت جميع النّوافذ مظلمة ما عدا واحدة أطلّ منها شبح نرجس فارعا، نحيلا وخاليا من كلّ الملامح. قد يكون الصّوت آتيًا من هناك، من ذلك الشبح المقنّع بظلمة الليل وبُعْد المسافة. ولكنّ الكلمات القليلة التي سمعها منذ لحظات وُجِّهتْ كالقذائف من فوهة

خلفيّة، ولا يمكن لوعيه أن يستوعب احتمال انطلاقها من تلك النافذة المضيئة. عاد دمه إلى الانسياب بين خلايا جسده وألهمته حواسّه أنّ مثل هذه المواقف، صعبة كانت أم سخيفة، لا يمكن أن تُحْسَمَ إلاّ بالمواجهة. لا يمكن إبطال مفعول سمّها إلاّ بتذوّقه. قد يجمد ساعة أو ساعتين في مكانه دون أن يدير وجهه ليواجه مرارة الحقيقية. وقد يطلق ساقيه لنسمات الليل لينجو من ذلك الاحتمال القاتل بأنّ حبيبته قد شاهدت تفاصيل فعلته المشينة. تلك راحة وقتيّة. ستفترس الحيرة قلبه بعد زوالها، وستتلطّخ زوايا ذاكرته بآثار الحادث يوما بعد يوم، وسيمضي في الشّوارع سائلا نفسه ليلا نهارا: "هل شاهدتْ هي فعلا ما اقترفتُه على الحائط؟ أم هو كمين من تدبير الخيال؟ هل يختفي من حياتها ملتحفا بنقاب الخزي والعار. أم يسألها بجرأة لم غابت عن الموعد؟". استجمع جرأته أخيرا وأدار وجهه بسرعة خاطفة نحو مصدر الصّوت الخلفيّ. كانت هي: رائعة ومتألّقة. جسدا خصبا وروحا حلوة عابثة. كانت واقعا متوهّجا تحت أنوار مصابيح المساء، وشفتين منفرجتين كصدفة بحريّة قرّرت أن تبوح للّيل بأسرار لآلئها. كانت مستسلمة رغم صلابة انتصابها. جاهزة لأن يفاجئها كما فاجأته. كانت مستعدّة لأن يذيب توحّشها كما أذابت قلبه. غزال جاهز للموت تحت براثن الرّجولة كانت هي، وبتلك البراثن انقض هو على جسدها. حريق أنثويّ مستهتر كانت هي، لا يطفئ فوضاه إلاّ شلاّل حبّه الهادر. لم تقل هي شيئا، ولم تنبس بحرف. في لحظة، تعانقت الشفاه وتشابكت الألسن فيها خُلِقَتْ له: قبلة انفجر لها مقياس الحرارة. ثمّ قبلة أخرى، تلتها ثالثة ورابعة. وتتابعت القبلات رهيبة، حارّة، وملوّنة كتسابق الألعاب النّاريّة في عتمة السّماء. قفزتْ نرجس من موضعها أمام نافذة الحجرة المضيئة، وصفّرتْ صفّارتين متقطّعتين لم يسمعا منها شيئا.

بعد ساعة، ألقى بها على فراش غرفة نومه، وأعطته هي كلّ شيء دون مقاومة.

... وجه هافيير لا يزال مشدوها، محدّقا فيّ من فرط التعطّش لاستكمال البقيّة. أمّا أنا فقد أدركتُ أنّ مستنقع الكذب الذي استقيتُ منه تفاصيل قصّتي الوهميّة قد أوشك أن ينضب. لقد توصّلت إلى غايتي من هذه الحكاية ألا وهي إثارة اهتمام هؤلاء الشبّان واكتساب صداقتهم. لقد كان لي ما أردتُ، فلِمَ الاسترسال؟ لم التمادي في سرد وقائع لم تتوال أحداثها إلاّ على شاشة الخيال؟ خيالي أنا. ذلك الّذي باغتني بقدرته المَرَضيّة على التلاعب برؤوس الآخرين فانحنى له لساني طائعا، متلذّذا برسم صورة لخالة عابثة ليس لها وجود، ولعاشق غريب لا يعرف في الحبّ هزيمة. خشيتُ التمادي في الحديث فتفضحني هفوة أو سهوة. خشيتُ أن ينهار بنيان الحكاية على رأسي فيسخر منّي هؤلاء ويتركونني هازئين. همّ هافيير بفتح فمه، وخلت أنّني أرى أشباح أسئلته وهي تنبعث من شفتيه لتكبّلني من كلّ ناحية وصوب. ولكّنني لم أمهله. أسرعتُ في الكلام بحذر شديد متظاهرا بأنّ الضّجر قد تملّكني بعد طول حوار:

– في صباح اليوم التّالي، استيقظتْ بين يديه عارية وأسلمت جسدها الطريّ لرحيق شفتيه. انتفضت منحدرات أنوثتها لتوغّل لسانه النّدِيّ، ثمّ مسحتْ خصلات شعره الملتصقة بخلايا بشرتها السّمراء النّاعمة. لم يترك ركنا لم يزرع فيه قبلة، أو موضعا لم يهمس له بكلمة حبّ. بعد ذلك، قفزتْ فوقه وقبّلت جبينه وعينيه. ثمّ همّت بالتهام شفتيه عندما باغتها: "أحبّك". ابتسمتْ بخبث وقالت: "أنت لا تعرفني، فكيف لك أن تُحبّني؟". عندئذ، أمسك برأسها الجميل بطريقة تنمّ عن الجديّة وشيء

من الصّرامة، ثمّ أطلق عينيه ترتعان كفراشتين مسحورتين عبر قسمات وجهها الرّائع. أردف بحزم: "أحبُّكِ!". سحبتْ وجهها بدلال من بين أصابعه، وبحركة فاتنة أرجعت خصلات شعرها إلى الوراء فتطايرت في الهواء كزوبعة من السّواد لتهدأ على امتداد ظهرها العاري. أجابت وقد تململ شيطانها العابث استعدادا لمناورة جديدة: "إذا صمّمْتَ على أن أجيبك، فهذا هو جوابي: "لا أحبُّكَ!". تمعّن في وجهها بهدوء، وغاص في عينيها متعلّقا بأذيال كلماتها الأخيرة كغريق لم يصبه اليأس من النّجاة بعد. صمتَ ثمّ استطرد مستوضحا: "لا أفهم ما تقصدين؟". أجابته باسمة: "أقصد ما قلت.. أنا لا أحبُّكَ!".. ثمّ أطلقتْ ضحكة فيها من الغنج ما يكفي لحجب نور التّعفّف عن قلب قسّيس. ظلّ كارلو صامتا وطيف ابتسامة حائرة يكاد يذوب بين شفتيه. حاول بكلّ جوارحه غربلة مقاصد هذا الشيطان الجميل القابع فوق صدره. شعُر بنعومة جسدها الملتصق بجلده وبتعانق الخلايا وامتزاج حبّات العرق بعد وجبة الحبّ الصّباحيّة. بين ذراعيه هي الآن، امرأة، كُبّة من لهب المتعة. جسد حارّ وشعر مخيّم كاللّيل على مشارف ظهر رخاميّ أملس. نهدان متوازيان في شموخهما، متماثلان في صلابتهما وفي تكمّش حلمتين داكنتين جاهزتين للقطاف كحبّتي توت أزرق. تلك الكلمات التي لفظتها منذ قليل ببساطة وغرور. "لا أحبّك"، قالت ذلك دون تعب أو مشقّة، دون حذر أو احتراس أو خجل. تلك الكلمات جعلت منها سرابا مخيّما فوق سريره، نجما بعيدا في السّماء، أسطورة كعروس البحر. لم يكن جاهزا للاستسلام بعد، انتظر أن تفرغ من قرع فضاء الغرفة بضحكاتها العالية ثمّ استطرد: "إن كنت لا تحبّينني، فما معنى كلّ هذا إذن؟". لثمتْ أنفه بشفة كالورد، ثمّ زرعت قبلة خاطفة على فمه وأردفت: "معناه أنّني لا أحبّك... بل أعشقك!".

لم تمهله وقتا للإجابة، وانسحبت منزلقة بشفتيها على امتداد جسده ونزلت ببطء مثير راسمة بلسانها خطّا مستقيما عبر صدره ثمّ صرّته إلى أن بلغت سواحل الرّجولة المتحفّزة لغزوٍ أنثويّ مضادّ. لم تكد تشنّ هجومها حتّى أمسك بشعرها وجذبها إليه بعنف. تقابلت عيناهما وتوازت شفتاهما، عندها لم يجد غير ثلاث كلمات يهرق بها حبّه لها لآخر قطرة: "أريدك زوجة لي!". مرّ شهر على ذلك الصّباح. ثلاثون يوما من تاريخ أوّل مناورة حبّ بينهما، تخلّلتها مواعيد خفيّة في خلوة حجرته. قبلات ظمأى، لمسات مسحورة، وكلمات عشق مطرّزة ببريق مستقبل فضيّ في بلد بعيد: مدريد كانت الوجهة! تحت جناح الظّلام، وفي رفقة قمر ضبابيّ أسلما روحيهما إلى رجفة المغامرة، إلى قدر الرّحيل. عند أوّل طلّة فجر من الشّهر الجديد، وقعت رسالة قصيرة من بين يدي جدّتي أطلقت بعدها صرخة تمزّقت لها أحشاء الأهالي. هبّ جدّي مذعورا والتقط الورقة من الأرض. تسابقت السّطور في نسق رهيب.. كلمات اعتذار.. وجمل وداع مكتوبة بخطّ لم يبد عليه أيّ أثر للارتعاش أو التردّد. انتهت الرّسالة بتوقيع بسيط: ابنتكم.. مريم. في ذلك الحين كانت هناك سفينة في منتصف طريقها إلى سواحل إسبانيا، وكان هناك عاشقان على متنها. جلسا متعانقيْن على مقعد خشبيّ في ركن منزوٍ، صامتيْن، مبتسميْن، ومتأمّليْن مولد أشعّة الشّمس من أعماق المياه الزّرقاء. تزوّجا في كنيسة ريفيّة على يدي راهب شابّ ودون مدعوّين. لم تغيّر هي دينها، ولم يكن هناك موجب لذلك، ولم يخطر ببال أيّ أحد منهما أن يناقش هذا الأمر مع الآخر على مدى كلّ تلك السنين الطّويلة. أمّا جدّي، فقد أطلق وابلًا من اللّعنات الرّهيبة في سماء ذلك اليوم المشؤوم، ولم يتفوّه باسم ابنته المتمرّدة بعد ذلك إلى أن اكتنفته ظلمة القبر! جدّتي تبادلت معها بضع رسائل في

السرّ، ثمّ توفّيت وفي قلبها حرقة مغادرة الدّنيا دون أن ترى وجه ابنتها البعيدة ولو للحظات قليلة. أمّي ورثت عن أبيها مقتها الشّديد لأختها الكبرى، ورغم ذلك فإنّها حافظت على كلّ الرسائل التي أحكمت جدّتي إخفاءها في صندوق أمين.. بعيد عن بطش زوجها. لم تُطلِع أميّ على تلك الرّسائل إلاّ قبيل أيّام معدودات من انفصال روحها عن جسدها الهزيل!

أمّا خالتي، فلم تر شمس الوطن أو تستنشق عطر هوائه منذ فرّت مع حبيبها في تلك اللّيلة البعيدة. كنت أنا أوّل شخص تربطها به صلة دمويّة تقابله وتضمّه إلى صدرها منذ ذلك التاريخ. كنت أنا أوّل شخص تكلّمه بلغتها الأمّ، لغة تشوّهت تراكيبها وألفاظها على لسان ظلّ مهجورا لمدّة خمسين عاما من الزّمن!

... لم يكد هافير يفتح فمه استعدادا لإطلاق وابل من الأسئلة والاستيضاحات باتجاهي، حتّى التفتُّ ناحية نستور مغيّرا مجرى الحديث بلباقة:

- يبدو لي أنّه كان من المفروض أن تكونا وراء أسوار المدرسة، داخل فصل تتلقيان الدّروس عن معلّم، فأيّ وجهة دفعتكما إلى استقلال القطار نحو وسط المدينة؟

انحنى نستور على حقيبته المدرسيّة الملقاة على الأرض وفتح أزرار جيبها الأماميّ. أخرج منه علبة معدنيّة متماوجة الألوان. أجاب وقد أشرقت ابتسامة صبيانيّة على وجهه:

- شيء من التسلية بواسطة هذه الزجاجة!

- تبدو لي وكأنها زجاجة بخّاخ مضادّ للرّوائح الكريهة، أو ربّما سائل مزيل للأوساخ والغبار من فوق الواجهات البلّوريّة. هل نويتما اليوم تنظيف مقاهي المدينة؟

- العكس تماما هو الّذي سيحدث أيّها الصديق الغريب. أمعك وقت لترى ذلك بنفسك، أم عليك أن تتابع بحثك عن حجرة تأويك اللّيلة.

ابتسمتُ دون تعليق واختلستُ نظرة خاطفة لساعتي. كان هناك متّسع من الوقت قبيل فتح الحانة، وعرْضُ نستور كان مغريا ومتواطئا رغم جهلي لمضمونه وعواقبه.

- لن تطير الغرفة ولن تنقطع الفنادق عن الوجود. إن لم أجد مكانا أريح فيه جسمي هذا اليوم، فسأقضي اللّيلة على أحد المقاعد الخشبيّة المغروسة عبر أرجاء هذه الحديقة الجميلة.

علّق هافيير ببراءة طفوليّة: "أنت مغامر كخالتك تماما!". أجبته باقتضاب: "يبدو أنّ الأمر كذلك، فقد يكون حبّ المجازفة أمرا موروثا". ثمّ توجّهتُ بالكلام إلى نستور: "إلى أين إذن؟ ". غمز نستور لهافيير بتواطؤ ارتعدت له أطرافي. كنتُ متأكّدا أنّ هذا اليوم الاستثنائيّ لم ينته بعد! أومأ هافيير برأسه وكأنه يُعلم صديقه بأنّ الإشارة وصلت. نزل بجسمه المكتنز عن حافة النّافورة والتقط حقيبته البرتقاليّة السّمينة مواصلا ما كان قد انقطع من حديث:

- نستور!... إلى نفس المكان؟

أجاب نستور: "إلى نفس المكان يا صديقي!"

انطلقنا بخطى حثيثة إلى أن تجاوزنا باب الحديقة الحديديّ. مع كلّ

خطوة كان خرير مياه النّوافير وجلبة النّاس يتباعدان شيئا فشيئا إلى أن امتزجا فأصبحا على شكل همهمة ما لبثتْ أن تلاشت تماما. اكتنفتنا ضوضاء الشّارع العامّ وأصوات المحرّكات المسرعة في كلّ الاتجاهات. انهمك نستور وهافير في أحاديث صبيانيّة سخيفة ابتسمتُ لها مجاملا وأنا أسير بينهما متقمّصا مشيتهما المضحكة حتّى أبدو للنّاظرين كجزء من هذه الفرقة المثيرة. طبعا، لم يحفل أيّ أحد من المارّة بوجودنا في الشّارع، ولكنّني حرصتُ على أن تكون حركاتي وسكناتي متناسقة مع تلك التي تصدر من رفاقي الجدد. حرصتُ على ذلك رغم اختلاف هيئتي عنهم، ورغم تلك السّحنة الغريبة المرسومة على قسماتي والجازمة - لمن يهمّه الأمر- بأنّني قادم من مسافات بعيدة.

بلغنا أوّل تقاطع. كانت الإشارة برتقاليّة. أسرعنا الخطى للعبور إلى الرّصيف المقابل. لم نكد نصل إليه، حتّى تحوّلت الإشارة الضوئيّة إلى اللون الأحمر، وانطلقت السيّارات كالأبقار الوحشيّة تسابق بعضها البعض في الشّارع العريض. أخذنا أوّل منعطف إلى اليسار فوجدنا أنفسنا في شارع متوسط العرض، ذي أرصفة ضيّقة أحجار أرضيّتها متلاصقة في شكل فوضويّ وكأنّها سوار عريض من الأصداف الملوّنة. على جانبَي ذلك الشارع توازت بنايات قديمة لا يبلغ ارتفاعها سوى بضعة أمتار. أطلّت منها شرفات حديديّة ضيّقة كأقفاص السّجون. بين الحين والآخر تطلّ من إحداها امرأة ضخمة تنشر الثياب، وعلى الأخرى تلمح رجلا عجوزا عاري الصّدر يدخّن غليونه في صمت عميق. عرّجنا ذات اليمين ثمّ ذات اليسار. تتالت المنعرجات ونحن منهمكون في أحاديث عابرة قد تصل إلى أقصى حدود السّخافة أحيانا.

لم تغفل حواسّي وسط الأحاديث عن جمال تلك الأحياء العتيقة بعبقها السّاحر، وبتلك الرّؤوس المطلّة علينا من أعلى الشّرفات وكأنها تراقب كلّ تحرّكاتنا في رهبة غامضة. شعرتُ أنّني أكتشف المدينة لأوّل مرّة، إذ لم يسبق لي وأن رفعتُ رأسي وأنا أجوب شوارعها. تملّكني سحر ذلك العالم العموديّ المطلّ على الأحياء بكلّ هيبة الماضي وسطوته الأخّاذة. كان الجمال يحيط بنا من كلّ صوب، ولم يكن علينا سوى أن نرفع رؤوسنا قليلا لكي ندخل عالمه المذهل!

انفرجت بنا الأحياء الملتوية على شارع رحْبٍ تصففت على جانبيه أشجار النّخيل فارعة، سمراء اللّون، وارفة السّعف، شكّلت الشمس من أوراقها الخضراء النّحيلة ظلالا متشابكة الخطوط بدت كالوشم الأسود على أرضيّة الرّصيف. كان الشارع عصريّا، نظيفا، لامعا، لا أثر على أرضه لورقة مهملة أو علبة فارغة أو حتّى لعقب سيجارة. انتصبتْ على امتداده الشاسع بنايات حديثة العهد، أنيقة المظهر، منسجمة الألوان، حيطانها ملساء لا خدش فيها ولا تشقّق. بنوك وشركات وإدارات مختلفة الاختصاصات والفروع، تحمل نوافذها الرّقيقة انعكاسا فضيّا لأشعّة الشّمس. بدت في تلألئها كرقائق الكريستال السّابح في زرقة السّماء. لم يكن بصري غافلا عن شموخ بُرْجين متوازيين ينتهي امتدادهما نحو الفضاء بهرمين جميلَيْن، صُمِّما بدقّة متناهية وبذوق هندسيّ مرهف. لطالما حفزني خيالي على تسلّق برج منهما لعلّني ألمح مشارف قريتي، أو أستطلع طيف أمّي. لعلّ صدى الباعة البسطاء وهم يترنّمون بجودة بضاعتهم يبلغ سمعي. أو لعلّني -بقفزة واحدة من أعلى هذا البرج أو ذاك- أجتاز البحر وكأنّه بركة ضئيلة لأحضن كثبان رمال الصّحراء وألثم أحجار

آبارها.

سألني نستور فجأة وكأنه تذكّر أمرا مهمّا:

- إن عثرْتَ على فندق تقضي فيه ليلتك؟ هل ستنام دون أن تغيّر ملابسك؟ هل وفدت إلى برشلونة دون حقائب؟

تتالت الخواطر سريعة في ذهني، ثمّ أجبته وقد تسترّت ملامحي وراء سحابة من الهدوء المصطنع:

- لقد جلبتُ معي حقيبة يد صغيرة بها بضعة قمصان وأدوات حلاقة. وقد أردت القدوم إلى وسط المدينة بغية اكتشاف معالمها، فلم أشأ أن أكون مثقلا. لهذا، تركت حقيبتي أمانة عند صاحب مقهى طيّب تعرّفت عليه مصادفة في أثناء إحدى استراحاتي.

لم يجب نستور بكلمة وأومأ برأسه وقد بدت علامات الاقتناع على محيّاه. أمّا هافيير، فقد علّق موافقا:

- فكرة جيّدة ورأي صائب! هذه الحقيبة اللّعينة تكاد تقصم ظهري، ولو لم يكن بداخلها كتب ودفاتر أحتاج إليها.. لألقيت بها في أوّل سلّة مهملات تصادفني!

دون أن أتفوّه بكلمة، هدر صوت بداخلي كالبركان: "تريد أن تدفن كتبك بين المزابل أيّها الوغد! آه لو تدري كم كانت أمّي تتألّم وتقاسي في سبيل أن توفّر لي ثمن دفتر مدرسيّ واحد!". تكلّفت الابتسام، وأجبتُ مازحا: "لا داعي لأن تفعل ذلك هافيير، بدل أن تلقي بها في حاوية القمامة سأشتريها أنا منك لأتسلّى بقراءتها في أثناء اللّيل!". ضحك نستور بخبث وقال متهكّما:

"لا تدعه يغالي عليك في الثمن فهو نصّاب وهذه الكتب لا تساوي عنده شيئا، بل على العكس، فهو الذي يجب عليه أن يعطيك ثمن تخلّصه من ثقلها!". أجاب هافير وقد بدت علامات الضّيق على وجهه: "حتّى إن أعطيته حقيبتي بكلّ ما تحتويه من كتب ودفاتر فإنّ معظم ما كتب على أوراقها محفور على ذاكرتي، ابك على حالك أنت، فحقيبتك أثقل من دماغك!". ردّ نستور وقد كان شديد الاعتداد بنفسه: "قد يكون هذا الأمر صحيحا، ولكنّني رغم ذلك أظلّ قادرا على إثارة اهتمام أي فتاة، وأظلّ قادر على دعوتها إلى التنزّه خارج أسوار المدرسة، بل لي من الجرأة ما يسمح لي بأن أمسك يديها وأقبّل شفتيها تحت ظلّ شجرة. أمّا أنت، فنظرة واحدة من إحدى الصّبايا كفيلة بأن تفرز كلّ الألوان القزحيّة على وجهك. إذن فالأمر سهل، سأترُكُ لك كتبك، واترك لي فتيات المدينة اللّواتي يبحثن عن رجال لا عن صبيان!".

كان من الواضح أنّ سهم نستور قد أصاب هدفه بدقّة. حياء هافير وارتباكه المَرَضِيُّ أمام الأنثى كان نقطة ضعفه المتورّمة، وعشّ النّحل الّذي لا يجوز الاقتراب منه. ناهيك عن تحريكه بقضيب حادّ من الكلمات الجارحة كالّتي رُشِقَ بوابل منها منذ لحظات. توقّعتُ حدوث الهجمة قبل أن تنطلق. قبل أن تبلغ اللّكمة الثقيلة وجه نستور، احتويتُ جسم هافير دافعا إيّاه إلى الوراء ومتلقّيا بصدري نصف اللّكمات الطّائرة. وجدتُ وجهي أمام سيل اللعاب المتناثر بين لعناته المتطايرة كالقنابل. أمّا نستور، فقد ظلّ هادئا ولم يبرح مكانه، بل ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة كانت بمثابة قطرة البنزين المتساقطة على جسم صاحبه المترهّل لتزيد من ثورته اشتعالا. فهمتُ من لعنات هافير أنّ هذا الموقف لم يكن الأوّل من

نوعه بين الصّديقين، وكان من الواضح أنّني كنت أشاهد مرور سحابة رماديّة عابرة لن تلبث أن تتلاشى في الهواء، فتعود الأمور بينهما عاديّة كما كانت عليه قبل سويعات. لم يكن عليَّ سوى احتواء ذلك الموقف بصفة وقتيّة، حتى لا تأخذ الخصومة منعرجا خطيرا لا تحمد عواقبه. كلّ ما كان عليّ فعله هو التصدّي ببسالة لجسم هافيير المتخبّط بين ذراعيّ كجسد ثور هائج. في لحظة خلت أنّه سيفلت منّي، ولكنّني استجمعت كلّ ما أوتيت من قوّة لأتقهقر به إلى الوراء أكثر. بلغتُ به جذع نخلة قريبة وقلت له لاهثا: "أنا لا ألومك على غضبك! أنت على صواب، ولك كلّ الحق في أن تسحق عظامه. ولكنّه صديقك، وأنا متأكّد بأنّكما تكنّان لبعضكما ما يكفي من المودّة لتجاوز مثل هذه الخلافات. هو لا يقصد شيئا سوى مداعبتك، فأرجو أن تهدأ قليلا حتى أحادث نستور لبضع دقائق. هل تستطيع أن تفعل هذا من أجلي؟".

لم يكن يهمّني أمر صداقة هؤلاء، ولم يكن يعنيني انفراط عقدها في لحظة طيش بقدر ما كنت مرعوبا من نظرات الفزع في عيون المارّة، ومن تشتّتهم المفاجئ على حافة الرّصيف مفسحين المجال لحلبة الصّراع الذي اندلع دون سابق إنذار. كنت أخشى أن يتطوّر الأمر إلى درجة أن يضطرّ أحدهم لاستدعاء الشرطة على عين المكان لفضّ هذا الاشتباك العنيف. بعد ذلك، تنهمر على رؤوسنا الأسئلة والاستجوابات: ماذا حصل؟ وماذا فعلت؟ ماذا شاهدت؟ وأين كنت عندما اندلعت المشاجرة؟ بعد ذلك، وقّع على هذا المحضر... أعطني هويّتك: ليست معي! أعطني بطاقة إقامتك: لا أملك! أين تأشيرة دخولك: قارب وبحر وموت أكيد! ما اسمك: لا أذكر! من أين قدمت: من أعماق الجحيم! أفقدت الذّاكرة:

مشكلتي أنّني لم أفقدها! إذن فأنت مخبول ودون أوراق: كلاهما واحد! بعد ذلك سيزجّ بي في زنزانة مع المئات ممّن يشبهونني: اجلسْ هناك، سننظر في أمر ترحيلك قريبا!

توصّلتُ بعد عناء مضن إلى إقناع هافيير بالمكوث في مكانه عند جذع النّخلة. الكلمات التي وجّهتها إليه ليلتزم بالهدوء كان فيها من الصّرامة والحزم ما جعله يمتثل لأمرى وكأنه تحت سيطرة ساحر. بعد قليل توقّفت عضلات وجهه عن الاهتزاز العصبيّ وعادت إلى عينيه تلك النظرات الطّفوليّة البلهاء. ولكي يؤكّد لي سذاجته وطيبة قلبه، رسم على شفتيه ابتسامة مرتخية وقال بصوت مرتعش:

- لن أتحرّك من هنا.. أعدك بذلك! اذهب إليه وأخبره بأنّني كنت سأحطّم رأسه. من أجلك فقط سأغفر له سفالته هذه المرّة. ولكن أقسم بالعذراء ألّا يستطيع أحدٌ أن يحميه من قبضتي إن عاد إلى حديثه العاهر مرّة ثانية. عن أي فتيات كان يتحدّث؟ احترس أن تصدّق كلامه! يخيّل إلى من يسمعه أنّه يغيّرهنّ كالجوارب كلّ يوم في حين أنّه لم يعرف في حياته سوى أنطونيا الشّوهاء التي تشبه في بروز عينيها ضفادع المستنقعات! وأظنّها قد تركته منذ أيّام قليلة وفضّلت أن تتصدّع المرآة أمام بشاعة وجهها على أن تنظر في خِلْقتِه البلهاء! قُل له....

- سأنذره بكلّ هذا! لا تخش شيئا، فلن يعود إلى مضايقتك مرّة ثانية، أؤكّد لك ذلك. أيّ حديث عن العاهرات هذا الّذي يهزّ صداقتكما بهذا الشّكل!

همّ بالإجابة، فسددت فمه بقوّة.. ثمّ سحبتُ يدي وواصلتُ:

- لا تقل شيئا! يكفي ما صدر منكما إلى الآن.. ويكفي ما رأيت! ابق هنا كما قلتُ لك، وسأعود إليك بعد لحظات!

انصاع هافيير لأوامري صاغرا. قبل أن يتفوّه بكلمة، ربتُّ على كتفه ورشقته بنظرة سريعة تفيض امتنانا. عدتُ أدراجي فالتقطتُّ حقيبته الملقاة على الأرض. قدّمتها إليه مبتسما، فوضعها على ظهره ممتعضا. قلتُ له مازحا: "حقيبتك ثقيلة الوزن فعلا! تحتاج عضلات قويّة وطاقة عالية كي تُحْمَل كلّ هذه المسافة". ابتسم في اعتزاز، ولمعتْ عيناه ببريق خاطف تمازج فيه الفخر بالمرارة. لم يكن بحاجة إلى أكثر من تعليق مشجّع كهذا لكي تتململ الثّقة وتستيقظ تدريجيّا بداخل قلبه الصّغير. أجاب بصوت مرتجف: "لولا تدخّلك، لخبِرَ ذلك الأحمق وزن هذه الحقيبة وهي تنهال على رأسه كالصّاعقة! انظر إليه. إنّه لا ينفكّ عن الابتسام.. أفي هذا الأمر ما يضحك؟ ألا يغيظك هذا؟". وضعتُ سبّابتي على فمي مشيرا إليه بأن يكفّ عن الحديث. غمزته مرّة ثانية ولكن بشيء من التواطؤ حتى أوحي له بأنّني متّفق مع شعوره، وبأنّني كفيل بوضع حدّ لتصرّفات نستور المستفزة. عدتُ أدراجي باتجاه هذا الأخير. كان متكئا بسلام إلى جذع نخلة مرتديا هدوءه وابتسامته الواثقة. كان قد طرح حقيبته أرضا، وعاد إلى مشاكسة كرته المطاطيّة الزرقاء منقّلا إيّاها بين اليد والأخرى. بين الحين والآخر، كان يضغط عليها بقوّة. أدركتُ بحدسي أنّه كان يستعملها لامتصاص ما كان يخفيه من ارتباك. عاد المارّة إلى السير فوق الرّصيف وانقشعت عيونهم عنّا، فسَرَتْ بداخلي طمأنينة دافئة. استعاد الشّارع العريض لامبالاته الباردة وتسارعتْ الأقدام في خطواتها بعد أن انتهى العرض المفاجئ وتبدّد في لحظات.

عاد الكلّ إلى سيره الرّتيب، واستأنفت العيون البلّوريّة التحديق في اللاشيء. عادت الهواجس اليوميّة إلى الدّوران في الأدمغة كطواحين الهواء المسموم. قد تكون هذه المشاجرة السّخيفة أجمل هديّة حملها هذا اليوم لعابري هذا الشّارع. شيء له لون ورائحة، قد يستبدلون به الليلة صمتهم أمام جهاز التليفزيون، وقد يصبغون به أحاديثهم الرّماديّة على طاولة العشاء. سرتُ باتّجاه نستور. لم تكن المسافة التي تفصلني عنه ببعيدة. رمقتُ هافيير في التفاتة مباغتة لأتأكّد أنّه لم يتحرّك من موضعه. كان ملتزما بأوامري. جلس القرفصاء واستلّ من حقيبته البرتقاليّة بخّاخا صغيرا وضعه في فمه ضاغطا على أعلاه في حركات متتالية. لم أكن أعلم أنّه مريض بضيق التنفّس. ضاعف ذلك من إشفاقي عليه فابتسمتُ له بحنان. قبل أن أبلغ موضع نستور لكي يتسنّى لي الحديث معه، فاجأني بقذف كرته الزّرقاء نحوي بقوّة متعمّدة. قفزتُ عاليا لأتمكّن من التقاطها قبل أن تطحنها عجلات السيّارات المسرعة. كانت حركة مباغتة منه، مشاكسة ومستفزّة إلى حدّ ما، ولكنّني التزمتُ الهدوء. فكّرتُ أن أردّ عليه بمثلها كما كنّا نفعل في الحديقة منذ قليل ولكنّني أمسكت بالكرة وكأنّها مصنوعة من زجاج. حملتها إليه بعناية وكأنني أخشى أن تفلت من بين يديّ فتنكسر. عندما اقتربت منه، أمسكتُ براحة يديه اليمنى فوضعتها بين أصابعه المبلّلة بالعرق. بادرني وقسمات وجهه تقطر ثقة وسخرية:

- أنت حارس مرمى ماهر!

- وأنت قاذف محنّك يا عزيزي نستور!

ألقيتُ نظرة خاطفة على ساعتي وأردفت:

– من الأفضل لي أن أنسحب الآن، لأواصل البحث عن حجرة تأويني هذه اللّيلة. لا أعرف كم من الوقت سيستغرق هذا الأمر، ولا أريد أن يغلق صاحب المقهى محلّه قبل أن أعود فأستلم متاعي.

أجاب نستور وقد بدت على سحنته بعض أمارات الجدّ:

– ماذا تعني بذلك؟ ظننتُ أنّك تريد مرافقتنا إلى الحائط لنلهو قليلا. ما الذي دفعك إلى تغيير رأيك؟

– لا أدري عن أيّ حائط تتحدّث، وأيّ نوع من اللّهو تقصد. من الأكيد أنّ الأمر مثير للغاية، وقد يكون فيه من التسلية ما يستحقّ أن أبيت من أجله تحت إحدى الأشجار هذه الليلة. ولكن بعد الّذي حصل بينك وبين صديقك منذ لحظات، لم يخطر ببالي للحظة بأنّك ما زلت عازما على المضيّ إلى وجهتك.

– تقصد من؟ هافيير؟ إنّه أحمق وطيّب لا أكثر ولا أقلّ! إنّه سريع الغضب كخرقة مغموسة في سطل بنزين، بمجرّد أن تمر حذوه سحابة دخّان.. يلتهب دفعة واحدة. ألم تر ما فعل مع ماركو منذ قليل؟ هكذا هو دوما.. ولن يتغيّر أبدا! أراهنك أنّهما سيتقابلان غدا وسيشرعان في تبادل الحديث وكأنّ شيئا لم يحدث! لا تتصوّر أنّ هذه الخصومة التي هبّت بيننا فجأة قد تدوم أكثر من ربع ساعة. أنا أتلذّذ بالسّخرية منه عمدا لا لأنني أقصد جرح مشاعره أو إثارة غضبه بغية التّسلية، بل لأنّني حريص على أن يشتدّ عوده أمام ملاحظات رفاقه. أريد أن أُبيد حساسيته المفرطة ضدّ الكلمات، ذلك كلّ ما في الأمر. مشكلته أنّه يصدّق كلّ ما يقال له وذلك هو سبب انفعاله المرضيّ الدائم أمام تعليقات الآخرين. لقد نصحته مئات المرّات بتوخّي الهدوء التّام أمام أي تعليقات ساخرة.

أفهمته بأنّ ما يتلفّظ به أيّ شخص لا يعدو أن يكون رأي ذلك الشّخص، لا غير. وغالبا ما يكون هذا الرّأي خاطئا والغاية الحقيقيّة من ورائه هي الاستفزاز الأجوف! انظر إليه وهو يمتصّ هواء تلك العلبة، من يراه يظنّ على الفور بأنّه مريض بضيق التنفّس!

- أليس الأمر كذلك؟

- طبعا لا! لقد حدث في يوم ما أن أصيب بنوبة برد شديدة أدّت إلى حالة التهاب للرّئتين. وقد أصابه فعلا شيء من ضيق التنفّس من جرّائها، لذلك كتب له الطّبيب ذلك البخّاخ ونصحه باستعماله في حالة ما لقي صعوبة في التقاط الهواء. كان ذلك منذ سنتين. ذهب البرد واختفى الالتهاب من صدره. ولكنّه أبقى على البخّاخ فارغا من محتواه، وأدمنه عقارا مهدّئا كلّما ثار غضبه. كلّ رفاقه يعرفون ذلك، ومن أجل الاستمتاع بهذا المشهد الذي تراه الآن أمامك أصبحوا يستهدفونه بمناوراتهم السّاخرة.

- إذن.. ما العمل الآن!

- لقد قلتها بنفسك منذ قليل! الغرفة لن تطير. هذه المدينة تعجّ بالفنادق والبنسيونات وسيكون لديك متسّع من الوقت لتعود إلى حقيبتك. ابق هنا قليلا وسترى بنفسك. الحائط! كيف لك أن تزور برشلونة دون أن تلمسه!

دسّ كرته الزّرقاء في جيب حقيبته المدرسيّة ثمّ وضعها على كتفه الأيمن في خفّة. ركض باتجاه هافيير بسرعة كاد أن يصطدم جرّاءها بامرأة عجوز كانت تجرّ وراءها جروا أبيض لا فرو له. كان الجرو أقرب

إلى فصيلة الفئران. تدارك نستور أمره، فوثب بخفّة فوق ذلك المخلوق الضّئيل الذي تعالى نباحه فجأة دفاعا عن سيّدته، وكأنه أراد أن يثبت -رغم ضآلة حجمه- استعداده لحمايتها من كلّ أخطار الدّنيا. أسندتُ ظهري إلى جذع النّخلة مفكّرا في أمر هذا الجرو الذي يمتلك في قلبه شيئا لا يمتلكه الرّجال، ثمّ تابعتُ نستور بنظري وقد بلغ صاحبه الذي لا يزال جالسا القرفصاء. انحنى عليه ساحبا البخّاخ من فمه وأخذ في محادثته بصوت لم يبلغ لي منه شيئا. كان الجرو لا ينفكّ عن النّباح، ولم يثن عزمه على اللّحاق بنستور سوى الجهد الشاقّ الذي بذلته سيّدته في سحب الحبل الملتفّ حول رقبته كي تحوّل وجهته. ولكنّ الحيوان الصّغير لم يتوقّف، وظلّ يهتزّ بعنف وكأنّه كرة قطنيّة مربوطة بخيط. لم تجد العجوز من حيلة أمام إصراره وعناده سوى التقاطه واحتضانه بين ذراعيها. أخذت تداعب بأصابعها جلد ظهره الأملس، ثمّ لم تلبث أن توارت عن الأنظار. تلاشى نباح الكلب بين أزيز السيّارات وحفيف سعف النّخلة التي كانت تظلّلني. لمحتُ هافيير ينهض عن مكانه ويأخذ في إصلاح هيئته وتثبيت طاقيّته القماشيّة في وضعها الاعتياديّ المعكوس بينما نستور لا يزال متماديا في حديثه. فجأة، ابتسم هافيير.. ثمّ تعانقا. بعد لحظات، استأنفنا سيرنا بسلام نحو الحائط.

عندما بلغنا وجهتنا، كان قيظ اليوم قد بلغ أشدّه. تجلّت السّماء خالية من الغيوم تضاهي البحر زرقة وصفاءً. بانت الشّمس ثابتة في مكانها، ساطعة، قويّة، تلسع الوجوه بسياطها البرتقاليّة المحرقة. انهمر العرق بغزارة على جبيني، والتصق القميص بجلدي حتّى كدتُ أخلعه من شدّة التقزّز. أخذتْ المطريّة التي كنت ماسكا بمقبضها الجلديّ تتملّص

من راحة يدي اللّزجة وكأنّها تريد الفرار، لإدراكها بأنّها أصبحتْ حملا ثقيلا على أصابعي. فكّرتُ أن ألقي بها في إحدى الزّوايا ثمّ تذكّرتُ أنّ اليوم قد ابتدأ بعاصفة وقد ينتهي بأخرى، وقد أحتاجها في طريق العودة إلى الحانة. ارتفعتْ طرقات الصّداع بين جدران جمجمتي حتّى خلتُ أنّني سمعتُ لها أصواتا كقرع أجراس الكنائس. فجأة، أطبقتْ رغبة الغثيان بفكّيها على صدري حتّى كدتُ أفعلها على ظهر نستور الّذي كان واقفا أمامي متأمّلا الحائط في تحفّز صامت!

كان الشّارع ممرّا ضيّقا. زقاقا مهجورا، بائسا، خاليا من الحركة والأصوات. بعد تأمّل، تبيّن لي أنّه يمثّل خلفيّة لسلسلة من البيوت القديمة التي بدتْ جدرانها رماديّة بمفعول التلوّث عبر الزّمن. انبعثتْ من أكداس المزابل رائحة قاتلة ضاعفتْ من رغبتي الملحّة في التقيّؤ، وسَرَتْ مياه سوداء عكرة على جوانب الطّريق جارفة معها ما خلّفته عاصفة المطر من أوحال ونفايات متعفّنة. لم أتعجّب من غياب المارّة عن هذه المنطقة الكئيبة، فمن ذا الّذي له من الغباء ما يدفعه إلى اتّخاذ هذه الخرائب مسلكا له في ظهيرة يوم جميل كهذا. ثمّ تذكّرتُ أنّنا الآن هنا! اثنان لا أدركُ إلى هذه السّاعة ما ينويان فعله بين هذه الجدران، وأنا بينهما أرتجف اشمئزازا وأقطر عرقا. كنت واقفا على حافة الانهيار، على الخطّ الأحمر للغليان.

لم يكن لي من خيار سوى الصّمت ثمّ الانتظار، ولم أجد سوى نفسي أوّجه إلى صدرها رصاص اللّوم على مرافقة الغرباء إلى مكان غريب دون سؤال أو استفسار. فجأة، شعرتُ بأنفاس بشريّة تهتزّ في صمت، وجثم على حواسّي حضورٌ غامض لشخص رابع في هذا المكان الكئيب.

طاقة حيّة كانت تتنفّس في ركن ما بين هذه القاذورات، كنتُ على يقين من ذلك! جُلتُ بنظري عبر أرجاء المكان فلم يرتدّ إليّ منه شيء سوى فراغ داكن وضيّق. رائحة المياه في سيلانها القذر كادت أن تخلع معدتي عن موضعها. كادت أن تقتلع أمعائي من جذورها. قلّبتُ بصري عبر سطوح البيوت المهجورة لعلّني ألمح عينا تراقبنا أو وجها يطلّ علينا. لعلّني ألمح طفلا يلهو فوق السّطح أو امرأة تنشر الثياب. لا شيء! لم يكن عبر الأرجاء أيّ أثر لمخلوق حيّ! حتّى النبات والحيوان كانا غائبين كليّا عن تلك المنطقة، وكأنّ الجمال هجر هذه الدّروب بعد أن يئس من تخفيف درجة قبحها بلمسة منه. التفت إليّ نستور وقد طغت على ملامحه علامات المرح وباغتني قائلا:

- ما رأيك؟

- رأيي في ماذا؟

- في هذا الّذي تراه؟

- لا أرى شيئا سوى جدران شاحبة، وبيوت خالية!

- بالضّبط!

استبدّ بي الضّيق والتّبرّم وأجبته بنبرة تنمّ عن عدم الاهتمام:

- لست أدري ما تقصد بقولك، ولا أفهم إلى هذه السّاعة سبب قدومنا إلى هذا المكان المقفر!

لاحظتُ ضحكات هافير المكتومة، واستنشقتُ من تتابعها رائحة السّخرية والتهكّم. لم أهتمّ لذلك، فهافير كان آخر من يعنيني في خضمّ وجودنا السّخيف أمام هذه الجدران الصمّاء.

حتّى استدراج نستور لكي يوضّح لي كلامه الغامض لم يكن يستهويني. كلّ ما كان يهمّني هو مغادرة هذا المستنقع القذر.. وفورا! ولكن رغم ذلك الشّعور العارم بالاشمئزاز، كان هناك شيء ما يستبقيني! طاقة سريّة كانت تسمّرني في مكاني وتمنعني من الانسحاب الفوريّ. "حان وقت العودة، أستأذنكم في الانصراف أيّها الأصدقاء! آمل أن تقضيا وقتا ممتعا!". تلك العبارات كانت ملتصقة على حافة شفتيّ وتأبى العبور إلى الضفّة الأخرى. ما الّذي يجبرني الآن على البقاء هنا؟ هل هو التحرّق إلى اكتشاف أيّ نوع من المتعة قد يكون متواريا خلف هذه الجدران الحزينة؟ أم هي الرّغبة في إدراك كنه ذلك الحضور الغريب؟ ذلك الشّخص الرّابع الذي أشعر في كلّ ذرّة من وجودي بأنفاسه المهتزّة رغم عجزي عن تبيّن موضعه من هذا الزّقاق الصّامت؟

حانت منّي التفاتة عفويّة إلى الوراء، فإذا بي أرى رجلا رثّ الهيئة، يرتدي ثيابا بالية، ممزّقة، تبخّرتْ ألوانها تحت سواد الوسخ. كان يجلس القرفصاء عاري القدمين، كثّ اللّحية، منفوش الشّعر، متّسخ الأظافر. تكسو ساعديه دمامل بنفسجيّة داكنة وبثور زرقاء اللّون.. متعفّنة من شدّة استعمال الإبر الملوّثة. كان ينظر باتّجاهنا ساهما وكأنه لا يبصرنا، بل وكأنه لا يشعر بوجودنا. شعرتُ أنّنا كنّا بالنّسبة له أجساما شفّافة اخترقها بصره متّجها نحو البعيد اللاّمتناهي. انتفض قلبي ذعرا لرؤيته ولكنّني لم أتحرّك من موضعي. لم أتراجع إلى الوراء. شيء ما كان يشدّني إلى ذلك الوجه المحدّق في الفضاء بعينين لامباليتين.. لا حزن فيهما ولا فرح. كتلتان من الشّرود البارد برود الموت. بدا لي لأوّل وهلة شيخا طاعنا في السنّ، ولكن عندما تفرّستُ مليّا في قسمات وجهه، تبيّن لي أنّه

في منتصف الأربعينات، ذو أنف دقيق وعينين صغيرتين تحتضنان جمالا هادئا، رصينا. في أدغال تلك اللّحية السّميكة كانت شفتاه الدّقيقتان تهتزّان في حركة متواصلة تشبه تمتمة المصلّين. حاولتُ قراءة شفتيه لأفقه معنىً لتراتيله المتواصلة فلم أتوصّل إلى فهم كلمة واحدة. كلّ ما توصّلت إليه هو أنّه كان بصدد تكرار نفس الكلمة أو نفس الجملة عشرات المرّات في حركة إيقاعيّة منتظمة مع تحريكه لسبّابة يده اليسرى. بجانبه ارتكزتْ على الحائط عربة حديديّة ذات عجلتين تشبه السلّة المتحرّكة. بداخلها تراءى لي كيس بنيّ منتفخ برزت منه مروحة هوائيّة ساكنة وبضعة كتب قديمة. من الواضح أنّ تلك العربة كانت بيته المتحرّك.

من ذلك الموضع المنزوي حيث تكوّم هو على نفسه مستندا إلى الجدار ومحدّقا في الفراغ. من ذلك الرّكن حيث جلس هو منفصلا عمّا حوله غير عابئ بأشعّة الشمس وقذارة المياه المنسابة بين أصابع رجليه المتورّمتين. من ذلك الرّكن المختنق بالكلمات المتكرّرة على شفتيه تكرار الحياة والموت. من ذلك المشهد الغريب الذي طغى السّواد على لونه.. انبعثت ذات الرّائحة الكريهة، تلك التي اشمأزت لها نفسي منذ قليل. بدا لي وكأنّها رائحة تُرى وتُسمَع بدل من أن تُشَمّ. رائحة رسمتْ أمامي خطّا رفيعا، شفّافا. خطّ جعل من وجه ذلك الرّجل الأشعث انعكاسا لوجهي في المرآة. سَرَتْ طاقة غامضة ارتعشتْ لها مفاصلي. طاقة أوحت لي بأنّني سأقابل هذا الرّجل في مكان ما ذات يوم بعيد. سأعرف اسمه وسأرتجف لتفاصيل الحكاية التي رمت به كبعوضة مشلولة في هذا الشّارع المستنقع. ولكنّ نفس الطّاقة الخفيّة همستْ لي بأنّ تلك المقابلة لن تكون اليوم بالتأكيد، لأنّني على وشك العودة إلى محطّة القطار،

ومنها إلى الحانة وإلى الزّبائن المخمورين. تركتُ الرّجل المتشرّد على حاله من الجمود والتّمتمة وعدت إلى مخاطبة نستور:

- هذا الحيّ مقرف وكئيب... ما الحكاية نستور؟

- أمتأكّد أنت من ذلك؟

- طبعا متأكّد! مزابل وقاذورات وبيوت مهجورة مطبقة كالموت على الأنفاس والمعدة. لا شيء يبعث على الارتياح هنا، ولا أرى أيّ مجال للتّسلية بين هذه الخرائب.. ألا توافقني؟

- على العكس! هنا أجمل ركن في برشلونة، ما رأيك هافيير؟

هزّ هافيير برأسه موافقا، وأخذ في تعديل طاقيّته القماشيّة فوق رأسه الكبير وكأنّه يستعدّ لفعل شيء مهمّ! أردفتُ وقد بلغ التبرّم منّي أقصاه وأخذتْ الدماء تغلي في شراييني كمرجل قديم من جرّاء هذا التواطؤ السّخيف:

- أنا لا أفهم شيئا! ولا أريد أن أفهم. لكما أن تظلّا هنا إن شئتما. أمّا أنا، فقد حان موعد انصرافي. أمامي أمور كثيرة يجب إتمامها. عن إذنكما، فقد.....

قاطعني نستور:

- أترى هذه الجدران القديمة؟

- طبعا أراها!

- ألا تعتقد أنّها تحتاج إلى بعض التّعديلات؟

- هذا أمر لا يعنيني، فلست حرفيّا في التّرميم كي أجيب عن هذا

السّؤال!

- ليس هذا ما أقصده.

- إذن ما الذي تقصده؟ حيطان متآكلة وهرمة، تكاد تتصدّع فوق رؤوسنا تحت وطأة هذا القيظ! من المؤكّد أنّها تحتاج إلى تعديلات كثيرة!

ثمّ أشرتُ إلى الرّجل بحركة خاطفة وأردفتُ: "لقد قتلتني رائحة العفن.. يجب أن أذهب". صوّب نستور نظره نحو موضع الرّجل ولم تبد على سحنته أي بوادر اشمئزاز من هيئته حتّى خلتُ أنّه لا يراه كما كنتُ أراه. لم يصدر منه أيّ تعليق بخصوصه ومضى مراوغا:

- أتظنّ أنّنا قدمنا إلى هنا من أجل التّرميم؟

- فلم قدمتها إذن؟!

- سترى الآن بنفسك!

لم يفسح لي مجالا للتّعليق، وتقدّم بخطى ثابتة نحو أحد الجدران. تملّى في تفاصيله هنيهة ثمّ وضع حقيبته على الأرض وفتحها بتأنّ، وكأنّه ممرّض محترف يستخرج أدوات عمله من حقيبته الطبيّة. تناول علبة البخّاخ المعدنيّة التي أراني إيّاها من قبل، تلتْها ثانية وثالثة ورابعة. أغلق الحقيبة، ثمّ صفّف العلب على الأرض الواحدة حذو الأخرى. وقف إلى جانب علبه المرتّبة بنظام على الرّصيف وحدّق في الحائط دون أن ينطق بكلمة. شمّر كُمّي قميصه فبدا ساعداه هزيلين كعودي مكنسة، أشعّت منهما صلابة حديديّة. وضع يديه على حزامه النّحيف ورفع سرواله في حركة كوميديّة أبرزت للعيان ضخامة حذائه الرّياضيّ وسماكة جواربه السّوداء. فعل ذلك وعيناه لم تفارقا صفحة الجدار القديم.

بدا لي وكأنّه يرى عليه ما لا نرى، ويسمع من شقوقه ما لا نسمع. أطرق لبضع لحظات، ثمّ انطلقت عيناه في تراكض فوضويّ عبر أحجار الحائط وكأنّه يبحث عن نقطة للبداية. التفت إلى هافيير فجأة وقال:

- لا أعرف!

أجاب هافيير:

- ليس المهمّ أن تعرف، المهمّ أن تبدأ. اختر أيّ ركن.. واشرع في العمل. كلّ شيء سيتكامل في النّهاية. ألا تذكر المرّة السّابقة؟ الزّقاق المجاور، وحائط أبشع من هذا الذي أمامك.. ألا تذكر؟ لقد قلت لي نفس الشيء: "لا أعرف"، وظللتَ محدّقا فيه ساعة أو أكثر حتى ظننتُ أنّك أصبحت تمثالا. ماذا حصل بعد ذلك، لقد وضعتَ...

قاطعه نستور بتبرّم:

- كفى، كفى... لقد فهمت! سأجرّب نفس الطّريقة.

بعد ذلك أغمض عينيه. أمسك بأوّل علبة بخّاخ ثمّ غيّر مكانها بين العلب الأخرى. استمرّ في تغيير مواضع العلب في سرعة تصاعديّة وأنا أرقبه مشدوها وكأنّني طفل استوقفه مشهد أحد الصّعاليك المتجوّلين، أولئك الذين كانوا يمرّون بين الشوارع الضيّقة لقريتي من حين لآخر. الذين كانوا يأخذون لأنفسهم ركنا فيتجمّع النّاس حولهم ويبدأ الاستعراض. يبدأون بوضع حصاة رصاصيّة تحت علبة مصبّر فارغة تحاذيها علبتان مشابهتان لها تماما. بعد ذلك، يتقدّم أحد المتفرّجين ليأخذ في المقامرة ويشرع الصّعلوك في تبديل أماكن العلب في سرعة تفوق الخيال. فجأة يرفع يديه عنها ويسأل اللاّعب في صوت استعراضي عال:

"واحد.. اثنان.. ثلاثة!.. أي علبة؟.. وأين الرّصاصة؟". عندئذ يشير اللاّعب إلى علبة معيّنة. فإن كانت تخفي الحصاة تحتها، فاز بضعف نقوده. وإن أخطأها (وما أكثر ما كانوا يخطئون).. فقد أضاع كلّ ما وضعه من مال إلى الأبد!

تمادى نستور في تغيير مواضع العلب، وتصاعدت سرعة التبديل حتّى كاد الحَوَلُ يشلّ عينيّ. توقّف فجأة وسحب إحدى العلب الأسطوانيّة. ركض نحو الحائط وعيناه لا تزالان مغمضتين وشرع في الضغط على زرّ المرشّ. تطايرت منه سوائل رذاذيّة سوداء استقرّتْ على الحائط في شكل خطوط فوضويّة متشابكة. استمرّ نستور في زركشة الأحجار بطريقته العشوائيّة، وكان نادرا ما يفتح عينيه. أمّا هافيير فقد كان يتابع العمليّة باهتمام شديد إلى أن صرخ فجأة:

- توقّف!

انصاع نستور لأمره على الفور. فتح عينيه وتراجع إلى الخلف دون أن يلتفت وراءه، وأخذ يتأمّل ما خلّفه المرشّ من آثار داكنة على الحائط. أدار رأسه ورمق هافيير بنظرة حائرة وقال:

- ماذا ترى هافيير؟

- أمهلني قليلا.

- إن أمهلتك، فلن ترى شيئا! لا تفكّر كثيرا، إن فعلت فقد تضيع الرّؤيا ونخسر كلّ شيء! هيّا أجبني بسرعة.. ما هو أوّل شيء تراه فور رؤيتك لهذه الخطوط؟... هيّا بسرعة!

- شعر امرأة يهزّه الرّيح!

- شعر امرأة! أوم.. آه... حسنا.. دعني ألقي نظرة ثانية!

تراجع بخطى حثيثة نحو هافيير إلى أن وقف جانبه، وقد ارتسمت على محيّاه علامات الجدّ. وكأنّه خشي أن تضيع منه فرصة اقتناص المشهد الّذي أشار إليه صاحبه. كان الذّهول قد غمرني من رأسي حتّى قدميّ وأنا أراقب هذه العمليّة الغريبة، وأصغي إلى هذا الحديث المقتضب.. المتبادل باحتراف غامض بين هذين الصّديقين. لم يبد لحضوري الأبله أيّ تأثير على نشاطهما، ولم يخطر ببال أحد منهما أن يتمهّل بضعة دقائق ليشرح لي ما حدث أو ما سيحدث. وضع نستور ساعده الأيسر على كتف "هافيير" ثمّ غرس كلّ منهما عينيه في الخطوط المتماوجة... وغرقا في صمت عميق.

- أظنّك على حقّ هافيير. شعر فتاة يهزّه النّسيم. العينان هناك، والأنف مستقيم ودقيق سيكون في تلك الزّاوية، والفم......

- ستكون مبتسمة.. بالتأكيد!

- فلنبدأ إذن!

ركضا باتّجاه زجاجات الألوان القابعة على الرّصيف، وتناول كلّ منهما بخّاخا. ثمّ شرعا في العمل بشغف مثير للإعجاب. نادرا ما كان أحدهما يحادث الآخر. باحتراف مفاجئ اقتسما الحائط نصفين، وأخذ كلّ منهما في تلوين القسم المخصّص له. أمّا أنا، فقد بقيتُ على ذهولي، ولم أدر ما أفعل بنفسي في خضمّ رذاذ الألوان المتناثر حولي. بين الحين والآخر قد يتوقّف أحدهما عن التّلوين فجأة. يتراجع ببطء إلى الوراء ليستوعب ما كان قد رسمه من أشكال وخطوط. بعد ذلك، يبدّل بخّاخا بآخر ويعود

إلى مهاجمة الحائط مفترسا باللّون ما خلّفته السّنين من تشعّبات وشقوق. اقتربتُ منهما متعثّرا بإعجابي بهذا المنظر الأخّاذ، وشرعتُ في محادثتهما فاستجابا لرغبتي. أخذنا في تبادل النّكت المضحكة دون أن يتوقّف أيّ أحد منهما عن العمل لحظة واحدة. عرض عليّ نستور أن أجرّب ولكنّني اعتذرت متعلّلا بأنّ متعتي في المشاهدة فقط. لم تكد نصف ساعة تمرّ، حتّى تحوّل الحائط البائس إلى امرأة تسلب القلب بعينيها المحلّقتين في الفضاء البعيد. في لحظات، تحوّل الحائط الميّت إلى امرأة عاشقة للحياة!

علّقتُ بإعجاب لامتناه:

- هذا هو "الجرافيتي" إذن!

أومأ نستور برأسه علامة الإيجاب وقال:

- هو بعينه! ثمنه ليس باهظا وتجده أمامك في الأسواق أينما ذهبت. ولكنّ القليل منهم يعرفون أنّه قادر على تحويل جدار بشع كهذا إلى امرأة جميلة كالّتي تراها الآن أمامك!

- ٢٠ -

سلّمتُ جسدي النّحيل إلى مقعد القطار، وتركتُ لقماشه النّاعم مهمّة تجفيف العرق البارد المتسرّب عبر مسامّه المنهكة. أصغيتُ دون اهتمام لهمهمة ركّاب العربة وانتظرت جرس الإقلاع. تزاحمتْ الأفكار في ذهني مسترجعة أحداث هذا اليوم الممتع بغموضه، السّاحر بغرابته. نستور وهافيير، الحديقة وزوّارها، براعتي في اختلاق القصص الخياليّة لاختلاس سويعات من الصّداقة العابرة، المشاجرة الأولى.. ثمّ الثّانية، الرّجل الأشعث.. ورائحته الكريهة، بماذا كان يتمتم يا ترى؟ الجدران الهرمة القبيحة المنظر، الّتي تحوّلتْ دون مشقّة تذكر إلى امرأة فاتنة الملامح بُعِثت كجنيّة مسحورة بين صمت الأحياء الحزينة. نستور رأى الحائط جميلا وأنا رأيته في غاية البشاعة. هافيير رأى عليه امرأة تبتسم ولم أر على صفحته سوى أحجار متجهّمة. كلّ شيء مرسوم بدقّة وإحكام، والعين لا ترى إلاّ ما تريد أن ترى. تململت العربة ثمّ أخذت في التحرّك ببطء. غصتُ في المقعد الوثير وأغمضتُ عينيّ تاركا لأشعّة الشّمس المتكسّرة عبر زجاج النّافذة مساحة للرّقص على وجهي. أخذتْ الخواطر المتناثرة كالغبار بداخلي في الهدوء تدريجيّا، واستقرّت في آخر الأمر على التفكير في

الحانة وما ينتظرني فيها من مسؤوليّات. بعد ساعتين ستأتي حمولة البيرة وعليّ أن أكون هناك للتّوقيع والاستلام. توقّف القطار وفُتِحتْ أبوابه في صريرها المعتاد. نزلتُ الأدراج بخفّة واندفعتُ بين الأزقّة مصفّرا أغنية من أغاني الصّبا. في لحظة خاطفة، تذكّرتُ اختفاء ذلك الرّجل الأشعث بعد أن ودّعتُ نستور وهافيير عائدا أدراجي. تركتهما بصدد تلوين حائط ثان دون أن يخطر لأحد منهما أن يجود عليّ برقم تليفون لتمهيد موعد لقاء لاحق!

أدرتُ المفتاح ودفعتُ باب الحانة برفق. فتحتُ النّوافذ للتّهوية كالمعتاد وشرعتُ في إنزال المقاعد من فوق الطّاولات. فجأة تذكّرتُ أنّني لم أطلب سيجارة الحشيش التي من أجلها لحقتُ نستور وأصدقاءه فابتسمتُ منتشيا. أدرتُ جهاز التسجيل، وإذا بأنغام الفلامنكو تفوح عبر فضاء القاعة الخالية فوجدتني أرقص كالمجنون وحدي. بعد هنيهة، قفزتُ وراء خوان البار وشرعتُ في تأمّل الأكواب الفارغة للتّأكّد من نظافتها ثمّ عدتُ إلى تصفيفها بإحكام. تدفّقتْ نسمات منعشة عبر النّوافذ المفتوحة تصاحبها أشعّة نور ناعمة انعكستْ حرارتها على الأرضيّة الخشبيّة للقاعة فبدا لها توهّج خفيف ارتختْ له أعصابي. فتحتُ "الكاسة" كعادتي في بداية كلّ يوم وأخذتُ في عدّ ما بها من نقود. شردتُ لبضعة لحظات عائدا إلى أحداث يومي. نستور والجرافيتي. الرّجل الأشعث والمرأة الجميلة المرسومة على الحائط. تنقّلتْ الأوراق الماليّة بين أصابعي دون أن يكون لها مدلول رقميّ في رأسي. انسابتْ من يد إلى أخرى وكأنّها صفحات كتاب أو أوراق جريدة أتصفّحها بأصابع باردة وذهن غائب. توقّفتُ عن العدّ، فلا جدوى من فعل ذلك دون وعي.

لململتُ شتات أفكاري ككومة قشّ وطوّقتها بحبل من التّركيز ثمّ ألقيتُ بها في ركن مظلم من ذاكرتي عازما على العودة إلى التّلاعب بها عندما آوي إلى فراشي عند أواخر اللّيل. عدتُ إلى عدّ المال بحزم، ودوّنتُ الرّقم النّهائيّ على ورقة بيضاء دسستها بسرعة في جيبي. لاحظتُ اتّساخ أرضيّة المكان الّذي زادت من ظهوره أشعّة الشّمس المتسرّبة عبر النّوافذ. "اللّعنة على سانتو. إهماله يزيد يوما بعد يوم!". اتّجهتُ مسرعا نحو المخزن الخلفيّ. ارتديتُ ثياب العمل على عجل وعدتُ حاملا ممسحة بالية وسطلا من الماء المستعمل. جُبْتُ القاعة ممرّرًا الممسحة المبلّلة على الأرضيّة الملساء، فإذا بكلّ ركن ألمسه يتحوّل إلى ما يشبه المرآة الخشبيّة الصّافية عكستْ خيال جسدي المتحرّك فوقها جيئة وذهابا. عصرتُ الممسحة في الإناء الحديديّ فانهمر الماء منها في لون القهوة الدّاكنة. عدتُ إلى تمريرها عبر مساحة المكان في جولة ثانية أزلتُ بها ما كان قد استعصى على من البقع الملتصقة. عندما انتهيتُ من آخر ركن، كانت الأرض الخشبيّة قد جفّت تماما تحت تأثير الهواء المنعش المتدفّق عبر النوافذ. ألقيتُ بالممسحة داخل السّطل ثمّ رفعته برفق محاذرا ألاّ ينسكب شيء من الماء العكر على الأرض فيفسد ما أنجزته. دلفتُ إلى حجرة المخزن فصفعتني رطوبته المعتادة.

كان المخزن شبه مظلم. تبعثرتْ عبر أرجائه صناديق البيرة والنّبيذ. كانت تحتوي زجاجات فارغة وأخرى لم تستهلك بعد. تدلّى من السّقف مصباح بيضاويّ متوسّط الحجم، ضبابيّ اللّون، تراكمتْ على سطحه المشعّ حشرات سوداء ضئيلة الجسم فبدتْ وكأنّها نقاط حبر سوداء. كان المصباح في بياضه المنقط بالسّواد يشبه بيض الطّير البريّ الذي كانت أمّي

تقتنيه من سوق القرية كلّما توفّر لها شيء من المال. كنّا نلتهمه بشراهة فور أن تضعه أمامنا مقليّا مع قطع ذائبة من السّمن القديم. كان ذلك حدثا موسميّا لا يقلّ في بهائه عن أيّام العيد. أعدتُ ترتيب ما تبعثر من صناديق مصفّفا إيّاها الواحدة فوق الأخرى جنب الحائط. شعرتُ بقرص خفيف ينتاب أمعائي. بعد هنيهة تحوّل القرص إلى ألم شديد لا يمكن تجاهله. كان الحمّام ينتظرني برائحته القاتلة، هناك في الرّكن الأيسر من المخزن. دفعتُ بابه الخشبيّ الرّفيع فأحدث محوره الحديديّ الصّدئ صريرا عاليا تموّج صداه عبر الفضاء. كان الصّدى يشبه قهقهة عالية ما لبثت ذبذباتها أن تلاشت تدريجيّا ليطبق الصّمت من جديد.

دلفتُ إلى الدّاخل كمن يدخل تابوتا عموديّا لم يفتح منذ عشرة قرون. سددتُ أنفي وفتحتُ فمي لأتنفّس، ثمّ جلستُ على مضض لأقضي حاجتي. فعلتها بأسرع ما يمكن وضغطتّ على مرشّ الماء فارتفع صوته كالشلاّل الهادر جارفا كلّ شيء إلى أعماق الأرض. توضّأتُ ورفعتُ بنطلوني ثمّ وقفتُ أمام حوض الماء ففركتُ يديّ جيّدا بالماء والصّابون. تأمّلتُ وجهي في المرآة، فإذا به قد نضج كفطيرة سمراء من وهج الشّمس. ألقيتُ بشيء من الماء البارد على شعري الأجعد محاولا إصلاحه. فجأة سمعتُ وقع أقدام ثابتة تعبر القاعة الرّئيسيّة. "قد يكون فديريكو سائق شاحنة البيرة قد وصل قبل موعده!".. فكّرتُ بذلك وأنا أعبر البهو الذي يفصل المخزن عن القاعة الرّئيسيّة مسرعا.

- آه.. هذا أنت يا عيسى!

انتصب أمامي مبتسما بقامته الفارعة وعوده النّحيل. بتلك البشرة السّمراء الّتي تحاكي حبّات القهوة الطّازجة في لمعانها تحت خيوط الشّمس.

انفرجتْ شفتاه الغليظتان عن صفّين من الأسنان المرصّعة بإحكام كقطع صغيرة من العاج. وجهه مشرق كالمعتاد، متلألئ ببهجة طبيعيّة لا تكلّف فيها ولا تصنّع. بهجة أفرزتها طباعه القرويّة البسيطة..القانعة بكلّ ما قد يحمل اليوم إليها من أحداث. أجابني بعد أنّ هزّ رأسه الحليق في إحدى حركاته المسرحيّة المعتادة:

- نعم أنا! من كنت تنتظر؟ خوانيتو ربّما؟

- لا أظنّ أنّنا سنرى خوانيتو عمّا قريب.

أجاب وقد اقترب منّي مبتسما وباسطا يده ليصافحني:

- أرجو ألاّ يعود بالمرّة! لم تجبني، من كنت تنتظر إذن؟ امرأة إسبانيّة جميلة مثلا؟

- ولِمَ لا. من ذلك النّوع الذي تحبّ وتشتهي. أجبتُ مازحا.

عضّ على شفته السّفلى قائلا:

- إن كان الأمر كذلك. فلن أتركها لك، سأصارعك من أجلها إن لزم الأمر!

- لا داعي لذلك يا عزيزي. هي لك.. من نصيبك.. أهديها إيّاك عن طيب خاطر. من المؤسف أن تحطّم امرأة صداقتنا أليس كذلك؟

- إلى حدّ ما! الصّحبة فوق معظم النّساء، ولكن ليس كلّهنّ. امرأة كالّتي صادفتُ اليوم قد أضحّي بجميع صداقاتي من أجل عينيها.

- مكتنزة؟

- كخصوبة الأرض!

- سمراء مثلك؟ أعني: هل هي إفريقيّة؟

- كلا..بل إسبانيّة!

- إذن فقد ضمنت أوراقك!

- لم أفكّر بذلك عندما طلبتُ رقم هاتفها!

- أنت كاذب بالطبع! أجبته متهكّما ومدركا تمام الإدراك أنّه صادق فيما يقول. أردفتُ مستوضحا:

- هذا تطوّر خطير في حالتك العاطفيّة يا عزيزي عيسى. متى حدث هذا الأمر؟ وأين؟...هل هي جميلة؟

- في نظري... هي رائعة!

- أنا أسألك إن كانت جميلة فعلا. أعني: إن رأيتُها أنا مثلا فهل سأجدها جميلة؟

- لا أعرف ماذا تعني بذلك. أنت ترى بغير العين الّتي أرى!

- مرأة تصارعني من أجلها إذن!

أجاب ضاحكا:

- إن اقتربت منها أو حاولت افتكاكها منّي، فقد أضطرّ لرميك في مقلاة الزّيت كسمكة استعجل في طلبها أحد زبائن هذه الحانة.

- أتفعل بي هذا -وأنا صديقك القديم- من أجل امرأة لم تصادفها إلاّ اليوم! سامحك اللهّ يا عزيزي!

- في خيالي كنتُ أعرفها منذ سنين. لم يكن ينقصها سوى أن تعثر

هي عليّ.. وقد فعَلتْ. سأعرّفك عليها عمّا قريب. وسأسألها إن كانت لها أخت أو قريبة تشبهها. أنت بحاجة إلى امرأة من هذا الصّنف الرّائع يا صديقي. قال ذلك وقد سالت على وجهه الأبنوسيّ أمواج هادئة من السّعادة الحقيقيّة، تلك التّي تجعلنا نشعر بأنّنا نمتلك الكون.. وبأنّ الكون امرأة واحدة لا غير!

انتبهتُ فجأة، ونظرتُ إلى ساعتي قلقا، بعد ذلك أشرتُ إلى ناحية المخزن قائلا:

- كميّة البيرة في المخزن لا تكفي لسهرة اللّيلة. الشّحن قد يصل في أي لحظة. اذهب وغيّر ثيابك بسرعة ثمّ اشرع في تحضير ما يلزم من خضراوات وأسماك. اللّيلة ستكون رائقة ومزدحمة بالزّبائن. افعل ذلك فورا، وسألحق بك إلى المطبخ بعد قليل لأسمع قصّة صاحبتك الجديدة. أريد أن أعرف كلّ التفاصيل قبل أن تبدأ اللّيلة!

انطلق عيسى ناحية المخزن ليغيّر ثيابه، ثمّ عاد بعد برهة قصيرة مرتديا منديله الأبيض الموشّح ببقع الزّيت الدّاكنة. بقع لا أمل في إزالتها مهما نقعت في الماء والصّابون. كان قد لفّ حول رأسه الصّغير منديلا أزرق ربطه من الخلف بإحكام على نمط قراصنة البحار. ملأتُ كوبا من الماء المثلّج عندما توارى هو خلف باب المطبخ وجلستُ على أحد الكراسي الطّويلة المصفّفة على الطّرف الثاني من خوان البار كما يفعل أي زبون جديد. أشعلتُ سيجارة فائحة العطر وشرعتُ في امتصاص دخانها بشراهة متجولا بنظري عبر زجاجات الويسكي والكونياك المصفّفة بعناية على رفوف البار الخشبيّة. كانت تشتعل إغراءً تحت أشعّة الشّمس بلونها النّحاسيّ اللاّمع. كلّ زجاجة منها كانت تراودني

عن نفسها كحسناء غجريّة، وتدعوني لمراقصة خصرها الأسمر على نغمة عابرة لموسيقى التانجو. لون الويسكي شهيّ ومراوغ عبر بريق الزّجاج. عسليّ ودافئ، متواطئ مع رقائق الضوء الفضيّة على إيقاظ ما كان قد خمد بداخلي من غرائز دفينة. فكّرتُ أن أبْقِيَ على شيء من الماء في كأسي المثلّجة كي أخلطه بشيء من الويسكي فترتخي أعصابي قليلا. ولكنّ صفّارة الشّاحنة لم تمهلني. وقف فيديريكو بجسده المترهّل على عتبة الباب حاملا بيده بعض الأوراق الصّفراء ومطبقا بشفتيه الزّرقاوين على ربع سيجارة تساقط رماد شعلتها الطّويلة على قميصه الأسود. هزّ بأوراقه إلى ناحية الشاّحنة الرّابضة خلفه وقال بصوت خشن:

- ٢٠ صندوقا. نستودعها المخزن كالعادة.. أليس كذلك؟

أطفأتُ سيجارتي على عجل وأجبتُ مبتسما:

- في المخزن كالعادة... سألحق بك فورا!

احتسيت شيئا من الماء البارد في محاولة لإزالة طعم التبغ من فمي، ثمّ وثبتُ ناحية المطبخ. أطللتُ برأسي من وراء الباب فوجدتُ عيسى قد شرع في العمل بهمّته المعتادة. كان يداعب بسكّينه الضّخمة سمكة صغيرة مُزيلًا بها ما نبت على جسمها الهامد من زعانف. تناثرت القشور كقطع بلّوريّة ملوّنة لتستقرّ على اللّوح الخشبيّ المعدّ خصّيصا لمثل هذه المهمّة. كانت السّمكة شاخصة بعينيها الزّجاجيّتين إلى سقف المطبخ، وكان فمها فاغرا في شكل دائريّ. بدتْ وكأنّها ما زالت تتنفّس تحت الماء. كأنّها لم تكن سجينة ثلج البرّاد منذ أشهر طويلة. كان عيسى يصفّر بفمه مرسلا إلى الفضاء أنغاما هادئة حلوة. بدتْ السّمكة بفمها المستدير وكأنّها تصاحبه في ذلك.

– عيسى! أحتاج لساعديك القويين. أترك ما بيديك الآن. صناديق البيرة قد وصلت وعلينا إدخالها إلى المخزن فورا.

غمز لي بعينيه مطيعا دون أن يتوقّف عن التّصفير، ثمّ نفض ما كان قد علق بين أصابعه من قشور بحريّة. بعد ذلك أرسل شيئا من ماء الحنفيّة على يديه ليزيل البواقي ومسح بهما على منديله الأبيض. عبرنا القاعة بخطوات مسرعة تخلّلتها نكتة سريعة من نكته القبيحة. كان أثر النّكتة في قلبي أشدّ ترويحا عن النّفس من أثر زجاجة الويسكي الّتي راودتني عن نفسها منذ قليل. وصلنا عند فيديريكو، كانت بطنه متدلّيّة فوق حزامه كبالون ضخم وهي تهتزّ مع طقطقة القوارير التي كان قد شرع في إنزال صناديقها أمام باب الحانة. سيجارته كانت قد انطفأت بين شفتيه، أمّا جبينه فقد لمع تحت طبقة دهنيّة من العرق اللّزج. فجأة، ألقى بعقب سيجارته على الأرض وداس عليه برجله الضّخمة. بعد ذلك ناولني صندوقين فتلقّيتهما بين ساعديّ متحمّلا وزنهما الثقيل. شعرتُ بالدّم يحتقن في وجهي وأنا أسير باتّجاه المخزن محاذرا ألاّ يفلت صندوق من بين يديّ المتصلّبتين فتنكسر القوارير. التفتّ ورائي بصعوبة شديدة فلمحتُ عيسى وفيديريكو يتحدّثان بالإشارات وقد أحاطت بهما الصّناديق من كلّ ناحية. وضعتُ حمولتي في ركن شاغر من غرفة المخزن وعدتُ مسرعا لأجلب المزيد. في طريق عودتي اعترضني عيسى محتضنا ما تيسّر له من حمولة البيرة. كانت العروق قد برزت على امتداد ساعديه السّمراوين كشبكة من الأنابيب الرّقيقة وكان يصفّر بفمه كالعادة. ابتسم لي وغمزني دون أن أرى على وجهه أي علامات تدلّ على وطأة الثّقل الّذي يحمله. ظللنا على تلك الحالة من الجيئة والعودة بالصناديق إلى أن

بقيتْ أربعة ثمّ ينتهي الأمر.

ناولني فيديريكو صندوقين، ثمّ تناول هو آخر اثنين وضعهما بسهولة فائقة على كتفه اليسرى. بعد ذلك أخذنا في اجتياز القاعة سويّا دون أن نتبادل كلمة واحدة. وضعنا الصّناديق في المخزن وعدنا إلى جانب خوان البار. "٢٠ صندوقا بالتمام والكمال! أريد توقيعك على هذه الورقة لو سمحت". بادرني فيديريكو بلهجة محترفة وهو يقلّب ين أوراقه دون أن ينظر في وجهي. سحب قلما من جيب قميصه متفحّصا بعينيه زجاجات الكحول البلّوريّة المرصّفة على الرّفوف، ثمّ ناولني الوصل فوقّعتُ عليه صامتا. في نفس الآونة كنت أدير في ذهني عمليّة حسابيّة سريعة لأتأكّد من صحّة المبلغ النّهائيّ الذي يجب دفعه. قفزتُ بخفّة وراء الخوان وفتحتُ درج الكاسة فاستخرجتُ منها ما لزم من أوراق ماليّة. طويتها بعناية ووضعتها في يده السّمينة قائلا:

- موعدنا بعد أسبوعين كالمعتاد!

- نعم بعد أسبوعين.

هزّ برأسه علامة الموافقة وطفتْ على وجهه ابتسامة خفيفة تناثرتْ بين طيّاتها علامات الاستفهام. تردّد لحظة وهمّ بالمغادرة، ثمّ تراجع واستطرد بارتباك:

- خوانيتو.. كيف حاله؟

- لا أدري! أظنّه بخير.

- متى سيعود إلى الشّغل.. هل تعرف؟

- أظنّ أنّه في إجازة مفتوحة. موعد عودته لا يزال مجهولا.

- أنت تعلم ما حدث له طبعا.

- أعلم...

- هذا الحيّ أصبح خطرا. لقد تغيّر النّاس، وهؤلاء الشبّان المستهترون أصبحوا يفعلون أيّ شيء من أجل لفّة حشيش أو زجاجة بيرة. يقتلونك ويرمون بجثّتك إلى الكلاب المتشرّدة من أجل نصف سيجارة منطفئة.

أجبتُ موافقا:

- معك حقّ! الزّمن تغيّر والاحتراس واجب.. خاصّة لأمثالنا من الذين يشتغلون إلى ساعة متأخّرة من اللّيل.

- يقولون إنّ خوانيتو أصابته حالة اكتئاب!

- من أخبرك بذلك؟

- أوّلهم سانتو، وكذلك بعض مرتادي الحانة من الذين قابلتهم عن طريق المصادفة.

- لا أحد يعلم. أظنّها صدمة عابرة وستمرّ بسلام. هو فقط محتاج لقليل من الرّاحة. محتاج لشيء من الوقت لا أكثر.

- أرجو أن يكون حدسك صادقا! خوانيتو طيّب القلب...

"طيّب القلب أم شريكك في السّرقة وتزوير الفواتير!"... فكّرتُ بذلك وأنا أجيبه محاولا إغلاق باب هذا الحوار الذي بدأتْ تفاصيله في تعكير مزاجي المسائيّ:

- هو طيّب القلب فعلا... أرجو أن يعود عمّا قريب!

أومأ موافقا وهمّ بمواصلة الكلام، ولكنّني لم أمهله. تساءلتُ مغيّرا

دفّة الحديث إلى وجهة أكثر أمانا:

- هل نحن آخر المطاف في رحلتك اليوميّة؟

- نعم.. هذه هي آخر محطّة. عليَّ الآن أن أعيد الشّاحنة إلى مستودع الشّركة. بعد ذلك أستقلّ القطار إلى البيت.

- جميل. الرّاحة واجب تجاه العقل والجسد.

- ذلك صحيح! انتهى يومي على خير.. وغدا يوم جديد. أمّا أنت، فأظنّ أنّ يومك لم يبدأ بعد!

- مضبوط. بداية يومي هي نهاية يومك، وذلك هو حال الدّنيا!

- ٢٤ من العمل المتواصل كي يسكر الزّبائن!

- ٢٤ ساعة.. أجل!

أجبته بنبرة ختاميّة. مددتُ إليه يدي مصافحا، فلامستني قشرة يده القاسية. وضع قلمه في جيب قميصه المتّسخ برماد السّجائر، ثمّ توارى بجسمه المترهّل وراء باب الشّاحنة بعد أن أغلقه بقوّة. تلاشى هدير محرّكها وهي تختفي بعيدا ووقفتُ هنيهة أراقب ذوبان الشّمس الهادئ خلف جدران البيوت المقابلة. تذكّرتُ أنّ سانتو لم يصل بعد وأنا أدفع باب المطبخ برفق. كان هدير الثلاّجة قد بلغ ذروته، أمّا عيسى فكان يداعب بسكّينه سمكة ثانية وقد عادت نفس الأنغام إلى الانسياب عبر شفتيه. سألته عن أصل اللّحن فأخبرني مبتسما بأنّه مقطع من إحدى أغاني مواسم الحصاد في بلدته الصّومالية البعيدة. علّقتُ بدهشة:

- تشبه إلى حدّ بعيد أغاني الأفراح في قريتنا!

- كلّ أغانينا متشابهة وحلوة. ليس هناك فرق بينها سوى اللّهجات!

- فعلا! خاصّة هنا في الغربة، كلّ الأغاني فيها جرعة حنين موجعة.

- سانتو لم يصل بعد؟

- لم يصل بعد.

- ليس من عادته التأخّر... أليس كذلك؟

- الغائب يحمل حجّة غيابه معه.. ألا تستعملون هذا المثل في الصّومال؟

- بلى، لدينا مثل مشابه. هل ستسأله عن حجّة غيابه إثر وصوله!

- أنا مديره الآن ومن حقّي أن أحاسبه إن راق لي ذلك!

- وهل يروق لك أن تحاسبه اليوم؟

- سنرى..

ابتسم عيسى وعاد إلى التصفير. أصبحتْ السمكة شبه عارية من الزّعانف بين يديه المبلّلتين وألقى بها في الإناء النّحاسيّ إلى جانب رفيقاتها. سحب سمكة ثالثة أكبر حجما، وعادت القشور البلّوريّة الرّقيقة إلى التطاير في الهواء على وقع خرخشة الحديد المحتكّ بجسمها الورديّ. سحبتُ صندوقا فارغا وأدنيته من موضعه ليتسنّى لي الإصغاء لحديثه. سألته مواصلا ما كان قد انقطع بيننا من حديث:

- ما اسمها؟

لم يجب. نظر إليّ وقد أشرقتْ شفتاه بابتسامة ناصعة ثمّ قفز بخفّة أرنب بريّ نحو الثلاّجة الكبيرة. هوى على جانبها بضربة قويّة فخفتَ

هديرها المزعج. بعد ذلك التفت إليّ وقال مراوغا:

- عمّن تتحدّث؟

- عن حبيبتك الجديدة.

- لم تكن لي حبيبة قديمة لتصبح لي جديدة! هي حبيبتي وكفى..

- حسن.. حبيبتك وكفى. والآن قل لي ما اسمها؟

أدار السمكة في الهواء بخفّة، فانقلبتْ على وجهها الثاني، ثمّ شرعتْ سكّينه في العبث بزعانفها من جديد. رمقني بنظرة حالمة وفاضت عيناه بموجة رقيقة من الارتباك. الحديث عمّن نحبّ يضاهي في نشوته الحديث مع من نحبّ، هكذا يقولون! إن كان هذا الأمر صحيحا.. فذلك شيء رائع، لأنّ ذلك يعني أنّ عيسى الآن يعيش في تموّجات سكرة مسحورة لا تستطيع كلّ زجاجات الويسكي المرصّفة فوق رفوف البار أن تشعل مثلها. نظر إليّ دون أن يبصرني ومضت سكّينه في عمليّة تقشير لا إراديّة فوق جسم السّمكة الورديّ. كانت السّمكة في حالة استسلام كليّ لمديته الحديديّة، وكان هو يضاهيها استسلاما لأسهم الذكرى الورديّة. أوّل لقاء حبّ!

خفتتْ همهمة الثلاّجة تماما. تلاشتْ مع رائحة السّمك، وطفا على أجواء المطبخ عطر الكلام عن الحبّ. جلستُ على الصّندوق أمامه بانبهار طفل صغير، ينتظر إزالة الورق الملوّن عن هديّة العيد. قال بصوت مرتعش أدركه الهدوء بعد حين:

- اسمها روزيتا!

- اسم جميل يحمل رائحة الورد. بداية موفّقة يا عزيزي!

- الأسماء لا تعني شيئا! اسمها جميل.. لأنّها جميلة. لو كان اسمها غير ذلك لكان لوقعه على قلبي بنفس درجة النّشوة. هل سبق لك أن أحببت؟

- نوع مختلف من الحبّ. أحبّ أمّي وإخوتي طبعا، أمّا إذا كنت تعني فتاة... فلا!

- الحبّ أصناف متنوّعة.. أنت محقّ في ذلك.. لكنّ الغاية واحدة!

- وما الغاية؟

- هي أن نحبّ!

- أهذه أغنية جميلة من أغاني الأفراح في قريتك البعيدة.

- بل هي أغنية الحقيقة!

- اللهّ عليك يا صديقي عيسى، جَعَلَتْ روزيتا منك شاعرا في ومضة جفن!

- أظنّك تمزح، ولكن تلك هي الحقيقة بالفعل! قبل أن أغادر الصّومال كنت أطمح أن أصبح مدرّسا جامعيّا وشاعرا. ولكنّني اخترتُ بدل ذلك أن أنظّف السّمك القديم في هذا المطبخ. ذلك هو اختياري ولا أثر للنّدم عليه بين جوانحي. قد لا أصبح أستاذا في الجامعة في يوم ما.. ولكنّ الشّعر! الشّعر هو الشيء الوحيد الّذي لن يستطيع أحد في الدّنيا أن يأخذه منّي!

- لم أكن أعرف ذلك. لم يكن باديا عليك أنّك جامعيّ!

- وهل تعرف أنت حقيقة من تقابلهم كلّ يوم؟ هل يعرفون هم

حقيقتك؟ أنا طبعا لستُ مختلفا عنهم، ولك أن تقيّمني بميزان ما ظهر لك منّي. أمّا الآن.. فأنت تعرف أنّني طبّاخ "تحت الطّاولة"، جامعيّ سابق، وشاعر مجهول.

- وعاشق أيضا!

- وذلك أهمّ شيء!

- أين قابلتها؟ أحصل ذلك اليوم؟

- منذ ساعة أو ساعتين.

- إذن فالقصّة طازجة... وأظنّني أوّل من يسمعها!

- طازجة كقدح حليب طازج تدفّق من ضرع بقرة صوماليّة في فجر يوم قرويّ جميل!

- اللهّ!.. شيء جميل ورائع!

فكّرتُ في نفسي: "هذا يوم المصادفات الغريبة!". ثمّ قلتُ له مستعجلا:

- كيف كانت تفاصيل اللّقاء؟ أخبرني بسرعة قبل أنّ يطلّ أحد الزّبائن فيقطع حديثنا!

كانت السّمكة قد انتهتْ بين يديه. أصبحتْ عارية من زعانفها ومستعدّة -في سكونها بين رفيقاتها- إلى التعطّر برشّات من التوابل الرّخيصة التي أخذ في ذرّها فوق الإناء النّحاسيّ كحفنة من رمال البحر. بعد ذلك، أمسك الإناء بكلتا يديه وأخذ في رَجِّهِ بمهارة فائقة. ارتفعتْ السّمكات في الهواء في شكل لولبيّ ثمّ ارتطمت بقاع الإناء المعدنيّ

ممتصّة بأجسامها اللاّمعة ما علق به من ذرّات البهار والتوابل. تسلّلتْ الرّائحة الذكيّة إلى أنفي لتذكّرني بأنّني لم أتذوّق شيئا طوال اليوم. كانت شبيهة برائحة زبد أمواج البحر. كلّ شيء يؤدّي إلى كلّ شيء، وكلّ شيء ينبثق من كلّ شيء! السّمك هو البحر، والبحر هو رحلة الرّعب، ورحلة الرّعب هي الموت، وعيسى هو القرية، والقرية هي أمّي، وأمّي هي الّتي من أجلها خضتُ رحلة الموت. وبعد أن نجوتُ متسلّلا بين ثنايا حدود بلد بعيد وحصلتُ على شيء من المال، طار المال إلى أمّي في ظرف أبيض بلون الملح.. لتشتري هي سمكا وملحا. كانت تحبّ السّمك كثيرا وتصلّي على النبيّ كلّما شمّت رائحته في الأسواق ثمّ تمضي في طريقها قائلة: "سأطلب من سي الهادي أن يجلب لنا بعض الأسماك يوم الأحد المقبل". ذلك يوم أحدٍ لم أره إلى هذه السّاعة!

- ٢٣ -

- تريد أن تسمع تفاصيل اللّقاء؟

انتبهتُ إلى عيسى وهو يضع الإناء النّحاسيّ جانبا، ثمّ يشرع في تقشير كومة من البطاطس وتقطيعها إلى دوائر رقيقة ومتشابهة كأقراص الحلوى. استرسل مبتسما:

- ليست هناك تفاصيل تُذكر! كان لقاءً بسيطا وعفويّا هيّأه القدر لنا لأنّ ساعة لقائنا قد حانت لا غير! بعد أن غادرتُ البيت مستعجلا، تذكّرتُ أنّني لم أشرب قهوتي بعد. مررتُ بالمقهى المجاور وطلبتُ "كابوشينو" في كوب من الورق المقوّى، ذلك الّذي يسكبون فيه القهوة والشاي لمن يفضّلون احتساء مشروبهم السّاخن خارج جدران المقهى. بلغتُ محطّة القطار. اشتريتُ تذكرة وجلستُ على أحد المقاعد أحتسي قهوتي السّاخنة وأراقب المسافرين بين قادم وعائد ومغادر.

تأمّلتُ العربات الحديديّة الدّاكنة بين ساكنة وأخرى مصفّرة. بين عربة مقبلة في انسياب الأفعى وأخرى مدبرة في خفّة التماسيح. كانت الشّمس قد توارت وراء غشاء شفّاف من السّحب العابرة،

وكان البخار المتصاعد من الكوب الورقيّ قد تعطّر برائحة القرفة التي ينثرونها عادة فوق رغوة "الكابوشينو". شيئا فشيئا استسلمتْ جميع حواسّي لتدفّق تلك الغمامة المعطّرة بشذى البهار. جال بخاطري سؤال غريب من فصيلة الأسئلة الّتي تلمع في أذهاننا كجناح طائر فضيّ في لحظات الانتظار. تساءلتُ عمّن يكون أول شخص فكّر في ذرّ التوابل القديمة على رغوة الحليب الطّافية كالقطن فوق القهوة. ومن يكون أوّل شخص فكّر أنّه بين ألياف حبّة القهوة يمكن أن يسري سائل سحريّ يوقظ الحواسّ ويدفع بالدّم كالشلال في العروق. من هو يا ترى؟ هل هو نفس الشّخص؟ من الأكيد أنّه نفس الشّخص! ذلك الّذي لم يشفق على نفسه من وجع إخفاق التجربة.. فجَرَّبْ! هو نفس الشّخص في كلّ زمان ومكان، ذلك أكيد. بعد ذلك سألتُ نفسي وكأنّني انسلختُ عنها لأقف أمامها قائلا: "وأنت؟ هل فيك من ذلك الشّخص شيء؟ هل تسكن قلبك ذرّة من غبار شجاعته؟". أجابتني نفسي: "نعم فيك الكثير منه! من وراء ظهرك رميت بقريتك وبقلوب أهلك وناسك، وألقيت بأحلامك على أرصفة الضياع. أحلامك بأن تحاضر ذات يوم أمام طلبة ينصتون إليك في خشوع ويسألونك أسئلة لا يقدر على إجابتها غيرك! أذكّركَ اليوم بأنّ ذلك الطّموح هو نفسه الّذي اقتلعكَ كزهرة بريّة من أرضك ليزرعك هنا: في مقعد هذه المحطّة.. تنتظر عربة بلون الحزن تحملك إلى مطبخ قديم حيث بخار الزّيت والأسماك الصّامتة! هل غامرتَ؟ طبعا نعم! هل حاولتَ؟ طبعا نعم! هل يكفيك شرف المحاولة؟ طبعا لا، فمن قال أنّك أخفقت؟ الإخفاق هو ألاّ تجرّب.. وأنت جرّبتَ! الإخفاق هو ألاّ تجازف.. وأنت جازفتَ! وذلك يكفي!"

أزاحت السّحب برقها الشفّاف عن صفاء وجه الشّمس المتوهّجة. تكسّرت أشعّتها الدّافئة على زجاج العربات ومنها على وجهي. أغمضتُ عينيّ نصف إغماضة مراقصا خيوط النّور بأجفاني المتراخية في كسل لذيذ. كانت رائحة بخار القهوة الممتزجة بالقرفة قد استولت تماما على جميع حواسّي فغصتُ في مقعدي بتراخ وطفتْ ابتسامة راضية على شفتيَّ. في تلك اللّحظات الهادئة، كنت أجلس على ضفّة جمال هذا اليوم رغم أنّه كان يشبه إلى حدّ بعيد اليوم الّذي سبقه، وفي أغلب الظنّ سيشبه اليوم الذي يليه كذلك. أيّام تتناسخ من بعضها بعضا كحبّات المياه، كذرّات الثلج.

ولكن ّما المانع أو المقلق في ذلك؟ أين الملل إن كانت كلّ القطرات صافية تحمل عناصر الحياة والوجود في أجسامها الرّقيقة؟ وهبتُ كياني المتعب لأنامل الشمس النّاعمة وهي ترفع بخار القهوة المطرّز بعطور التوابل إلى أنفي، وإذا بها تحملني إلى مزارع كولومبيا الشاسعة، حيث أبصرتْ حبّات القهوة الخضراء شعاع الشّمس لأوّل مرّة. ومن هناك تسافر بي إلى مروج آسيا ذات الطّقوس والأسرار حيث تغتسل أعواد القرفة بقطرات النّدى فتضوع رائحتها كأعواد البخور الشّرقية. في استسلام هادئ لكلّ هذه الخيالات والأحلام تراءى لي شبح الغد، وتساءلتُ إن كان يحمل لي مثل هذا الجمال.. مثل هذه الطّمأنينة. ولكنّ السّؤال تبخّر مع رائحة القهوة. ذاب وتلاشى في رطوبة الهواء بذات السّرعة التي ظهر بها. ذاب السّؤال لأنّ غياب الغد هو أجمل ما يُهديه الإنسان لنفسه في اللّحظات الحقيقيّة للحياة!

.. قطع استرخائي صوتٌ ناعمٌ، توشّحتْ نبراته ببَحّةٍ خفيفة

كتلك التي تكسو صوت المرء عندما تنتابه أزمة برد عابرة. ولكنّ بحّة ذلك الصّوت كانت طبيعيّة، دافئة، تجعل لانسيابه داخل الأذن ذبذبة غريبة فيها من السّحر ما هو قادر على إيقاظ أكثر الحواسّ غموضا بداخلنا. الشّمس لا تزال ساخنة.. وكذلك قهوتي عندما رفعتُ عينيَّ لأراها تبتسمُ بأدب وتعتذر بأناقة وحياء عن إزعاجي. أحسستُ بارتجاف كوب القهوة بين أصابعي وأنا أستسمحها بأن تعيد إلقاء سؤالها مرّة ثانية، ثمّ ثالثة.. ورابعة. لم أكن قد فهمتُ ما كانت بصدد قوله وذلك لضعف لغتي الإسبانيّة كما تعلم. ولكّنّني أكاد أجزم بأنّها لو ألقت سؤالها عليّ باللّهجة الصّوماليّة.. لما فهمت شيئا لانبهاري بذلك الوجه الفاتن، ولارتباكي أمام جسد لم تترك الأنوثة جزءًا منه إلاّ واقتحمته. عندما يئستْ من إفهامي، ابتسمتْ برقّة وأشارتْ إلى يدي قائلة:

- Café?

نظرتُ إلى يدي الممسكة بالكوب الورقيّ، ثمّ نظرتُ إليها ببلاهة مدركا على الفور بأنّها تحادثني عن القهوة. ابتسمتُ بخجل ومددتُ إليها بالكوب وقد أخذ يضطرب بين أصابعي. ظننتُ أنّها تريد أن تحتسي شيئا من قهوتي. جهلي باللّغة الإسبانيّة وارتباكي أمام حضورها المدهش دفعاني إلى ذلك الافتراض الأحمق. انفجرتْ ضاحكة لحركتي السّاذجة وهزّت رأسها الجميل بالنّفي:

- No No ..... Café?

ثمّ أشارت بيدها إلى قهوتي من جديد محرّكة أصابعها الرّقيقة بإشارة تفيد علامة "أين؟".

آه، إنها تريد أن تعرف إن كان في المحطّة مقهى تقصده. عادت الابتسامة البلهاء إلى وجهي المبلّل بعرق الخجل، ورسمتُ بسبّابتي في الهواء علامة النّفي قائلا: No ..... Café

أجابتني دون أن تغادر الابتسامة شفتيها:

- Africa?

أدركتُ أنّها تسألني عن جنسيّتي فأجبتُ محدّدا: صومال!

- أنت تتكلّمُ العربيّة إذن؟

باغتتني بالفصحى وبلكنة أوروبيّة جميلة. كانت مخارج النّطق عندها واضحة. ارتعش الكوب في يدي أكثر، ثمّ شعرتُ بقطرات القهوة السّاخنة تلسع أصابعي!

- طبعا أتكلّم العربيّة. الغريب أنّك تتكلّمينها أيضا!

ضحكتْ بنعومة وطفتْ تلك البحّة اللّذيذة على صوتها من جديد. ارتعش قلبي ولم أنطق بحرف. انتظرتُ أن تقول هي شيئا، ولم يدم انتظاري طويلا.

- أتكلّمها بقدر بسيط يسمح بأن يفهمني كلّ النّاس.

أجبتُ، وقد عادت الثقة تدريجيّا إلى نفسي:

- ليس كلّ النّاس طبعا! تقصدين أنّك قادرة على أن تعبّري بالعربيّة لمن يفهم هذه اللّغة. أليس كذلك؟

- آه طبعا.. طبعا!

قالت ذلك وهي ترفع بيدها خصلة من شعرها القمحيّ كانت قد

تهدّلت على وجهها الصّافي. ثمّ استأنفتْ حديثها وقد أشعّت من عينيها ذبذبة ارتباك مغرية:

- ليس كلّ النّاس "يفهمني" عندما أتحدّثُ العربيّة. من يتحدّثها فقط هم الّذين "يفهمني". على الأقلّ أرجو أن يكون الأمر كذلك!

أجبتُ بحنان وقد استعدتُ ثقتي تماما:

- "يفهموني"... الصّحيح هو أنّ نقول "يفهمونني"!

- يف..همو..نني؟

- جميل جدّ! الآن تصبح جملتك واضحة وصحيحة في نفس الوقت!

- هل أنت مدرّس؟

وضعتُ قهوتي جانبا، ومددتُ يدي مصافحًا:

- أنا عيسى!

- اسمي "روزيتا".. تشرّفنا!

صمتتْ.. ثمّ ارتبكتْ.. ثمّ همّتْ بالانصراف. المعجزة حدثتْ إذن! هي تتكلّم العربيّة! هي، الوجه الذي كنتُ أنتظر إطلالته منذ خُلِقْتُ. هي، الجسد الوحيد الذي كنتُ مستعدًّا لاكتساح أنوثته منذ عرفتُ الرّغبة. هي، فرصة العمر وفرصة الحبّ. هي محطّةٌ وموعد دون سابق موعد. قلْ شيئا قبل أن تغادرك بسرعة هذه القطارات العابرة. اجعل هذه محطّتها الأخيرة حيث يغادر جميع الرّكاب قلبها.. وتبقى أنت!

- سألتِني إن كنتُ مدرّسًا. تلك كانت مهنتي قبل أن أغادر الصّومال، أمّا هنا فأنا أمارس عملا آخر لا علاقة له بالعلم.. ولكنّه يدرّ عليَّ مالا

أوفر!

- خسارة أن يضطرّ الإنسان لترك مهنة نبيلة كالتّدريس!

- على كلّ حال أنا على تمام الاستعداد للعودة إلى مهنتي القديمة إن كنتِ تبحثين عمّن يعطيك بعض الدّروس في قواعد اللّغة العربيّة.

ضحكتْ لمداعبتي الجريئة، وأجابت في استنكار أنثويّ متواطئ:

- ألهذه الدّرجة لغتي العربيّة ضعيفة؟! أنت لم تسمع منّي سوى بضع جمل.. فكيف لك أن تحكم؟ أظنّك تريد ترك مهنتك الجديدة وكفى!

- هناك أشياء تستحقّ أن نترك لأجلها كلّ شيء!

انتبهتُ إلى أنّ هذا النّوع من الردّ كان مباغتا وصريحا. بل كان إعلانا فاضحا عن الإعجاب. إعلان سابق لأوانه، وقد يُشعرُها بالإنزعاج والضيق الناتجين عن سوء فهم نيّتي من ورائه. تداركتُ أمري بسرعة وأردفتُ:

- أقصد أنّني أحبّ مهنة التدريس لأنّني..

قاطعتْني بخبث:

- كنتُ أبحث عن مكان في هذه المحطّة لأشتري منه قهوة..

- ليس هناك مقهى هنا. هذه محطّتي، ومنها أستقلّ القطار كلّ يوم. لهذا فأنا أطلب قهوتي من المحلّ المجاور لمنزلي قبل القدوم إلى هنا..

- وأنا كذلك أفعل نفس الشيء عادة. أشتري قهوتي من المقهى المجاور لشقّتي قبل التوجّه نحو المحطّة..

قالت ذلك بنبرة محايدة توحي بأنّ الحوار على وشك أن يأخذ شكلا

عمليًا كالّذي يتبادله شخصان تجاوزا ارتباك الجمل الأولى متعثّريْن نحو منطقة من الكلام أكثر راحة. اطمأننتُ لمسار الحديث لأنّه فتح لي نافذة جديدة لاستبقائها مدّة أطول. ولكن سرعان ما انتابتني موجة قلق داخليّة ذكّرتني بحتميّة ظهور قطاري في أي لحظة. كان الوقت ثمينا والدّقائق أسرع من أن تُهدَر في التفكير الطّويل. انطلقت الكلمات من فمي عفويّة ومتتابعة:

- إذن فهذه هي محطّتكِ اليوميّة؟

- هي كذلك!

- ولكنني لا أذكر أنّني رأيتك هنا سابقا مع أنّني -كما سبق لي أن أخبرتك- من المرتادين اليوميّين لهذه المحطّة. أهذه ساعة انتظارك المعتادة؟

- في الحقيقة.. لا. كان من المفروض أن أكون هنا قبل ساعة ولكنّني تأخّرتُ في الخروج هذا اليوم. وقد فاتني قطاري المعتاد منذ عشرين دقيقة!

هممتُ بالإجابة، ولكنّها أردفتْ:

- وأنت؟ هل هذه هي ساعة انتظارك اليوميّة؟

- نوعا ما. كان من المفروض أن أكون هنا قبل نصف ساعة وقد فاتني قطاري المعتاد أيضًا. القطارات في هذه المحطّة لا تنتظر طويلا.

- أعائد من الشّغل أنت أم ذاهب إليه؟

- ذاهب إليه..

- إذن فأنت من عمَلَة المساء مثلي!

- نعم! وعودتي من العمل تكون مع هبوب أوّل أنسام الفجر.

- مثلي أنا تماما!

- دعيني أحزر. هل تعملين في أحد الملاهي اللّيليّة؟

كان تعليقا سخيفا منّي، ولكنّني أدركت ذلك بعد أن أفلتتْ منّي الكلمات. ندمتُ على تسرّعي في الحكم على نوعيّة عملها ولكنّ ندمي كان متأخّرا. لزِمتُ الصّمت وانتظرتُ الجواب في استسلام. كنت أحسب ردّها سيكون متبرّما من ضيق أفقي وسذاجة سؤالي. ولكنّ عينيها فاضتا بحنان هادئ، وطفا على وجنتيها المكتنزتين تورّد خفيف، ثمّ عادت بحّة ذلك الصّوت إلى التلاعب بحواسّي من جديد. قالت برصانة:

- أعمل ممرّضة في قسم التّوليد.

- جميل جدّا. مهنة نبيلة ورائعة!

- مهنة متعبة وشاقّة!

- لا توجد مهنة سهلة. كلّ المهن شاقّة ومرهِقة. ولكن ممرّضة، ذلك يعني أنّك ملاك رحمة، جناح الشفاء المرفرف حول أرواح المرضى والضعفاء.

- أنت تتقن فنّ الردّ المحكم!

أجابتني بطريقة مباشرة وصريحة أيقنتُ من خلالها أنّها اصطادتني قبل أن أصطادها. خاطبتني بنفس البحّة وكأنّها تقول لي: "ادعني إلى الجلوس إلى جانبك!". أشعّتْ عيناها بذلك الوميض العذب

الذي تُحسِنُ المرأة إرساله كبرقيّة عاجلة لاستثارة شجاعة الرّجل المقابل لها. البرقيّة التي تلقّيتها من روزيتا في تلك اللّحظات السّريعة كانت تقول باختصار شديد: "أنا مهتمّة بك الآن. الوقت محدود. أرني ماذا تستطيع أن تفعل؟"

... " وماذا كان جوابك؟".

سألتُ عيسى وأنا أشعل له سيجارة تناولها بأصابعه الملوّثة بزعانف السّمك البلّوريّة. امتصّها بشراهة، ثمّ حدّق فيَّ مبتسما وكأنّه يبصرها من خلالي، بل وكأنّه لا يراني مطلقا. عندما عدتُ إلى الجلوس على صندوقي، كان هو قد عاد إلى الاسترسال فيما قطعتُ عليه من حديث. بدا لي وكأنّه يكلّم نفسه أكثر ممّا يكلّمني، ولم يكن ذلك مهمّا بالنّسبة لي على الإطلاق. نفضتُ سيجارتي على أرضيّة المطبخ الوسخة. داهمني شعور عابر بالذنب لتكاسلي عن تنظيفها بصفة اعتياديّة. ولكن سرعان ما تبدّد ذلك الشّعور بين ذبذبات صوته المرتعش وهو يروي لي بقيّة تفاصيل يومه الاستثنائيّ. كانت شعلة سيجارته قد بلغت ذروة توهّجها عندما انطلق قائلا:

كانت ترتدي فستانا بسيطا، فيروزيّ اللّون. تكسّرتْ أشعّة الشّمس على قماشه النّاعم كما تتكسّر على صفحة بحر هادئ مطمئنّ. شعرها بلون حبّات القمح، متوسّط الطّول، يكاد يلامس كتفيها ولا يفعل وكأنّه يخشى عليهما من أيّ خدش بسيط. عيناها واسعتان بعمق اللّيل تعيش فيهما عفويّة وبساطة كنجمتين حائرتين. أنفها دقيق ومائل إلى الطّول، وشفتاها تقطران عشقا وشهوة ضاعفتْ من روعتهما عذوبة تلك البحّة المتدفّقة بينهما كنهر من الشاي الدّافئ. نهر مجنون يفيض بعدد أيّام السّنة، بعدد ساعات النّهار، بعدد دقائق السّاعة. نهر يفيض بين الثانية والثانية

فيجعل من اللّحظة زمنا بأسره. نهر يعيد بفوضويّته ترتيب التفاصيل العابرة للأيّام فيخلق منها عمرا يستحقّ الحياة! على سفح ذلك الجيد الأسمر المكتنز بالظمأ لقبلات من يقدّر أنّ الرّقبة هي محور المناورة مع جسد المرأة، أشعّتْ قلادة فضيّة بسيطة الشّكل تدلّى من وسطها أوّل حرف من اسم "روزيتا". كان الحرف في شكل قطعة صغيرة من الكريستال تموّجت بألوان مختلفة حسب زاوية انكسار أشعّة الشمس. في اللّحظات القصيرة التي كانت فيها روزيتا مشغولة بالحديث، كنت أختلس النّظر إلى ذلك الخطّ الدّقيق الذي يرسم تلاصق نهديها. كانت قد أخفته بمهارة فائقة، تاركة منه ما يكفي لإثارة الحواسّ الذّكريّة. ولكنّها فعلت ذلك بطريقة توحي لمن يتأمّله بأنّها لم تتعمّد الابتذال، وأنّ ظهوره لا يعدو أن يكون سهوة غفلت فيها الأنوثة عن طقوس الاحتشام. ولكنّني كنت أعرف أنّ الأمر ليس هفوة، بل هو إبراز متعمّد وذكيّ لبداية صدر شامخ. صدْرٌ رابض بجلال تحت قماش الفستان الطّويل النّاعم الذي استمرّ في امتداده الفيروزيّ ليعبر تضاريس جسدها الممتلئ في سرعة مجنونة. فجأة يقف الرّداء عند كعبيْن جميليْن أحاطت بأحدهما سلسلة فضيّة رقيقة. هناك لمحت حذاءها الأبيض الأنيق ذا الكعب العالي والفتحة من الأمام. كنت أعشق أصابع أقدام النّساء وكان ذلك أوّل ما استرقتُ النّظر إليه لكي يطمئنّ قلبي. أصابع رجليها دقيقة وناعمة، تألّقت أظافرهما -المقلّمة بعناية- تحت طلاء شفّاف، فبدت وكأنّها قطع نادرة من رخام. بين الحين والآخر كانت تهبّ نسمة خفيفة ومنعشة فيلتصق الرّداء بجسدها الخصيب ويتجلّى لي بكلّ تفاصيله الرّهيبة. ألمح لفترة خاطفة تلك المنحدرات الخطيرة فيذوب قلبي. بعد ذلك تعود النّسمة إلى الهبوب بشكل معاكس لتطمس تلك المعالم،

فتغيب وراء الفستان الأزرق كجنّة ضائعة في أعماق المحيط. أعود إلى لملمة ما تشتّت من تركيزي فلا أجد سوى ابتسامة مؤدّبة أواجه بها تينك العينين الذكيّتين. كان قلبي قد التفّ بخشوعٍ عميق كبّل مخارج النّطق عندي، فتبادلنا الصّمت الحائر لبضع لحظاتٍ. رفعتُ كوب القهوة الورقيّ عن المقعد وتناولته بكلتا يديَّ محتسيًا منه القليل. كانت حرارته قد أخذت في التلاشي تدريجيًا. أمّا الرّغوة بداخله فقد ذابت تماما ولم يعد لمذاق القرفة وجود أمام الطّعم المركّز للقهوة. اختلستْ روزيتا نظرة سريعة إلى ساعة يدها الرّقيقة ثمّ التفتتْ بعفويّة إلى جهة السكّة الحديديّة الشاغرة من العربات. لمع في رأسي بريق خاطف: "من الجائز أنها استبطأت قطارها، وهي الآن تستعجله بخواطرها ليُخلّصها منك!". ثمّ عدتُ لأُطمْئِنَ نفسي: "إنّها تخشى قدوم القطار قبل أن تتوصّل أنت إلى فكّ شفرة رسالة الاهتمام الّتي وجَّهتْها إليك. قل شيئا! افعل شيئا قبل أن يهجم قطارها بعجلاته الحديديّة على هذه السكّة الشّاغرة فيطحن آمال الحبّ في قلبك. هل تكونان في انتظار قطار واحد؟ آه لو كان الأمر كذلك، فسيكون تمديدا رائعا لوقت يدور الآن كطاحونة كهربائيّة ضدّك. ماذا دهاك؟ ما بك جامدٌ كأنّك قِطٌّ فاجأته أنوار سيّارة في الظّلام؟ أين لسانك الّذي يقطر شهدًا؟ قل شيئا يجعلها تبتسم! أنت ملك الدّعابة، فما بك جامدا في مقعدك وكأنّك نصف تمثال من الطّين!"

ضيق الوقت وضغطه الكاتم للأنفاس، ودوران عقارب السّاعة بسرعة المنشار الأسطوانيّ، كانا يفتّتان قلبي من القلق. ذلك الهبوب العنيف للدّقائق -عبر الصّمت الرّابض بيننا- كان كفيلا بشلّ طاقتي عن التّفكير. ولكنّ ذلك لم يدم طويلا. لضيق الوقت مفعول مغناطيسيّ

ساحر يجمع بجاذبّيته تبعثُر الأفكار ويلملم بسطوته ما تشتّت في أرجاء النّفس من كلمات. عندئذ يعود للإنسان تركيزه الضائع، وينجو في اللّحظات الأخيرة من الغرق في لجّة ارتباكه، وينطلق لسانه لاقتحام الأسوار. وضعتُ رِجْلًا على رِجْلٍ وأخذتُ رشفة ثانية من الكوب الدّافئ. امتزج طعم القهوة بطعم الورق المقوّى في فمي المطبق، ولم يكد السّائل الدّافئ يجتاز حلقي، حتّى انطلق لساني كالفرس الجامح ليقتنص فرصة الحبّ الأخيرة! وإذا بي....

استوقفت عيسى بسذاجة طفل ينصت إلى حكاية من حكايات جدّته:

- ولِمَ تقول فرصة الحبّ الأخيرة؟

أجاب دون تفكير، وكأنّ جوابه كان حاضرا في أعماق قلبه: "لأنّك تكون مستعدّا للموت مبتسما إن اقتنصتها، ومستعدّا للموت منتحرا إن أفلتت من بين يديك!"

علّقتُ مداعبًا: "أرى الآن سكّينا حادّة أمامك، وأراك قد استعملتها في تقشير البطاطس وتنظيف السّمك، أي إنّك لم تغمدها في صدرك بعد. إذن، أظنّ إنّك اقتنصت الفرصة أليس كذلك؟".

كانت سيجارة عيسى قد أوشكت على الانتهاء، مع أنّها لا تزال في توهّجها الهادئ بين أصابعه. امتصّ منها ما تبقّى من سموم، ثمّ عرّضها للحنفيّة الّتي كانت تقطرا ماءً فخمدتْ شعلتها لتصبح نقطة سوداء في يده. عندئذ، ألقى بها بين قشور البطاطس المتناثرة على كيس البلاستيك وأجاب بفخر:

-اسمع مافعله أخوك عيسى وستتعلّم كيف تذوّب امرأة بكلمة واحدة.

أنِصتْ وتعلّم، فقد تجد نفسك في يوم من الأيّام أمام "الفرصة الأخيرة" فلا تدري ما تقول أو تفعل! سترتعش أوصالك وتدور معدتك كطاحونة الهواء. سيقرع قلبك على جدار صدرك كطبّال إفريقيّ مجنون. سيُشلُّ لسانك وسيقطرُ عرقًا، وستنزلق عليه الكلمات ثمّ تتلاشى غير مسموعة في الهواء. عندها ستتذكّر ما قاله أخوك عيسى لروزيتا وستشكرني لأنّك لم تمت منتحرًا!

تملّكني الضّحك إلى درجة أنّني كدتُ أقع من الصّندوق الذي كنت أجلس عليه. عندما ثاب إليّ رشدي، كان عيسى لا يزال واقفا أمامي بابتسامته الدّافئة، ببساطته الواثقة، وبذلك المنديل الأبيض المتّسخ الّذي كان يرتديه بفخر. خيّل إليّ أنّني أجلس أمام أستاذ جامعيّ أغزر علما من كلّ معلّمي المدرسة. أولئك الّذين كانت يداي الصّغيرتان تتفجّران دمًا تحت مساطرهم أيّام الشّتاء الباردة. شعرتُ باحترام شديد له لدرجة أنّني سخِرتُ داخليّا من القدر الّذي نصّبني عليه مديرا في هذه الحانة. ولكنّني أعدتُ ذلك الشّعور إلى قراره السّحيق قائلا لنفسي: "إدارة الحانة تحتاج إلى ذكاء الشّوارع ولا علاقة لها بالجامعات ولا بالتّعليم!".

قلتُ له: "منك نتعلّم يا عزيزي عيسى! أخبرني إذن كيف أذبْتَ قلب روزيتا بكلمة واحدة، فقد أدعو لك بالخير والسّعادة في يوم من الأيام لأنّك مكّنتني من فرصة الحبّ الأخيرة!".

اتّسعتْ عينا عيسى وارتسمتْ على وجهه الأسمر أمارات التّحمّس، ثمّ أجاب وكأنّه يشرح معضلة معقّدة لجمع من الطّلبة:

- أتعلم يا عزيزي أمير ما نقطة ضعف المرأة؟

أجبتُ دون تردّد:

- جسدها طبعا!

- غير صحيح.

- إذن فوجهها بالتأكيد!

- أكبر خطأ!

نظرتُ إليه محاولا إخفاء موجة التبرّم الّتي بدأت تجتاحني من جرّاء هذا الاختبار السّخيف. لا أظنّني فكرّت يوما في جواب لهذا السّؤال، فأنا لم أعرف في حياتي سوى العاهرات. لذلك ماذا يهمّني من معرفة نقطة ضعف المرأة طالما هناك نساء يفتحن لي أفخاذهنّ عن طيب خاطر، مقابل حفنة من الأوراق الماليّة. قلتُ مصطنعا الحيرة:

- إذن فبالتأكيد هو المال!

أجاب متلذّذا بجهلي لأسرار الحبّ:

- غلط! وأكبر غلط يا عزيزي.

قلتُ بنبرة حاسمة:

- لا أعرف! اشرح لي إذن أيّها الخبير في أسرار بنات حوّاء..

هتف وكأنّه يعلن سرّا خطيرا لأوّل مرّة:

- اسمها!!

- اسمها؟!

- أجل... اسمها!

- لا أظنّني أفهم ما تقصد. أتعني أنّ نقطة ضعف المرأة هو الاسم الّذي أطلقه عليها والداها؟

- بالضّبط. ذلك هو ما عنيته!

أردفتُ مبتسما:

- لو لم أكن متأكّدا بأنّك لا تشرب الخمر ولا تتعاطى لفائف الحشيش، لجزمتُ بنّك "مسطول" يا عزيزي عيسى! أنت تمزح بالطبع.. أليس كذلك؟

أجاب وقد لملم شتات ابتسامته الدّافئة ليخفيها وراء نقاب شفّاف من الجدّية والحزم:

- بل أنا أعني ما أقول. أجل اسمها! إن أحسنتَ استغلاله، ستستطيع تحويله إلى شعلة تذيب قلبها كالشّمعة المعطّرة بين يديك. وإن ذاب القلب، فسيتبعه الجسد. وعندما يمتزج الاثنان، تصبح النّشوة حقيقيّة.. دائمة الاشتعال!

- اللهّ.. اللهّ، عدت إلى الشّعر يا عيسى. اسم المرأة شيء خطير إذن! كلّي آذان مصغية يا صديقي، فأنا لا أفهم شيئا ممّا تقصده. أنتظرُ شرحك أيّها الخبير بأسرار قلوب النّساء!

- طبعا خبير بخفايا قلوب النّساء. ذلك أمر لا ينازعني فيه أحد! ولكن في الحقيقة ليس هناك سرّ في هذا الأمر البتّة. الحكاية أبسط من ذلك بكثير.

- اللهّ.. اللهّ، شيء من التواضع أرجوك يا صديقي! فقد خبِرْتُك ملكا للدّعابة والنّكتة، واليوم أكتشف أنّك شاعر حسّاس. وهأنذا أكتشف

فيك أستاذا في فنون العشق والغرام. إذن فاسم المرأة هو الطّريق إلى قلبها وجسدها، وتقول إنّ الأمر ليس معقّدا.. أليس كذلك؟

- أجل.. بسيط جدّا!

- أقسم برأس أمّي "الحاجّة" أنّك مجنون!

- طبعا مجنون! المجانين هم الّذين يرون الأشياء على حقيقتها. هم الّذين يلمحون القوّة في أبسط الأشياء، وهم الّذين يرونها كما تريد قلوبهم أن تراها.. لا كما يزيّنها لهم الآخرون. على كلّ حال، إن كان أغلب النّاس ليسوا مجانين فهذا لا يعني بالضّرورة أنّهم عقلاء. أترى أنّه من العقل أن يدفع أحدهم مبلغا باهظا من المال من أجل لذّة تدوم أربع دقائق وهو يعلم أحقّ العلم أنّه قادر على استحضار نفس اللّذة براحة يده اليمنى وبشيء من رغوة الصّابون؟

- رغم أنّني لا أفهم ما تقصد، إلاّ أنّني سأجيبك عن هذا السّؤال.. لأنّ الإجابة واضحة.

- تفضّل أجبني!

- لأنّه يريد أن يقبّل شفتين ويلمس نهدين. لأنّه يريد أنّ يعضّ ردفين ويمرّغ وجهه فيما بين الفخذين!

- العاهرات لا يقبّلن أحدًا، لأنّ تجارة الحبّ ليست صناعتهنّ. هذا أوّلا!

- وثانيا؟

- ثانيا، الجسد الّذي يُبسَطُ أمامك كوليمة من البلاستيك

ثمّ يجمع شتاته ليبسط نفسه أمام غيرك بنفس الثمن هو أخفتُ نبضا من راحة يدك اليمنى. وعلى كلّ حال، رائحة الصّابون أعطر من رائحة البلاستيك، هذا إذا كانت للبلاستيك رائحة!

- فهمنا يا أستاذ عيسى.. فهمنا! أنت لست من هواة العاهرات!

- ليس ذلك ما أقصده. ما أريد قوله هو أنّ لذّة الوليمة تكمن في أنّها جُهِّزتْ لك خصّيصًا!

- لقد ذهبتَ إلى البعيد.. البعيد يا صديقي. ألا تعود بي من الحديث عن العاهرات لكي تشرح لي كيف أذبتَ قلب روزيتا بكلمة واحدة!

أجاب وقد تهلّلت أساريره، واسترخت قسمات وجهه مفرزة ابتسامة هادئة أخفت بين طيّاتها نشوة الذّكرى القريبة:

- عندما يداهمك الحبُّ دون سابق تمهيد كرسالة عاجلة تطلب الردّ الفوريّ. وعندما تهُبُّ جيوش العشق على أراضي قلبك الجرداء كسرب من الطّائرات دون صفّارة إنذار، فإنّك تجد نفسك راكضا في العراء دون وجهة أو مأوى يحميانك من دويّها الرّهيب بسطوته. وتظلّ رياح الحيرة تتقاذفك على كلّ الدّروب وأنت هائم على وجهك لا تدري أتدفن نفسك في باطن الأرض إلى حين انتهاء المناورة الخطرة..أم ترفع يديك إلى الأسراب المحلّقة في السّماء لتناديها بأعلى صوتك أن تحطّ على جزيرتك القاحلة فتحملك معها في رحلتها المجهولة! ذلك هو حال الحبّ عندما يباغتك من أعالي السّماء يا عزيزي. هناك من يخال نوره صواعق محرقة فيركض جزعا طالبا الاحتماء بصخور واقعه الرّتيب، وهناك من يحدّق في ذلك القبس العلويّ طالبا الدّفء لعينيه وقلبه وعقله. وطبعا أخوك

عيسى لم يخش وهج النّور بقدر ما كان يخشى سحابة الوقت المقبلة نحوه بسرعة قاتلة وملوّحة بظهور قطار روزيتا في أي لحظة. قطار قد يحمل ذلك الوجه السّاحر وذلك الجسد الّذي يقطر أنوثة على سكّة زمن لن يعود. كانت هي لا تزال منتصبة أمامي، بردائها الأزرق في لون البحر، بابتساماتها الهادئة، وبتلك البحّة الدّافئة الّتي كانت تموّجاتها تخدّر أعصابي بنشوة خفيّة. وضعتُ رجْلًا على رِجْلٍ، واختلستُ رشفة سريعة من كوب القهوة الورقيّ قبلَ أن أبادرها بهدوء ماكر:

- روزيتا اسم جميلٌ ورقيق.. أتعرفين معناه؟

توشّح وجهها بمسحة لطيفة من الخجل سرعان ما تبدّدت بين ثنايا ابتسامتها النّاعمة وهي تجيبني:

- شكرا على الإطراء، ولكنّني لم أفهم سؤالك!

أجبتُ بنفس النّبرة الواثقة:

- أعني.. هل لاسم "روزيتا" معنًى محدّد؟ لا شكَّ في أنّه اسم ذو إيقاع حلو على المسامع والآذان. ولكن هل له مدلول معيّن في اللّغة الإسبانيّة أو في غيرها من اللّغات؟

- سؤال غريبٌ لم يسبق وأن طُرِحَ عليّ من قبل، ومع ذلك فسوف أجيبك بكلّ سرور!

- كلّي شوق لمعرفة الجواب!

- "زهرة رقيقة الجسم". ذلك ما يعنيه اسم "روزيتا "..على حدّ علمي.

- وهل ترين أنّ هذا الوصف ينطبق عليك... وأرجو الاّ تسيئي فهمي طبعًا!

تسللّتْ الحيرة إلى عينيها الجميلتين لمدّة لا تتجاوز بضع ثوان. لم أكد أتلذّذ بمرآها، حتّى عاد الكبرياء والبساطة إلى التّعانق في عمق حدقتيها السّوداوين من جديد:

- أنا لا أسيء الفهم بهذه السّهولة، ولذلك سأردّ على سؤالك بسؤال مثله: هل ترى أنت أنّ وصف الزّهرة الرّقيقة ينطبق عليَّ؟

"قطّة ناعمة وبارعة! تتقن فنّ القفز فوق الأسئلة المباغتة. هي تواجهك على الملعب الآن، وتلقي بكرة الصّوف إليك يا عيسى.. فماذا أنت فاعل؟".

أجبتُ دون تردّد:

- طبعا لا.

- طبعا لا؟ ضحكتْ وكأنّها لم تأخذ جوابي مأخذ الجدّ، ثمّ استمرّتْ في الكلام وقد غيّرتْ من وضع وقوفها كمتنفّسٍ سريّ لإخفاء موجة ارتباك مفاجئ:

- أظنّني سأبدأ بإساءة فهمك! إذن أنت تجزم بأنّ وصف "الزّهرة" لا ينطبق عليَّ. أتعني...

قاطعتُها بلطف:

- أعني أنّ الزّهرة تذبل..وأنا لا أرى ذلك فيك!

أجابت بنظرة ذات معنى:

- ألم أقل لك إنّك تتقن فنّ الردّ السّريع!

- من لا يقول الحقيقة، عادة ما يتباطأ في الردّ.. أليس كذلك؟

أجابتْ مشاكسة:

- هناك كذّابون محترفون!

- لستُ واحدا منهم..

- أمتأكّدٌ أنتَ من ذلك؟ أجابتْ وقد تأهّبتْ نبراتُ صوتها لمبارزة جميلة رسم قواعدها تأخُّرُ قطارين في محطّة أصبحت شاغرة إلاّ من عينيها....

- إن كان يرضيكِ أن أكون كاذبا في حقّ اسم لا يليق بجمالك، فكوني متأكّدة أنّ هذا الأمر لا يرضيني!

أجابت مرتبكة:

- إطراء جميل للمرّة الثانية.. أشكرك!

- لا شكر على "حقيقة". والآن وجب عليَّ أن أجد اسما يتحدّث عنك بوضوح أكثر. اسم يلتقط جمالك كصورة فوتوغرافيّة من النّوع الرّاقي!

أجابت مستوضحة بصوت يقطر دهاءً أنثويّا:

- من واجبك؟!

- طبعا من واجبي! فأنا من هواة جمع الأسماء.. ومن مدمني تصنيفها بأناقة.

- تعني.. كهواة جمع الطّوابع البريديّة!

- تماما. فأنا أحبّ الأشياء الّتي تسمح للأشواق بالسّفر. لذلك، فأنا من هواة جمع الطّوابع البريديّة أيضًا!

.. ذبذبات لا مرئيّة أخبرتني أنّ حريق الرّغبة اشتعل بداخلها أخيرا. قالت وقد أخذتْ بحّتُها نبرة ملوّنة فيها الكثير من "أريدك حالا"

- لا أرى تشابها بين الطّوابع البريديّة والأسماء!

أجبتُ مُلاعِبًا حريقها بقطرة من بنزين الإثارة، تلك الّتي يُحدثها جواب مقتضب.. مؤجّل البوح كسرّ مُعَتّق.

- التّشابه واضح!

أجابت:

- لا أرى وجها للتّشابه على الإطلاق!

... لا حظتُ أنّ صوتها قد ألقى بَحّتَهُ أمامي كخيط رفيع من ذرّات البارود. في تلك اللّحظة الحاسمة، شرعتُ رويدا في إشعاله ذرّة تلو الأخرى.

- ألا تفكّرين بالأمر بتمهّل أكثر، عساك تعثرين على وجه الشّبه؟

.. وكان الصّمت منها. وتينك العينان تضرمان في عينيّ عتابا. وأجد نفسي متلذّذا بمشاهدتها كمدينتين تحترقان في عتمة اللّيل. أجلس كذاك الملك الرّومانيّ القديم الّذي تعوّد إتلاف الأشياء العظيمة للتّسلية، أو ربّما لإقامة أوّل مدينة للبكاء!

- أمير، أسمعت عن ذلك الملك؟ اسمه "نيرون"، وقد أحرق مدينة

بأكملها ليضحك!

.. تململتُ في مقعدي وأومأتُ برأسي علامة النّفي. بعد سنوات عديدة، تذكّرتُ اسم ذلك الملك الرّومانيّ وصوتَ عيسى وهو يروي لي حكايته مع روزيتا. كان اسم نيرون مطبوعا في ذاكرتي، وهو أوّل ما فتح لي شهيّة التعلّم من جديد. لذلك قرّرت أخذ بعض دروس اللّغة الفرنسيّة في مونريال بغاية قراءة أوّل كتاب للتّاريخ لأعرف قصّته، ولأثبت لمعلّمي مدرسة القرية ولسي الهادي بأنّني لستُ غبيّا. ولكنّني اكتشفت فيما بعد أنّ غبائي كان مؤكّدًا وذلك لاعتقادي آنذاك بأنّ مونريال، تلك المدينة التي تحترف منح المهاجرين كلّ أصناف الدّروس اللّيليّة، كانت قادرة على منحهم عملًا لا تنبعث منه رائحة الأكل أوّ موادّ التنظيف أو روائح بنزين سيّارات الأجرة.

استطرد عيسى:

- نيرون أحرق مدينة بأكملها.. ليضحك، وأنا أشعلتُ قلبها بحتميّة وجود اسم يُشبهها.. لأعشق! من قال إنّ إضرام الحرائق مدمّر؟ ما رأيك يا أمير..هه.. ما رأيك؟ أجبته قافزا فوق سؤاله إلى الضفة الأخرى من الحكاية:

- روزيتا معها حقّ. فما وجه الشبه بين الطّوابع البريديّة والأسماء؟

ردّ بهدوء:

- سأمنحك نفس الجواب الّذي تعمّدتُ به إيقاظ شهوة روزيتا لمضاجعة اسم جديد يشبهها أكثر. الأسماء يا عزيزي كالعطور تماما، هناك دائما تلك القارورة التي تعثر عليها مصادفة فتصبح رائحتها

هي إمضاء وجودك في مكان ما.. كما هي إمضاء غيابك عنه.

علّقتُ مبتسما:

- وماذا كان جوابك؟ أخبرني.

أجاب بذات النبرة الهادئة:

- كنتُ قد أدمنتُ تلك البحّة المتدفّقة من صوتها، ولذلك فقد كان في صمتها من الاستفزاز ما يكفي لقتلي ألف مرّة. صمتها كان زئبقيّا، متمرّدا وذكيّا في ذات الوقت. وكدتُ - أنا الكائن الذي لا يتنفّس إلاّ عبر الحروف والكلمات - أن أغرق في لجّة سكوتها البارد. كان ذلك عقابا عادلا على تلذّذي بمشاهدة العتاب وهو يحترق كالبخور في عينيها. صمتها كان مدينة ثلجيّة، إن قرّرتَ التسلّي بإحراقها، ذابت فوق جسدك وجرفتك إلى البعيد كالطّوفان. إشارة مرور حمراء كان صمتها، يضعُكَ بوضوحه المتوهّج أمام خيار التوقّف عنده احتراما لقوانين الحوار أو اختراق حاجزه استعجالا للحبّ! كنتُ سائقا حذرًا، يخشى أن تُسْحَبَ منه رخصة قيادته العشقيّة فيُكْتَبَ عليه السّفر حافي القدمين وراء امرأة لا يعرف لها عنوانا أو رقم هاتف. لهذا، فضّلتُ الخيار الثالث. اخترتُ أن أتمهّل في القيادة لأتوقّف هنيهة أمام ضوء سكوتها ثمّ أنحرف بالكلام يمينا إلى زاوية هادئة النّور، ألتقط فيها أنفاسي قبل أن أعيد سباقي اللاهث مع الزّمن ومع قطارها الذي لم يظهر بعد. سباق نحو رقم هاتف أو عنوان قد يؤمّنان لي رؤيتها من جديد دون أن يكون الانتظار ثالثنا. انحرفتُ يمينا مع صمتها ودعوتها بأدب إلى الجلوس. بكلّ احترام أفسحتُ لها مجالا على المقعد الخشبيّ متعمّدًا إظهار مسافة الأمان الضامنة لها بأن لا تلاصق لجسَديْنا هذا اليوم. تردّدتْ لحظة ثمّ

لبّتْ طلبي بخجل خفيّ، وإذا بها تحاذيني بفستانها الطّويل كنبع أزرق. نبع أجلس على ضفّته دون أن أعرف لمذاق مياهه طعما. أجّلتُ ظمئي، وقلتُ مواصلًا حديثنا وكأنّ صمتًا لم يكُن:

- أتذكرين آخر مرّة كتبتِ فيها رسالة؟

أجابت دون أدنى محاولة لإخفاء لاندهاشها:

- رسالة؟!

- أعني بالتحديد، هل تذكرين آخر مرّة ألصقتِ فيها طابعا بريديّا على ظرف رسالة ما؟

- أوه.. كان ذلك منذ زمن بعيد.. بعيد جدّا!

أجبتُ مستحثّا إياها على التذكّر:

- منذ سنة؟ منذ سنتين ربّما؟

أومأتْ نافية:

- لا، أبعد من ذلك بكثير..

ثمّ استطردَتْ بابتسامة تشي باستحضارها لأيّام حلوة مضت:

- منذ زمن بعيد لم أكتب خطابا لأحد! منذ أيّام المراهقة عندما كنتُ تلميذة في أحد المعاهد الخاصّة في المغرب. كنت أتبادل الرّسائل مع صديقة لي ممّن نطلق عليهنّ اسم "صديقات المراسلة".

قاطعتُها مستوضحا:

- المغرب؟

- نعم، فقد كان والدي ملحقا بسفارة إسبانيا هناك. أمّا والدتي، فقد كانت تدرّس اللّغة الإسبانيّة في إحدى المدارس الثانويّة.

- لهذا السّبب تتكلّمين العربيّة إذن؟

أجابت مازحة:

- بل قل أتكلّم ما أتذكّر منها. فقد عشتُ في الرّباط من سنّ الخامسة إلى سنّ السادسة عشرة حيث ألحقني والدي بإحدى مدارس الجالية الإسبانيّة. كانت العربيّة إحدى الموادّ الاختياريّة التي تدرَّسُ فيها، هذا إلى جانب لغتي الأمّ طبعا! وقد أصرّ أبي على أن تكون هي اللّغة الثانية الّتي أتعلّمها. كان يقول لي: "الإسبانيّة هي لغتك الأمّ، ولهذا فإنّك ستتقنينها حتما. وعندما يحدث ذلك، فقد ضمنت الإيطاليّة والفرنسيّة وغيرها من اللّغات اللاّتينيّة. أمّا العربيّة، فهي الكنز الذي لن تحصلي عليه إلاّ هنا.. فلا تضيّعي الفرصة! وهأنذا اليوم أحاورك بما تبقّى لي من ذلك الكنز لأوّل مرّة منذ سبع سنوات.. عُمر آخر يوم لي في الرّباط!

- ولِمَ عُدتم إلى إسبانيا؟ أقصدُ.. هل انتهت فترة عمل والدك هناك؟

- بل انتقل هو إلى سفارة إسبانيا في مصر بحكم إتقانه للّغة العربيّة طبعا. أمّا أنا فقد عدتُ إلى برشلونة مع والدتي الّتي أشرفتْ على التحاقي بمعهد التمريض. التخفيف عن آلام المرضى كان حلم الطّفولة الّذي كبُر معي ولم يتغيّر.

- شيء جميل أن يكبر الإنسان مع حلمه بدل أن يتركه بعيدا ويرحل!

لم تجب هي بكلمة، وبدا على قسماتها شرود أنيق. توقّفتْ بحّة صوتها عن التدفّق الدافئ عبر أذنيّ وعادت برودة الصّمت إلى الجلوس بيننا.

فجأة، لمحتُ شبح قطار يتهادى من بعيد. تمعّنتُ في رقمه مرعوبا وأدركتُ بسرعة أنّه لم يكن رقم قطاري. تطلّعتْ روزيتا إلى الرّقم في برودٍ فهمتُ منه أنّه لا يخصّها كذلك، وأدركتُ لأوّل مرّة أنّ للوقت عفوًا عند المقدرة. تأخّر قطارها وقدوم قطار لا يعنيها، كان مصادفة تتشابك مع فرصة لتعطياني مهلة. مهلةٌ للعشق المرتجف تحت خناجر وقت ضاق صبره بتماطلي في استدراج رقم تليفون منها. شكرتُ للوقت منحه إيّاي تلك الفرصة الأخيرة، وعلى صرير عجلات القطار المتوقّف أمامنا سألتها:

- إذن فآخر رسالة كتبْتِها كانت في المغرب؟

- بل قل كانت من المغرب، أو بالتحديد من المغرب إلى إسبانيا. كما سبق وأن ذكرتُ لك، فقد أقمتُ علاقة مع صديقة عبر المراسلة وكان والدي يشجّعني على هذه الصداقة كتمرين تطبيقيّ على تبادل الأفكار باللّغة الإسبانيّة.

- إذن فمغربيٌّ هو آخر طابع بريد رحل برسالة منك إلى شخص آخر.. أليس كذلك؟

أجابت باقتضاب:

- نعم!

ثمّ أضافت باستغراب وهي تمسك بطرف ثوبها الأزرق فور ما تسرّبت لرفعه نسمة طارئة:

- ولم سؤالك عن الرّسائل.. وعن آخر طابع بريديّ ألصقتُه على ظرف؟

- لا شيء سوى أنّني أجد راحة في الحديث عن الأشياء الملوّنة، وخاصّة تلك الّتي خُلقتْ للتّجميع والتصنيف؟

- كالدّمى النّادرة والتحف القديمة مثلا؟

- تلك أشياء قابلة للبيع والمزايدة، وذلك ما يحدّ من شغفي بها. الشيء يفقد بريقه بالنّسبة لي فورما ألمح إلى جانبه بطاقة تعلن ثمنه!

- مهما كان الثمن؟

- مهما كان الثمن! ولهذا السّبب بالذات أنا أهوى تصنيف الطّوابع البريديّة في ألبوم أنتقي جودة صفحاته بعناية. أحبّ رؤية تلك الكائنات الضئيلة الملوّنة التي كان لها يوما شرف النّفاذ بأشواقنا عبر القارّات دون أن تسأل، وكانت لها جسارة العبور بأحزاننا عبر المحيطات دون أن تدمع. أحبّ رؤيتها إلى جانب زميلاتها في حضن ألبوم هادئ كمجمَّع بُنِيَ خصِّيصًا من أجل راحة المتقاعدين. للطّوابع البريديّة سيرة مهنيّةً تتكوّن من رحلة واحدة لا رجعة منها. رحلة حبّ وشوق وجمال يقوم بها الطّابع الوفيّ على أكمل وجه، ورغم ذلك فمعظمنا يعامله كما يعامل كلّ يوم جديد في الحياة، نلقي به في سلّة المهملات دون التمتّع للحظة بزخرفة ألوانه السّاحرة.. في انتظار رسالة أخرى.

- أنت إذن على علاقة خاصّة جدّا مع الطّوابع البريديّة؟!

.. سألتْني دون أن ترفع أناملها السّمراء عن قماش فستان ترصّدَتْهُ أنفاس النّسيم تواطئا مع أنفاسي لإحداث عُرْيٍ عفويًّ خفّفَ عن حواسيّ شراسة هجوم عطرها الباريسيّ الأنيق.

أجبتُ مباغتا:

- ومع الأسماء أيضا!

- ولكنّني كما سبق أن ذكرتُ، لا أفهم وجه التشابه بين الاثنين؟

نظرتُ في عينيها. في عينيها فقط. لم يكن لي الخيار أن أفعل غير ذلك. لم يكن بمقدوري أن أتطلّع إلى وجهها ككلّ، فاخترتُ أن أبدأ بعينيها. كغابة من الأسرار الخطيرة كان وجهها، وكان عليَّ التعامل مع سحره شفرة.. شفرة. كان من المفروض أن أتعامل مع قسمات وجهها كما يتعامل معظم البشر مع مجموعة من المسائل الحسابيّة. كان عليَّ أن أبدأ بالمسألة الأقلّ تعقيدا. أن أبدأ بذلك السّؤال الذي يهديه المدرّس لطلاّبه في بداية ورقة الامتحان لرفع معنويّاتهم نحو مسائل تالية أكثر شراسة. ولكنّني اخترتُ السؤال الأصعب.. السؤال الأجمل. اخترتُ عينيها.. وفي معضلة سوادهما غرِقْتُ. كنتُ أشْبَهَ بطالب دخل غرفة امتحانه متأخّرا فوجد نفسه أمام حصار الوقت، ووجد نفسه متّجها - دون خيار - نحو السؤال الأخير.. ذلك الذي يهدي النقاط الكافية لاجتياز المادّة..وهو عادة ما يكون السؤال الأعسر حلاّ. قلتُ في نفسي: "عيناها.. آه من ذلك السّواد الرّائع.. وآه من ذلك السّؤال المتربّص بك في آخر ورقة للحبّ. إن اجتزْتَهُ، اجتزْتَ الامتحان كلّه. وإن خانكَ الحظّ، فسيكون لك شرف الرّسوب في سنة عشقيّة غير قابلة للإعادة!". عيناها اخترتُ، وفي عمق سوادهما غمستُ ريشتي وكتبتُ عليهما حلاّ صامتا يتألّف من كلمة واحدة: "أحبُّكِ!". لم يكن بإمكاني التلفّظ بذلك الحلّ لأنّ الامتحان لم يكن شفاهيّا. كان امتحان الحروف المكتوبة بالنظرات. موضوعه امرأة، ولجنته متألّفة من محطّة وقطارين. اخترتُ ألاّ أقول أحبّكِ لأنّني كنتُ واثقا من ردّها الّذي سيكون حتما:

"أنت لا تعرفني.. فكيف لك أن تحبّني!"، لذلك لم أكن على استعداد للخوض في متاهات تبرير تناسق الكلمة مع حجم الموقف. ففي إسبانيا كما تعلم، بل في معظم بلاد الغرب، من الغباء أن تصرّح بحبّك لفتاة أوّل ما تصادفها. خلال لقائكما الأوّل، عليك أن تحادثها عن الأشياء العامّة وعن تفاهات الأحداث اليوميّة. من المهمّ جدّا أن تضحكها خلال أوّل لقاء، فعلى المرأة أن تضحك من أجل أن تمنحك فرصة اللّقاء الثاني. وعندما يحين ذلك الموعد، يمكن لك أن تدعوها إلى فنجان قهوة أو ربّما إلى عشاء خفيف في مطعم منزو. ليلتها، قد تسمح لك -وهي الّتي نامت مع عشرين رجلا قبلك- أن تمسك يدها دون تشابك للأصابع، وقد تتجوّلان كذلك على الأرصفة اللّيليّة أو على ضفّة نهر. في اللّقاء الثالث، وهو الحاسم في رأيي، عليك أن تدعوها إلى شقّتك لمشاهدة فيلم فيديو مع شيء من المحّار والنّبيذ الجيّد. يومها ستنام معك بالتأكيد، وعلى ضوء حجرتك الخافت، سيكون جسدك مهرجانا لاستعراض خبرتها رغم أنّها ستصرخ وكأنّك خاطف عذريّتها. بعد ذلك، ستتقاسم معك سيجارة وهي نائمة نصف عارية على صدرك، وسيكون مسموحا لك أن تقول لها حينئذ: "أنتِ تروقين لي كثيرا!". ستبادلك هي نفس الجملة، ثم ستقفز عارية لتأخذ حمّاما سريعا تغادرك إثره لأنّ الوقت تأخّر!

في اللّقاء الرّابع والخامس والسادس، بل على امتداد الأشهر الّتي تتوالى، عليك أن تنام معها وتشبع شفتيك ولسانك من جسدها دون أن تتجاوز حدود الإعجاب بشخصيّتها وبإمكانيّاتها في الفراش. حذار أن تقول: "أحِبُّكِ!". ستظنّ أنّك طفلٌ متسرّعٌ يبحث عن أوّل صدر ناهد يغرس على ضفافه كلّ عُقدِه النّفسيّة. خلال تلك الأشهر، عليك

أن توضّح لها طبيعة العلاقة التي تربطك بها وهي عادة ما تكون علاقة من صنف "صاحب وصاحبة". أيّ إنّكما رفيقان في البحث عن المتعة المشتركة، وفي ارتياد البارات والمقاهي والمطاعم. ذلك سيجعلها ترتاح لك كثيرا، وفي خيالها ستؤلّف من طبعك الرّصين الهادئ مشروع حلم بزواج مستقبليّ، حلم بأولاد وببيت جميل في ضواحي المدينة يحيط به سور خشبيّ أبيض. ولكنّ الزّواج لا يتمّ إلاّ إذا كان هناك حبّ! ستستبدّ تلك الفكرة بعقلها بعد ما يقارب السّنة من اللّقاء الأوّل. وستصبح هاجسًا ناخرًا لتلافيف دماغها الأنثويّ المعقّد، ومن الأكيد أنّه سينثر شيئا من الفتور على الملاحف البيضاء وشيئا من الخفوت بين مصابيح غرفة نومك. بل من الأكيد أنّه سيستقطر بعض الدّموع الغامضة من عينيها بعد أن تنتهي عمليّة ارتقائها إلى القمّة المجنونة لنشوة الجسد. وفي ليلة، وعندما تعود إلى صدرك بعد أن يخفت وهم اللّذة. سترفض نصف سيجارتك وأنت تسألها "لِمَ تبكين؟" وستجبك: "لا شيء!". تلك هي اللّحظة الحاسمة الّتي يجب أن تقتنصها، لتعلن لها حبّك. كلّ شيء هنا له توقيت ومراحل تطوّريّة.. حتّى كلمة: "أحبّك"! تلك الكلمة التي خُلِقَتْ من أجل أن تلفظ بصوت عال، سواء شعرتَ بها في أوّل لحظة من اللّقاء، أو بعد سنة من الجماع. تلك الكلمة لها أصول وبروتوكولات محدّدة في أوروبّا يا عزيزي أمير!

قاطعته ضاحكا: لذلك فإنّي أفضّل العاهرات يا عزيزي عيسى. لا أصول، ولا بروتوكولات. شيء من المال، ربع ساعة.. وينتهي كلّ شيء.

أجاب ضاحكا: بل قل لهذا السّبب بالتحديد يكون أصعب تحدّ لأيّ رجل هو إيقاع عاهرة في حبّه!

- لماذا؟

- لأن العاهرة تبيع جسدها يأسا من الحُبّ. على كلّ حال هذا موضوع ثان، المهمّ هو أنّني غصتُ في عينيّ روزيتا كمن يغوص في أعماق ليل هادئ دون أن أقول "أحبُّكَ" احتراما لقوانين وبروتوكولات الحبّ في أوروبّا. قلتُ لها أحبّك بعينيَّ محتميا وراء النّقاب الفاضح للصّمت، حتّى لا تتّهمني بقول حقيقة ليست في "وقتها المناسب"، أو بالأحرى حتّى لا تظنّ أنّني أوزّع هذه الكلمة كالفطائر الساخنة على كلّ من أصادف من النّساء. قرّرتُ تأجيل تلك الكلمة لمدّة سنة من أجل أن أكتسب احترامها لتوازني كرجل، ومن أجل إيهامها بأنّني أحترم قوانين التحاور مع المرأة. كلّ ذلك كان بقصد التحصّل على رقم هاتفها من أجل مواعيد لاحقة. مواعيد عزمتُ على تصفيفها بعناية لأبني لهذه المرأة الرّائعة سنة من الإعجاب، يصبح مباحا لي بعدها أن أقول "أُحِبُّكِ" دون أن أُتَّهَمَ بالكذب.

أظنُّها قرأتْ كلمة "أُحِبُّكِ" في عينيَّ، ولكنّها حوّلتْ نظرها عنّي متذرّعة بأنّ لغة العيون لم تكن تُدَرَّسُ في المعاهد الخاصّة الّتي كانت ترتادها في الرّباط. "باللّغة العربيّة سأهمس لك أنّني أحبّك، ولكن بعد سنة. ذلك وعد منّي!". غيّرتُ ذبذبة نظراتي كمن يغيّر محطّة في مذياع، وعندما استقبلتُ عينيها وهما تعودان إليَّ.. كنتُ على أتمّ الاستعداد لإجابتها عن سؤالها. تناولتُ رشفة من قهوتي الباردة وقلتُ:

- تريدين فهم التشابه بين الأسماء والطّوابع البريديّة؟

- بالتأكيد!

- خلل التطّابق بين الشّكل والمضمون. ذلك هو وجه الشّبه!

- لا أفهم ما تقصد!

أجابتْ برصانة دون أن ترفع عينيها عنّي، ودون أن يفلح الهواء في رفع ثوبها مرّة ثانية إمعانا في تعذيبي.

أجبتُ مبتسما:

- أنا لا أشكُّ في ذكائك!

قالت وقد ارتدّت موجات النّسيم عن سواحل ثوبها الأزرق لتداعب خصلات شعرها المصبوغة بأشعّة الشّمس. بدا لي شعرها كسنابل قمحيّة في قيظ يوم صيفيّ:

- أنا لا أشكّ في ذكائي.. فقط أريدك أن توضّح المعنى أكثر.

أجبتُ محافظا على هدوئي وعلى توازن ابتسامتي كي لا ترتجف إعجابا بكلماتها الواثقة:

- اسمي "عيسى". هل لكِ علمٌ بمعنى هذا الاسم؟

قالت ملتحفة بجماليّة الهدوء:

- أظنّه اسما عربيّا للمسيح أليس كذلك؟

- بالضّبط!

ابتسمَتْ، ولم تقل شيئا. فقط لمعتْ عيناها ببريق فضيّ كنجمتين في سكون ليل بعيد. كانت تنتظر منّي توضيحا، راسمة بالصّمت علامة استفهام جميلة، تؤكّد لها صحّة استنتاجها بأنّنا قد نُسَمَّى على أسماء الأنبياء ولكنّ معظمنا بعيد كلّ البعد عن روحانيّاتهم.

ذرّات الهواء الّتي استبدّت بسنابل شعرها كانت تسبح بمرح حول الفضاء الصّغير الفاصل بيننا. فتحتُ فمي قليلا لعلّ البعض منها يتسرّب عبر شفتيَّ فأتذوّق طعم القمح. كنتُ في حالة بَحْثٍ عن تعريفٍ مذاقيٍّ للحبّ. كنت في حاجة لمحاصرة طعمه بلساني بدل أن أفني عمري بحثا عنه بين صفحات دواوين الشّعر القديمة. صمتها كان جميلا هذه المرّة، متواطئا ولذيذا كبحّة صوتها. قليلا ما يأخذ الصّمت شكل الكلمات. قليلا ما يكون لغياب الكلام دويَّ الأجراس المقدّسة. مدروس بعناية كان أسلوبها في التوقّف عن الحديث، معبّر بقوّة وحاسم بدويّه. على قدر المساحة الضيّقة لصمتها، اخترتُ كلماتي كما ينتقي فنّان ألوانا ما لرسم فكرة معقّدة على رقعة صغيرة من الحرير. رقم تليفون روزيتا كان بالنّسبة لي الشفرة السريّة لفتح نافذة سحريّة تطلّ على فردوس ضائع اسمه "معنى الحياة". ذلك الّذي نُفْنِي أعمارنا تنقيبا عنه في المجلّدات والأسفار، فنتعثّر به مصادفة في ابتسامة طفل فقير قد نهديه أوّل لعبة عيد، أو في دعاء متسوّلة قد نجود عليها بثمن قهوتنا الصّباحيّة لتشتري هي به خبزا. ذلك المعنى المتجدّد الّذي قد نلمحه في تفتّح وردة بيضاء وهي تغتسل بندى الفجر، أو في رفرفة جناح طائر نورس وهو يعبر البحر جنوبا مع أوّل خيط لشعاع الشّمس. ذلك المعنى الّذي يعيش بين أرقام هاتف امرأة أهداها لك تأخّر قطار، أو في محطّة حوار معها قبل أن تتوارى عنك في آخر عربة للذّكرى. كفرشاة مبلّلة بالألوان نثرتُ كلماتي على المساحة النّاعمة لصمتها:

- منذ ثلاث سنوات، فتحتُ صندوقي البريديّ لأجد ظرفا قابعا في عتمته الصّدئة. حدث ذلك عصر يوم شتائيّ بارد هطلتْ فيه الأمطار

بعنف، والتحفت البنايات برداء أزرق من الكآبة الصّامتة. في تلك الفترة، كنتُ أقطن شقّة متواضعة في إحدى الضّواحي البعيدة. لم يكن قد مضى على وصولي إلى إسبانيا سوى بضعة أشهر، وكان طقس ذلك اليوم يشبهني إلى حدّ بعيد. ذلك مسكن لن يفارق ذاكرتي ما حييت، فالأوّل من كلّ شيء يحمل في قلوبنا لونا أجمل من شحوب الذاكرة. لون من تركيبة خاصّة، مزيج مضادّ لمفعول الأيّام والأعوام. وَشْمٌ عنيدُ الألوان.. ذلك هو الأوّل من كلّ شيء. وَشْمٌ رماديٌّ على القلب هو لون أوّل طائرة تحطّ بك في مطار أوّل سفر. وَشْمٌ ذهبيٌّ هو أوّل عمل يفتح لك ذراعيه على بعد أميال من شمس قريتك. وَشْمٌ بنفسجيٌّ هو أوّل سَكَنٍ تقطنه مع أوّل صديق لك على آخر منعطف من الغربة. صديق صوماليّ طيّب القلب. قابلته في أحد مقاهي برشلونة مصادفة فعرض عليّ بحكم طبعه القرويّ الصّافي أن أقاسمه شقّته دون المساهمة في دفع الإيجار، إلى أن أعثر على شغل. كان اسمه "عبدو" ولكنّه كان حرّا ومنطلقا، متآلفا مع نفسه ومع الحياة بكلّ مرتفعاتها ومنحدراتها. كان يعيش الأيّام وكأنّه يقطن خيمة سيرك متنقّل. يمشي على حبال صعوباتها وكأنّه بهلوان يتمرّن لموعد استعراض قادم، وينزلق على منحدرات أفراحها وكأنّه طفل في يوم عيد. طفل يسكن مدينة ألعاب ولا يعرف لغير ألوانها مدينة أخرى. حالة من الانبهار المُزمن كان هو، وكنتُ أنا عاطلا وحزينا. كنتُ ألازمه ليالي السّمر والشاي بعد أن يعود من محلّ البقالة الّذي كان يتنقّل عتّالا تحت صناديقه. كنتُ غريبا، وكان هو قريتي التي صادفتُها هنا. قريتي بكلّ أشجارها ونجومها، بكلّ أغانيها وليالي حصادها الصّيفيّة. كان يقاسمني خبرته في أمور الغربة، ولكنّ الأجمل من ذلك أنّه كان يعلّمني حبّ الحياة دون قصد. كنت أرقبه بصمت وهو منغمس في الحديث،

فقط لأتعلّم القدرة على التآلف مع اللّحظة. لأتقن تحويلها من لحظة عابرة إلى زمن بأسره. كان لعبدو الفضل في عثوري على العمل الّذي أزاوله حاليّا، فقد كان يعرف الجميع: من عملة وعتّالين وصولا إلى أكبر أصحاب المحلاّت والحانات. ولكن في عصر ذلك اليوم الشتائيّ الدّاكن، كنتُ لا أزال عاطلا وكان لديّ قليل من النّقود والكثير من الوقت أنفقهما في التسكّع بين الأزقّة والأحياء إلى أن ينتهي بي المطاف ككلّ يوم إلى مقهى في أحد المنعطفات المنزوية. هناك أجلسُ إلى ركن خال لأتدفّأ ببخار قهوة وبشيء من رائحة التّبغ المتدفّق من سجائر المرتادين. كنت قد أقلعتُ عن التدخين لقلّة المال، وكان عبق التّبغ المعطّر يملأ رئتيّ بحنين قاتل. في عصر ذلك اليوم البارد، وقبل أن أدفع باب البناية منزلقا إلى الخارج بحثا عن ركنٍ ما أحتمي فيه من العيون النّاريّة للبطالة، استوقفني ذلك الظّرف الأصفر كحاجز في مطار. كان عليّ أن أجتازه بهدوء، قبل أن أرتدي مطر ذلك اليوم بحثا عن مقهى جديد يناسب المزاج الرّماديّ للطّقس. بخطّ رديء ومرتعش كان اسم "عبدو" وعنوانه مكتوبين على الظّرف الأصفر. كان خطابا من الصّومال، مأساتُهُ أنّه لم يكن يحمل اسما أو عنوانا لمرسله، لم يكن له خيار العودة. ولكنّه رغم ذلك تحدّى رداءة الخطّ والطّقس ليرسي قلاعه في صمت على الضّفاف الحديديّة لصندوق بريد شقّة رقم ١٦. عبدو اختار تلك الشقّة تحديدا لأنّه يتفاءل بذلك الرّقم. كان يحبّ الأرقام الزّوجيّة لأنّها متآلفة مع ذاتها، ولأنّها تعطي دون أن تُبْقي لنفسها شيئا. على الرّغم من الخطأ الفادح في الرّقم البريديّ لمدينة برشلونة، إلاّ أنّ الظّرْفَ تمكّن بحنكة بحّار قديم من بلوغ مينائه الأخير.

انتشلتُه من قاع الصّندوق كمن يقطف زهرة صفراء. جوّ ذلك

الصّندوق كان ملائما للفواتير وجرائد الإعلانات لأنّ الأشياء الملوّثة لها مناعة التعايش مع بعضها بعضا. أمّا ذلك القارب الورقيّ الأصفر المثقل بعناء العبور إلى السّواحل المستحيلة، فقد كان في حاجة مستعجلة إلى هواء نقيّ، يبسط بين ذرّاته أشرعته المصبوغة بالملح كي تجفّ ويبرُقَ لونها من جديد. كان بحاجة إلى يد سمراء -كالّتي ألقت به في اليمّ منذ أسابيع- كي تفتح صناديق حمولته وتستنشق عطورها بخشوع المشتاق. برفق وحذر رفعتُ ذلك الظّرف كمن يرفع قاربا بالحبال ليعيد طلاءه من جديد.. أو ربّما لينتشي بحلم طفوليّ بأن يرى قاربا يطير. أغلقتُ صندوق البريد كمن يوارب غطاء نعش. تركتُ الفواتير وجرائد الإعلانات الملوّنة تتخمّر بداخله، ومشيتُ بالظّرف الأصفر الرّقيق حتّى بلغتُ باب البناية الخارجيّ. كان بلّوره البنفسجيّ هو الفاصل بيني وبين المطر. عن شيء من الضّوء كنتُ أبحثُ، وعن شيء من هدوء اليدين كي أمزّق طريقي نحو رسالة تسرّب شحوبها إلى قلبي قبل أوّل خطوة! لم تكن لي عادة التسرّب إلى الأخبار الشخصيّة للآخرين. فتْحُ رسالة صديق ائتمنني على بيته وعلى صندوق بريده كان يضاهي عندي دسّ السمّ له في كوب عصير. ولكن هذه المرّة، كان هناك استثناء، استثناء بحجم المسافة الّتي قطعها هذا الظّرف النّائم من التّعب بين يديّ. الفرق هو أنّني كنتُ أحبُّ عبدو حُبَّ التلميذ لأستاذه، وكان عندي شعور دفين بضرورة حمايته من هذه الرّسالة بالذّات. ارتفعتْ طرقات حبّات المطر البنفسجيّة على بلّور الباب، وشعرتُ بالعرق المتسرّب من أصابعي إلى الظّرف المقفل. تردّدتُ، هممتُ بفتحه، ثمّ أحجمتُ. فكّرتُ لحظة ثمّ فتحتُه بارتباك قاتل. انقاذا لعبدو فتحت الرّسالة، لأنّني كنتُ أعلم أنّ هذا الظّرف كان قاربا باردا يحمل نعشها.

تلك المريضة الّتي كان يحدّثني عن اشتياقه إليها كلّ ليلة قبل النّوم. خيّل إليّ وأنا أقرأ الرّسالة أنّ وقع قطرات المطر على البلّور قد توقّف لحظة، ثمّ ارتفع هديره عبر بهو البناية كأجراس الكنائس. مضيتُ في قراءة السّطور كمن يمشي حافيا على كومة من الزّجاج المكسور:

"أخي عبدو...البقاء لله، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. لقد توفّيت الوالدة مساء أمس. نرجو من الله أن يجعل مثواها الجنّة، وأن يُرفقها بالأبرار الصّالحين". أخوك.

.. لم يذكر اسمه لأنّ الأسماء تصبح ثانويّة داخل مثل هذه الرّسائل. أو ربّما لأنّه كان شقيق عبدو الوحيد الّذي كان يعتني بأمّه المريضة كما أخبرني. عبدو كان يتحدّث عن المرض وعن فراق الوطن بنفس النّبرة الّتي يتحدّث بها عن يوم شغل متعب في محلّ البقالة. لا مكان للمأساة في حديثه، ولا للحزن. في حديثه هناك "واقع" فحسب! كان كثيرا ما يردّد عبارة: "تلك هي الحقيقة، وذلك هو الواقع، وواجبنا أن نتقبّل ذلك بابتسامة". وفي ساعات الصّفاء، في المساء وحول إبريق الشّاي ورائحة التبغ كان يقول لي ضاحكا: "الحياة عاهرة فقيرة الرّوح يا صديقي! إن أدرْتَ لها ظهرك، ركَضَتْ وراءك متضرّعة وعارضة عليك كلّ أنواع الأوضاع الجنسيّة والتخفيضات. وإن أبديت إعجابك بها، رفعَتْ ثمنها لتضاجع بأبخس الأثمان من يضربونها بالأحذية بعدك!"

ذلك هو عبدو، وذلك كان شعاره في الحياة. ولكنّني لم أكن متأكّدا من مبدئه في التعامل مع الموت. لذلك قرّرتُ أن أهديه مهلة تأخّر "الرّسالة - النّعش" لأملأ من ألمي كأسا أخيرة لسعادته ولو لبضعة أيّام. كنتُ أعلمُ مدى غبائي، مدى حمقي وجبني وأنا أمزّق الرّسالة الصفراء وألقي

بها في المنعطف الأوّل للبناية. هناك حيث بلّلتها دموع المطر بدل دموعه. قبل أن أمزّقها، لاحظتُ الطّابع البريديّ الّذي كان يزيّن ظرفها. كان منظرا لاحتفال بعرس تقليديّ في إحدى القرى!

عاد عبدو إلى البيت ذلك المساء. أكلنا واحتسينا النّبيذ الأبيض. تسامرنا وضحكنا إلى أن بلّلت عينينا الدّموع. ضحكنا وكأنّ نعشا لم يُرْفعْ، وكأنّ صديقا لم يَخُنْ، وكأنّ رسالة لم يبك على بقاياها مطر. منذ ذلك اليوم، أخذتْ السعادة في روحي بُعدا ثالثا اسمه "الجهل بالأمر". ومنذ ذلك اليوم استيقظ ولعي الدّفين بالأسماء وبالطّوابع البريديّة. تطابق الأولى مع ما تحمله على كاهلها من أرواح، وتوافق الثانية مع ما تنقله على عاتقها من أخبار أصبحا هوايتي الأولى الّتي أمارسها بدقّة وشغف.

باغتتني روزيتا بسؤال مباشر:

- ماذا حدث لعبدو بعد ذلك؟ هل علم بوفاة والدته؟

- نعم. ولكن بعد شهر إثر وصول رسالة ثانية تلقّاها مباشرة في محلّ عمله. ربّما ظنّ أخوه أنّه قد انتقل من محلّ سكنه فقرّر أن يرسل له الخبر إلى دكّان البقالة مباشرة.

- لم يعلم بأنّك مزّقت الرّسالة الأولى؟

- سألني، ولكنّني أنكرتُ وصولها. الرّسائل القادمة من بعيد قد لا تبلغ وجهتها.. أليس كذلك؟

بإعجاب مقنّع خلف علامة استفهام.. سألتني:

- لك آراء غريبة. هل أنت دائما هكذا؟

- هل تريدين معرفة اسمك الحقيقيّ؟

ابتسمتْ في مراوغة يائسة:

- اسمي روزيتا، كما أخبرتك من قبل!

أجبتُ واثقا:

- أعرف ذلك. ولكن هل تريدين معرفة اسمك الحقيقيّ؟ أعني الاسم الّذي تبادر إلى ذهني أوّل ما لمحتك؟

- تريد أن تلصق عليّ طابعا بريديّا من اختيارك؟

- أريد أن أعيد للجمال حقّه.. لا غير!

ارتعشتْ شفتاها كوردتين تحت نسيم عابر، وأشعّت عيناها ببريق خاطف كانعكاس ضوء منارة بحريّة على بلّور نافذة بيت بعيد. انحدرت خصلة من شعرها القمحيّ على جبينها، فأعادتها بارتباك خفيّ وراء أذنها. حتّى في استسلامها كانت تكابر.. وكان ذلك رائعا. حتّى في إنكارها كانت تعترف.. وكان ذلك مدهشا! هل للمرأة خيار سوى الهزيمة أمام رجل يصفها بالجمال. حتّى وإن لم تكن هزيمة مكتملة، فهناك ركن ما في قلبها سيستسلم دوما ولو لبضع دقائق. ولكنّ روزيتا لم تكن امرأة بالنّسبة لي. كانت الأرض بكلّ أعاصيرها الجويّة المباغتة. بذلك الرّداء الممتدّ على مساحة جسد بلون الرّمل، كانت هي البحر في أوج سطوته الزّرقاء. داعَبتْها جرأة كلماتي كريح جنونيّة حارّة، وكالبحر تمايلت هي مع أنغامها بأمواج طفيفة من الارتباك الغريزيّ. كنتُ أرقُبُ تلك الأمواج الأنثويّة بحذر لعلها تعلو فجأة فأقتحمها كبحّار يشتهي الموت على حافة الحبّ. للأسف لم يحدث ذلك، لم يَطْفُ من تلك الأمواج سوى

تيجان رقيقة من الزّبد الفضيّ سرعان ما تلاشى رذاذها النّاعم في الهواء، ليعود البحر إلى سكونه، لتعود روزيتا إلى هدوئها.. وليفوح جوابها صلبا وقويّا كرائحة الملح:

- هل لي حقّ الرّفض إن لم يعجبني الاسم؟

أجبتُ واثقا:

- لك حقّ رفض أيّ اقتراح لا يروق لك طبعا.

- إذن هو مجرّد اقتراح وليس استعراضا لقدرتك على مطابقة الأسماء مع الأشخاص؟

- كما أخبرتُك، هي هواية أمارسها بشغف وضمير.. لا أكثر.

- هواية غريبة نوعا ما.. ألا توافقني؟

- الوقت كفيل بأن ينفض الغرابة عن كلّ الأشياء. هناك حقيقة واحدة في الدّنيا وهي أنّ الزّمن يمرّ. أتعلمين ما هو الوجه الآخر لنفس الحقيقة؟

- نولد ونكبر، نشيخ ثمّ نموت.. على ما أظنّ.

- إذن فمن العاديّ أن نكبر ونشيخ ثمّ نموت.. أليس كذلك؟

- طبعا.

- ولم لا نولد شيوخا ثمّ نَصْغُرُ ثمّ نعود إلى العدم؟

- لأنّ ذلك يصبح ضدّ طبيعة الأشياء!

- أو ضدّ طبيعة ما "تعَوَّدْنا" على رؤيته من الأشياء. لنفرض أنّ مسار

الكون تغيّر في لحظة، فأصبح البشر يولدون شيوخا من رحم الأرض، ثمّ يصغرون.. ليعودوا في النّهاية إلى أرحام أمّهاتهم. لنفرض أنّ...

قاطعتني ضاحكة:

- ذلك خلل في موازين الحياة لا يقبله عقل سليم، وخاصّة عقل ممرّضة مثلي في قسم التوليد!

- فكرة صحيحة ومنطقيّة، ولكنّها تحتاج إلى تعديل واحد.

- وما هو؟

- أقول إنّ ذلك "مفهومٌ" لموازين الحياة لم يتعوّده العقل.. لا أكثر!

- لا أفهم ما تقصد.

- أقصد أنّ مفاهيم الولادة، فالنّمو، فالشيخوخة.. ثمّ الموت هي من أغرب المفاهيم الواردة على العقل البشريّ. ولكنّ أعجوبة العقل هي قدرته الخارقة على هضم أغرب الحقائق.. ليصفها في النّهاية "بالطّبيعيّة".

- إذن فما الحقيقة الموازية لمرور الزّمن؟

- أنّ الزّمن يمرّ من أجل غاية واحدة، وهي ترويض العقل على تقبّل غرابة الأشياء مهما كانت بديهيّة في نظرك الآن: كالشّمس والمطر والبحر، ككرويّة الأرض ودورانها، كالحياة والموت، كمرور الزّمن نفسه.

- تقصد أنّ الغاية من مرور الزّمن هو أن نرى الأشياء غريبة وصادمة في أوّل الأمر، ثمّ نتعوّد عليها؟ يعني..

قاطعتها مبتسما:

- ثمّ نتآلف معها.. ونحتضنها بحبّ!

- ومن ليست له القدرة على ذلك؟

- يعيش حياة صعبة.. أو يموت منتحرا.

أجابت ضاحكة:

- أفضّل أن أعيش حياة صعبة!

- أفضّل أن أعيش الحياة دون أن أنعتها بأيّ وصف. صعبة، سهلة، سوداء، بيضاء، رماديّة، لا يهمّ!

قاطعتني بدلال جميل، بعد أن أعادت ذات الخصلة القمحيّة العنيدة وراء أذنها:

- ما اسمي الحقيقيّ إذن؟ أريد أن أعرف الآن! مع أنّني ما زلتُ مصرّة على شدّة غرابة علاقتك بالأسماء!

- أحقّا تريدين معرفة ذلك؟

- أظنّ أن الأوان قد فات لتسألني مثل هذا السّؤال.

- إذن فجوابك "نعم"؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب. ابتسمتْ وقالت:

- نعم.. أريد أن أعرف.

- "مارينا".

- اسم يشبه البحر إلى حدّ بعيد. هل تسمح لي أن أسألك لم اخترت هذا الاسم تحديدا؟

- لا أدري. القانون الأوّل في ممارسة لعبة الأسماء هو ألاّ نسأل

لِمَ اخترنا اسما معيّنا لشخص معيّن. جمال اللّعبة يكمن في أن نمارسها دون أسئلة كثيرة، ودون الشّعور بضرورة تقديم شرح مفصّل لسبب اختيار الاسم.

- هي إذن لعبة.. وليست هواية!

- لا فرق. تستطيعين أن تطلقي عليها ما يحلو لك من التسميات: لعبة، هواية، مغامرة ذهنيّة، مناورة مع الحروف والكلمات. لا يهمّ! اعتبريها نشاطا روحيّا يبعث في قلبي شيئا من الرّاحة والسّعادة كلّما مارسته من حين لآخر.

- إذن فأنت لست دائم البحث عن أسماء جديدة لكلّ من تراه من أشخاص على امتداد حياتك اليوميّة؟

- طبعا لا. فقط حينما أرى موضوعا يستحقّ اهتمامي!

رمقتْني بنظرة ذات معنى. كانت رائعة ومتألّقة تحت أشعّة الشمس، وعاد ذلك البريق الضّوئي المرتعش إلى اللّمعان في عمق عينيها السّوداوين من جديد. تأمّلتها بشغف، كان هناك فيهما نوع من الذبول المتواطئ. ذبول أكّد لي أنّها الآن تقاوم آخر أمواج الحبّ وبأنّها ستستسلم في اللّحظات التالية. من أغوار اللّيل في عينيها، وصلتني رسالة تخبرني بأنّها اهتزّت بعنف لما كنتُ أرمي إليه من أنّها "موضوع مثير للاهتمام"! وطبعا، كان لابدّ للأنثى فيها أن تثور احتجاجا على هذا الوصف بالتحديد. لذلك قالت مصحّحة:

- أنا امرأة.. ولستُ موضوعا!

- وما العيب في أن تكون المرأة موضوعا؟ موضوع جميل ومثير طبعا!

- لم أتعوّد أن أرى نفسي بهذا الشّكل!

- إذن فانت تقبلين أن تكوني " شَكْلا".. وترفضين أن تكوني "موضوعا"!

أجابت ضاحكة:

- أنت تعلم ما أقصد.

قلتُ ضاحكا:

- طبعا أعلم. ولكن كان من الممكن أن أسيء فهمك كذلك، لأنّ الكثير من الكلمات الّتي نستعملها لا تعني الكثير. أعني أنّه ليست لها دقّة الوصف في معظم الأحيان إن لم يقع انتقاؤها بعناية شديدة.

فجأة عاد النّسيم من جديد إلى الهبوب على سواحل شعرها. كنتُ أفضّل أن يعيد هجومه على ثوبها، ولكنّ ذلك لم يحدث. كان النّسيم مؤدّبا، ضليعًا في "إيتيكيت الحبّ". لا يعود لرفع ثوب عن ساقَيْ امرأة قالت "لا" في أوّل محاولة له. كان يعلم بضرورة إمهالها لتنضج كعنقود عنب قرمزيّ تحت أشعّة الشّمس، لذلك كان يداعب شعرها بحنان مزارع لا يستعجل القطاف.

قالت دون أن تفارق الابتسامة شفتيها:

- لهذا السّبب أنت شديد الإصرار على تطابق الأسماء مع الأشخاص؟

- كما ذكرتُ من قبل، فقط حينما أعثر على موضوع.. أقصد "امرأة" جديرة بهذا النّوع من الاهتمام.

بحّتُها هذه المرّة كانت أدفأ. أصبح لها نعومة سيلان العسل في الحلق.

أمّا صوتها، فقد غدا حالة موسيقيّة، احتفالا مذاقيّا للّسان، فيروزيّا بلون فستانها ورقيقا كامتداد ذرّات الرّمل على حافة البحر. كنتُ أعلم أنّها على وشك إلقاء علم ورقيّ أبيض عليه اسمها ورقم تليفونها عندما أردفَتْ:

- ولكنّني ما زلتُ مصرّة على وجود سبب حقيقيّ وراء اختيارك لاسم مارينا بالذّات.. ألا توافقني؟

- هناك سببٌ لوجود كلّ شيء. السّؤال الحقيقيّ هو أهمّية السّبب. هناك أشياء لا تهمّ فيها الأسباب بقدر النّتائج.. كالحبّ مثلا. ليس مهمّا لماذا نحبّ، المهمّ أنّنا نحبّ، وذلك يكفي. ما رأيك؟

- أوافقُكَ طبعا. وماذا عن الكراهيّة؟ هل من المهمّ أن ندرك أسبابها؟

- الكراهيّة نقيض الحبّ. ولهذا، فمن واجبنا أن نعاملها بطريقة معاكسة تماما. يجب علينا أن نبحث عن أسبابها كي نداويها فتصبح "حُبّا".

- وإن لم نستطع؟

- الكراهيّة كالإنفلونزا، إن أوليناها اهتماما بالأدوية في بداية ظهورها، سهُل الشّفاء منها. وإن أهملْنا تطوّرها أصبحتْ مرضا عضالا.

- إذن، فقطْعًا هناك سببٌ منطقيٌّ لاختيار اسم مارينا، ولكنّه لا يهمّك بقدر ما يهمّك أنّك اخترتَه وكفى.

- قد يكون لون فستانك وتناسقه مع لون بشرتك تحت أشعّة الشّمس. أو ربّما قد أكون في حالة بحثٍ لا شعوريّ ودائم عن كائن يشبهُ البحر.

- ولِمَ البحر؟

- أظنُّ أنّ السّؤال يجب أن يكون: لِمَ ورَدَ البحر على ذهني أوّل ما رأيتُكِ أنتِ تحديدا؟

أجابت في استدراك ذكيّ:

- ذلك ما قصدتُهُ.

- ربّما لأنّ البحر هو الكائن الوحيد الّذي يمتلك خاصيّة تطابق جمال الظّاهر مع الباطن.

- لا أفهم ما تقصد!

قالت ذلك بنبرة تلميذة مراهقة. تلميذة ترتدي انبهارا دائما بأستاذها الّذي يكبرها سنّا. ذلك الانبهار السري الذي يأخذ شكل الأسئلة الفوضويّة لإثارة اهتمام من نحبّ:

- لا أفهم ما تقصد. حقيقة.. لا أفهم!

- أعني أنّنا نعشق زرقة البحر، ونعشق تلألؤ صفحته اللاّزورديّة تحت أشعّة الشّمس. ولكنّنا نزيد هياما به عندما نغوص في أعماقه فتتجلّى لنا روعة كنوزه وغموض كائناته. لوحة دائمة التجدّد هو البحر، لا تكرار فيها ولا تكلّف.. بل تدفّق أبديٌّ لعناصر الجمال.

قاطعتني بدهاء: إذن، فلا أظنّك تتردّد لحظة واحدة إن أُتيحتْ لك فرصة الغوص في أعماق البحر.. أليس كذلك؟ ألا تخشى عاقبة قرار بهذا الحجم؟ ألا تخشى الغرق مثلًا؟

أدركتُ على الفور أنّها فهمتْ قصدي. جملتها الأخيرة كانت سؤالا

واضحا ومباشرا. سؤال لم يكن البحر فيه سوى "هي". توحّدتْ به أخيرا. أصبحتْ مستعدّة للإبحار. نظرتُ مليّا إلى فستانها الأزرق، ورفعتُ مرساة الصّمت وأنا أغوص في عُمْقِ أعماق عينيها:

- يكفيني شرف الموت غرقا على أن أبقى حيّا في محطّة أبحث فيها عن قطار قد لا يتأخّر مرّة ثانية!

أجابت بنبرة فيها علانيّة الاستسلام:

- جوابك جاهز طبعا!

صمتتْ لحظة. بلعتْ ريقها في ارتباك لذيذ ثم استطردتْ:

- كنتَ قد عرضْتَ عليَّ بعض الدّروس في اللّغة العربيّة منذ قليل. ذلك عرض قد أرفُضُه، ولكنّني لا أرى مانعا أن تعلّمني فنّ اقتناص الأجوبة السّريعة.. ما رأيك؟

كان جوابي حاسما وسريعا. شعرتُ بأنّني أطير إلى البعيد وأنا أجيبها بابتسامة هادئة:

- رقم هاتف وعنوان.. ذلك كلّ ما أحتاجه. أمّا الدّروس فمجّانيّة دون إعادة نظر!

ابتسَمَتْ...... ابتسمْتُ......

صَمَتتْ...... فلم أقل شيئا......

أخرجتْ قلم حبر وورقة من حقيبة يدها البيضاء. خطّتْ عليها اسمها ورقم هاتفها. كتبَتْ "مارينا"، ولم تكتب "روزيتا". اكتشفْتُ أنّها فعلَتْ ذلك وأنا أفتح الورقة داخل عربة قطار كان يبتعد بي عنها

رويدا. لم تكن لي الجرأة أن أفعل غير ذلك. أعطتني الورقة، فدسستها في جيبي بصمت. ربّما كان ذلك التزاما منّي بمبادئ اللّياقة أو ربّما اعتقادا لا شعوريّا منّي بأنّ الكنوز تزداد بريقا عندما تُدْفَنُ بعض الوقت. ارتفعت سرعة القطار في نسق سريع، وأخذت زرقة فستانها تبتعد عنّي شيئا فشيئا إلى أن أصبحتْ نقطة فيروزيّة في الأفق. كانت لا تزال في انتظار قطارها، وبدتْ جميلة حتّى في شكل نقطة زرقاء. عندما تلاشى طيفها عنّي، أخرجتُ الورقة المطويّة من جيبي وفتحتُها لأتمعّن في خطّها. كان خطّا جميلا وواضحا. في سيلانه النّاعم كان خطّ يدها هو الوجه الآخر من بحّة صوتها. عندما تملّيتُ في الاسم، اكتشفتُ أنّها كتبت "مارينا" بدل اسمها الحقيقيّ. حذّرتْني من الغوص.. وهأنذا أغرق إثر أوّل مناورة. اختيارها أن توقّع تذكرة لقائنا الثّاني تحت اسم "مارينا"، ألقى بي في لازورديّة فستانها من جديد.. وأخذني التيّار عكس سير القطار!

تمعّنتُ في رقم هاتفها مبتسما. لم يراودني الشكّ في صحَّتِه، إذ لم يكن على منحنيات الأرقام ارتعاش الكذب. عندما لفظني القَطار على رصيف محطّة الوصول، كان رقم روزيتا قد أصبح وَشْمًا أزرق على ذاكرتي... وأصبح الهواء بطعم الملح.

- ٢٤ -

سألتُ عيسى وأنا أهُمّ بمغادرة المطبخ معيدا الصّندوق البلاستيكيّ إلى موضعه في الرّكن:

- متى ستتَصل بها؟

أجاب مبتسما:

- غدًا أو بعد غد. قد أنتظر يوما أو يومين، أو ربّما أسبوعا أو أسبوعين.

علّقتُ ضاحكا:

- جوابك مشحون بالارتباك. عليك أن تأخذ قرارا حاسما يليق بالمجهود الّذي بذلتَه في اختلاس رقم روزيتا. لو كنتُ مكانك، لما تردّدتُ لحظة واحدة في الاتصال بها اللّيلة.

قال مداعبا:

- أنت تعلم أنّنا نقفل الحانة مع بزوغ الفجر. أتعني أنّك ستسمح لي - استثنائيّا - بمغادرة المطبخ مبكّرا لكي أعود إلى البيت فأتّصل بها تليفونيّا؟

قلتُ مستدركا:

- محاولة ذكيّة منك يا صاحبي، ولكنّك تعلم جيّدا بأنّك الوحيد القادر على إخماد نيران الكحول المشتعلة في البطون الخاوية لحرفائنا الكرام! ما أردتُ قوله ببساطة هو أن تتّصل بها في أقرب الآجال. غدا أو بعد غد على أقصى تقدير. أخشى أن يطول بك التمهّل فتظنّ بك روزيتا اللاّمبالاة أو عدم الاهتمام.

أجاب بهدوء:

- إن كانت تبادلني نفس الشعور، فأنا متأكّد أنّ أوهام الانتظار - مهما طالت مدّتها - ستتبخّر فور ما يرنّ جرس هاتفها لتجد صوتي على الطّرف الآخر من الخطّ.

قلتُ:

- هذا يتوقّف على مدى ثقتك بقوّة مشاعرها. من أدراك أنّها لم تكن قد نسيتك تماما فور وصول قطارها؟

قال محافظا على ابتسامته العاجيّة:

- ثقتي مستمَدّة من لمعان عينيها وهي تناولني هذه الورقة!

في هذه اللحظة كان قد أخرج ورقة بيضاء مطويّة وكأنّه يسحب بطاقة يانصيب رابحة. ثمّ استطرد بعد أن أعادها إلى جيبه بعناية مثيرة للشّفقة:

- لا يمكن لامرأة مثل روزيتا أن تصطنع مثل تلك النّظرات الحالمة.. أتعرف لماذا؟

- لماذا؟

- لأن الحبّ لا يستأذن المرأة قبل أن يشعل في عينيها ذلك البريق الفضيّ وهي تناولك رقم هاتفها بيد مرتجفة!

أجبتُ وأنا أسحب باب المطبخ برفق هامّا بالانصراف:

- أرجو أن تكون ثقتك في محلّها، وأتمنّى لك حظّا سعيدا مع محبوبتك الجديدة!

قال وهو يسحب سمكة جديدة مستقبلا جسمها الطريّ بسكّينه الحادّة:

- الحبّ لا يحتاج إلى الحظّ يا صديقي. الحبّ لا يحتاج إلاّ إلى نفسه فقط، ومع ذلك فأنا أشكرك على مشاعرك الرّقيقة.

أومأتُ برأسي علامة الموافقة مع أنّني لم أفهم شيئا. لم أفهم، ولم أبذل أيّ جهد لكي أفهم. كنتُ أعيش تحت وطأة شعور غامض داهمني فجأة، أو لعلّه كان قد تسرّب ببطء إلى خلايا دماغي ليضرب أخيرا ضربته القاتلة. من كلّ قلبي تمنّيتُ أن يكون رقم روزيتا مزيّفا، أو أن يكون بأيّ شكل من الأشكال أسلوبها المحنّك في التخلّص من شخص ثرثار قابلتْهُ على رصيف محطّة أثناء البحث عن فنجان قهوة. عندما دلفتُ إلى قاعة البار تاركا عيسى لأسماكه، كانت لا تزال خالية من الزبائن، وكانت موسيقى الفلامنكو قد توقفت تماما. قلبْتُ الشريط فعادت أصوات الغجر إلى السّيلان المتوحّش في الفضاء. سانتو تأخّر. تأخّر فعلا! هذا الوغد اللّعين تجاوز حدوده ولابدّ من اتخاذ إجراء صارم!

أشعلتُ الأضواء وأغلقتُ النوافذ. اتجهتُ نحو خوان البار بخطى مستعجلة ومتصاعدة كإيقاعات الفلامنكو. دلفتُ وراء الخوان

وسحبتُ زجاجة ويسكي. فتحتها برفق وسكبتُ ربع "دوزة" في كأس صغيرة. وضعتُ حافة الكأس على شفتي السفلى ثم سكبت محتواه في جوفي بحركة خاطفة. أغمضتُ عينيّ متلذّذا بالعبور الحارق للكحول في صدري، ثمّ فتحتُ فمي وأطلقتُ فحيحا خافتا خلتُ أنّ النّار ستنبعث منه في أي لحظة. ثوان معدودة، فتحتُ إثرها عينيّ شاعرا بدفء ناعم يلفّني من رأسي حتّى قدميّ. أحسستُ بأنّني ارتفعتُ شبرا عن سطح الأرض وخلتني أتأرجح في الهواء كورقة خريفيّة تلاعبتْ بها الأيادي الخفيّة لموسيقى الغجر. الضّربات الصّارمة، المفاجئة، الحاسمة للقيثارة الإسبانيّة كانت تجتاحني كالحمّى الصّفراء. كانت تغويني بشيء ما، ربّما بخمس دقائق من الخيال أكون فيها إلى جانب روزيتا وهي تقبّلني وتقول لي إنّها تحبّني، وتذكّرني بأنّ عيسى لم يكن سوى مصادفة سخيفة على رصيف محطّة. سامحه الله، أكان عليه أن يصف جمالها بكلّ تلك الدقّة، بكلّ تلك الرّغبة. ألا يعلم أنّني وإن كنتُ سيّد عمله.. فسأبقى في النّهاية بشرا من لحم ودم... سامحه الله!

تلاعبتُ بفكرة احتساء كأس ثانية. قاومتها لبضع لحظات مدركا في قرارة نفسي أنّني مهزوم لا محالة. كانت زجاجة الويسكي لا تزال قابعة فوق خوان البار يحاذيها غطاؤها الأسود اللاّمع. كانت تدعوني بصمت شيطانيٍّ إلى مداعبة جسمها البلّوريّ الأملس. تدعوني لرقصة أخيرة قبل بداية السهرة. إلى اختلاس رشفة أخيرة من رحيقها النّحاسيّ الدّافئ قبل أن يتوزّع على بطون الزّبائن في ليلة رائقة كهذه. كانت تعلم أنّها ستفنى اللّيلة حتما. وتعلم أنّها ستنتهي خاوية، جوفاء إلى جانب مثيلاتها في صناديق المخزن الخلفيّ حيث تمتزج الظّلمة الخرساء

برائحة الحمّام الكريهة. في لحظة جنون غريبة، خلتُ زجاجة الويسكي تكلّمني وتقول: "أنا لك الآن، مِلْكُ يديك، حبيبتك الوحيدة، حبيبتك الفانية بعد سويعات حتما. خذ الآن منّي ما استطعت! انتش برحيقي على أنغام الفلامنكو، فشريط الموسيقى يمكن لك إعادته إلى ما لانهاية. أمّا أنا، فإن أضعتَ الفرصة.. فلن تعرف للعودة طريقا!".

أمسكتُ بعنق الزّجاجة ورفعتُها عن سطح الخوان. أدنيتُ فوهتها رويدا من شفتيَّ في قُبلة كحوليّة حارقة. قُبلة تصاعديّة محمومة عادت هي بعدها إلى الرّفّ صامتة ونصف ممتلئة في انتظار قدرها المحتوم. اتّجهتُ على مهل صوب الباب الخارجيّ للحانة وفتحتُه برفق متسلّلا بين ثناياه إلى الخارج. واربته خلفي متعمّدا ترك فتحة صغيرة تكفي لتسرّب الضّوء والموسيقى. كان ذلك مهمّا كي أحافظ على حالة النّشوة الّتي ارتقيتُ إليها في فترة قياسيّة نتيجة مفعول الويسكي. كان المساء قد أسدل ستائره السّوداء على الأفق. مساء جميل وهادئ من أوائل أيّام الرّبيع، من تلك الأمسيات التي يتجرّأ خلالها الكثير من سكّان المدينة على خلع معاطفهم الشتويّة للاستمتاع بنعومة دفء السّويعات الأولى قبل برود اللّيل. يتنزّهون على الأرصفة ويتحادثون بصوت عال، يضحكون ويمرحون. يتبادل المحبّون القبلات، ويخرج المتسوّلون بحثا عن شيء من الشّفقة يداوون بها تجهّم الشّتاء. عندما يتوغّل اللّيل في ساعاته الأكثر برودة، يأوي الكثير منهم إلى هذا المطعم أو ذاك، يتناولون وجبة عشاء خفيفة مع شيء من النبيذ الجيّد. ويلجأ آخرون إلى المقاهي المنثورة عبر أرجاء المدينة لترشّف فناجين القهوة أو لاحتساء أكواب الشّاي الممزوجة بالأعشاب الطّبيعيّة المجفّفة. وطبعا هناك زبائن حانتنا المعتادون، أولئك اللّذين

يبيعون أنفسهم كلّ ليلة لأكواب النّبيذ الرّديء ولأطباق السّمك والمحّار الرّخيصة. تلك الّتي كان عيسى يتفنّن في رداءتها بفضل مقلاته الصّدئة وزيتها القديم الّذي لم يتغيّر منذ كان أبو كلارا على قيد الحياة. كان ذلك دأبهم منذ عرفتُ هذا المكان. يسكرون كلّ ليلة دون تعب، دون ملل... إلى طلوع الفجر. يتغيّر الزّمن حولهم، ينزلق تحت أقدامهم كبساط من الجليد الأملس وهم في أمكنتهم لا يبرحونها، تماما كأثاث الحانة المتهرئ، تماما كمقاعدها الخشبيّة. تماما كمنافض سجائرها الوسخة وكنوافذها المنخورة بفعل السّوس والرّطوبة والأيّام. نظرتُ إلى ساعتي، كانت تشير إلى السابعة والرّبع مساءً. كنتُ أعلم أنّ الزّبائن على وشك التوافد في أي لحظة. كانت تلك هي عادتهم دوما، ينصبّون على الحانة دفعة واحدة مع أنّهم يتقاطرون عليها من مناطق مختلفة. يُخيَّلُ لمن يراقب مشهد وصولهم أنّهم قد اتّفقوا بفعل العشرة الطّويلة على بداية موعد السّهرة دون أن يتمكّنوا من الاتّفاق ولو لليلة واحدة على موعد الرّحيل. كنتُ غالبا ما أضطرّ لطردهم بطريقة ودّيّة عندما يحين الموعد اليوميّ لإغلاق الحان. الوحيد الّذي كنتُ أغضّ النّظر عن بقائه بعد انتهاء الوقت كان فرناندو. كنتُ أحبّه، وكان من عادتي إمهاله بعض الوقت الإضافيّ ليتجرّع آخر بيرة له وأنا بصدد تنظيف الطّاولات وكنس أرضيّة المكان من الأوساخ عند طلوع الفجر. الزّبائن على وشك التهاطل وسانتو لم يأت بعد. كان من المفروض أن يكون هنا على السّاعة السّادسة. اللّعنة عليه... اللّعنة!

فتحتُ رئتيَّ لنسمات اللّيل وسحبتُ نفسا عميقا.. منعشًا. راودتني رغبة في إشعال سيجارة دافئة ولكنّني أجّلتُها لبضع لحظات. أطلقتُ نظري إلى السّماء الجاثمة بسوادها الغامض فوق الأحياء.

بدت لي النّجوم من بعيد كحبّات العقيق اللاّمعة. كان الفضاء صافيا، خاليا من السّحب. كان يبشّر بغدٍ ربيعيّ جميل. تناهت إلى سمعي همسات الطّيور العائدة إلى أوكارها المتناثرة فوق سطوح المنازل البعيدة، وتسرّبتْ إلى أنفي رائحة البنّ الكولومبيّ المنبعثة من نوافذ المقاهي كعطر متواطئ مع سواد اللّيل. أجمل ما في الويسكي أنّه يجعلك تتفاعل بأكثر المناظر بساطة. مَشاهدٌ تراها كلّ يوم وتنسى أنّها لك. التماع النّجوم في عتمة الليل، اللاّفتات المضيئة على واجهات المحلاّت التجاريّة، وتلك الكراسي الشّاغرة.. القابعة بصمت على أرصفة المطاعم استدراجا للصّيف. كنتُ في حالة احتياج دائم إلى جرعات كحوليّة كالّتي تحترق بداخلي الآن لأرى الأشياء كما هي، بسيطة ورائعة. كان عليّ أن أسكر.. لكي أفيق!

لم يكن الفرق بيني وبين عيسى سوى جرعتين من سائل قابع في زجاجة لكي نرى الأشياء بنفس الطّريقة. أشعلتُ سيجارة لذيذة ونفثتُ دخانها الضّبابيّ في الهواء. تابعتُ ارتفاعه أمام وجهي مستمتعا بتموّجه مع الألوان الحمراء والصّفراء المشعّة من اللاّفتة الخارجيّة للحانة. اسم البار كان مطابقا لاسم صاحبته الغائبة دوما. لافتة سريعة الاشتعال والانطفاء، كُتِب عليها بحروف مضيئة..... Clara Bar.

مضتْ ساعة أو ما يقارب السّاعة. أخذت قاعة الحان خلالها في الامتلاء تدريجيّا. كان فرناندو كعادته أوّل الوافدين. كنتُ أوزّع جهدي بين إبلاغ عيسى بطلبات الأكل، وإيصال الأطباق إلى طاولات الزّبائن ترافقها زجاجات البيرة وأكواب النّبيذ. بين الحين والآخر كنت أعود مسرعا لأفتح زجاجة أو زجاجتين لفرناندو أو لغيره ممّن فضّلوا الجلوس

إلى خوان البار على الكراسي الخشبيّة العالية. سانتو لم يكن قد أطلّ بعد، وراودني هاجس بأنّ شيئا ما قد حدث له: حادث قطار، صاعقة من السّماء، أو ربّما زلزالا هدم بيته فوق رأسه. أيكون قد استغرق في النّوم، أم قرّر الاستقالة دون إعلامي؟ أيكون قد وهب لنفسه عطلة استثنائيّة متجاوزا حدود اللّياقة المهنيّة بعدم إبلاغ مديره؟ وهذا التليفون القابع بصمت إلى جانب الكاسة، ألَمْ يخطر بباله أن يطلب رقمه لإخباري بعلّة غيابه؟ فتحتُ الدّفتر الأحمر. الدّفتر الصّغير الذي كان يحتوي على كلّ الأرقام الخاصّة بأعمال الحانة. برز لي الخطّ العصبيّ لخوانيتو. قلّبْتُ صفحاته بحثا عن أوّل حرف من اسم سانتو. كانت هناك أسماء شركات وأسماء موزّعي البيرة والنّبيذ والموادّ الغذائيّة. وأيضا كانت هناك أسماء أشخاص لا أعرفهم وأظنّهم من علاقات خوانيتو الكثيرة. ساندرو؟ من يكون هذا الشّخص يا ترى؟ لعلّه صديق له أو لعلّه أحد القادمين الغرباء، الغامضين، من أولئك الذين كان يتحدّث إليهم بصوت خافت من حين لآخر في مقعده. هناك، حيث كان يجلس نافشا ريشه ومُطْلِقًا أوامره كمدفع رخيص. بحثتُ سريعا عن رقم سانتو فوجدته في آخر صفحة. كان الاسم مكتوبا بخطّ أزرق رديء، ولم يكن بجانبه أيّ عنوان يُذْكَرْ. وضعتُ يدي على سمّاعة الهاتف وأخذتُ في كبس أزراره السّوداء ببطء. كيف لي أن أتعرّف على صوته؟ كيف له أن يتعرّف على صوتي؟ كيف لشخصين تعوّدا تبادل الصّمت في الحياة أن يتبادلا الكلام عبر سلك معدنيّ؟

عندما فرغتُ من طلب الرّقم، كان فرناندو قد رفع يده باتّجاهي طالبا زجاجة ثانية من البيرة. غمزتهُ بعينيّ علامة الفهم

وأشرتُ إليه بالانتظار لحظة ريثما أفرغ من مكالمتي السّريعة. بلغني رنين الجرس على الطّرف الآخر من الخطّ. رنّة، ثمّ رنّتان، ثلاث، أربع.. ثمّ توقّفتُ عن العدّ وحاولتُ التّركيز فيما سأقول. سأقول له مثلا: "أهلا سانتو، كيف حالك؟ هذا أنا.. أمير.. من الحان، أظنّ أنّك تبدأ العمل على السّاعة السّادسة هذه اللّيلة، هل كلّ شيء على ما يرام؟ فقط أردتُ الاطمئنان على سلامتك!". رنّات هاتف بيته كانت مربكة في نبضاتها المتقطّعة، ولم يأتني صوت على الطّرف الثاني من الخطّ. لا أظنّه نائما إلى هذه السّاعة. من المؤكّد أنّه بارح سكنه. من المؤكّد أنّ مكروها ما قد أصابه. هل أتّصِلُ بالشّرطة أم بكلارا؟ أم أترقّب قليلا لعلّ خبرا ما يصلني بشأنه في السّاعات المقبلة. قرّرتُ الانتظار ساعة أخرى قبل الاتّصال به ثانية. أعدتُ سمّاعة التلفون إلى موضعها، ولم أكد أشرع في فتح القارورة الّتي طلبها فرناندو حتّى لمحتُ باب الحانة ينفرج عن السّحنة المتجهّمة لسانتو. كان سليما معافى، لا ينقصه عضو.. ولا يشوب وجهه خدش!

تقدّم نحوي بخطى ثقيلة موزّعا تحيّاته على الزّبائن الجالسين على الطّاولات. تحيّات باردة وجافّة كعادته دوما. كان يحمل كيسا جلديّا أسود على كتفه الأيمن مرتديا نفس الحذاء الرّياضيّ ورابطا شعره الطّويل إلى الوراء. كانت ذقنه نظيفة ولمع شارباه الرّماديان كجناحي نورس تحت انعكاس الضّوء. نظافة وجهه واعتناؤه بحلق ذقنه كان أمرا مخالفا لعاداته اليوميّة. كان أمرا يحمل دليلا قاطعا على غياب حالة طوارئ وراء تأخّره الغريب. تحاشيتُ إطالة النّظر إلى وجهه متشاغلا بتنظيف سطح الخوان بخرقة قماشيّة مبلّلة. أردتُ له أن ينحرف عنّي قليلا ليتوجّه إلى المخزن

الخلفيّ فيغيّر ثيابه ويشرع في العمل وحده. أردتُ لذلك أن يحدث دون تبادل أسئلة ودون تقاذف أجوبة لا معنى لها عندي. أردتُ لذلك أن يحدث دون لوم مُقَنَّع من ناحيتي.. ودون أعذار زائفة من جانبه! ولكنّ ذلك لم يحدث. لم يقصد المخزن، وهأنذا أشعر بدنوّ جسمه من حافة الخوان. ارتفعتْ عصبيّة التنظيف عندي، وأخذتْ يدي في تمرير الخرقة على المساحة الخشبيّة في شكل دوائر حلزونيّة كبيرة. رمقتُهُ بنظرة سريعة، كان قد انتصب أمامي مبتسما. من الواضح أنّه كان يريد الحديث. والغريب أنّ ابتسامته كانت حقيقيّة هذه المرّة إلى درجة أنّني اكتشفتُ أنّ له ضرسا فضيّا مزروعا في أعلى فكّه الأيمن. شعرتُ بالانقباض لأنّني كنتُ أكره الأضراس المعدنيّة. "سي الهادي" كان له ضرس ذهبيّ اقتلعه ذات يوم عند حلاّق القرية وباعه من أجل زجاجة خمر وعلبة سجائر. ذلك ما سمعتُ أمّي ترويه لإحدى الجارات ذات ليلة من ليالي غيابه المعتادة. لم يكن لي خيار سوى الابتسام في وجه سانتو. لم يكن من السّهل الابتسام في وجه تعوّدتُ تجهّمه منذ شهور طويلة، ولم يكن من السّهل رؤية ضرس معدنيّ كإعلان فاضح عن ابتسامة ليست من القلب. لم أكن أعلم أيّ شيء عن قلب سانتو، ولم يكن ذلك يعنيني منذ فشلتُ في التقرّب إليه عند التحاقي بخدمة كلارا وخوانيتو في هذا المكان. ولكنّ شيئا ما في تلك الابتسامة اللاّمعة ببريق المعدن كان يدفع بقلبي إلى الانقباض. شعرتُ وكأنّ أحدًا ما قد ألقى كومة من أكياس الأسمنت على صدري دون سابق إنذار. بادرني وضرسه يلمع تحت الضّوء:

- عذرا سينيور! عذرا على التأخّر، فقد تعطّل قطاري في منتصف الطّريق واضطرّ السائق إلى إخلائه من الركّاب. انتظرنا طويلا قبل أن

يدركنا القطار التالي وكان ممتلئا فوق طاقة الاستيعاب ما دفعني أخيرا إلى تقاسم سيّارة أجرة مع أحد الركّاب القادمين في هذا الاتّجاه. "هذا يوم القطارات المتأخّرة ولا أدري من منكما الكاذب: أنت أم ذاك الصّوماليّ الّذي يصفّر الآن في المطبخ احتفالا برقم هاتف!". أجبتُه بابتسامة هادئة بذلتُ الكثير من الجهد حتّى لا تتزيّن باللّون الأصفر:

- لا عليك سانتو، ولا حاجة بك للاعتذار. أنا أعلم أنّك دقيق في مواعيد حضورك. كنتُ متأكّدا أنّ طارئا ما قد منعك من الوصول في الموعد. بإمكانك أن تغيّر ملابسك وتشرع في العمل فورا. إن كنت جائعا، فلك أن تدخل إلى عيسى في المطبخ لتأكل وجبة سريعة قبل أن تبدأ.

أجاب وقد بدا ضرسه أكثر توهّجا:

- أشكرك سينيور على تفهّمك، ولكنّني لستُ جائعا. سآكل بعد انتهاء السّهرة. هل لك أن تناولني كوبا من الماء البارد لو سمحت؟

فتحتُ الثلاّجة وسحبتُ إبريقا ضخما، سكبتُ منه ماءً مثلّجا في قدح مخصّص للبيرة. وضعتُ القدح على الخوان فتناوله شاكرا. أفرغ الماء في جوفه بسرعة البرق ثمّ انسحب باتّجاه المخزن الخلفيّ ليغيّر ثيابه. في هذه اللحظة بادرني فرناندو ضاحكا وقد لعبت الخمرة برأسه:

- سانتو طيّب القلب!...... سا...ن..تو رااااائع!

أجبته متجهّما:

- هل بقي شيء في الزّجاجة الّتي بين يديك؟

رفعها في الهواء محرّكا إيّاها بأصابع يديه ليريني بأنّها أصبحت خالية

من البيرة. وضعتُ أمامه زجاجة جديدة ممتلئة. كانت الثالثة أو الرّابعة هذه الليلة. من الصّعب عدّ الزّجاجات الّتي يتجرّعها فرناندو كلّ ليلة، ولكنّني متأكّد بأنّها تفوق مقدار نصف صندوق. لم يكن قادرا على الاستمتاع بدوار السّكرة، كان يتجاوزها دائما إلى ألَمِ التقيُّء:

- زجاجة ممتلئة لصديقي الغالي فرناندو.. وطبق المحّار المغليّ قادم في الطّريق!

مرّت بضع دقائق لمحتُ بعدها سانتو قادما باتّجاهي مرتديا قميص الشّغل البنفسجيّ. وقف أمامي مبتسما ومشّط بأصابعه شاربه الرّماديّ في حركة أنيقة تخفي اعتزازا خفيّا بكثافة الشعر على وجهه. بادرني بصوت أجشّ طفا فوق نقرات الفلامنكو:

- يبدو أنّ اللّيلة رائقة.. والزّبائن كثيرون!

أجبتُ بنبرة توحي بعدم استعدادي لتبادل حوار طويل:

- كالعادة سانتو.. كالعادة. لا أظنّ أنّ أحدا في هذه الصّالة جديد عليك. الشيء الوحيد الّذي لا يتغيّر أبدا هو كمّيات الكحول الّتي يستهلكها هؤلاء.. وهي في تزايد يوميّ كما تعلم.

- صحيح، ولكن يبدو أنّ لنا ما يكفي لإرواء ظمئهم اللّيلة على الأقلّ. رأيتُ حمولة جديدة من البيرة في المخزن، أظنّ أنّ فيديريكو قد مرّ اليوم؟

أجبتُ وأنا أناوله طبقا عليه إبريق "سانقريا" وزجاجتين من البيرة:

- فيديريكو كان هنا منذ ساعة، وأظنّني سأتّصل به ثانية في غضون الأيّام المقبلة ليأتي بحمولة جديدة. لا أظنّ أنّ ما في المخزن من قوارير

سيكفي لإرضاء حاجيات فرناندو وحده!

خرجتْ العبارة الأخيرة من بين شفتيَّ بطريقة عفويّة. لم أكن أقصد بها تبادل مزحة مع سانتو بأيّ شكل من الأشكال. ولكنّني فوجئت به يقهقه وكأنّه طفل يتابع حركات مهرّج في سيرك. لم يكن لابتهاجه الغريب عندي أيّ نوع من التّفسير، ولكنّني أدركتُ بحاسّة خفيّة أنّ حادثا ما قد طرأ على مزاجه الانطوائيّ فأضفى عليه حبورا استثنائيّا. قد يكون قد تذوّق جسد امرأة البارحة فمنحه ذلك طاقة جبّارة لإظهار ضرسه المعدنيّ في ابتسامة حقيقيّة. تماشيتُ مع الموقف حتّى أنهي الحوار بأقصى سرعة فضحكتُ معه مقهقها. ضحكتُ كأنّني قصدتُ فعلا أن أداعبه بنكتة ظريفة. كنتُ أحمل الكثير من المودّة لفرناندو، ولم يخطر ببالي أن يكون في يوم ما موضوعا لدعابة أتبادلها مع سانتو بالذّات. ولكنّ الموقف اقتضى أن أضحك، فضحكتُ.

انطلق سانتو يسقي الزّبائن. لمحتُه يمازح أحدهم ويشعل لآخر سيجارة دون أن تفارق الابتسامة وجهه. شيء جميل حقّا لو ظلّ على هذا المزاج لبضعة أيّام. سيكون العمل معه أكثر متعة إن حدث هذا فعلا. لو كانت هناك امرأة وراء هذا التطوّر المفاجئ في مزاجه، فسأبعث إليه بعاهرة من الماخور كلّ يوم.. وسيكون ذلك على حسابي الخاصّ.

فجأة، جثم طيف "أناتوليا" على قلبي واختطفني إلى فراشها الدّافئ لمدّة لحظات. لحظات أصبحت الحانة خلالها مجرّد سراب غوغائيّ بعيد. كم اشتقتُ إليها! هل ما زالت هناك يا ترى؟ وهل وجدتْ ابنتها الضالّة؟ كم رجلا استهلك جسدها منذ آخر يوم رأيتها فيه؟ هل وجدتْ من تحادثه وتقاسمه الهواجس والآلام كما كانت تفعل معي؟ هل وجدتْ

من تضمّه كما كانت تضمّني، وهل كانت تعلم بذلك الشّعور الغريب الّذي كان يكتسحني عندما أشمّ رائحة جلدها. ذلك الشّعور الّذي كان يدفعني إلى كتابة الرّسائل إلى أمّي إثر كل مرّة أزورها فيها.

... ضربة قويّة من ضربات القيثار الإسبانيّ أعادتني إلى وعيي. ضربة واحدة ذوّبتْ شبح أناتوليا كضباب رماديّ تلاشى مع تموّجات أدخنة السّجائر في فضاء الحانة. وقف سانتو أمامي بطبقه، وبابتسامته المعدنيّة الجديدة. زوّدتُ طبقه بما يحتاجه.. ومضى مسرعا. أشعلتُ سيجارة صامتة وامتصصتها بشراهة قبل أن أعود بتثاقل إلى تلبية طلبات فرناندو وغيره من الزّبائن الجالسين إلى خوان البار. كانوا يتحادثون ويتمازحون بصوت عال. من حين لآخر، كانوا يدقّون على سطح الخوان بأظافرهم السّوداء تناغما مع أنغام الفلامنكو. تنقّلتُ بين طلباتهم جيئة وذهابا. بين الحين والآخر كان سانتو يعود إليّ لأزوّد طبقه الكبير بعشرات الأكواب والزّجاجات الخضراء. كنت أقوم بكلّ هذه الأعمال وطيف أناتوليا يعود إلى التسلّل من دخان السّجائر إلى ذاكرتي من جديد. فجأة وجدتُني أقاوم رغبة جارفة في زيارتها غدا لأطمئنّ على حالها. لأطمئنّ فقط!

كنتُ بصدد غسل بعض الأقداح الفارغة عندما انفرج باب الحانة. دخل رجل طويل القامة، يرتدي بدلة زرقاء داكنة يخفي عينيه وراء نظّارة شمس سوداء. وقف الرّجل الغريب على بعد بضعة أمتار من الباب وخلع نظّارته بهدوء مطلقا بصره الحادّ عبر أرجاء القاعة متفرّسا في زبائنها واحدا واحدا. لم تبد عليه أيّ أمارة تدلّ على أنّه زبون جديد يبحث عن طاولة شاغرة. التقت أعيننا فابتسمتُ له، ولكنّه أشاح برأسه عنّي دون أن تنبسط قسمات وجهه. لعلّه أحد أصدقاء خوانيتو، جاء في طلبه

لغرض ما! في اللّحظة التي هممتُ فيها بالذّهاب إليه لأسأله عن حاجته، انفرج الباب من جديد عن رجل ثان أقصر منه بقليل. كان يرتدي بدلة داكنة من نفس الطّراز. تهامسا لبضع لحظات، ثمّ تقدّما نحوي بخطوات ثابتة. كان واضحا أنّهما يبحثان عن أحد ما. جثم الانقباض على صدري من جرّاء تشابههما في اللّباس والحركات، في المشية والعبوس، وحتّى في الأحذية السّوداء الّتي كانا ينتعلانها. نشّفتُ الماء الّذي كان يتقاطر من أصابعي بمنديل وأحسستُ بيديّ ترتعشان وبدبيب الخوف يتسلّق شراييني كحفنة من الحشرات السّوداء. عندما انتصبا أمامي، ابتسمت من جديد وتكلّفت الوداعة وأنا أبادرهما بهدوء:

- أهلا بكما في محلّنا! لدينا طاولة شاغرة جنب النّافذة بها مقعدان. ولكن من الممكن أن أضيف بعض المقاعد الأخرى إن كنتما تنتظران أشخاصا إضافيين. سانتو........

التفت سانتو ناحيتي. لمح الرّجليْن، فبرقتْ عيناه وتحرّك شارباه قليلا. بادرته بصوت عال تفانيتُ في إخفاء ارتعاشه: "جهّز طاولة الرّكن للسيّدين من فضلك!". أومأ إليّ برأسه علامة الامتثال وزادت عيناه بريقا. على شفتيه تراءى لي شبح ابتسامة مسمومة ثمّ مضى لينفّذ ما كلّفته به. قبل أن أجد مهلة إضافيّة لمواصلة استقبالي المتوجّس لهذين الزّائريْن الغامضيْن، علّق الرّجل الطّويل نظّارته السّوداء في جيب سترته الأماميّ، ثمّ سحب من جيبها الدّاخليّ بطاقة جلديّة سوداء. فتحها بهدوء وقرّبها إلى وجهي. نظرتُ فيها مليّا وقد ارتعدت أوصالي حتّى كدتُ أبول في موضعي. كانت البطاقة تحمل صورته، وكان عبوس وجهه فيها مطابقا لعبوسه وهو ينظر إليّ بعينيه الثلجيّتين منتظرا منّي انفعالا ما. كان من

الصّعب تجاهل ذلك الشّعار الحكوميّ الفضيّ الذّي كان يتوسّطها. انطلقت صرخة مكتومة في صدري عندما بادرني بصوت أجشّ:

- بوليس الهجرة... هل أنت صاحب الحان؟

ارتدّتْ الصّرخة إلى جوفي. شعرتُ بالأرض تميد تحتُ قدميَّ وبهوّة سحيقة تبتلعني إلى فراغ مميت. كنتُ كحيوان شارد وجد نفسه محاطا بالشبك من كلّ ناحية، ولم يكن له من مفرّ سوى الاندفاع يائسا إلى الأمام. كنتُ فريسة تتخبّط في شراكها ولم يكن أمامها خيار سوى تمزيق الحبال قبل أن تهوي الحراب على جسمها المتعَب فتنتهي قصّتها مع الحياة. في ذلك الفراغ الأصمّ الذي ابتلعني فور ما سمعتُ الرّجل الطّويل يفصح عن هويّته المهنيّة وينطق بشفتيه الغليظتين أشدّ الكلمات إثارة للفزع في قلوب أمثالي من أصناف "تحت الطّاولة": بوليس الهجرة! في ذلك الفراغ القاتل لمع خيط من نور في رأسي.. بريق يائس لأمل خفيّ. ذلك البريق الذي يولد من العدم في رأس غريق وهو في طريقه نحو العدم. بريق خاطف قد يهمس له -ودوّامة الماء تعصر ضلوعه- بأنّ النّهاية لم تحن بعد لأنّ تيّارا ما قد يجرفه في اللّحظات الأخيرة إلى الشّاطئ حيث الرّمل والشّمس والأشجار. في تلك اللّحظات، لم أكن أملك سوى الانهيار في كفّة وذلك البريق الذي برز لي كإله في الكفّة الأخرى. بلعتُ ريقي وقلتُ مبتسما:

- أهلا بكما. هل يمكن لي أن أساعدكما في شيء معيّن؟

أجاب الرّجل الطّويل وكأنّه يكرّر جزءًا من شريط قديم:

- هل.... أنت.... صاحب... الحان؟!

- أنا مدير الخان. صاحبته تدعى "كلارا رودريقز" وهي غير موجودة اليوم. ألي أن أساعدك في شيء هذا اليوم سينيور؟

قال بنبرة حادّة..وبوجه عابس:

- ما اسمك؟!

- خوانيتو.

في هذه اللّحظة لمحتُ رجلا ثالثا يرتدي نفس البدلة الزّرقاء الدّاكنة. كان بالخارج، ورأيته يتمشّى جيئة وذهابا أمام باب الحانة. من حين لآخر، كان ينظر إلى داخل الخان عبر إحدى نافذتيه ثمّ يعود إلى التّجوّل في حركة دؤوب وكأنّه كلب حراسة مدرّب.

- خوانيتو! اسمي خوانيتو.. وأنا مدير الخان هنا.

- تلقّينا إخطارا بأنّ هناك أشخاصا يعملون تحت الطّاولة في هذا المكان!

قبل أن أجيب بكلمة، اتّخذتُ قرارا سريعا بأن أردّ على الأسئلة باختصار شديد، حتّى لا تفضحني لكنتي. فتحتُ فمي لأقول شيئا، فلم أجد غير فراغ مميت. أشار هو إلى ناحية المطبخ وسألني باقتضاب:

- أهذا هو المطبخ؟

- أجل سينيور، هذا هو ... المطبخ!

- ابق هنا ولا تتحرّك من فضلك!

كانت أوامره لي مباشرة، صارمة، ومهذّبة. كان من الواضح أنّ ذلك ما تقتضيه أصول مهنته. مهنة اقتناص العصافير "الملوّنة" الّتي تعيش في

"الأسود"، لأنّها لا تملك ورقة تافهة تخرج بها إلى نور الشّمس. ورقة تافهة ولكنّها صعبة إلى درجة الاستحالة. تلك التأشيرة اللّعينة! التأشيرة الصمّاء التي تمنح نفسها لطائر واحد من بين آلاف الطّيور المهاجرة. الورقة الجَحُود الّتي تعيش حلما في قلوب أمثالي ثمّ تموتُ حلما في لحظات خاطفة، مباغتة.. عشوائيّة كهذه! اختفى الرّجلان وراء باب المطبخ. أَصَخْتُ السّمع فصفعتني موسيقي الفلامنكو. منذ سويعات كنتُ مع عيسى، وكنتُ محلّقا في الحديث معه عن الحبّ. كان يحادثني عن روزيتا وعن عينيها السّوداوين، عن بحّة صوتها وعن فستانها الأزرق، عن غموض ابتسامتها وعن اسمها البحريّ الذّي أطلقه عليها: "مارينا".. الله ما أروع هذا الاسم، وما أروع المرأة الّتي تسكن حروفه!

والآن، الآن أرى عُقابَيْنِ أسودين ينقضّان عليه دون خفقة جناح تُسْمَع، ودون نعقة قبيحة الصّوت قد تمهله بضع دقائق ليهرب من النّافذة الخلفيّة للمطبخ، أو يتسرّب من بابه الأماميّ الّذي يصعب فتحه بسرعة في مثل هذه الحالات الطّارئة. عندما توارى الرّجلان وراء باب المطبخ، بدأ مطر خفيف في رشّ رذاذه على نافذَتَيْ الحانة. على البلّور ارتعشتْ قطرات الماء مشحونة بأنوار مصابيح المساء. بعد لحظات، لمحتُ العُقابَ الثالث ينفض الماء عن سترته ثمّ يفتح باب الحانة ويغلقه وراءه بهدوء. انتصب أمام الباب عابسا، ورمقني بنظرة لولبيّة فهمتُ منها أنّه يعلم أنّني لا أحتاج لاستقباله لأنّه، وببساطة شديدة، قدم خصّيصا لترحيلي. رمقتُ سانتو بنظرة خاطفة. كان قد أتمّ تجهيز الطاولة الّتي لن يجلس عليها أحد. بعد ذلك شرع في التجوّل بين المقاعد مستجديا بعض الأحاديث العابرة مع زبون مخمور.. وآخر! أفقتُ من متابعتي لسانتو

وفكّرتُ بسرعة البرق: "المطبخ محاصر، والباب الأماميّ محاصر. إلى أين المفرّ الآن؟.. ماذ أفعل؟! عيسى وقع في الشَّرَك ولا أمل في إنقاذه الآن. أمّا أنا، فلا تزال دقائق ثمينة باقية أمامي. الفرار عبر إحدى نوافذ الحانة أمر مستحيل. لا الوقتُ، ولا المسافة كافيان لاقتحام الشّارع عبرها. سينقضّ عليَّ العُقابُ الثالث حتما، فهو منتصب الآن أمامي لهذه الغاية بالذّات. محاولة فراري بهذا الشّكل المباغت سيكون دليل إدانتي الّذي لن يقبل الشكّ. ماذا أفعل يا ربي... ماذا أفعل؟!"

تسارعتْ ضربات قلبي وشعرتُ بأنّها أصبحت أعلى صوتا من خفقات الفلامنكو. خيّل إليّ أن كلّ حرفاء الحانة يراقبونني، يفترسونني بنظراتهم الباردة، الضّاحكة، المخمورة. خيّل إليّ أنّهم يخاطبون شرطيّ الهجرة المنتصب أمام الباب بصوت كحوليٍّ واحد. يصرخون في وجهه ويقولون: "ماذا تنتظر؟ ولِمَ طال غيابك؟ هيّا.. اقبض عليه! إنّه هناك كطائر مشلول، مكسور المخالب. هيّا أيّها العُقاب الأسود المنقذ، انقضّ عليه بأجنحتك الكاسرة ولا ترحمه! افعلها بسرعة وخلّص أوروبّا من هذه الأشكال! خلّصها من هذه الدّيدان المتعفّنة الّتي زحفت إلى أراضينا في عتمة اللّيل وكأنّها متسرّبة من ظلمة القبور. خلّصنا من هؤلاء الّذين اختلسوا أشغالنا وألقوا بنا -أهالي البلاد الأصليّين- إلى فراغ الأرصفة.

أيّها العُقاب القويّ! نريدك أن تلقي بأمير وأشرف وعيسى في ظلمات زنازين الترحيل. من يدخل البيوت من شقوقها يُلقى به من نفس الشقوق قبل أن تُسدَّ بعده. فليعد أمير إلى أسطال الأسمنت وسطوح المنازل لأنّ سانتو يجب أن يعود إلى مكانه الطّبيعيّ.. هنا وراء خوان هذا البار! نحنُ لا نحبّ إلاّ التعامل مع فصيلتنا. فصيلتنا الّتي تتكلّم الإسبانيّة دون لكنة

وتوزّع علينا أقداح البيرة بابتسامة تلمع تحت برودها الأضراس الفضيّة!

فكّرتُ بسرعة إلى درجة أنّني أحسست بالدّم يتبخّر في شرايين رأسي. ضراوة التفكير في وسيلة مستحيلة للهرب كادت تقتلني. أحسستُ بأطراف أصابعي تتخدّر وبالشّلل يكتسح ما تبقّى من خلايا جسدي. أصبحتُ قلبا ينبض بهمجيّة في جوف جسد ميّت. جسد شاحب وبارد كقبر صامت في عتمة اللّيل. قلتُ في نفسي: "أنا واقع في الشَّرَك لا محالة، وإن كان لابدّ لي أن أموت، فسأموت بشرف. لابدّ أن أدافع عن نفسي حتّى لا أندم، فالأرواح النّادمة هي أرواح نتنة لا تليق لا بالأرض ولا بالسّماء. أرواح معلّقة بين اللاّشيء واللاّشيء!". في هذه اللّحظة أصبحتْ الرّؤية واضحة أمامي وأخذ قراري شكلا عمليّا لا يحتمل التردّد. الدّقائق المفترسة لا ترحم، وباب المطبخ لا يزال مواربا. لا يزال مخيفا في سكونه وفي غياب الأسئلة والتحقيقات الحارقة وراءه. مسكين يا عيسى! مسكين يا عيسى؟ وأنت يا أمير، أنسيت نفسك؟! نسيت أنّ دورك سيحين بعد بضع دقائق. افعلها الآن!.. الآن... الآن.

في هذه اللحظة كنتُ قد أمسكتُ بمقبض سكّين صغير حادّ. سكّين كان يجلس بصمت في الدّرج الأسفل للخوان في انتظار أن يُستعْمَلَ في مثل هذه الحالات! أعني في حالات مشابهة لمثل هذا الموقف القذر: كهجوم لصّ مخمور، أو مدمن مخدّرات يائس! لكلّ شيء في هذه الدّنيا عمل مؤجّل إلى حين! وهذا السكّين الضئيل الّذي ظنّ أنّه عديم الجدوى في الحياة ينتصب اليوم ليلبّي مهمّته الّتي خُلِقَ من أجلها.. لينقذني! دسسته في جيبي الأماميّ بيد مرتجفة، ومن حسن حظّي أنّ الخوان كان يغطّي نصفي السّفلي ما سمح لي بفعل ذلك دون إثارة انتباه الزّبائن

ودون زرع الشكّ في عيني ذلك الرّجل المتجهّم المنتصب أمام باب الحانة. كان وجهه يقطر ماءً وشهوة لوضع القيد في معصميّ دون أن يخطر له للحظة أن يسألني عن مدى حبّي لبرشلونة، ولكلارا. أن يسألني عن مدى عشقي للأحياء والأزقّة والحانات، وعن مدى ارتباطي بالحدائق العموميّة وبالنّافورات، بالقطارات والشّمس والسّحب، وبصوت فرناندو وهو يهتف مخمورا "سانتو طيّب القلب.. سانتو رائع!".

عزمتُ على مغادرة الخوان والتقدّم نحو الرّجل متظاهرا باستقباله وبسؤاله عمّا إذا كان يريد الجلوس إلى طاولة في انتظار زميليه. طبعا سيعتذر بصرامة. في تلك اللّحظة بالذات سأغمد السكّين في كتفه اليمنى. سيتلوّى ألما دون شكّ، عند ذلك ستكون الفرصة سانحة لأزيحه عن طريقي وأطلق ساقيّ لظلمة الأزقّة الملتوية. لم أكد أتحرّك خطوة واحدة حتّى انفرج باب المطبخ وظهر الرّجل الطّويل متجهّما، قاسي الملامح، بارد العينين. كان يحمل بيده اليمنى بعض الأوراق وقلما أسود. لم يعرني اهتماما واتّجه ناحية زميله الواقف أمام الباب. تبخّر أمل الفرار في قلبي من جديد وتسمّرتُ في موضعي. أخرجتُ يدي الّتي كانت قابضة على السكّين. تركتُها تستريح في جيبي لموعد مؤجّل. أقلعتُ عن التفكير وانتظرتُ ما تخفيه لي اللّحظات التالية. تحادث الرّجل الطّويل مع زميله وبدا وكأنّه يستشيره في أمر ما. بعد ذلك سلّمه الأوراق ثمّ دسّ القلم في جيبه وعاد متمهّلا باتّجاه المطبخ دون أن ينظر إليّ. قلتُ في نفسي: "فرصتك أصبحتْ مواتية هذه المرّة! هيّا افعلها الآن! فرصتك الأخيرة كما قال عيسى منذ ساعات. هي الفرصة الأخيرة.. فتحرّك! تقدّم إليه واغمد السكّين في كتفه القويّة. انفذ بجلدك إلى الأبد!".

عندما أخذتُ في التحرّك لمبارحة الخوان استعدادا لتنفيذ ما عزمتُ عليه، أشار إليّ ذو البدلة الزّرقاء دون أن يبارح موقعه أمام الباب. أشار إليّ بيده الضّخمة أن أقف مكاني. تظاهرتُ بعدم الفهم، وسرتُ نحوه متجاهلا ذلك الوضع الاستعداديّ المتحفّز الذي أخذه وكأنّه يستعدّ لمواجهة حيوان مفترس. وضع يده اليمنى على حزامه وكأنّه يتحسّس سلاحا ما. بعد لحظات سيكون له شرف القتال مع أكثر الحيوانات ضراوة. من البعوضة يولد ثعبان عندما يصبح الأمر صراعا من أجل البقاء!

لا يهمّ إن كنتُ بعوضة أم ثعبانا. وخزة إبرة ضئيلة أم نهشة أنياب حادّة، لا فرق! المهمّ هو أن أتمكّن من إزاحته عن طريقي بضربة مباغتة، ومنها أطلق ساقيّ لعتمة اللّيل. إلى حجرتي ربّما؟ أم إلى شقّة كلارا؟ إلى ملهى ليلي حيث العاريات من كلّ شيء حتّى من الحبّ كما قال لي عيسى، أم إلى شوارع مظلمة لا أوّل لها ولا آخر! إلى غد لا أعرف إلى هذه اللّحظة إن كنتُ سأرى له شمسا في هذه المدينة الّتي عشقتها على قدر ما كرهتها! طعنة حادّة في جناح هذا العُقاب الأسود ثمّ لكمة قويّة على وجهه، وسترى شمس برشلونة غدا يا أمير، ستراها حتما! تجلّد، ولا تخف! الخوف قاتل في مثل هذه الحالات. آه من هذا اليوم.. آه! عيسى وقع بين براثن الوحوش وانتهى أمره! تلاشت روزيتا كنقطة فيروزيّة في الأفق... وتلاشى هو معها!

لم تبق لي غير دقائق معدودات! لن أسمح لهذا الاجتياح السّخيف أن يختطفني في لحظة عابرة وكأنّني لم أعبر البحر على زورق الموت، ولم أرفع بيديّ جثثا متعفّنة بالملح لألقي بها في أعماق اللّجة.

هل ستقع في هذا الفخّ السّخيف، وكأنّ والدتك لم تدع لك بالخير قطّ؟ هل من المعقول أنّها ليست راضية عنك؟ هل من الممكن أن ينتهي أمرك بمثل هذه البساطة، بمثل هذا التّواطؤ القدريّ المضحك؟!

باب المطبخ لا يزال مواربا، وبضعة أمتار تفصلني عن ذلك الحاجز الآدميّ الرّهيب! الزّبائن مشغولون عن كلّ ما يحدث بالغناء وتبادل الأحاديث الماجنة بأصوات عالية. كنت أسكن معهم نفس الحانة، وأنصت وإيّاهم لنفس ضربات الفلامنكو. كنّا ننظر إلى نفس الأشياء: إلى الطّاولات والكراسي، إلى أكواب النّبيذ وأقداح البيرة، إلى علب السّجائر الرّخيصة وسحب الدّخان الزّرقاء المتصاعدة في فضاء الحانة كجنيّات ملعونة. كنّا نرى نفس الأشياء ونعيش نفس اللّحظات! حتّى هذا العُقاب الأسود اللّعين، المتحفّز بصمت قاتل للوثوب عليَّ، كنّا نبصره بنفس العيون ونعيش لحظات وقوفه أمام باب الحانة بذات الألوان: بدلة زرقاء داكنة، ربطة عنق سوداء على قميص أبيض، يد خشنة غزيرة الشّعر لمعت على معصمها سلسلة ذهبيّة من نوع "كارتييه"، وأصابع سمراء قابضة باحتراف على رزمة من الأوراق الصّفراء، تلك الّتي تحتوي على أسماء من سيسافرون دون رجعة. كنّا نرى نفس الأشياء.. لا شكّ في ذلك! ولكنّ الفرق بيننا كان بحجم السّماء والأرض. الفرق هو أنّني كنتُ أبصرها باقيا أو مودّعا، قاتلا أو مقتولا، حرّا أو سجينا! أمّا هؤلاء، فقد كانوا يرون كلّ هذه الأشياء بذات اللاّمبالاة الباردة. كانوا يمتلكون حقّ رؤيتها بذلك الاستهتار اللّعين.. لأنّ الفرق بيني وبينهم كان ورقة واحدة!

أشرف معه ألف حقّ! كان يقول لي دوما: "طالما لا تملك تلك الورقة،

تلك التأشيرة اللّعينة، فستظلّ أنت الورقة الوحيدة التي تتلاعب بها الريّاح. وسيكون الفزع هو ظلّك الّذي لن يفارقك ما حييت! ارحل معي إلى مونريال.. وسترى ما سنكون قادرين على تحقيقه!". كنت ألوذ بالصّمت وأبتسم، وكان هو يعلم أنّ ذلك يعني الرّفض مرّة أخرى. يصمت بدوره، ثمّ يغيّر مجرى الحديث وفي عينيه وخزة حزن! والآن!... الآن وأنا على وشك اقتراف جريمة لا يعلم عواقبها إلاّ الله، أعرف أنّ حزنه سيكون أعمق بكثير!

كنتُ قد اتخذتُ قرارا نهائيّا فيما يجب فعله إن كُتِبَتْ لي النّجاة، ولم يكن يفصلني عن ذلك القرار سوى شيء من التركيز وبذرة من الشّجاعة لاجتياز هذا اللّغم البشريّ المزروع أمام باب الحانة. أوشكتُ على بلوغ الهدف عندما استوقفني "ريكاردو" العجوز. بيده الخشنة ذات الأظافر السّوداء أحكم قبضته على ساعدي وبادرني بصوت عال دون أن تفارق السيجارة شفتيه الزّرقاوين. ناداني بصوت تلاعبت الخمرة بذبذباته فالتفتُ إليه بعينين ساهمتين وكأنّني لا أراه. كلّ ما وصلني من سحنته -الّتي كنتُ أعرفها جيّدا- هو رذاذ لعابه الممتزج برماد سيجارته وطيف لحيته الرّماديّة ذات البقع الصّفراء من أثر التبغ القويّ. خاطبني وكأنّه يخاطب خادما وضيعا:

- هاي... أنت! أين زجاجة البيرة وطبق السّمك المقليّ الّذي طلبتُه منذ ساعة؟!

سحبتُ ساعدي بصعوبة لأتخلّص من يده الوسخة. مسحتُ بكفّي الأيمن ما خلّفه على جلدي من عرق لزج.. ثمّ أجبته:

- لك أن تسأل سانتو...ألا تراه هناك؟

- ألست أنت المدير هنا؟ اللّعنة.. أين أنت يا خوانيتو؟! هؤلاء الصّبية لا يفهمون شيئا!

لم أجب بشيء. بطرف عيني اليمنى لمحتُ شرطيّ الهجرة يغيّر من وقفته أمام باب الحانة دون أن يتخلّى عن وضعه المتحفّز. صرخ ريكاردو مرّة ثانية حتّى كادت سيجارته تفلت من فمه:

- ألا تفهم الإسبانيّة أيّها الوغد؟ قلتُ لك أريد بيرتي حالا! سانتو.. أنت.. الشيطان الأحمر..لا يهمّني من سيأتي بها! هيّا تحرّك الآن.... تحرّك... أفهمت؟.. أم أفهِمُكَ على طريقتي!

كنتُ قد اكتسبتُ خبرة عميقة في التعامل مع هذه الفصيلة من الأوغاد: ريكاردو وأمثاله، من الّذين يبدأون ليلتهم في حالة صمت وخجل شديدين، ثمّ سرعان ما تتسرّب الشّجاعة إلى قلوبهم مع ذرّات الكحول، فيهيجون وينتفضون كالثيران السّجينة كلّما تقدّم اللّيل. كنتُ قد تمرّست بأصول السيّطرة على أمثال هذا العجوز المسعور، والخيار كان واضحا أمامي في هذه الحالة بالذّات: إمّا الدّخول معه في جدال ساخن لن ينتهي إلاّ بمشاجرة عنيفة قد يشارك فيها الجميع بما فيهم سانتو: دماء، وقارورات مكسورة، ثمّ شرطة وتحقيقات، فحانة مقفلة الأبواب في انتظار أن يُحسَم الأمر من قِبَل السّلطات البلديّة. وإمّا الحفاظ على هدوء الأعصاب وتكلّف ابتسامة وديعة يصاحبها اعتذار عميق.

اعتذرتُ لريكاردو وأشرتُ بيدي إلى سانتو صارخا:

- سانتو! طبق السّمك وزجاجة البيرة لريكاردو حالا. علينا أن نتحرّك بسرعة أكثر في هذا المكان!

نظر إليّ سانتو وقد توشّح وجهه بتلك الابتسامة المسمومة، ثمّ نظر إلى ناحية المطبخ بتردّد فاضح وكأنّه يقول لي: "أظنّك تعلم أنّه من المستحيل تنفيذ هذه الأوامر لأنّ عيسى على وشك الرّحيل!". وكأنّني سمعته يخاطبني دون أن يقول شيئا.. فيقول: "لك أن تصرخ في وجهي ما شئت، فلحظات وجودك في هذا المكان.. على وشك الانتهاء!". ومع ذلك، فقد تحرّك بتثاقل نحو الخوان، وفتح زجاجة بيرة على مهل، وكأنّه لاعب منتصر في اللحظات الأخيرة لمباراة رابحة. تقدّم نحوي، وبعد أن وضع البيرة أمام ريكاردو، توجّه لي بوقاحة غير مسبوقة:

- طبق السّمك لم يجهز بعد. وقد يأخذ وقتا طويلا كي يخرج!

لم يكن من السّهل تجاهل اللّذة الخفيّة التي لفظ بها كلمة "يخرج!".

- اللّعنة على الصّبية!... أين أنت يا خوانيتو؟!

صرخ ريكاردو حانقا وهو يرمي بسيجارته أرضا دون أن يطفئها. بعد ذلك، تجرّع بيرته دفعة واحدة، والتفت إلى جليسه على الطّاولة لينغمس معه من جديد في حديث عابث!

وقفتُ أمام الرّجل ذي البدلة الزّرقاء الدّاكنة. وقفتُ مبتسما وقد تخبّطت الأمعاء في جوفي حتّى كدتُ أسمع لها أنينا موجعا. حافظتُ على هدوئي مدركا أنّه لا خيار لي سوى الإبقاء على تماسك أعصابي.

قلتُ له مُرَحِّبًا:

- أهلا بك سينيور. طاولة الرّكن جاهزة للجلوس..........

قبل أن أكمل جملتي، أجابني بصوت بارد كالثلج:

- لستُ هنا كي أجلس. عليك أن تعود حالا إلى مكانك ولا تبارحه لو سمحت. انتظر ريثما يفرغ زميلاي من بقيّة الإجراءات!

نظرات ناريّة انطلقت من عينيه السّوداوين، وشعرتُ بجسدي يتلاشى في الهواء كالبخار. عيناه كانتا تقولان شيئا واحدا: "أنت تعلم لِمَ نحنُ هنا.. فلا داعي للتّغابي، لا داعي لتكلّف الابتسامة! عُدْ إلى موضعك وراء الخوان وانتظر ريثما نفرغ من إغلاق القفص على زميلك الصّومالّي. بعد ذلك، سننظر في أمرك!"

مخطّط الهجوم الّذي سطّرته في رأسي قبل أن أصل أمامه كان يبدو هيّنا قبل التنفيذ. ولكن عندما بلغني ذلك الصّوت الحازم، الصّارم في أوامره: "عد إلى موضعك وراء الخوان وانتظر!". عندما احترقتُ عن قرب باللّهب المتطاير من عينيه أدركتُ أنّ الأفكار تولد شجاعة فقط على بعد بضعة أمتار من الخطر!

أصبح كلّ شيء واضحا أمامي. كلّ إحساس بداخلي أصبح على مشارف النّهاية. شعرتُ بالسّكين تذوب في جيبي وتعود إلى "لاجدواها" القديم. قرّرتُ العودة إلى مكاني مفضّلا مرارة انتظار قرار الترحيل على البقاء في هذه المدينة مدانا بجريمة قتل. قلتُ له محافظا على توزان ابتسامة عصبيّة:

- أمرك سينيور!

.... وعدتُ من حيث أتيت. عدتُ إلى الوقوف وراء الخوان وانتظرتُ. كان باب المطبخ لا يزال مواربا، وكان فرناندو قد بلغ ذروة انتشائه الكحوليّ. كنتُ أعرف ذلك عندما يشرع هو في استجداء السّجائر

ممّن يحاذونه من الحرفاء. هذه المرّة لم يلق منهم سوى الرّفض، فطلب منّي سيجارة. أهديته علبتي بأكملها، فقال ضاحكا:

- لا.. لا.. عزيزي، سيجارة واحدة تكفي!

قلت يائسا:

- العلبة بأكملها لك يا عزيزي الطيّب. هديّة تذكاريّة منّي!

في هذه اللّحظة بالذات، تزاحمت الدّموع في عينيّ. سالت قطرتان حارقتان على وجنتيّ. وقبل أن يلاحظ أحد، أسرعتُ لمسحهما بكمّ قميصي. ولكنّ فرناندو كان سريع البديهة هذه المرّة فقال لي مستوضحا:

- هل كلّ شيء على ما يرام عزيزي أمير؟

أجبته بصوت مرتجف:

- كلّ شيء على ما يرام فرناندو...... كلّ شيء على ما يرام!

مرّت الدّقائق كالسّنوات. شاقّة، مرّة، محرقة وطويلة. كان الاستسلام قد تفشّى في جسدي وروحي فأرداني كسيحا، ووجدتني أعيش لحظاتي الأخيرة بقلب مذبوح تقاطرت دماؤه ساخنة، حمراء ومقهورة. فجأة فتح الرّجل الطّويل العابس باب المطبخ. اقترب منّي بهدوء وقال:

- سينيور خوانيتو! المكالمة الّتي تلقّيناها تفيد بأنّ هناك شخصين يشتغلان في مطبخ هذه الحانة بصفة غير قانونيّة. سينيور "عيسى" أفاد في اعتراف مفصّل وقّعه بخطّ يده، أنّه لا يملك أوراق الإقامة هنا في إسبانيا. سينيور "عيسى" سيرافقنا إلى المخفر حيث سننهي إجراءات ترحيله إلى إفريقيا. سؤالي لك الآن هو الآتي: "هل هناك شخص ثان باسم سينيور

أمير يعمل عندكم طبّاخا في هذا المكان؟ أعني................ ".

في هذه اللّحظة خرج الرّجل الثاني من المطبخ قابضا بيده الضخمة على ساعد عيسى. كانت يداه مكبّلتين بقيد حديديّ سميك. تقدّما نحو الخوان بخطى متمهّلة، ثمّ بادر زميله العابس دون أن يرفع يديه عن ساعد عيسى:

- سنذهب الآن!

- حسنٌ... سألحق بكما بعد لحظات فور ما أكمل مع سنيور خوانيتو هنا.

طاقة غريزيّة مبهمة كانت تمنعني بوحشيّة قاتلة من النّظر في وجه عيسى. في تلك اللّحظات الأخيرة تحوّلتُ إلى "سينيور خوانيتو"، ولم يعد ذلك الصّوماليّ الطيّب يعني لي أكثر من بعوضة سمراء لاذت بأضواء مطبخي فجدتُ عليها بحماية مؤقّتة. بعوضة تحوم حول شخصي العملاق إلى أن اكتشفها عمّال النظافة فأتوا بمبيداتهم البيضاء للفتك بها قبل أن تتفشّى أوبئتها في الفضاء. لم أنظر إليه! لم تكن لحدقتيّ شجاعة المواجهة. كلّ ما كنتُ أعرفه أنّه لم يبك، ولم يحاول التملّص من اليد الحديديّة المطبقة على ساعده النّحيل. كان مستسلما لسطوة الصّمت. وأظنّني لمحتُ في نظرة خاطفة لوجهه، نظرة استرقتُها لوداع أخير، أظنّني لمحتُ أسنانه العاجيّة تلمع تحت الضّوء! هل كان يبتسم لسخرية القدر أم كان يكشّر عن أنيابه في مواجهة أخيرة معه؟ لا أعرف إلى هذا اليوم..... ولا أريد أن أعرف!

أمسك الرّجل الذي كان واقفا أمام الباب بساعد عيسى الآخر ثمّ فتح الباب بهدوء مفسحا المجال لصاحبه كي يتقدّم أوّلا. بعد ذلك تلاه عيسى ثمّ تبعهما هو بسلسلته الذهبيّة الملتمعة حول معصمه. أمّا يده الثانية فقد كانت قابضة على الأوراق الصّفراء الّتي تحمل في طيّاتها الاعتراف الكامل لعيسى بأنّه لا يملك الحقّ في أن يحبّ امرأة في محطّة قطارٍ لا يملك رخصة التجوّل فيها. تلاشى عيسى تحت رذاذ المطر وبقي صوته المرح وهو يروي لي إحدى نكته الجميلة يرنّ في أذنيّ. ثمّ سمعتُ أنفاسه وهي تهمس بحشرجة حالمة: "اختيارها أن توقّع تذكرة لقائنا الثّاني تحت اسم "مارينا" ألقى بي في لازورديّة فستانها من جديد.. وهأنذا أغرق إثر أوّل مناورة!". فكّرتُ في ولعه الغريب بالأسماء وبتطابق معناها مع الأشخاص الّذين يحملونها، وشعرتُ بأنّ هديّته الأخيرة لي قد تكون اسما لا يشبهني. اسم أرتدي حروفه بازدراء، لعلّ قطار الرّحيل ينحرف عنّي في اللّحظات الأخيرة: خوانيتو!

أفقتُ من ذهولي على صوت الشرطيّ وهو يقول بلهجة حاسمة أوحت لي بأنّ الحديث على وشك الانتهاء:

- سينيور خوانيتو! إن كان هناك شخصٌ ثان يحمل اسم "سينيور أمير"، فأنصحك أن تتّصل به في أقرب الآجال لتنصحه بعدم العودة إلى عمله في هذا الحان مرّة أخرى! حانتك الآن تحت عدسة المراقبة، وقد نزوركم في حملة تفتيشيّة في أي لحظة. والآن، أظنّك تعلم أنّ هناك غرامة ماليّة وجب دفعها من جرّاء مخالفتكم لقوانين العمل والموظّفين!

أومأتُ برأسي علامة الموافقة متقنا رسم ابتسامة على وجهي. ابتسامة أوحت له بخبرتي في عواقب اختراق مثل هذا الصّنف من القوانين.

ختم الشرطيّ العابس كلامه قائلا:

- أرجو أن تدلي بتوقيعك هنا سينيور خوانيتو. الأجل الأقصى لدفع الغرامة لا يتجاوز ثلاثين يوما من هذا التاريخ!

وقّعتُ على وصل الغرامة وقلبي يرقص فرحا. تعالت ضربات الفلامنكو صاخبة، متوحّشة ومجنونة. في خضمّها، وبعد أن توارى الشرطيّ وراء الباب الخارجيّ للحانة، همستُ لسانتو: "عيسى قُبِضَ عليه من طرف بوليس الهجرة وسيقومون بترحيله إلى بلاده قريبا. وشاية حقيرة من شخص حقير!"

- يا إلهي!.... أجاب هو بصوت مسموم....... يا إلهي!

نظرتُ إليه بازدراء وكأنّني أخاطبه قائلا: "أعلمُ خارج دائرة الشّك أنّك من فعلها! وكان الأجدر بوشايتك الغادرة أن تكون أكثر دقّة أيّها الوغد! زلّة لسان تافهة، وهأنذا لا أزال واقفا أمامك، سيّدك وربّ عملك!". كان بودّي أن أصرخ في وجهه، أن أحطّم أنفه بلكمة واحدة، أضع فيها كلّ ما احتقن بداخلي من جنون. كان بودّي أن أنتف شاربيه بأظافري قبل أن أغطس رأسه اللّعين في مقلاة الزّيت الحارق انتقاما لعيسى ولروزيتا، انتقاما لي ولأشرف ولكلّ من دفنتُ بيديّ هاتين في عرض البحر.

في رأسي المُتْعَب حُسَمَ قرار مؤجّل إلى الغد. أمّا هذه اللّيلة الملعونة، فلا بدّ لها أن تنتهي على خير. بالتأكيد أنّها ستنتهي على خير! دفنتُ ألمي وراء شفتيّ وأنا أوجّه لسانتو ابتسامة ودّية وأضع على طبقه بعض قوارير البيرة. في رأسي المُتْعَب حُسَمَ قرار مؤجّل إلى الغد! قرار يعادل

في صلابته أوتار القيثار الغجريّ المرتجّة تحت أظافر عازف الفلامنكو. قرّرتُ الالتحاق بصفوف الغجر. تبيّنتْ لي الرّؤية الآن بأنّني مثلهم... لا أملك من البقاء سوى عدوى الرّحيل!

أسرعتُ إلى جهاز التسجيل فأقفلته، ثمّ خاطبتُ زبائن الحانة بصوت عال:

– عذرا أصدقائي الأعزّاء. طبّاخنا غادر لظرف طارئ. المطبخ مقفل إلى نهاية اللّيلة. نرجو منكم تفهّم الوضع! سنقدّم قارورة نبيذ لكلّ أربعة أشخاص وسيكون ذلك على حساب البار!".

قبل أن أعيد فتح جهاز التسجيل، سمعتُ صوت ريكاردو العجوز وهو يلعن صائحا:

– أين أنت يا خوانيتو، اللّعنة على هؤلاء الصّبية، لا يفهمون شيئا!

في هذه اللّحظة أدركتُ أنّ الفلامنكو قد أنقذني من الهلاك، فلولا موسيقاه الصّاخبة، لسمع الشرطيّ الّذي كان واقفا أمام الباب هذيان هذا العجوز، ولكنت الآن في طريقي إلى سجون الترحيل!

- ٢٥ -

كانت السّاعة تشير إلى الخامسة صباحا عندما أغلقتُ باب الحانة. فرناندو كان آخر المغادرين كالمعتاد. ككلّ ليلة، قذفتُ بجسمه المخمور داخل سيّارة أجرة طلبتُها له خصّيصا. هذه المرّة كان حسّاسا أكثر من المعتاد. قبل أن أزيل ذراعه اليمنى من على عنقي لأفتح باب التاكسي، نظر في وجهي بحنان شديد وقال بصوت مبحوح تدفّقت من تموّجاته رائحة الكحول:

- أنت طيّب القلب كثيرا سينيور أمير. لا أدري كيف أكافئك على حسن صنيعك معي كلّ ليلة!

أجبتُ مبتسما:

- تكافئني بأن تعود إلى بيتك وتنال قسطا من الرّاحة!

قال مترنّحا:

- الليلة بي شهوة لفخذين ساخنين! أتعرف إن كان الماخور مفتوحا في هذه السّاعة؟

أجبتُ بهدوء:

- الماخور مقفل في مثل هذه السّاعة فرناندو. العاهرات يصيبهنّ التعب كذلك. وعلى أي حال، لا أظنّك الآن في حالة جسديّة تسمح لك بالاستمتاع بأيّ نوع من اللّذة ما عدا لذّة النّوم.

- اللّعنة على العاهرات واللّعنة على النّساء!

.. أجاب فرناندو وقد كاد أن يفلت منّي لولا تداركتُه في آخر لحظة ممتصّا ثقل جسمه المرتخي بساعدي الأيسر.

تعالت قهقهاته وكأنّه طفل يلهو على متن أرجوحة خشبيّة، ولاحظتُ التبرّم الواضح على وجه سائق التاكسي. رفعتُه ليقف من جديد، وعندما عاد إلى توازنه قال مداعبا:

- صديقك الصّوماليّ لم يشِ بك عند بوليس الهجرة. أنت شخص محظوظ في الصّداقة. ذلك يعود لأنّك طيّب القلب سينيور أمير... أنت طيّب القلب سينيور أمير!

صُعِقْتُ لتلك الملاحظة. كنتُ أحسبه مخمورا، غائبا، طيّبا إلى درجة الغباء. ولكنّه كان يتابع كلّ ما كان يحدثُ بفطنة كلب حربيّ. لم يشأ فرناندو -وهو يترنّح كحبل بشريّ بين يديّ- إلاّ أن يذكّرني بما كنتُ أحاول تجاهله في السّاعات الأخيرة دون جدوى. كان بإمكان عيسى أن يفضح أمري ولكنّه لم يفعل! كان يعلم أنّ وقوعي في براثن بوليس الهجرة لن يغيّر من أمر إنقاذه شيئا. بصمت دفع عنّي ثمن الخلاص ولم أجد الوقت الكافي لأشكره. كان "عيسى" بأتمّ معنى الكلمة. تطابق بين الاسم والشّخص عكس ما كان يظنّ لنفسه!

أنزل السّائق زجاج النّافذة اليمنى المقابلة له، وصاح فينا متبرّما:

- أتركبان... أم أنطلق في حال سبيلي فورا؟!

فتحتُ الباب الخلفيّ لسيّارة الأجرة بصعوبة بالغة. فعلتُ ذلك متحمّلا ثقل فرناندو الّذي كان لا يزال مستندا بذراعه اليمنى على عنقي. ألقيتُ به على المقعد ورفعتُ رجليه لأُتِمَّ إدخاله، ثمّ أغلقتُ الباب. أطللتُ على السّائق العصبيّ من النّافذة الأماميّة المفتوحة واعتذرتُ له بلباقة عن تثاقلنا في عمليّة الصّعود. لم أنس تزويده بعنوان سكن فرناندو الّذي كنتُ أحفظه عن ظهر قلب. غمزتُ لصاحبي المخمور قائلا: "أراك على خير غدا عزيزي فرناندو!". لم يجبني لأنّ النّوم اختطفه في لحظة من نفسه، ولم يبق من جسده سوى طيف ابتسامة حزينة.

عندما اختفى شبح سيّارة الأجرة عن ناظري، كانت السّماء قد بدأت في رفع برقع الظّلام عن وجهها في إغراء أنثويّ. تناهت إلى سمعي زقزقة بعض الطيور المبكّرة. مشيتُ بخطوات حثيثة في محاولة يائسة لمسابقة أضواء الفجر. كنتُ أشتهي الاختلاء بنفسي لبضع ساعات لعلّني أستوعب حجم حقيقة نجاتي من مصيبة اليوم. وسادة سريري وظلمة غرفتي كانتا تناديانِي ولم أجد في روحي منطقة لمقاومة ذلك. كان عليَّ أن أفكّر. أن أفكّر وحدي دون مقاطعة أو تشويش صوتيّ من بشر أو حيوان.. أو حتّى من قطرات ماء متسربة من حنفيّة مكسورة. ولكنّ فيما وجب التفكير؟ ولأيّ غاية أو هدف؟ كنتُ قد اتخذتُ قراري منذ أن توارى عنّي شبح عيسى مقيّدا بأغلال الصّمت. لم يتردّد هو، فلمَ تردّدي الآن؟ أقلّ ما يمكن أن أقدّمه له هو حسم الأشياء في لحظة واحدة.. تماما كما فعل هو منذ ساعات!

جبتُ الأزقّة والطّرقات متّئدا. كانت المدينة لا تزال مستغرقة في آخر سويعات النّعاس. لا أثر لمخلوق في الشّوارع ما عدا بعض القطط المتسكّعة الباحثة عن بقايا الطّعام في حاويات القمامة. شعرتُ بصداع شديد يتضخّم في رأسي وبحمّى الإجهاد تتسلّق جسدي كعنكبوت أسود. فكّرتُ في الجلوس على أحد أدراج الدّكاكين المقفلة كي أرتاح قليلا قبل استئناف السّير. بدت لي الطّريق إلى حجرتي طويلة وشاقّة، وشعرتُ بأنّني أقطع البحر والصّحراء معا. ثلاثون دقيقة من الحانة إلى حجرتي. تلك هي كلّ الحكاية! فلم تبدو لي الآن وكأنّها ثلاثون عاما، لِمَ أقطعُها بمعاناة سلحفاة هرمة؟ بلغتُ غرفتي عند أوّل خيوط الفجر. فتحتُ الباب، ودون أن أشعل النّور.. وجدتُ طريقي إلى فراشي. ألقيتُ بنفسي على وسائده الباردة كمن يلقي بكيس في أعماق المحيط. بلغني صوت أمّي قادما من بعيد.. ملتحفا بزرقة المتوسّط: "اخلع حذاءك قبل أن تنام يا ولدي!".

- ٢٦ -

لم تكن كلارا موجودة في الشقّة عندما فتح أشرف لي الباب في اليوم التالي. استقبلني بابتسامة ذابلة ووجه ضامر. كان الهزال قد كسا جسده، ولكنّني سُرِرْتُ بأنّه أصبح قادرا على الوقوف. قبّلته على وجنتيه قائلا:

- كيف حالك اليوم؟

- أحسن بكثير، مع أنّني مللتُ المكوث في هذه الشقّة اللعينة.. أشعر أنّها ستطبق على أنفاسي! أغلقْ الباب وراءك واتبعني. سأغيّر ملابسي ونخرج لاستنشاق شيء من الهواء النقيّ. ما رأيك بفنجان قهوة في التريفلو؟

لم أجب بشيء. أطبقتُ الباب وتبعته إلى غرفته صامتا. كان يمشي أمامي بسرعة، وعندما اجتزتُ باب الحجرة كان قد شرع في خلع بيجامته.

- هناك قميص أسود معلّق داخل الخزانة الّتي بجوارك. هل لك أن تناولني إيّاه؟

سألتُه وأنا أفتح باب الخزانة:

– أمتأكّد أنك الآن قادر على الخروج؟ ألن يعرّض المشي صحتك إلى التدهور مرّة ثانية؟ هل سمح لك الطّبيب بذلك؟

كان قد أصبح عاري الصدر، ولاحظتُ ضمور بطنه وضلوعه البارزة، وهو ينحني لالتقاط بنطلون الجينز الأزرق الملقى إلى جانب طاولة الأدوية. خلع سروال بيجامته وجلس إلى السرير بِتُبَّانِه الدّاخليّ. ناولته القميص الأسود وعدتُ إلى سؤاله مرّة ثانية:

– لم تجبني! ماذا قال الطّبيب؟

نظر إليّ بوجوم وفرك شعره وهو يقول:

– اللعنة على الطّبيب.. واللّعنة على كلارا. لو أصغيتُ لكلامهما لمكثتُ في هذا السّجن المتعفن لمدّة شهور طويلة. أريد أن أرى الشمس! أريد أن أتحدّث مع النّاس! ألا يحقّ لي هذا بعد ثلاثة أسابيع من العزلة؟

– لكنّ كلارا معك دوما، وأنا أزورك من حين لآخر!

أجاب صارخا:

– أريد أن أرى القطط والكلاب! أريد أن أتحادث مع أبالسة الجحيم!.. هه.. ما رأيك الآن؟!

واستمرّ قائلا وهو يرتدي ثيابه في عصبيّة مجنونة:

– ما رأيك الآن... هه.. قل لي ما رأيك؟! هل ستأتي معي لشرب فنجان قهوة، أم تغربُ على وجهي في هذه السّاعة الحمراء، وسأذهب بمفردي!

خوفا على صحّته، التزمتُ الهدوء قائلا: أين كلارا؟

أجاب وهو يأخذ نفسا عميقا:

- خرجتْ لقضاء بعض الشؤون. قبل أن تطرق أنت الباب بدقائق، كنتُ أدعو اللهّ أن تطحنها شاحنة مسرعة على قارعة الطّريق فتريحني منها!

كان جسمه يهتزّ انفعالا. ورغم تشنّجه المفرط، فقد تمكّن من ارتداء ملابسهٰ وأنا أنظر إليه صامتا. انتصب أمامي وقد ذبلت عيناه واتّسعت الثقوب على وجهه من شدّة العصبيّة. صرخ في وجهي مرّة ثانية:

- هيه.. ماذا قلت؟ هل ستأتي معي أم لا؟ كنتُ سأترك الشقّة بك أو بدونك! كان ذلك قراري قبل أن تصل، ولكنّك الآن هنا! فنجان قهوة في التريفلو.. الآن.. وحالا! هل ستأتي أم تغرب عن وجهي لتذهب إلى أبالسة الجحيم أنت كذلك؟!

نظرتُ إلى ساعتي. كانت تشير إلى الثانية إلاّ ربع بعد الظّهر. أجبتُه محافظا على هدوئي:

- أمرك سيّد أشرف....... هيّا بنا!

... كان مقهى التريفلو مكتظا بالزّبائن. أصدقاء يتهازحون، وعشاق يتبادلون همسات الحبّ. رجل مسنّ يتصفّح جريدة اليوم ويلقي بها جانبا ليطلق عينيه لذكريات بعيدة. ثمّة طالب فقير يبحث عن المستقبل في كومة من الدّفاتر والأقلام على الطّاولة المقابلة. كان هناك مكان شاغر في إحدى الزّوايا. جلسنا متقابلين والصّمت ثالثنا لبضع دقائق. بعد هنيهة قدم أرماند لرؤيتنا. أخذ طلباتنا، ثمّ غاب قليلا ليعود بطبق عليه كوب ليمون مثلّج وضعه أمامي بهدوئه المعتاد. وضع فنجان إسبريسّو

وكوبا ضبابيّا من الماء البارد أمام أشرف، واعتذر بأدب على نسيانه لقطع السكّر. مضى مسرعا ثمّ عاد بوعاء بلّوريّ أزرق تكوّمت فوقه مكعّبات السكّر في شكل هرميّ أنيق. شكرتُه نيابة عن أشرف الّذي كان منهمكا في إشعال سيجارته الثانية. كان لا يزال مغرقا في الصّمت وقد اشتعل الحزن في عينيه الغائرتين. راقبته بشفقة وهو يطلق دخانه في الهواء على شكل دوائر متموّجة. أخذتُ رشفة سريعة من كوب اللّيمون وركّزتُ نظراتي على وجهه في انتظار حارق لردّ فعل منه بخصوص ما رويت له من أمر هجوم شرطة الهجرة على الحانة وترحيل عيسى. قصصتُ عليه الحادثة ونحن في طريقنا إلى المقهى:

"أشرف! لا أستطيع إلى هذه اللّحظة تصديق ما حدث. هل يمكن لك أن تصدّق أنت هذا الأمر؟ بوليس الهجرة يقف على قاب قوسين أو أدنى منّي! أنا الّذي ليس في جيبه ورقة واحدة تدلّ على هوّيته. بوليس الهجرة يقف على بعد شبرين من خوان البار ويطلب منّي بكلّ أدب أن أوقّع على ورقة لدفع غرامة ماليّة، ثمّ يمضي بالطبّاخ الصّوماليّ في قفص ويرحل! أفعى سامّة كانت تزحف على جسدي بليونة قاتلة، وتنساب بكلّ حريّة على جلدي لتعصره كإسفنجة قديمة. ولحظات قبل أن تزهق روحي، تغادرني دون أن تفكّر للحظة في غرس أنيابها القاتلة في عروقي. آه كم أنا محظوظ! أقسم بالله أنّها دعوات أمّي. لو كان خوانيتو موجودا لوجدتني الآن في زنزانة الإيقاف منتظرا قرار ترحيلي وراء الشّمس!"

كان أشرف يمشي بمحاذاتي ملتزما بالصّمت. يدخّن ويهزّ برأسه ووجهه ينتقل من شحوب إلى شحوب كقاطرة تحيد عن سكّتها نحو دمار حتميّ. ظلّ على هذه الحال إلى حين بلوغنا إلى مقهى التريفلو

حيث قطع أرماند حديثنا بهالته الوقور وابتسامته الهادئة: "طاولة الرّكن شاغرة سينيور أمير. تفضّلا، وسأكون في خدمتكما بعد لحظات". أخذتُ رشفة ثانية من كوب اللّيمون، ثمّ تناولتُ علبة سجائره وسحبتُ منها واحدة. أشعلتُها بهدوء ورمقته بنظرة حانية قائلا:

- أريد السّفر إلى مونريال. هل ما زال لي مكان معك في الرّحلة؟

أطفأ سيجارته بعصبيّة. تناثر رمادها في المنفضة وخارجها. أطرق هنيهة، ثمّ نظر إليّ واجما. أجاب وهو يتناول سيجارة ثانية من العلبة الملقاة على الطّاولة:

- تريد أن تسافر معي إلى مونريال؟

لم أفهم إن كانت جملته تعليقا ساخرا أم سؤالا جادّا، فصمتتُّ لبضع ثوان مسترقا النظر إلى الرّجل المسنّ الّذي نهض عن مكانه وجريدته تحت إبطه: أخبار اليوم كانت تبدو حزينة! أدركني أشرف قبل أن أجيبه:

- أمتأكّد أنت من قرارك بالسّفر معي؟ أم هو تأثّرٌ وقتيّ بما حدث لك البارحة في البار؟

أجبتُ واثقا:

- أنت تقول إنّ فرص التحصّل على أوراق الإقامة هناك أسهل بكثير. ما حصل البارحة له علاقة بتغيير قراري بطبيعة الحال. ما حدث ليلة أمس قد يحدث مرّة ثانية وثالثة في أيّ وقت وفي أيّ مكان قد أعمل فيه هنا.. سواء كان بار كلارا أم غيره. أفضّل أن أغامر معك للمرّة الأخيرة على أنّ يُقبَض على غدرا كما قُبِض على عيسى. أشرف! لقد رأينا الموت بأعيننا ولمسناه بأيدينا لكي نصل إلى هنا... أتذكُر؟

- وهل تلك رحلة تُنسى؟... أجاب وقد ارتعش توهّج السيجارة بين أصابعه.

- إذن فأنا أدرك الآن تماما أنّه لا جدوى من البقاء في مدينة فقط لأنّني تعوّدتها أو ربّما لأنّني غامرتُ بحياتي من أجل الوصول إليها، فذلك قد يجعلني أخسرها وأخسر حياتي معا. أنا لا أريد العودة إلى القرية مرحّلا، معتقلا، ذليلا. أريد أن أعود إليها في يوم ما تماما كما تريد أنت أن تعود. أريد أن أرجع مرفوع الرّأس، وهذا وحده كاف لسفر جديد. أنت أدركت منذ البداية ألاّ بقاء لنا في بلاد بعيدة دون أوراق إقامة، ولكنّني كنتُ غبيّا، كنتُ أحمقًا وعنيدًا. وغبائي هذا كاد يلقي بي في الهاوية لولا ستر اللهّ. إن كانت مدينة الثلج الّتي تتحدّث عنها دوما ستمنحني تأشيرة البقاء، فلم أرفض الرّحيل؟ أنا لا أرجو شيئا من الدّنيا سوى أن أتمكّن في يوم ما من التجوّل على الأرصفة دون شبح شرطيّ يلاحقني أينما ذهبت. هل هذا كثير عليَّ.. هل هذا كثير؟ إن كانت هذه المدينة الجديدة ستهديني هذا الحلم، فأنا معك! أقسم لك على المصحف بأنّني سأكون معك إلى النّهاية!

ابتسم لي أشرف بحنان، ثمّ ترشّف قهوته. لاحظتُ أنّ موجة من الحيويّة قد بدأت تنتشر على قسمات وجهه. أجابني بهدوء:

- لا حاجة بك أن تقسم على أيّ كتاب. أنا واثق من قرارك، ولا أطلب منك عهدا لأنّني أعلم أنّك الآن، والآن فقط، أدركْتَ حقيقة الحالة الّتي كنّا وما زلنا نعيشها. أدركتَ أنّ التأشيرة هي المنقذ الوحيد من وقوعنا الحتميّ في أعماق الهاوية. ولهذا، فقد أصبحتَ الآن مدركا لقيمة الفرصة الّتي تنتظرنا بعد أسبوعين رغم أنّني قد شرحتُ لك ذلك في أكثر من مناسبة!

نقل سيجارته من يده اليمنى إلى اليسرى في حركة رشيقة، ثمّ مدّ أنامله الخشنة باتّجاهي فصافحته مبتسما. قال وقد فارق الشحوب وجهه، وومضت عيناه ببريق الانتصار:

- مرحبا بك على سفينة بلانكو... صديقي المسكين!

...غادرنا مقهى التريفلو بعد أن دفعتُ الحساب لأرماند. في أثناء عدّي للنّقود، تبادلتُ معه بعض كلمات المجاملة وشيئا من أخبار فريق برشلونة وانتصاراته المتتالية. كان أشرف يتابع حديثنا صامتا، محافظا على هدوء ابتسامة كانت غائبة عن وجهه منذ شهور. عندما تلقّانا الشارع بضجيجه اليوميّ، كانت الساعة تشير إلى الرّابعة وعشرين دقيقة. أدركتُ فجأة أنّ موعد فتح الحانة قد اقترب. استبدّ بي هلع شديد، وتسرّبتْ برودة ثلجيّة إلى جسدي وكأنّني أقاد إلى حبل المشنقة بعد لحظات! صحيح أنّني اتخذتُ قرارا حاسما منذّ أن نفذتُ بأعجوبة من قبضة بوليس الهجرة. قرارا لا رجوع فيه بأنّني سأرافق أشرف في رحلة مجهولة لمدينة توزع الأحلام على من لا أحلام لديهم. ولكن ما فاتني هو التفكير فيما سأفعله خلال الأسبوعين اللذين يفصلاني عن إقلاع سفينة بلانكو في عرض المحيط. ذاك خاطر أزعجني، واقشعرّت لبروزه المفاجئ كلّ مسامّ جسدي المتعب. بلغتْ حيرتي ذروتها عندما توقّف أشرف فجأة والتفت إليّ مبتسما وهو يقول:

- ما رأيك أن نحتفل اليوم بهذه المناسبة؟ هه... ما رأيك؟!

- ماذا تريد أن...

- أريد أن أعود إلى ذلك الملهى اللّيليّ حيث الجميلات العاريات

اللّواتي يرقصن حتى طلوع الفجر. ما اسم ذلك المكان؟

- Espedano

.. أجبته وأنا أواصل طريقي مسرعا في اتّجاه غير محدّد. لحقني هو، وخلتُ أنّه يطير نشوة لمجرّد سماع اسم الملهى. هذا الشخص المريض، المكدود، العصبيّ، الضّجر الّذي دخلتُ شقّته منذ ما يقارب السّاعتين تبخّر.. لم يعد له وجود! أخذ محلّه شخص جديد، أشرف جديد! أو ربّما أشرف كما عهدته منذ زمن بعيد. صوت تخفق نبراته بلهفة مرحة، مجنونة. رأيت الشمس تطلع من عينيه أخيرا! قال بخبث:

- نعم، نعم... ذلك الملهى الرّائع! السّهرة ستكون على حسابي. لك أن تشرب كلّ ما طاب لك من أنواع الويسكي والكونياك، ولك أن تراقص قدر ما يحلو لك من العاريات. الله، أقسم أنّني لم أصادف في يقظتي أو في منامي مثل تلك الأجساد الملساء. كلّ هذا سيكون على حسابي يا صديقي احتفالا ببداية جديدة، بمدينة ستعطينا كلّ شيء. ستمنحنا ما حرمتنا إيّاه هذه المدينة الجحود! على نخب قبطاننا بلانكو سنشرب، وعلى نخب البحر، ونخب سفينة الحلم الّتي ستلقي بنا إلى شواطئ أجمل.. سنرقص اللّيلة! وعلى.....

اضطربت قسمات وجهه فجأة، ثم صاح: يا إلهي.. بلانكو! تذكّرتُ أنّه وجب علينا الاتّصال به لإعطائه باقي المبلغ المطلوب! طبعا.. طبعا، سنفعل ذلك في أقرب وقت. غدا سنفعل ذلك، فما زال أمامنا شيء من الوقت. أمّا الليلة، فإلى ذلك المكان السّاحر حيث تسبح الحوريّات بين الظّلمة والنّور! هيه، ما رأيك يا أمير. لِمَ أنت صامت هكذا؟.. هيه ما رأيك؟!

وقفتُ فجأة. نظرتُ إليه وكأنّني غريق في حفرة لمح يدا تمتدّ إليه فجأة. سحبتُ مفاتيح الحانة بعصبيّة قائلة:

– وهذه الحانة الملعونة! من المفروض أن أفتح أبوابها بعد سويعات، ماذا أفعل بها الآن! لا أريد أن أعود هناك.. لا أريد أن أعود! قد ينقضّون عليها مرّة ثانية، وفي أي لحظة. وحتّى إن لم يحدث ذلك، فمن سيضمن لي بأنّني لن أقتُل سانتو انتقاما لعيسى..و لروز...آآآآآه ه ه ه.... ما هذه الورطة الّتي أجد فيها نفسي الآن يا ربّي!! وكلارا! يا إلهي، من المؤكّد أنّها ستعلم بأمر بوليس الهجرة لأنّ هناك غرامة باهظة وجب دفعها في أقرب الآجال. ثمّ هناك حانة سيتعطّل الشّغل فيها بسبب الاختطاف المفاجئ لطبّاخها الوحيد! هه، أشرف! هل فاتك كلّ هذا أم مازلت تريد الذهاب لزيارة العاهرات إلى طلوع الفجر؟! أما زلت عازما على مراقصتهنّ؟ أم تفضّل أن نفكّر فيما يجب القيام به الآن لكي تمرّ الأيّام الباقية على خير دون أن تشعر صاحبتك المجنونة بمؤامرة هروبك أو هروبي، فتكون هي أوّل من يسلّط علينا ذئاب بوليس الهجرة!

تغيّرتْ سحنة أشرف، وبدتْ على وجهه علامات الجدّ. أطرق هنيهة وتقلّصت وجنتاه حتّى خلتُ أنّ عظام فكّيه ستخترق جلد وجهه. عضّ على شفته السّفلى وبرزت عروق جبينه منتفخة، خضراء ومتشعّبة! كانت تلك هي سحنته المعتادة عندما كان يستغرق في تفكير عميق. لحظات قليلة مرّت دون أن ينطق. بعدها، تهلّلت ملامحه ولمعتْ ابتسامة خبيثة على وجهه:

– أين وصل الغرامة الذي أعطاك إيّاه بوليس الهجرة؟

أجبته ساخرا:

– ستدفع الغرامة بدل أن تدعوني لكؤوس الويسكي والكونياك؟ ما شأنك بوصل الغرامة؟ ليس هذا هو موضوعنا الآن!

ردّ عليَّ مبتسما، بعد أن وضع يده على كتفي:

– بل هذا هو موضوعنا الآن. أعطني ورقة الغرامة من فضلك!

قلتُ وقد استبدّت بي الدّهشة:

– تركتها في غرفتي. ولكن لم تريدها؟ أنا لا أفهم شيئا!

أجاب وعيناه تلمعان كذئب في ليلة قمراء:

– سأشرح لك في الطّريق! ستسهر اللّيلة في ذلك الملهى اللّيليّ، وبموافقة كلارا ما رأيك؟

قلتُ يائسا:

– أنت مجنون!

أجاب دون أن تفارق الابتسامة وجهه:

– أليس ذلك من حسن حظّك!

- ٢٧ -

السّاعة تشير إلى السادسة والنّصف. كان من المفروض أن تكون الحانة مفتوحة لاستقبال زبائنها منذ ساعة تقريبا. ولكنّها الآن مقفلة، ومن المؤكّد أنّ سانتو قد وصل ولم يجد أحدا. من المؤكّد أنّه قد اتّصل بكلارا ليستطلع الأمر، أو ربّما قفل أدراجه راجعا إلى بيته دون أن يخامره شكٌّ في أنّ مؤامرته القذرة قد نجحت! كان من المفروض أن أكون الآن وراء "الكاسة" أعُدُّ النّقود الّتي سأبدأ بها يومي، وأملأ الثلاّجة بقوارير البيرة. وكان من المفروض أنّني أجهّز خلطة مشروب السّانقريا وأعتني بتنظيف خوان البار وأرصّف مقاعده وطاولاته استعدادا لسهرة كحوليّة جديدة. كان من المفروض أن أرى فرناندو وريكاردو وغيرهما من الحرفاء الّذين كنت أستنشق دخان سجائرهم أكثر من الهواء. كان من المفروض الآن أن أكون سعيدا بإدارتي للحان، بالفرصة الّتي منحتني إيّاها كلارا مكافأة على غياب خوانيتو. ولكنّني الآن تعس! خائف ومضطرب وضائع! أتمزّق بين ألف احتمال واحتمال. أشْعِلُ السيجارة بالسيجارة وأجوب أرجاء غرفتي كقطّ متوحّش في قفص.

ساعة بأكملها مرّت على صعود أشرف إلى شقّة كلارا. أخذ منّي

مفاتيح الحانة ومحصول أرباح الأمس في ظرف بنيّ. أخذ ورقة الغرامة الماليّة التي تركها لي شرطيّ الهجرة العابس كوصل استلام لشحن عيسى إلى الصّومال، ثمّ ربت كتفي قبل أن يغادر وهو يقول بخبث:

- انتظرني هنا ولا تتحرّك! سأعود إليك بعد نصف ساعة. استحم وتعطّر، سرّح شعرك المنفوش والبس أحسن ما عندك.. وانتظرني. في طريقنا إلى الملهى الليليّ، سنمرّ على دكّان "خوسيه"، وسنشتري سيجارين فاخرين من صنف "المونتي كريستو" مثلا. ستنفث أرقى أنواع الدّخان الكوبيّ بين الأفخاذ السّمراء إلى الفجر. النّهود الملساء الشامخة تنتظرنا هناك، ستكون ليلة رائقة!

حاولتُ أن أستجدي منه توضيحا لما سيفعله مع كلارا، ولكنّه ظلّ مكتفيا بالابتسام قائلا:

- اذهب وخذ حمّاما كما قلتُ لك. استحمّ وتعطّر ولا تقلق! قلتُ لك إن ليلتنا ستكون رائقة. نصف ساعة وسأكون جاهزا. سننطلق إلى السّهرة فور وصولي إلى غرفتك. هل تحتاج لأكثر من نصف ساعة لتجهّز نفسك؟

عندما يئستُ من إجابة تحمل تفاصيلًا أكثر، قلت له:

- نصف ساعة بالضبط! لا تتأخّر، وسأكون على أتمّ الاستعداد للسّهرة.

- نصف ساعة بالضّبط... وسأعود إليك!

قال ذلك وقد أشعّت ابتسامته بثقة هادئة ثم صعد الدّرج بسرعة إلى شقّة كلارا ...

السّاعة السّابعة والرّبع. أشرف لم يظهر بعد وعلبة سجائري ملقاة على الطّاولة. كانت شبه فارغة، ما عدا سيجارة يتيمة قابعة بداخلها تستجدي الاحتراق كما فعلتُ مع مثيلاتها في قلق الانتظار. اختطفتُ المنفضة الممتلئة وتوجّهت بها نحو حاوية القمامة. أفرغتها في الكيس البلاستيكيّ بعصبيّة شديدة فانبعث منها رماد متطاير في الهواء، استقر البعض منه في عينيّ. ركضتُ إلى الحمّام وفتحتُ الحنفيّة مستقبلا برودة الماء بأصابع مرتجفة. غسلتُ وجهي وأطرافي ثمّ سحبتُ منشفة قديمة وعدتُ بها إلى الطّاولة. جلستُ إليها وقد استبدّ بي القلق، ثمّ شرعتُ في تنشيف بقايا الماء على شعري. كنت أفعل ذلك وعيناي لا تفارقان السّاعة السّوداء القابعة على الطّاولة. عندما أعلنتْ هي بصمت بغيض عن حلول الثامنة إلاّ عشر دقائق، أشعلتُ السيجارة الأخيرة! أشرف طلب منّي أن أستحمّ وأتعطّر وألبس أجمل ما أملكه. ولكنّني لم أفعل ذلك لأنّني لم أستحمّ أو أتعطّر قطّ لمراقصة عاهرات الملهى. كنت أتّجه إليهنّ مباشرة إثر إغلاق الحانة. عطري كان مزيجا من رائحة العرق والكحول وتبغ السجائر الرّخيصة. راقصات ذلك الملهى بالذات، لا يهتممن بلبسك أو عطرك، ولا بنظافتك أو جمالك. ما يسيل لعابهنّ هو ما يُلقى بين نهودهنّ من أوراق خضراء بلون اليأس. ما يهُمّهنّ هو ما تضع بين أياديهنّ من كؤوس الويسكي الفاخر والنبيذ المعتّق. وسرعان ما تجد نفسك تبادلهنّ الأحاديث العابرة والدّعابات التافهة، وكأنّهن لسن جواريك اللّواتي امتلكتهنّ لمدّة أغنية أو أغنيتين لقاء كلّ ما تملك من مال. لقاء أجرك اليوميّ الّذي ذرفت الدّماء والدّموع من أجل تحصيله! الجميع سواسية أمام عاهرات ذلك الملهى اللّيلي المشتعل كالخطيئة على ضفاف البحيرة: الوسيم والدّميم، الغنيّ والفقير، النظيف والنتن، السّارق والشريف،

المولود في إسبانيا أو العابر إليها من جسر موت لآخر. قمّة العدالة هنّ العاهرات! يعاملن الجميع بذات الاهتمام، ويبتسمن للجميع بذات الوداعة، دون مراوغة.. دون رياء. النّفاق هو أن تبتسم في وجه الآخر لأنّك تنوي اختلاسه، أمّا راقصات الملهى، فكنّ يحدّدن ثمن الابتسامة قبل إقحامك في مناورة سرابيّة للحبّ، وكنتَ تدفع لهنّ ثمن حلمك قبل أن تركبه كما تدفع ثمن تذكرة قبل ركوب قطار. قطار تعرف أنّه لن يحملك إلى وجهتك، تستقلّه فقط لأنّ مقاعده مريحة! أروع ما في راقصات الملهى قدرتهنّ على إشعارك بأنّهنّ يعشقنك طوال مدّة الرّقصة، وذلك كان يكفيني دائما. بالنّسبة لي، ذلك السّراب قصير المدى كان أجمل من حقيقة دائمة! ما فائدة الحبّ إن كان الانتظار قدره؟ ما فائدة الحبّ إن أصبحتَ مقعدا شاغرا على رصيف قطار لن يأتي أبدا! تلاشتْ روزيتا كنقطة فيروزيّة في أبنوس المساء، وتلاشيتَ أنت يا عيسى كنقطة أبنوسيّة في فيروز البحر. أنت الآن في طريقك إلى الصّومال.. وبعد أسبوعين سأكون أنا في طريقي إلى مونريال، وستبقى روزيتا ذكرانا المشتركة، سرّك الذي حملته معك بذات الصّمت الّذي أنقذت به حياتي. وإلى أن نلتقي يوما، وربّما قد لا نلتقي أبدا. أتمنّى أن تعود تلك الابتسامة العاجيّة إلى وجهك الأسمر من جديد، فذلك كلّ ما تبقّى لك يا صديقي.. ذلك كلّ ما تملك الآن!

عندما التقتْ عقارب السّاعة في التحام الثامنة والنّصف، نهضتُ عن مقعدي فجأة. ارتميتُ على الفراش صريع الحيرة. استلقيتُ على ظهري مواجها سقف الغرفة بشقوقه المتشعّبة. أحسستُ بالدّموع تطفو على جفوني فتحوّلت الشقوق إلى نهر ضبابيّ.

أغمضتُ عينيّ وشعرتُ بسيلانه الحارق يغرق وجهي. لم تكن بي رغبة في تحديد سبب رغبتي في البكاء. كلّ ما كنتُ أعرفه هو أنّني كنتُ أريد البكاء.. فبكيت! ربّما كان ذلك ردّ فعلٍ مؤجّلٍ لما حدث البارحة، فالدّمع يملك حقّ التأخّر في الوصول كذلك! هجوم شرطة الهجرة، ترحيل عيسى يوم عثوره على حبّ عمره، تبخّر أحلامي في أن أصبح مديرا للحانة، وشبح مدينة ثلجيّة على مسافة حلم وزورق. كان على الدّموع أن تحشد نفسها استعدادا للفيضان!

تقلّبتُ في سريري. وضعتُ الوسادة فوق رأسي وأغمضتُ عينيّ محاولا سَدّ الأبواب أمام أي أفكار قد تزيد من تعكير مزاجي. حاولتُ جاهدا استدراج النّعاس، ولكنّ عقارب السّاعة كانت تسري إلى جانبي، تلدغني بسموم اليقظة والحزن معا. كانت تزحف بصمت قاتل نحو السّاعة التاسعة مساءً، وكان زحفها المتّئد يدعوني لفعل أيّ شيء من أجل إنهاء هذه الحالة اللاّمجدية من القلق. تذكّرتُ علبة سجائري الفارغة، وتذكّرتُ المحلّ المجاور الّذي يغلق أبوابه على السّاعة العاشرة. "من الأفضل أن أشتري علبة الآن قبل أن يقفل فأضطرّ للمشي أميالا لمحلّ خوسيه الّذي كان يسهر إلى الفجر!". فكّرتُ في ذلك وأنا أستجمع قواي وأقفز من سريري راكضا نحو باب الغرفة. بعد لحظات، وجدتني أمام الباب الأماميّ للبناية فاتحا رئتيّ لهواء اللّيل.

كان الشّارع شبه خال من المارّة. النجّوم شاحبة والصّمت مطبق، ورغبة البكاء قد غادرتني مع أوّل نفس عميق أخذتُه. بدأتُ في السّير بخطىً هادئة: "أشرف لن يعود الليلة، كلارا سجنته كالعادة! من المؤكّد أنّه روى لها ما وقع مع بوليس الهجرة، ومن المؤكّد انّها علمتْ بقراري الجبان

بعدم فتح الحانة اللّيلة. من المؤكّد أنّه سلّمها وصل الغرامة والمفاتيح، ومن المؤكّد أنّني الآن في عداد المطرودين!". أسرعتُ في المشي، ولاح لي محلّ السجائر مضيئا من بعيد: "إن كانت كلارا قد أخذت قرارا بطردي، فهذا أمر جميل حقّا! سيوفّر عليّ عَناء البحث عن سبب أقدّمه لها كي لا أعود إلى ضفّة الهاوية مرّة ثانية!".

اشتريتُ عُلبتَيْ سجائر وصندوق بيرة من ثماني قوارير. قفلتُ أدراجي عائدا إلى الغرفة: "سأدخّن وأسكر بمفردي هذه اللّيلة، ولتفعل كلارا غدًا ما تريد!"، عندما اقتربتُ من البناية، كان هناك شبح شخص أمام بابها الرّئيسيّ. سيجارة متوهّجة تتنقّل من يد إلى أخرى، ودخان كثيف يحيط به كغمامة حمراء. فجأة مرّت سيّارة أجرة بمحاذاتي. سطعتْ أضواؤها على تلك الزّاوية حيث كان أشرف واقفا يدخّن لفافته بشراهته المعتادة. كان يرتدي بدلة سوداء أنيقة فوق قميص أبيض، ورأيت حذاءه يلمع تحت الضّوء بقدر لمعان "الكريم" على تموّجات شعره الأسود. ألقى بسيجارته أرضا وداس عليها دون أن يزيح نظره عنّي. كنتُ أقترب منه رويدا حاملا صندوق البيرة في يد والكثير من الأسئلة في يد أخرى. كانت ابتسامته الشيطانيّة تخبرني عن بعد بأنّ هناك أخبارا جميلة في الأفق، وبأنّ ليلتنا ستكون رائقة.

وقفتُ أمامه صامتا. قبل أن أنطق، وضع يده على كتفي وقال بخبث:

- ظننتُ أنّك سبقتني إلى الملهى!

أجبتُ وأنا أضع صندوق البيرة على الأرض منتشيا برائحة العطر الّتي كانت تفوح من ثيابه:

- حسبتُ أنّك لن تأتي، فخرجتُ لشراء ما يلزم لقضاء سهرة بمفردي!

أجاب بابتسامة فيها الكثير من الشّفقة:

- صندوق بيرة وسجائر، أجمل صديقين في زمن الوحدة!

- لم كلّ هذا التأخير أشرف؟ كنتُ سأموت من...

- كنتُ مجبرا على ذلك لكي تكون القصّة محبوكة بشكل لا يثير الرّيبة!

هممتُ بسؤاله عن أيّ قصّة كان يتحدّث، ولكنّه أدرك ذلك بفطنته المعتادة:

- سأروي لك كلّ التفاصيل في الطّريق. اصعد الآن إلى غرفتك وضع صندوق البيرة في الثلاّجة، فقد نحتاجه غدا. أمّا اللّيلة!.. اللّيلة "سيقار" وويسكي وراقصات! الليلة سهرة على نخب مدينتنا الجديدة! هيّا أسرع قبل أن يغلق خوسيه محلّه، فهو الوحيد في هذه النّواحي الّذي يبيع التبغ الكوبي الرّفيع!

أجبتُ وأنا أنحني لالتقاط صندوق البيرة:

- محلّ خوسيه لا يغلق إلاّ عند حلول الفجر، فلا داعي للعجلة. أظنّك مستعجلا على مشاهدة الرّاقصات العاريات!

صعدتُ الدّرج بسرعة تسبقني اللّهفة لمعرفة ما حدث بينه وبين كلارا، كيف استطاع امتصاص غيرتها المَرَضيّة لتسمح له بالخروج على هذه الحالة الاستثنائيّة من الأناقة؟ هل عرفتْ أنّ الحانة الآن مقفلة؟ هل علمتْ بحادثة بوليس الهجرة، وبأنّني لن أعود إلى الشغل في ذلك المكان

بعد الآن؟! فتحتُ باب غرفتي وعبرتُها مسرعا دون أن أشعل الأضواء. فتحتُ الثلاّجة، وعلى ضوئها الباهت ألفيتُ بصندوق البيرة في ركن من أركانها. سحبتُ قارورة ماء بارد وتجرّعت نصف ما فيها والنّصف الآخر أخذه صدري. ركضتُ إلى الخارج نازلا الدّرج الحديديّ بخفّة الفهد واجتزتُ الباب الخارجيّ للبناية. كان أشرف لا يزال واقفا في مكانه بشعره المصفّف بعناية وحذائه الأسود اللامع. ببدلته الّتي تفوح عطرا لذيذا، وابتسامته الإبليسيّة الّتي تقطر اهتياجا بدائيّا للاحتفال بالنّصر.

- اليوم بي طاقة متوحّشة تكفي لمضاجعة خمسين امرأة!

قال ذلك وقد لمعتْ عيناه بشبق حيوانيّ، ثمّ سرّح نظره بحثا عن سيّارة أجرة تقودنا إلى محلّ خوسيه.

... كنّا قد قطعنا منتصف الطّريق المؤدّية إلى محلّ السّيقار على أقدامنا دون أن تعترضنا سيّارة أجرة شاغرة. بدأت علامات التبرّم تكتسح وجه أشرف من جرّاء ذلك، ولكنّني طمأنتُه قائلا:

- نحنُ على مسافة هيّنة من وجهتنا. أنت تعلمُ أنّه من الصّعب جدّا اقتناص سيّارة أجرة في هذه المنطقة وخاصّة في هذا الوقت من الليل. كما أنّ الملهى لا يبعد كثيرا عن محلّ خوسيه. أرى أن نواصل السّير على الأقدام، فنحن لسنا في عجلة من أمرنا أليس كذلك؟

التفت إليّ وقد شحب وجهه، وبدت على سحنته علامات التعب. كان من الواضح أنّه لم يُشْفَ من مرضه بعد، وأنّ تلك الحيويّة المفاجئة الّتي غمَرَتْه منذ سويعات لم تكن سوى موجة فرح عابرة.

قال وهو يتحسّس شعره اللاّمع بأصابعه:

- وهل لنا خيار غير ذلك! اللّعنة على التاكسيّات، كفرص الحياة هي.. تمرّ بك جاهزة للاستقبال عندما لا تكون بحاجة إليها! اللّعنة على...

قاطعته بلطف:

- عزيزي أشرف، هل لك أن تصارحني!

- أصارحك بماذا؟

- أريد أن أعرف إن كانت بك طاقة لمواصلة السّير. هل صحّتك اللّيلة ستحتمل السُّكْر والعربدة إلى الفجر؟! شحوب وجهك لا يُطمئِنُ بخير، وأنت الآن في فترة نقاهة. في هذه الفترة تكون الرّاحة أهمّ من الدّواء. أخشى أن يعاودك المرض بضراوة أكثر إن لم تعط جسمك حقّه! إن كنت ما زلت تشعر بالوهن، فلِمَ لا نعود على أعقابنا اللّيلة؟ لم لا تعود إلى شقّة كلارا فتنام وتأخذ قسطك من الرّاحة. ما زال أمامنا متّسع من الأيّام لنشرب نخب رحيلنا... ما رأيك؟

أجاب مبتسما:

- دعك من هذا الهراء، فقوّتي تعادل قوّة مائة حصان! تريدني أن أترك هذا المساء السّاحر والجميلات اللّواتي ينتظرننا تحت الأضواء الملوّنة لأعود للنّوم جنب كلارا؟ أمجنون أنت أم غبيّ؟

قلتُ بعطف:

- لِمَ لا نرتاح قليلا في أحد المقاهي؟ نصفُ ساعة ثمّ نواصل السّير. وعلى كلّ، فأنا بي حاجة لدخول الحمّام وهناك مقهى صغير على مقربة منّا. ما رأيك، استراحة قصيرة ثمّ نواصل السّير.

أجاب وهو يرمقني بنظرة ذات معنى:

- قلتُ لك أنا بخير! إن كانت بك حاجة للذّهاب إلى دورة المياه فوفّر عنك الوقت والعذاب وافعلها خلف إحدى هذه البيوت!.... اللّه... اللّه.. انظر.. سيّارة أجرة شاغرة... أخيرا... تاكسي... تاكسي!!

انطلقت بنا السيّارة تشقّ عتمة المساء. جلستُ إلى جانب السائق البدين الّذي كان يصفّر بفمه ويضرب على المقود بيديه على أنغام أغنية برتغاليّة. أغنية انسابت إيقاعاتها خفيفة ومنعشة في هدوء الليل. التفتُّ ورائي لأطمئنّ على أشرف. كان جالسا على المقعد الخلفيّ مسندا رأسه إلى الوراء. عيناه مغمضتان ووجهه شاحب وطيف ابتسامة وادعة يحوم حول شفتيه. ظننتُ أنّه قد أسلم جفنيه للنّعاس لو لم ألمح أصابع يديه اليمنى تتلاعب فوق ركبته تناغما مع الموسيقى الجميلة. كان مستسلما لموجة لذيذة من اليقظة الحالمة، تلك الّتي تفكّ أرواحنا من قيد الزّمان والمكان للحظات قليلة، فننسى ما كان يجب علينا أن ننساه. في أثناء سيرنا بحثًا عن سيّارة أجرة حاولتُ استدراجه ليقصّ على ما حدث مع كلارا، ولكنّه أبى إلاّ أن يؤجّل الحديث مكتفيا بجواب محيّر رغم رنّته المُطمْئِنة: "لن تعود إلى الشّغل في الحان بعد اليوم. لقد سوّيتُ الموضوع مع كلارا وانتهى الأمر!". عندما عُدْتُ إلى سؤاله عن المزيد من التّفاصيل في كرّة ثانية، أجاب متبرّما: "قلتُ لك لا تقلق! سأخبرك بكلّ التفاصيل بعد السّهرة.. مفهوم!"

دخلتْ بنا السيّارة إلى شارع ضيّق ومظلم. تراءت لي أنوار محلّ خوسيه على بعد منعطفين فهمستُ للسّائق البدين:

- بإمكانك التوقّف هنا.. شكرا.

استجاب لطلبي دون أن ينبس بكلمة. أشعل إشارة الوقوف وداس على فرامل السيّارة برفق مقتربا بها بمهارة من حافة الرّصيف. وقف بنا على زاوية أوّل منعطف دون أن يتوقّف عن التصفير. بعد أن دفعتُ له ثمن الرّكوب، سألته بأدب:

- ملهى Espedano لا يبعد كثير عن هذه النّواحي أليس كذلك؟

مدّ يده السّمينة إلى زرّ المذياع ليُخفت صوت الموسيقى نهائيّا، ثمّ أجاب وهو يدسّ النّقود في جيبه:

- ما يقارب الأربعة أميال.. على ما أذكر.

قبل أن أقول شيئا، استمرّ في كلامه وكأنّه فهم القصد من سؤالي:

- أتريدني أن أنتظر ريثما تفرغان من قضاء حاجتكما من محلّ التبغ؟

- أكون ممتنّا لك إن فعلت.

قال بخبث:

- إذن فلم يكن هناك داع لأن تدفع لي ثمن الرّكوب.. أليس كذلك؟

- معك حقّ! لم أفكّر بذلك إطلاقا.

أجاب ضاحكا:

- ذلك سيكلّفك كثيرا يا صديقي.. سأدير العدّاد فورا.

قال ذلك وهو يضغط زرّ العدّاد فبدأت الأرقام الخضراء في اشتعالها التصاعديّ. نظر إليّ بوجهه المكتنز المتدفّق طيبة وقال بنبرة مازحة:

- أنت تعلم طبعا أنّ ثمن انتظار سائق التاكسي لأيّ زبون يضاعف

في تسعيرته ثمن القيادة به!

- تسعيرة باهظة!

- إذن فسيجار من محلّ خوسيه سيكفيني هذه اللّيلة.. ما رأيك؟

غمزني ضاحكا وهو يوقف العدّاد ويلتفت إلى أشرف الّذي أفاق من استرخائه عند توقّف السيّارة. كان واضحا أنّه لم يسمع بداية الحوار، لذلك التزم بالصّمت تجاه كلام السائق.

عدتُ إلى مخاطبته مداعبا:

- دعك من السيجار، فهو مضرّ بالصحّة، ما رأيك أن ترافقنا إلى ذلك الملهى فتريح سيّارتك لمدّة نصف ساعة، وأعدك بأنّني سأدفع لك ثمن مراقصة إحدى الجميلات!

- عرضٌ مغرٍ.. يستحقّ التفكير فعلا. ولكنّ هذا الملهى بالذّات يشكّل خطرا عليَّ!

أجبتُه ضاحكا:

- ولم ذاك؟

قال مبتسما:

- أفضّل عدم دخول الجنّة على أن أخرج منها مفلسا!

- معك حقّ. إذن فسيجار من عند خوسيه! مكافأة لك على انتظارنا ريثما نعود.

قال وقد بدأت علامات الجدّ المهنيّ ترتسم على وجهه الطّيب:

- مجرّد مزحة.. لا أكثر! أنا لا أدخّن، أمّا بالنّسبة لذلك الملهى، فقد أخذتُ من جميلاته قدر كفايتي عندما كنت في مثل سنّكما. أتمنّى لكما قضاء سهرة ممتعة. أمامكما عشرُ دقائق لكي تعودا. إن لم تعودا في الوقت المحدّد، فهناك زبائن كثيرون في انتظاري.

- إذا كان الأمر كذلك، فلم لا تتقدّم بنا إلى جانب المحلّ، فذلك سيوفّر علينا دقائق ثمينة. سيّارات الأجرة صعبة الاقتناص هذا المساء، ولا نريد أن تتركنا على قارعة الطّريق فتضيع علينا السّهرة.

أجاب مبتسما وقد شرع في التقدّم بالسيّارة تدريجيّا إلى أن وقف بنا أمام المحلّ المضيء:

- أمرك سينيور. طلبات السيّاح عندنا أوامر. مرحبا بكما في برشلونة!

لم أجب بكلمة. اكتفيتُ بالالتفات إلى أشرف الّذي كان يستعدّ للخروج من السيّارة بوجهه الشاحب وابتسامته الذابلة. قلتُ له:

- أتريد أن تنتظر هنا ريثما أعود؟

- لا يمكن لي التلذّذ بأي سيجار إلاّ إذا انتقيتُه بنفسي. إذا كان هذا الوغد يريد أن يغادر بعد عشر دقائق.. فليذهب إلى الجحيم!

قال ذلك بلهجة عربيّة سريعة كي لا يُفهم حديثنا، ولكنّ نبرته أوحت للسّائق بأنّ الكلام كان يعنيه. أدركتُ ذلك حينما لمحتُ موجة التبرّم المفاجئة الّتي بدت على وجهه السّمين فتداركتُ الأمر قائلا:

- هكذا هم السيّاح دوما، من الصّعب إرضاؤهم! عشر دقائق ونعود إليك سينيور. أشكرك على كرم أخلاقك.. وعذرا على الإزعاج!

- لا إزعاج في الأمر. نحنُ في الخدمة.

عندما لحقتُ بأشرف إلى محلّ خوسيه، كان قد أشعل سيجارة وانتصب أمام لافتة الباب المضيئة نافثا دخانها بهدوء. بين حين وآخر كان يتحسّس بأصابعه المرتعشة تجاعيد شعره الأسود المصفّف بعناية. داهمته نوبة سعال مفاجئة خلتُ أنّ رئتيه ستنفجران تحت وطأتها. بعد أنّ مرّت الأزمة بسلام، بصق على الأرض ولعن السّماء ثمّ ألقى بسيجارته أرضا دون أن ينظر إليّ. فتحتُ الباب البلّوريّ لأفسح له المجال للدّخول أوّلا. قبل أن أتبعه، التفتُ ورائي لأتأكّد من أنّ سائق التّاكسي لا يزال رابضا بسيّارته في انتظارنا. كان قد عاد إلى التصفير والضّرب على المقود بيديه السمينتين تفاعلا مع الموسيقى. أظنّه شعر بنظراتي فالتفت ناحيتي وابتسم، ثمّ عاد إلى النظّر أمامه مستأنفا تصفيره بسلام. عندما لحقتُ بأشرف، كان خوسيه قد وضع أمامه سيجارين كوبيّين من نوع "مونتي كريستو". انتصب وراء منضدة الدكّان بوجهه الضّامر وشاربيه الرّفيعين منتظرا دفع ثمن البضاعة. كان أشرف قد أخرج محفظته وأخذ يقلّب في محتواها بيدين مرتعشتين. أسرعت في خطاي إلى أن وقفتُ بمحاذاته وقلت:

- أتريد أن أدفع؟

أجابني بصوت مرتجف:

- معي ما يكفي.. وأكثر! ألم أقل لك إنّ الليلة على حسابي.

في هذه اللحظة كان خوسيه ينظر إلينا بابتسامة مؤدّبة مسترقا نظره بين فينة وأخرى إلى شاشة تليفزيون صغير في الرّكن الخلفيّ للمحلّ.

كان يتابع نشرة الأخبار باهتمام، وأدركتُ -من وضع يده اليمنى المنبسطة باتّجاه أشرف- أنّه كان يستعجل ثمن السيجارين. كان من الواضح أنّه يريد العودة إلى كرسيه الخشبيّ الصغير ليتابع ما فاته من أخبار اليوم. أخذ النّقود متمتما ببعض كلمات الشّكر الفاترة، ثمّ عاد إلى مقعده لمتابعة الأخبار كما توقّعت. دّس أشرف سيجارا في جيب سترته وأعطاني الثاني دون أن ينظر إليّ. قفل أدراجه باتّجاه الباب الخارجيّ وشرع في فتحه بصعوبة شديدة. لحقته مسرعا وأمسكتُ بالباب الثقيل ففتحته مفسحا له مجالا عريضا للخروج. واربتُ الباب برفق ومشيتُ وراءه صامتا. انتابني قلق شديد وأنا أراقب الترنّح الواضح الّذي غلب على مشيته. وفجأة، وقبل أن أجد متّسعا من الوقت للوثوب ناحيته، هوى أرضا كقطعة من الخشب اليابس. ارتطم رأسه بالبلّور الخلفيّ لسيّارة الأجرة واشتعلت قطرات الدّم تحت أضواء مصابيح المساء.

- ٢٨ -

فتحتُ زجاجة ماء الزّهر وسكبتُ شيئا منه في فنجان صغير مع شيء من السكّر. وضعتُ الفنجان على طبق إلى جانب علبة البنّ وسرتُ متّئدا باتّجاه سرير غرفتي حيث كان أشرف ممدّدا يكسو وجهه الشّحوب. كان قد استعاد وعيه تدريجيّا وبدا ذبول وجهه مثيرا للشّفقة على ضوء المصباح الخافت. وضعتُ الطّبق على الطّاولة المحاذية للفراش، ثمّ عمدتُ إلى حذائه اللاّمع فخلعته عن رجليه وألقيتُ به تحت السّرير. غطيتُ جسده المرتعش بلحاف سميك ثمّ سحبتُ كرسيّا وجلستُ قبالته مبتسما بحنان. لم أكن أملك شيئا أقوله سوى: "لا بأس عليك.. لا بأس عليك!". عبر جفنيه المرتخيين أطلق بصره في أرجاء الغرفة بطريقة أوحت لي بأنّه بصدد استيعاب ما يدور حوله. بعد ما يقارب النصف ساعة من تبادل الصّمت، نهضتُ إليه وأزحتُ قميصي الملطّخ بالدّم الّذي كان معصوبا حول رأسه بإحكام، عادت بي الذاكرة إلى توتّر سائق التاكسي السّمين وهو يشقّ بنا عتمة المساء في سرعة قاتلة. كنتُ جالسا على المقعد الخلفيّ إلى جانب أشرف وقد خلعتُ قميصي عنّي لكي أوقف النّزيف المتدفّق من رأسه. صرخ السّائق: "إلى أقرب مستشفى!.. فورًا!".

أجبتُ بهدوء ألاّ داعي لذلك، ثمّ أشرتُ إليه بالعودة إلى غرفتي. "أمتأكّد أنت من ذلك؟!". صرخ مرّة أخرى وهو ينظر إليّ بتعجُّب عبر مرآته الأماميّة. أجبتُ بهدوء: "حالة عابرة، حادث بسيط وسيمرّ بسلام. الجرح ليس عميقا. عليه أن يأخذ قسطا من الرّاحة وسيكون بخير بعد قليل! أرجو الاّ تتوقّف عند الإشارات الحمراء إن كان ذلك ممكنا!". "طبعا ممكن! تجاوز الإشارات الحمراء أمر مباح في الحالات الطّارئة!". قال ذلك بنبرة مطيعة وهو ينحرف بسرعة جنونيّة إلى اليمين. "سأسلك هذه الطّريق الفرعيّة فهي أقرب مسافة إلى بيتك!".

فور ما وقفتْ بنا التاكسي أمام باب البناية، خرج السّائق بسرعة من السيّارة وفتح الباب الخلفيّ بقوّة ليتمّ مساعدتي على إخراج أشرف. حمله بساعديه القويّين كمن يحمل طفلا صغيرا. صعد به الدّرج وأنا أركض وراءه لاهثا. انتظرني كي أفتح باب الغرفة ثمّ اندفع به ناحية السّرير حيث مدّده برفق والتفت إليّ قائلا: " يجب إحضار الطّبيب فورا.. هذه ليست حالة بسيطة!". أجبتُ ممتثلا كي أوفّر على نفسي عناء الثّرثرة: "طبعا.. طبعا، سأسرع في طلب الطّبيب فهو يسكن البناية المجاورة!". بعد ذلك، ناولته ثمن خدمته وابتسمتُ مستطردا: "شكرا على مساعدتك النّبيلة. لا أعرف ما كنت سأفعل لو لم تكن موجودا!". أجاب وهو يمسح العرق عن جبينه: "لا داعي للشّكر... تمنّياتي لصديقك بالشّفاء!".

تناولتُ شيئا من البنّ فوضعتُه بلطف على الجرح المحفور في أعلى جبينه. تأوّه من الألم فتمتمتُ برفق: "لا بأس عليك.. لا بأس عليك! هذا البنّ سيوقف النّزيف تماما!". ركضتُ إلى الحمّام وعدتُ بخرقة قديمة. مزّقتها إلى نصفين وعصبتُ بإحداها جبينه الملطّخ بالدّم المتيبّس.

قلت له:

- ساعدني على النّهوض بك قليلا. ضع هذه الوسادة وراء ظهرك وتناول ما في هذا الفنجان. شيء من ماء الزّهر والسكّر. هذه خلطة "الحاجّة" والدتي وسترى أنّها ستساعدك على الانتعاش!".

- أحسُّ بالجوع الشديد...

قال ذلك بعد أن شرب محتوى الفنجان دفعة واحدة، وبعد أن تجشّأ. ثمّ استطرد وهو يتحسّس موضع الجرح عاضّا على شفته السّفلى من شدّة الألم:

- لا أظنّني أكلتُ شيئا طوال اليوم. هل عندك شيء يؤكَل؟ أخبرني ماذا....

قاطعته بهدوء حازم:

- ماذا حدث لك. ذلك ما تريد معرفته..هه؟

ابتسم دون أن يجيب بكلمة. ابتسامته كانت تشي بأنّه يريد أن يلتمس منّي الأعذار لذنب اقترفه دن قصد.

تابعتُ كلامي وأنا آخذ منه الفنجان وأضعه فوق الطّاولة:

- ما حدث لك هو ما قد يحدث لأيّ شخص لا يحترم جسمه!

أجاب بصوت خافت، دون أن تفارق الابتسامة المذنبة شفتيه:

- أنا لا أحترم أحدا، فلم يكون جسمي استثناءً؟

أجبتُ بصوت مرتعش ومتجاهلا نبرته المازحة:

- لأنّ جسمك هو كلّ ما ستحتاجه لتتمكّن من السّفر بعد أسبوعين إلى المدينة الّتي تحلم بها. أنت أعلم النّاس بأنّ المرض لم يفارق خلاياك بعد. ومع ذلك، فأنت تريد أن تدخّن كالمجنون. تريد أن ترتاد المقاهي وتشرب الإسبريسّو. تريد أن تحتسي الويسكي وتنفث دخان السّيجار بين أفخاذ العاهرات في الملاهي اللّيليّة إلى طلوع الفجر. وفوق كلّ هذا، لديك الجرأة بأنّ تخبرني بأنّك لم تأكل شيئا طوال اليوم؟ ما حدث الليلة، وببساطة شديدة، هو أنّك كنت ستموت لولا لطف الله! لو لم تكن هناك سيّارة تاكسي رابضة على حافة الرّصيف، لهوى جسمك اليابس على قارعة الطّريق لتفرمك أوّل سيّارة قادمة! تريد أن تموت؟ لا مانع عندي! ولكن أرجوك افعل ذلك بعيدا عنّي فأنا لا أريد أن أحمل ذنبك. أريد أن أسافر معك لا أن أحمل معي قطعة من قماش كفنك! ودواؤك.. هل شربتَ دواءك اليوم؟ هل شربته البارحة؟ طبعا لا! أتظنّ أنّك تغالط كلارا أم تغالطني؟ لا يا صديقي أنت لا تغالط إلاّ نفسك، لا تقتل إلاّ نفسك! تريد أن تموت؟ أنت حرّ ولكن، ولكن....

في هذه اللّحظة كنت قد استسلمتُ لسطوة البكاء ولحرارة الدّموع السّائلة على وجنتيّ. شعرتُ بتورّم وجهي تحت سطوة الانفعال فسحبتُ الخرقة القديمة الملقاة على الأرض ودفنْتُ وجهي بين طيّاتها. بقيتُ على تلك الحال لبضع ثوان، ثمّ نهضتُ عن السّرير فجأة دون أن أنظر إليه. ركضتُ إلى الحمّام فغسلتُ وجهي وبللّتُ شعري، ثمّ شرعتُ في سحب أنفاس عميقة مستدرجا شيئا من الهدوء الّذي كان قد انفلت عنّي هاربا منذ قليل. بعد خمس دقائق، غادرتُ الحمّام عائدا باتّجاه أشرف. كان لا يزال جالسا على السّرير مسندا ظهره إلى الحائط، وكانت الوسادة الّتي

وضعتها وراءه قد وقعت أرضا:

- لا! لا أريد أن أظلّ على هذا الوضع..

قال ذلك وأنا أحاول إعادة الوسادة وراء ظهره لأصحّح من وضعيّة جلوسه..

- أريد أن أعود إلى التمدّد على السرير كما كنت من قبل. أحسّ بشيء من الدّوران، هل لك أن تساعدني.. أرجوك.

أجبته بنبرة امتزج فيها اللّين بالعتاب:

- ألم تخبرني منذ قليل بأنّك جائع؟.... ألا تريد أن تأكل؟

- ليس الآن.. ليس الآن. أريد أن أضع رأسي على الوسادة وأغمض عينيّ قليلا. أريد أن أغفو بعض الوقت. أحسّ بألم شديد يتسرّب إلى جميع مفاصلي. وهذا الجرح اللّعين، أشعر بموضعه يحترق! هل وضعت عليه بُنًّا أم جمرًا؟!

أجبته مبتسما وأنا أساعده على التمدّد:

- ذلك يعني أنّ البنّ قد بدأ في نشر مفعوله على موضع الضّربة. سيلتئم جرحك قبل أن يطلع عليك الصّباح. أنت ترتجف! دعني أتحسّس جبينك. لا.. حرارتك ليست مرتفعة. الوهن أخذ من جسدك الكثير. أنت الآن في حاجة إلى لقمة ساخنة تساعدك على مقاومة الإرهاق الشّديد، المرض امتصّ كلّ طاقتك يا صديقي! أتريد أن أجهّز لك شيئا من البيض المقليّ مع بعض قطع الجبن. عندي كذلك بعض الخضراوات الطّازجة، خيار وطماطم و...

قاطعني بصوت خافت وهو يغمض عينيه:

- لا شيء الآن... لا شيء الآن.

بعد ثوان معدودات كان النّعاس قد أخذه منّي كليّا. ابتسمتُ لعينيه النّائمتين ومسحتُ بيدي العرق المتصبّب على وجهه. قفزتُ بخفّة إلى الخزانة وأخرجتُ منها لحافا ثانيا. عدتُ به إلى جسده المرتعش فأحكمت تغطيته. قبّلته على جبينه، فتمتم ببضع كلمات غير مفهومة ثمّ أخرج يده اليمنى من تحت اللّحاف وأمسك بيدي كمن يمسك بيد أمّ عطوف. همستُ له بحنان:

- لا بأس عليك.. لا بأس عليك. تصبح على خير الآن! إن احتجت إلى شيء فنادني. أنا هنا، إلى جانبك طوال اللّيل. ستتحسّن مع طلوع النّهار.. إن شاء الله.

بلغتني منه همهمة ممزوجة بزفرات شخير متقطّعة أدركتُ بعدها أنّ السّهرة معه قد بلغت نهايتها. حسابه سيكون عسيرا مع كلارا غدا! أمضيتُ ساعة من الزّمن فرغتُ خلالها من شرب زجاجات البيرة الثمانية. إثر ذلك، تركتها مهجورة على الطّاولة تجاورها منفضة ممتلئة بأعقاب السّجائر. ألقيتُ بغطاء سميك على الأرض وتمدّدتُ حذو شخير أشرف. بعد لحظات أسلمتُ نفسي للنّعاس دون أيّ مقاومة تُذكَر!

استيقظتُ مبكّرا في اليوم التالي. تثاءبتُ بكسل ونظرتُ إلى السّاعة الرّابضة فوق الطّاولة. كانت تشيرُ إلى السّابعة والنّصف صباحا. نهضتُ بصعوبة بالغة شاعرا بوجع شديد في عظامي جرّاء نومي على الأرض طوال اللّيل!

التقطتُ اللّحاف الّذي كنتُ ممدّدا عليه فطويته بعجلة، ثمّ أسرعتُ إلى الخزانة ففتحتها ملقيا به في جوفها. نظرتُ إلى أشرف بشفقة. كان لا يزال نائما برأسه المعصوب ووجهه الشّاحب. كان صدره يهتزّ بأنفاس قويّة تحت قميص السّهرة الأبيض الّذي غدا منكمشا جرّاء تقلّبه على الفراش طوال اللّيل. كان من الواضح أنّه شعر بالحرارة خلال نومه فتخلّص دون وعي من الألحفة الّتي كانت تغطّيه. سعيتُ إلى الحمّام على أطراف أصابعي كي لا أقلق راحته. غسلتُ وجهي وأطرافي بشيء من الماء البارد وغيّرتُ ثيابي بهدوء. فكّرتُ بتجهيز قهوة سريعة أستدرج بها شيئا من النّشاط إلى عروقي، ولكنّني سرعان ما عدلتُ عن ذلك كي لا أوقظه، فاكتفيتُ بتدخين سيجارة. بارحتُ الغرفة مغلقا الباب ورائي برفق، ونزلتُ الدّرج متّجها إلى الخارج. لثمتني نسمات الصّباح لذيذة البرودة، منعشة وصّافية. شعرتُ برعشة خفيفة تدبّ في جسدي نافضة آخر ما علق به من بقايا النّعاس. بعد عشر دقائق، دلفتُ إلى صيدليّة الحيّ. سلّمتُ على العامل الشابّ وطلبتُ منه علبة ضمّادات لاصقة، وعلبة قطن ومرهما لتطهير جروح الجلد. عرض عليّ أكثر من صنف فاكتفيتُ بالقول: "أيّ نوع أسرع مفعولا؟". أجابني مبتسما وقد أدرك بأنّني على عجلة من أمري: "جميعها تتساوى في سرعة المفعول، ولكنّ هذا النّوع هو أرخصها ثمنا". قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى علبة زرقاء صغيرة الحجم. طلبتُ منه كيسا، فاستجاب لأمري دون أن تفارق الابتسامة وجهه الجميل. دفعتُ له ثمن الدّواء شاكرا وغادرتُ عائدا إلى غرفتي. في الطّريق، انتابني توجّس من احتمال استيقاظ اشرف دون أن يجدني إلى جانبه. أسرعتُ في خطاي عبر الشوارع الضيّقة الّتي بدأت تتململ من سباتها تدريجيّا. كانت المقاهي قد شرعتْ في فتح أبوابها لمرتادي الصّباح

من عمّال وموظّفين.

لم أكد أبلغ باب البناية حتّى تذكّرتُ أنّني لم أشتر خبزا طازجا لفطور الصّباح. عدت أدراجي متّجها نحو فرّان الحيّ. اشتريتُ صنفين مختلفين من الخبز وقطعة مرطّبات ساخنة التهمتها بشراهة وأنا أهرع بخطى حثيثة عائدا إلى غرفتي. تنقّلتُ بين رصيف وآخر غير عابئ بألوان الإشارات وبتزمير السيّارات الصّباحيّة الغاضبة. "الضّوء أحمر أيّها الجرذ الأسمر! أتريد أن تموت اليوم؟!"، صرخ سائق مسرع كادت عربته تدهسني لو لا لطف الله. ولكنّي تجاهلته مبتسما وأنا أقفز بخفّة إلى النّاحية الثانية من الشّارع. كان عليّ أن أسلك أقصر الطّرق إلى الغرفة، وذلك ما فعلته رغم أنف الصّباح وضجيجه. عندما بلغتُ باب البناية من جديد، كانت الشّمس قد أرخت ضفائرها الذهبيّة على زرقة السّماء. شعرتُ بقطرات عرق ساخنة تنزلق على وجهي. كانت السّاعة تشير إلى التّاسعة إلاّ ربع عندما فتحتُ باب الحجرة، وكان أشرف لا يزال يغطّ في نوم عميق.

وضعتُ الخبز على الطّاولة، وأسرعتُ باتّجاه جسده الممدّد على السّرير. نقرتُ بأصابعي على صدره برفق، فتثاءب ثمّ فتح عينيه بصعوبة شديدة. عندما لمح وجهي، ابتسم ثمّ أغمض عينيه مرّة ثانية. بعد بضع ثوان بادرني بكسل صباحيّ: "كم السّاعة الآن؟". أجبته بحنان: "التّاسعة صباحا. كيف حالك اليوم؟". قال متثائبا وهو يفتح عينيه باتّساع أكثر: "لا يزال الوقتُ مبكّرا، أريد أن أنام أكثر!". قلتُ وأنا أضع عليه اللّحاف: "نصف ساعة لا أكثر. سأعود بعدها لإيقاظك. جلبتُ شيئا من الدّواء لتطهير جرحك. عليك اليوم أن تتغذّى جيّدا! سأمضي الآن إلى تحضير فطور الصّباح. نصف ساعة وأعود!". أجاب وهو يمطّط

شفتيه ثمّ يتثاءب مرّة ثانية: "لقد انتهى الأمر الآن! فعلتَها وأيقظْتَني. لا أظنّني قادرا على العودة إلى النّوم من جديد. عجّل لنا بقهوة ساخنة يا صديقي". كرّرتُ سؤالي لأتأكّد من أنّ حالته قد تحسّنتْ: "كيف حالك اليوم؟ أما زلت تشعر بالدّوار؟ والجرح، أما زال يؤلمك مثل البارحة؟". أجاب مبتسما وهو يفرك عينيه: "لا أدري بعد. أشعر بأنّني ما زلتُ تحت تخدير النّعاس. أمتأكّد أنّك لم تضَع لي منوّما في فنجان ماء الزّهر؟". أجبتُ مازحا: "منوّم من الصّنف الممتاز، جعلك تشخر كالثّور طوال اللّيل". أمسكتُ بيده وساعدتُه على النّهوض واضعا الوسادة وراء ظهره. فككتُ خرقة القماش المعصوبة حول جبينه وتفرّستُ في موضع الضّربة. كان البنّ الجافّ قد سيطر على النّزيف تماما، ولكن الجرح كان بحاجة إلى عمليّة تطهير عاجلة قبل أن يتعفّن.

عمدتُ إلى علبة الضمّادات ففتحتُها. أخرجتُ لفافة من القطن النّاعم وأسرعتُ بها إلى المطبخ حيثُ ضمّختُها بشيء من ماء الزّهر. عدتُ إليه وشرعتُ في تنظيف البنّ المتيبّس على الجرح وما حوله. صرخ من الوجع ولكنّني صبّرتُه قائلا: "دقيقتان وينتهي الأمر. لا بأس عليك.. لا بأس عليك!". بعد أن فرغتُ من عمليّة التنظيف، دهنتُ الموضع بشيء من المرهم. فعلتُ ذلك برفق شديد هذه المرّة، ولكنّه عاد إلى الصّراخ من شدّة الألم. عدتُ إلى مواساته قائلا:

"هذه الضمّادة اللاّصقة، سأضعها على الجرح الآن.. هكذا. ثمّ ضمّادة ثانية لأغطّي هذه الزّاوية من الجرح.. هكذا. دعني ألقي نظرة الآن!"

تراجعتُ بوجهي إلى الوراء كي أتأكّد أنّ الجرح ضُمّد بأكمله. قلت له وأنا أفتح لفافة ضمّادة ثالثة: "سألصق هذه الأخيرة ههنا،

ثمّ يصبح الجرح معزولا عن الهواء تماما". فتح عينيه بصعوبة وقد غطّت وجهه طبقة لزجة من العرق ثمّ أغمضهما من جديد. قلت وأنا أضع الضمّادات والمرهم في الكيس القابع على الطّاولة المحاذية: "سأساعدك على النّهوض، أريدك أن تحاول ذلك ببطء. أريدك أن تقف على حافة السّرير لمدّة دقيقتين أو ثلاث وأريدك أن تخبرني إن كنت لا تزال تشعر بحالة الدّوران. إن كان الأمر كذلك، فأريدك عندئذ أن تجلس على السّرير حتّى أتمكّن من مساعدتك على الاستلقاء مرّة ثانية. هيّا أعطني يدك ولنرَ إن كانت الدّوخة قد ذهبت إلى حال سبيلها".

ساعدته على النّهوض من السّرير، وما إن انتصب واقفا حتّى انتابته نوبة سعال خفيفة، سرعان ما سيطر عليها ليبتسم لي قائلا:

- لك أن تترك يدي الآن، أظنّني بخير. سأذهب إلى الحمّام لأغتسل. هل ما زلت محتفظا بفرشاة أسناني؟

أجبتُ وأنا أسحب يدي من يده ببطء:

- ما زالت في موضعها في الحمّام. سأحضّر فطور الصّباح وشيئا من القهوة. اذهب واغسل وجهك لتنتعش. ستكون بخير إن شاء الله!

أقفل أشرف باب الحمّام وراءه، وانصرفتُ إلى تجهيز القهوة وتقطيع الخبز السّاخن. عمدتُ إلى الثلاّجة فأخرجتُ منها علبة من مربّى التّوت البريّ وصحنا صغيرا عليه قطعة من الزّبدة. قرّبتُها من أنفي لأتأكّد من عدم تعفّنها فوجدتُ أنّها ما زالت صالحة للأكل. استعملتُ سكّينا حادّة لإزالة الأطراف اليابسة، ثمّ وضعتُ الصّحن وعلبة المربّى على الطّاولة

إلى جانب بعض قطع الخبز السّمراء. كانت القهوة قد بدأت تفور على السخّان. أسرعتُ إليها لأنتشلها بسرعة قبل أن تحترق، وأخرجتُ فنجانين صغيرين من الخزانة الخشبيّة القديمة الّتي تعتلي الحنفيّة.

سكبتُ القهوة برفق في الفنجانين ورميتُ في كليهما قطعتين من السكّر وبعض قطرات ماء الزّهر. على الطّاولة وضعتُ صحنين صغيرين تحاذي كلّ منهما سكّين لدهن الزّبدة والمربّى على الخبز. هرعتُ إلى الثلاّجة ففتحتها وأخرجتُ منها زجاجة من الماء البارد. سكبتُ شيئا منه في كأسين زرقاوين من البلاستيك ثمّ عدتُ لوضعهما إلى جانب الصّحنين الفارغين. لاحظتُ أنّ الطّاولة أصبحت مزدحمة من جرّاء وجود زجاجات البيرة والمنفضة الممتلئة بأعقاب سجائر اللّيلة الماضية، فنقلتها إلى خوان المطبخ. بعد ذلك عدتُ بفنجاني القهوة فوضعتهما إلى جانب كوبي الماء المثلّج وجلستُ منتظرا خروج أشرف من الحمّام. لم يأتني من ناحيته سوى صوت خرير مياه الحنفيّة ونوبة سعال متقطّعة كانت تنتابه من حين لآخر، فيتغلّب عليها بالحمحمة والبصق. تناولتُ فنجان القهوة وشرعت في احتسائه بهدوء.

خرج أشرف من الحمّام وقد بدت على وجهه بعض بوادر العافية والنّشاط. جلس إلى الطّاولة قبالتي وهو ينشّف شعره بتلذّذ وبدت على قميصه الأبيض بقع ماء متفرّقة. نادرا ما كان يغسل يديه وأطرافه دون أن ينال قميصه الحظّ الأوفر من الماء. ابتسمتُ لتلك الخاطرة وأنا أرقبه بعطف وهو يتخلّص بصعوبة من نوبة سعال جديدة. بعد ذلك، ألقى بمنشفته أرضا، وعمد إلى كُمَّيْ قميصه فأنزلهما دون أن يقفل الأزرار. نظر إليَّ باسما وقال وهو يتناول فنجان القهوة بيد مرتجفة:

- منظر الخبز الطّازج شهيّ جدًّا!

سألته مستدرجا، وأنا أناوله قطعتين من الخبز السّاخن:

- من المؤكّد أنّ الشّرطة تبحثُ عنك الآن في كلّ مكان!

أجاب وهو يلتهم قطعة الخبز بشراهة:

- عمّ تتحدّث؟

أجبتُ مازحا:

- كلارا مجنونة وقد تفعلها! ألم تبت البارحة خارج الشقّة دون أن تعلمها؟ ألا تحسب أنّ حادثا مثل هذا قد يؤرقها فيدفعها إلى البحث عنك في الشّوارع والأزقّة وكأنّك ابنها المفقود؟

أجاب بصوت غلبت عليه اللاّمبالاة:

- لن تبحث عنّي كلارا في أيّ مكان. إن كانت هناك ليلة نامت خلالها نوما عميقا وربّما رأت أحلاما مشرقة منذ عرفتها.. فأظنّها الليلة الماضية. ناولني صحن الزّبدة.

قلت وأنا أناوله الصّحن دون أن أرفع نظري عنه:

- ماذا حدث مع كلارا البارحة؟ هل لك أن تخبرني أرجوك؟ هل لك أن تريحني؟!

أجاب مراوغا:

- اللّعنة على المرض، من جرّائه ضاعت علينا ليلة رائعة!

فجأة، انتابته نوبة سعال أخرى ما لبث أن تغلّب عليها، ثمّ قال وقد

لمعت قطعة الخبز المدهونة بالزّبدة في يده المرتعشة:

- ألم أقل لك لا تخش شيئا! لقد سوّيتُ الأمور مع كلارا. لن تعود إلى الشّغل إلى أن يحين موعد رحيلنا. على ذكر الرّحيل، أين المال الّذي أخذناه من خوانيتو؟ نحن الآن بحاجة إليه كي نُسدّد باقي المبلغ لبلانكو في غضون الأيّام المقبلة. هل لك أن تذكّرني بمقدار المبلغ؟

- سبق وأن أخبرتك بأنّه يعادل مقدار ٢٨٠٠ يورو، وهو موجود عندي في الحفظ والأمان. سأعطيك إيّاه بعد قليل. أشرف، كُفَّ عن المراوغة أرجوك! أريد أن أعرف ما حصل مع كلارا. كيف أقنعتها بهذا الأمر؟ كلارا ليست غبيّة كما تعلم. أريد أن أعرف لكي يطمئنّ قلبي.

ذبّلَ عينيه واستغرق فيما يشبه العمليّة الذّهنيّة. تمتم محتواها بصوت خافت بلغني منه الآتي:

- ٢٨٠٠ يورو. بقي في حوزتي ما يعادل ١٠٠٠ يورو. ذلك يساوي ٣٨٠٠ يورو. دفعنا القسط الأوّل لبلانكو. يعني بقي علينا ٣٠٠٠ يورو.. ما يساوي القسط الثاني. ذلك يعني أنّه سيبقى في حوزتي ٨٠٠ يورو. لا أظنّ أنّ ذلك سيكفي لكي نبدأ حياتنا في مونريال. علينا أن نجد حلاّ. أين علبة سجائري؟

صرختُ بعصبيّة وقد نفد صبري:

- لعنة الله على السّجائر وعلى عاريات الملهى! ولعنة الله على بلانكو وعلى مونريال! لعنة الله على المال وعليك كذلك! ألا تراني أستجدي منك تفسيرا مباشرا لما حصل بينك وبين كلارا ليلة البارحة! أغبيٌّ أنت أم تتغابى؟!

انتابته نوبة قهقهة مفاجئة ردّا على نوبتي العصبيّة. أجاب وهو ينظر حوله باحثا عن شيء ما:

- حسن.. حسن، لا تغضب! سأروي لك كلّ شيء. ماذا تريد أن تعرف؟ ولكنّ قبل ذلك، هل لك أن تناولني سيجارة؟ أين علبة الدخّان؟

نهضتُ متثاقلا صوب سترته السّوداء الملقاة جنب السّرير. أخرجتُ علبة سجائره وفتحتها. كانت الولاّعة بداخلها. أخرجتها بتشنّج ثمّ أسرعتُ نحوه فوضعتهما أمامه بعصبيّة شديدة. كان بصدد مضغ لقمة من الخبز بتلذّذ عندما عدتُ إليه بمنفضة السجائر بعد أن أفرغتُ محتواها في حاوية القمامة. جلستُ أمامه صامتا، منتظرا أن يجود عليَّ بحرف. راقبته بامتعاض شديد وهو يتناول كوب الماء في هدوء متعمّد وكأنّه عزم على إفراغ ما بقي في جعبتي من صبر. أخذ رشفة خاطفة من قهوته، ثمّ أخرج سيجارة من العلبة في حركة رشيقة وأشعلها باحتراف. نظر إليّ مبتسما وهو ينفث الدّخان في الهواء على شكل دوائر متشابكة، ثمّ قال:

- تريد أن تعرف ما حصل البارحة مع كلارا، أليس كذلك؟

رمقتُه بنظرة ناريّة، ثمّ قلت:

- ناولني سيجارة وأعطني الولاّعة، ثمّ اشرع في الكلام فورا. أقسم باللهّ إن لم تفعل ذلك الآن، لأعيدنّ فتح ذلك الجرح في رأسك بهذه المنفضة النّحاسيّة قبل أن ألقي بك أمام شقّة كلارا غارقا في دمائك!

انفجر ضاحكا، ثمّ انتابته نوبة سعال أخرى. انتظرتُ مرورها بسلام شاعرا بارتجاج عروق رأسي من فرط الانفعال. قال وهو يناولني سيجارة بيد والولاّعة بأخرى:

- البارحة حملتُ كلارا إلى رحلة لن تخطر على بالك!

- اللّعنة على هذا الصّباح الأسود! أقسم أنّني سأقتلك اليوم يا ابن الحرام! ألا تكفّ عن مزاحك الثقيل وتخبرني بما حدث فتريح نفسك.. وتريحني!

سحب نفسا عميقا من نصف سيجارته المشتعلة، ثمّ رمقني بنظرة ماكرة شعرتُ بنبرة الجدّ في ذبذباتها:

- أقسم لك أنّني لا أمزح! وأؤكّد لك أنّني البارحة طلبتُ كلارا لأمر لن يخطر ببالك من الآن لمائة عام!

أجبتُ متهكّما:

- ثمّ ماذا؟

أجاب بنفس النّبرة السّاخرة:

- ثمّ لا شيء! كيف تطلبُ منّي أن أقصّ عليك ما حدث إن لم تأخذ كلامي مأخذ الجدّ!

قلتُ محافظا على هدوئي هذه المرّة:

- عزيزي أشرف! أنت تعلم مدى المعزّة الّتي أُكنّها لك. ليس لي غيرك من رفيق في هذه المدينة، ولن يكون لي غيرك أقاسمه همومي وهواجسي في ظلام الغربة. فأرجوك! أرجوك للمرّة الأخيرة ألاّ تدفع بي لارتكاب عمل أحمق قد يكون ثمنه هذه الصّداقة الّتي أريد أن أحافظ عليها مهما كان الثمن! أرجوك أن تبدأ الحكاية من الأوّل حتّى يتسنّى لي الفهم. يا أخي اعتبرني طفلا حدثًا! اشرح لي الأشياء على مهل،

فليس لديّ ما أفعله اليوم سوى الإصغاء إليك. ما حدث لي خلال الأربع وعشرين ساعة الّتي مضت يكاد يفقدني صوابي. فأرجوك! أرجوك باسم الصّحبة الّتي تجمعنا منذ الصّغر تكلّم، وليكن كلامك واضحا.. ومباشرا!!

أجاب مرتديا ابتسامته الشّيطانيّة المعهودة:

- أنت مُرْهَقٌ يا عزيزي أمير!

أجبتُ بامتعاض:

- لستُ مُرهَقا ولا هم يحزنون. فقط أريد أن أعرف!

نظر في عينيّ مبتسما وهو يذر ما انطفأ من سيجارته في المنفضة. فعل ذلك بطريقة فوضويّة جعلت الرّماد يتناثر فوق الطّاولة. أجابني بنبرة ماكرة:

- عندما دخلتُ الشقّة بعد أن تركتك، كانت كلّ أضوائها منطفئة ما عدا ضوء المطبخ الباهت. كانت تلك هي عادتها دوما. تحبّ أن تنتظرني في اهتياج صامت في ركن ما. ركن يختلف بحسب مدى حقدها عليَّ في كلّ ليلة. تحبّ أن تنتظرني تحت ضوء شاحب بعد أن تطفئ جميع الأنوار الأخرى. لا موسيقى تنبعث من راديو، ولا صوت مذيع أخبار يأتيك من جهاز تليفزيون. لا تصفير إبريق شاي يغلي على النّار، ولا رنّة هاتف. كانت كلّ الأجهزة هامدة، خامدة، ترتدي في صمتها حالة من الحداد المفاجئ. للحظة خيّل إليّ أنّ البيت بكلّ أثاثه ولوحاته في حالة تأهّب لتشييع جنازة. نظرتُ إلى فردَتَيْ حذائها المرميّتيْن بإهمال إلى جانب الباب، وتردّدتُ قليلا قبل أن أهمّ بلقائها في المطبخ. كان مصدر الضّوء آتيا من

هناك. دلفتُ إلى الحمّام لأقضي حاجتي أوّلا حيث أنّني كنتُ أعلم أنّها جهّزت لي عاصفة من الأسئلة والتحقيقات. كان على جسدي أن يُتِمَّ استعداده للمعركة!

"لقد عدتُ يا حبيبتي!". خرجت منّي التحيّة في صوت ناعم كالحرير وأنا أقترب من باب المطبخ. كنتُ أعلم أنّني لن أسمع منها ردّا، فذلك حالها دوما عندما تكون قابعة بصمت في قاع قفص النّور الشّاحب الّذي تصنعه لنفسها كلّ ليلة استعدادا لنوبة جنون جديدة. رسمتُ على وجهي ابتسامة وادعة وأنا أطلّ بوجهي من وراء باب المطبخ. كانت جالسة على الأرض تحت النّافذة، تحاذيها زجاجة نبيذ أحمر وعلبة أقراص مهدّئة. كان من الواضح أنّها استعملت الكثير منها لكي تبلغ ذلك الحدّ من الهدوء المخيف. جلستُ القرفصاء إلى جانبها وشرعتُ في المسح على شعرها الأحمر المنفلت على كتفيها الهزيلتين:

- لِمَ أنت جالسة على الأرض يا حلوتي؟ أما كان من الأفضل لك أن ترتاحي على فراشك في غرفة النّوم؟

ولكنّها ظلّت على صمتها، تدخّن بهدوء وتنفض رماد سيجارتها بين الحين والآخر في المنفضة النّحاسيّة القابعة على فخذها الأيمن. كانت ساهمة النّظر إلى الحائط الّذي يقابلها وتراءت لي أشباح مخيفة تتراقص داخل عينيها الغائرتين فتنعكس على الجدار أكبر حجما وأشدّ هولا. أمسكتُ بيدها اليسرى وفركتُها بحنان وأنا أقول:

- هل تعشيت يا حبيبتي؟ أتريدين أن أجهّز لك شيئا تأكلينه؟

سحبتْ يدها من بين أصابعي بهدوء، دون أن تنطق بكلمة،

ثمّ قالت بصوت يشبه حشرجة الأموات دون أن تنظر في وجهي:

- ما اسمها؟

أجبتُ على الفور محاولا استعادة يدها بين أصابعي:

- أنت مُتْعَبة يا حبيبتي، ما رأيك لو...

قاطعتني وهي تطفئ سيجارتها داخل المنفضة، وأتى لي صوتها كفحيح أفعى جريحة:

- قلتُ لك ما اسمها؟!!

أجبتُ متكلّفا ابتسامة رصينة:

- لا أحبّ أن أراك تشربين النّبيذ مع الأقراص المهدّئة يا حبيبتي. أنت تعلمين أنّ في ذلك خطر شديد على صحّتك وأنا لا أحبّ رؤية هذا الوجه الجميل وهو ممتقع وشاحب نتيجة هذه الخلطة المسمومة.

أجابت وهي تشعل سيجارة ثانية بيد مرتجفة:

- إن لم تخبرني من هي، فسأعرف حتما بطريقتي الخاصّة! أكرّر سؤالي للمرّة الأخيرة: ما اسمها؟!

أجبتُ بهدوء:

- عمّن تتحدّثين يا حبيبتي؟ أنا لا أفهم شيئا.

سحبتْ كلارا زجاجة النّبيذ من عنقها دون أن تفارق عيناها الجدار المقابل. اختلستُ نظرة ثانية إلى الحائط. لاحظتُ انعكاس ظلال ورود المزهريّة على صفحته فتراءت لي كمخلوقات رهيبة صعدت لتوّها من عالم سُفلي. أخذتْ جرعة كبيرة تقلّصت من جرّائها عضلات رقبتها. بعد

ذلك، وضعتْ الزجاجة جانبا ومسحتْ شفتيها الزّرقاوين بكمّ قميص نومها الأصفر. سحبتْ نفسا عميقا من سيجارتها والتفتتْ إليَّ فجأة:

- أريد أن أعرف اسم العاهرة الّتي تركتَ البيت من أجلها وأنت على هذه الحالة من المرض! أنا أنتظرك منذ السّاعة الثانية بعد الظّهر. والآن كم السّاعة؟ هه.. كم السّاعة؟! السّادسة والنّصف مساءً، وها أنت تشرِّفُ وعلى وجهك ابتسامة مذنبة وجلدك يعبق برائحة عطر نسائيّ رخيص! كلّكم كلاب! حيوانات! أنذال! لا تفكّرون إلاّ بتلك الأفاعي القبيحة الّتي تتلوّى بين أفخاذكم لتُسْكِنوها جحور نساء جديدات!

ثمّ أنزلتْ وجهها إلى الأرض. أمسكتْ برأسها بين يديها وأخذتْ تبكي في اهتزاز عنيف دون أن يصدر عنها أيّ صوت. سحبتُ السّيجارة المشتعلة من بين أصابعها وأطفأتها في المنفضة الجالسة على فخذها الهزيل. سحبتُ المنفضة، فوضعتُها جانبا، ثمّ أخذتُ في تمرير يدي على شعرها.

- وهل هناك امرأة تثيرني غيرك يا حبيبتي. أنا آسف جدّا.. جدّا! لقد حصل أمر طارئ مع أمير اضطرّني إلى الخروج معه في عجلة من أمري. اعذريني، فقد فاتني أن أترك لك رسالة ورقيّة تشرح سبب غيابي! أنا آسف.. آسف يا نحلتي الحمراء.. آسف وأستحقّ أن تقتليني عقابا على هذه الهفوة الخطيرة! انظري إليّ يا فراشتي الملوّنة، أريد أن أرى عينيك، أريد أن أقبّل شفتيك، أريد أن ألتهم جسدك الرّائع! انظري إليّ يا ملكتي.. ولا تبكِي.. أرجوك لا تبكِي!

أزحتُ يديها القابضتين على رأسها برفق شديد، ثمّ أمسكتُ بذقنها ورفعت وجهها إليّ. حملتها بقوّة وركضتُ بها إلى غرفة النّوم دون أن أجد منها مقاومة تذكر. لا أعرف كيف تخلّصتُ من ثيابي

ولا كيف خلعتُ عنها قميص النّوم. بعد ثوان وجدتني فوقها، وفي مناورة خاطفة اخترقتُ جسدها. في هذه المرّة قصدتُ أن أنظر في عينيها وكأنّني وقعتُ في حُبّها فجأة. ولكنّها لم تكن معي. كانت تتلوّى كالأفعى بين يديّ، وكانت أنفاسها تشعل لهيب كُرْهٍ قاتل في قلبي. في لحظة مجنونة، فكّرت أن أخنقها لأريحها وأريح نفسي. ولكنّني قرّرتُ أن أنهمك في عملي المعتاد. كان علي - ككلّ ليلة - أن أصنع لها من جسدي قمما من النّشوة حتّى يعود إليها عقلها الغائب لمدّة سويعات قليلة. قلتُ في نفسي: "أسبوعان يا أشرف! هيّا انصرف إلى شغلك بهمّة ونشاط. أسبوعان وستقدّم لهذين الجسدين الرّخيصيْن ورقة استقالتك إلى الأبد!"

بعد لحظات، بلغتْ كلارا ذروة الانتشاء. شهقتْ، ثمّ صرختْ صرخة عنيفة اضطربت لها أحشائي. فتحتْ عينيها وعضّت على شفتيها الزّرقاوين ثمّ ابتسمتْ. أحسستُ بقطرات العرق المالح تنزلق على جبهتي ووجدتني أبادلها ابتسامة إنهاء الخدمة. أزحتُ بيدي خصلة الشّعر الأحمر الملتصقة على خدّها الأيمن، وأخذتْ هي في زرع قبلات مهتاجة على كلّ نقطة من وجهي. تململتْ في غنج ثمّ بادرتني:

- كم اشتقتُ إليك يا حبيبي، وكم أنت قويّ وصلب! ما أجمل وجهك الأسمر.. إنّني أعبده! أريد أن أزرع أظافري وأسناني في بشرتك الطّريّة السّمراء. مرّة ثانية! أرجوك مرّة ثانية! هيّا أرجوك احملني إلى حيث لم يستطع رجل أن يحملني من قبل. أتوسّل إليك.. مرّة ثانية!!

همستُ لها وأنا أمسح وجهي في شعرها:

- أريد ذلك! أنت تعلمين أنّني أريد ذلك بالتأكيد، وتعلمين أنّني لا أستطيع أن أبخل عليك بشيء يا نحلتي الحمراء لأنّني أحبّك حبّا يفوق

الخيال! أنا اشتقتُ إليك أيضا، ولكنّ هذا المرض اللّعين قد امتصّ في الأيّام الماضية كلّ طاقتي الّتي كانت قادرة على إمتاعك. أعرف أنّك كنت تتألّمين لذلك، وأنا أيضا كنتُ أتألّم. أمهليني بضع دقائق أسترجع خلالها أنفاسي، وسأعود حتما لزرع النّشوة في أحشائك. سأحملك من جديد إلى حيث لم يحملك رجل من قبل، إلى حيث ترين العالم جميلا وملوّنا. انفصلتُ عنها بسرعة خاطفة فشهقتْ ثمّ استلقتْ على ظهرها مبتسمة. شعرتُ بصدري يهتزّ بعنف من شدّة الإنهاك. كان المجهود الّذي بذلتُه لإرواء عطش جسدها يفوق طاقتي، وكنتُ أعلم أنّ عدم امتثالي لمضاجعتها مرّة ثانية سيكون مماثلا لامتناع الطّبيب عن تزويد مريض له بالجرعات الكافية لدواء ما!

نظرتُ في وجهها المتجعّد ومررتُ راحتي على شعرها المضمّخ بالعرق. عزمتُ على إهدائها قدْرا من الحنان قد يُكسِبُني بضع دقائق ثمينة من الرّاحة الوقتيّة. ولكنّها كانت مهتاجة إلى حدّ الجنون. كانت على أتمّ استعداد لاستقبال جسدي الميّت من جديد. "حان وقت العمل!" فكّرتُ في نفسي. هجمتُ عليها مستجمعا كلّ ما بقي في جسدي من طاقة. دخلتُ في صلب الموضوع دون مقدّمات، وكانت هي جاهزة لاستقبالي. كانت مستعدّة لابتلاعي كصحراء لا تروي رمالها كلّ غيوم الأرض. تلوّتْ وشهقتْ وصرختْ. ابتسمتْ وقهقهتْ ثمّ هطلتْ دموعها. أغمدتْ أظافرها الطّويلة في جلد ظهري وعضّتْ رقبتي وأذنيَّ. نادتني باسمي وبأسماء أخرى لم تنادني بها من قبل: "حصاني العربيّ".. "فهدي الإفريقيّ".."نمري الأسمر". كانت تهمهم في هذيان محموم: "أمازلت جائعا.. أوه.. أمازلت جائعا؟ اقتحمني ومزّقني يا فهدي الإفريقيّ!

أعرف أنّك ما زلت جائعا.. وأنا فريستك اللّيلة! كم أحبّ أن تنهشني، وكم أحبّ أن تمزّقني. هيّا مزّقني، فأنا طوع أمركَ ورهن مخالبك القويّة. أنا ظبيتك الشاردة، وأنت جائع منذ أيّام. أنا في قبضتك الآن، فماذا أنت فاعل بي؟!". ثمّ انتفضتْ تحتي بعنف وأمسكت بمؤخّرة رأسي غارسة أظافرها الطّويلة في شعري بشراسة بدائيّة. نظرتْ إليَّ بعينين جاحظتين ثمّ كشَّرتْ عن أنيابها ثمّ صرخت في وجهي بنبرة استفزازيّة: "أهذه هي أقصى قوّتك؟ أهذا هو حدّ صلابتك؟ أهذا كلّ ما قدرتَ عليه؟! لا.. لا يا حصاني الأسمر. أريدك أن تركض بسرعة أكثر!.. هكذا.. نعم هكذا..!". على إيقاع هذه الصّرخات كان جسمي يهتزّ فوقها صعودا ونزولا، وفي لحظة خِلْتُ أنّ قلبي سينفصل عن صدري وبأنّني سأهوي ميّتا فوق جسدها الهزيل. شعرتّ بأظافرها تمزّق ظهري مرّة ثانية وكدتُ أدفعها عنّي لو لم تنقذني شهقتها الأخيرة. بعد ذلك أطبق صمتُ مفاجئ لم أسمع خلاله سوى حشرجة أنفاسنا المهتزّة بعنف. انفصلتُ عنها متقزّزا وشرعتُ في مسح العرق المتصبّب على جبيني بطرف اللّحاف. عندما التفتُّ إليها كانت قد غاصت في نوم عميق. عندئذ أدركتُ أنّ صوابها قد عاد إليها وأنّ الحقنة المخدّرة قد أعطتْ مفعولها أخيرا.

غفوتُ لما يقارب النّصف ساعة، أفقتُ إثرها على أنامل كلارا وهي تداعبُ شعري بنعومة. فتحتُ عينيّ بصعوبة فإذا بها تلتقيان بعينيها الغائرتين. كانت تتأمّلني بحنان مَرَضِيّ. لفحتْ وجهي رائحة الكحول والسّجائر المنبعثة من شفتيها وهي تهمس لي بغنج: "آه كم اشتقتُ إليك يا حبيبي! كم اشتقتُ إليك! مضى زمنٌ طويل على التقائنا بهذه الحرارة. كم اشتقتُ إليك!". قبّلتْ شفتي السّفلى وعضّتها بتهيّج. همّتْ بالصّعود

فوقي ولكنّني أمسكتُ بشعرها راسما على وجهي ابتسامة تفيض حبّا وقلتُ: "ليس بالقدر الّذي اشتقتُ به إليك! أنت لا تعلمين إلى أيّ حدّ أعشقك يا ظبيتي الإسبانيّة!".

أجابتني وقد اكتسى وجهها بحمرة خفيفة: "بل أعلم! أجل أعلم!". أدنيتُ وجهي إليها أكثر. نظرتُ في عينيها وهمستُ بنبرة مغرية: "كم السّاعة الآن؟". أجابت دون أن ترفع نظرها عنّي: "لا أدري. ولا يهمّني كثيرا!". أجبتُ مضاعفا شحنة الإغراء في صوتي: "عندي لك مفاجأة رائعة. أتريدين أن تعرفي ما هي؟". أجابت وقد اتّسعتْ عيناها ولمع في حدقتيهما وميض فرحة طفوليّة: "طبعا أريد أن أعرف. الآن.. أرجوك أريد أن أعرف الآن!". أخذت تهزّ كتفي العارية بيديها المعروقتين وهي تصيح: "مفاجأة! ماذا تنتظر لكي تخبرني؟! الآن أريد أن أعرف. أرجوك يا حبيبي.. الآن.. الآن!". أجبتُ مبتسما: "ستعرفين، ستعرفين حتما. ولكن أريد منك خدمة صغيرة قبل أن أخبرك!".

قبل أن تفتح فمها لتسألني مرّة أخرى، أكملتُ كلامي قائلا: أريد فنجان قهوة ساخنة من هاتين اليدين الجميلتين!". أجابتني بدلال: "ولكنّ الطّبيب منع عنك القهوة وجميع المنبّهات إلى أن تتحسّن حالتك. أنا أخشى على صحّتك من التّدهور يا حبيبي، وأخشى.. ". قاطعتُها بهدوء وأنا أداعب شعرها: "وماذا يمكن لفنجان قهوة صغير أن يفعل بي سوى إعادة النّشاط والحيويّة إلى جسدي". بعد ذلك غمزتها قائلا: "أنتِ ظبية شديدة المراس ولقد تعبتُ في اصطيادك هذه اللّيلة، ألا تجودي عليَّ بشيء من القهوة يعيد إليّ بعض ما ضاع من طاقتي؟ ". واصلتُ الكلام وأنا أقبّل رقبتها المجعّدة: "أنتِ تعلمين أنّ الأطبّاء معظمهم أغبياء.

أمرني الدّكتور بألا أجهد نفسي، وهأنذا أمامك كالحصان القويّ! ألم تقولي حصاني العربيّ منذ قليل؟". همستْ لي متأوّهة: "نعم.. نعم، حصاني العربيّ.. نعم!" تماديتُ في تقبيل رقبتها وأنا أهمس بإغراء: "إذن، فأرجوك! لا تضنّي على بفنجان قهوة ساخنة. سأذهب لآخذ حمّاما. سأخبرك بالمفاجأة بعد أن أشرب قهوتي!" تأوّهَتْ بقوّة أكثر وهي تُرْجِعُ رأسَها إلى الوراء مُسْلِمَةً رقبتها لقبلاتي: "نعم، نعم.. المفاجأة!". ارتدتْ قميص نومها بخفّة، ثمّ قبّلتني على شفتيّ، وقفزتْ مسرعة باتّجاه المطبخ لتجهيز القهوة.

عندما توارى شبحها عنّي، نهضتُ متثاقلا وقد ألمَّ بي صداع مخيف. فتحتُ الخزانة وسحبتُ منشفة كبيرة ثمّ اتّجهتُ صوب غرفة الحمّام. وقفتُ عاريا في حوض البانيو وفتحتُ حنفيّته المعدنيّة اللاّمعة. انبثقتْ المياه كالإبر الحارقة من ثقوبها الرّفيعة فأسلمتُ رأسي لوخزاتها اللّذيذة شاعرا بارتخاء دافئ يسري في أوصالي. ضغطتُّ على أنبوب الشامبو فاستخرجتُ منه ما يكفي لتكوين رغوة كثيفة. فركتُ بها شعري وجسدي فرْكًا خِلْتُ أنّني سلختُ به ما كان يغطّي عظامي من جلد. شعُرتُ بأنّ القذارة تعتصرني كحيّة صفراء. حيّة بشعة ذات أسنان حادّة ولسان ورديّ مشقّق يقطر بللُه سمّا. كانت رائحة السمّ تشبه رائحة عطر كلارا فضاعفتُ من همّتي في الاغتسال. هذه المرّة فرَكْتُ بقوّة أكثر معرّضًا ظهري للماء الحارق لأكمّد به آثار الجروح التي خلّفتها أظافرها! فجأة وجدتُ نفسي أبكي وأضحك في ذات الوقت: "أسبوعان.. وينتهي كلّ شيء!". هوّنتُ على نفسي بهاتين الكلمتين وأنا أدير مقبض الحنفيّة لأوقف تدفّق الماء السّاخن.

نزلتُ من البانيو، وشرعتُ في تنشيف شعري وأطرافي. نظرتُ في المرآة المكسوّة بضباب البخار السّاخن. لم يتراءى لي منها سوى انعكاس الضّوء، وبعض الخطوط المتموّجة. مسحتُ صفحتها بيدي فبرزتْ لي قسمات وجهي محتقنة من شدّة الحرارة. سكبتُ شيئا من الماء البارد على أصابعي وأخذتُ في تمسيد وجهي. كانت محاولة يائسة منّي لإزالة الانتفاخ الّذي أصابه نتيجة مكوثي الطّويل تحت ماء الدشّ الحارّ. ربطتُ منشفة حول خصري وفتحتُ الباب برفق فلفحَتْ صدري العاري برودة منعشة.

عبرتُ ظلمة البهو باتّجاه غرفة النّوم شاعرًا بمسامّ جسدي تنتصب كالأشواك تحت تأثير اختلاف الحرارة بينه وبين غرفة الحمّام. تناهى لسمعي تحرّك خطوات كلارا وهي تروح وتجيء في المطبخ وسمعتُ صوت ملعقة تدور في فنجان. نصف ساعة كي تحضّر فنجان قهوة! دلفتُ إلى الغرفة واستلقيتُ على الفراش محاولا استرجاع أنفاسي. فكّرتُ جاهدا فيما سأقوله لها بعد لحظات. قلتُ في نفسي: "خمسُ دقائق ثمّ أنهضُ لارتداء ملابسي والله سيُلهمني النطّق بعد ذلك!". مرّتْ عشرُ دقائق وأنا لا أزال مستلقيا على ظهري، أظنّني غبتُ خلالها عن وعيي فيما يشبه الإغفاءة السّريعة. عشرون دقيقة مرّت دون أن أبرح مكاني وكلارا لم تظهر بعد. شعرتُ ببرد شديد يجتاح جسدي فانتصبتُ واقفا وشرعتُ في تحريك ساعديّ مستدرجا شيئا من الحرارة. هرعتُ إلى الخزانة ففتحتها متأمّلا جسدي العاري أمام مرآة بابها. لأوّل مرّة ألاحظ كميّة الوزن الهائلة الّتي فقدتها خلال الأيّام الأخيرة. قلتُ في نفسي: "هكذا أحسن!".

ارتديتُ تُبّانًا داخليًا ثمّ شرعتُ في تصفيف شعري بعناية. تحسّستُ ذقني وقلتُ: "رطبة بما فيه الكفاية!". بعد ذلك لبستُ بدلة السّهرة. تعطّرتُ وجلستُ على السّرير أدخّن. عمدتُ إلى بنطلون "الجينز" الملقى على الأرض فسحبتُ منه ورقة الغرامة الّتي تركها لك بوليس الهجرة. فتحتها لأوّل مرّة وقلتُ: "اللّعنة.. مبلغ باهظ. كلارا ستجنّ.. ربّنا يستر!". طويتُ الورقة ودسستها في جيبي متبرّما: "اللّعنة عليها.. كلّ هذا الوقت من أجل رشفة قهوة!". كانت سيجارتي على وشك الانتهاء. بحثتُ عن المنفضة فلم أجدها. ناديتُ بصوت ناعم: "أين أنت يا حبيبتي!.. كلارا؟ أين أنت؟!".

عبر فراغ البهو بلغني ردّها كصدى قادم من بعيد: "أنا في المطبخ. دقيقتان وسأكون أمامك يا حبيبي. كيف كان حمّامك؟". حافظتُ على نعومة صوتي وأنا أجيبها قائلا: "دافئ ورائع! أشعر بأنّ التّعب قد زال عنّي نهائيّا!". سمعتها تقهقه في المطبخ ثمّ ردّت قائلة: "ألهذه الدّرجة أتعبتُكَ؟ اللية لا تزال طويلة، أليس كذلك يا حبيبي؟". أجبتها وقد انتابني تقزّز داخليّ: "ما أخبار القهوة؟ أظنّني أشمّ رائحتها الذكيّة من هنا!". قالت ضاحكة: "القهوة جاهزة. هل تريد شيئا آخر؟". أجبتُها ملاحظا رماد سيجارتي المتساقط على الأرض: "هل لك أن تأتي لي بمنفضة وبكوب من الماء البارد؟" أجابت بنبرة مرحة فيها شيء من العتاب: "ليس عندي منافض أشجّع بها المرضى على التدخين!". أجبتُ ضاحكا: "إن كنتِ تريدين منّي الإقلاع عن التدخين لبضعة أيّام فسأفعل، ولكن بشرط!". قالت بدلال: "بدأنا اللية بالشّروط والطّلبات. أوّلها القهوة، ثمّ المنفضة، والآن.. ". انتابتها نوبة سعال مفاجئة، ثمّ سمعتُها تحمحم لاسترجاع

صفاء صوتها. استمرّت قائلة: "والآن تساومني على استرجاع صحّتك! أخبرني ما شَرْطُك يا حبيبي؟". أجبتها وأنا أقلّب السيجارة المنطفئة بين أصابعي: "شَرْطي أن نقلع عن التّدخين معًا. ما رأيك؟". سمعتُ وقع خطواتها وهي تقترب شيئا فشيئا من باب الغرفة. أجابتني بنبرة مرحة: "أنا لستُ مريضة حتّى أقلع عن السيّجارة". قلتُ في نفسي: "من سخريّة القدر أنّك تظنّنين ذلك.. للأمراض أصناف كثيرة!".

في هذه اللّحظة دلفتْ إلى الغرفة باسمة الوجه. كانت تحمل بين يديها صينيّة خشبيّة عليها منفضة وفنجان وكوب من الماء المثلّج. في وسط الصينيّة لاحظتُ وجود صحفة صغيرة تصاعدَ منها بخار غريب الرّائحة. عندما التقتْ عيناها بي، تجهّم وجهها وتقوّس حاجباها. توارت ابتسامتها وهي تبادرني قائلة: "لم أنت لابس هكذا؟". التزمتُ الصّمت لبضع دقائق. راقبتُها مبتسما وهي تضع الصينيّة فوق الطّاولة المحاذية للسّرير.

اختلستُ نظرة إلى محتوى الصّحفة وقلتُ في نفسي: "اللّعنة على حساء البصل!". أمسكتُ بيدها المعروقة وأجلستُها إلى جانبي. قلتُ بحنان: "تعالي إلى جانبي يا نحلتي. هل نسيتِ المفاجأة؟". أجابت دون أن يفارق العبوس وجهها: "آه المفاجأة، ما هي يا ترى؟ أن تنام معي لمدّة نصف ساعة ثمّ ترتدي لباس السّهرة لكي تعود إليها. أليس كذلك؟!". ثمّ أردفتْ بنبرة متحدّية: "كلّي آذان مصغية. ما مفاجأتك؟!".

ألقيتُ بالسيجارة المنطفئة في المنفضة، ثمّ ضغطتُّ على يدها وأنا أقول بصوت تصنّعتُ اضطرابه: "في الواقع، أنا لا أدري إن كنت ستعتبرينها مفاجأة. لا أعرف من أين أبدأ الحديث!". رفعتُ رأسي، فالتقتْ عيناي

بوجهها المتجهّم. كانت متحفّزة للهجوم، جاهزة للانفجار في أي لحظة. لم يكن لي خيار سوى فكِّ خيوط تشنّجها كمن يفكّ خيوط قنبلة موقوتة. قبّلتُ جبينها وقلت بحنان:

- كلارا. أنت تعلمين كم أحبُّكِ، أليس كذلك؟

أجابت وهي تسحب أصابعها من بين أصابعي:

- لا أدرى. شكلك وملابس خروجك للسّهرة وحدك لا يدلاّن على ذلك!

أجبتُ محافظا على هدوئي:

- لم أحبَّ امرأة كما أحببتك. يجب ألاّ تشكّي في هذا أبدا. أنت أجمل ماحدث في حياتي البائسة.

قالت وقد تصاعد انفعالها:

- أنا لا أعرف شيئا عن تاريخ حياتك. لا أعرف إن كانت سعيدة أم بائسة. كلّما سألتك عن بلدك.. عن قريتك..عن أهلك أو أصدقائك، تتملّص كسمكة لزجة لتفلت من إجابتي. تفعل ذلك بمهارة تغيظني.. تقتلني! أنا لا أعرف عنك شيئا، فكيف تنتظر منّي أن أصدّق أيّ كلمة تقولها؟!

- معكِ حقّ. ولكنّني لا أحبّ الحديث عن الماضي لأنّه لن يعود مهما حاولنا استدراجه بالكلمات. كلّ ما يهمّني هو الحاضر. كلّ ما يهمّني هو حبّكِ! كلّ ما يهمّني هو حنانك وعطفك اللذان يغمران قلبي دفئا وجمالا في كلّ لحظة، في كلّ ثانية. أمّا المستقبل فهو.....

قاطعتني بعصبيّة:

- أنا أكره المستقبل وأمقتُ الحديث عنه!

أجبتُ مبتسما:

- إذن فلنتحدّث عن الحاضر.

- الحاضر الّذي أراه الآن أمامي لا يعجبني ولا يروق لي. يستفزّني ويجعلني أريد تحطيم البيت بكلّ ما فيه من أثاث وأهرب بعيدا!

- إلى أين تهربين؟ ولماذا؟

- إلى أيّ مكان! إلى البحر أو إلى غابة بعيدة حيث أعيش مع مخلوقات لا تعرف الخيانة!

- ألستِ سعيدة معي؟ ألم تقولي منذ حين إنك تحبّينني كثيرا؟

أطرقتْ هنيهة وقد انزلقت دمعة لامعة على خدّها. سحبتْ يدها من راحتي ومسحتها بأصابع مرتعشة، ثمّ رفعتْ عينيها محدّقة إلى البعيد، إلى شيء لا مرئيّ. مرّت لحظات طويلة قبل تجيب بصوت غائب:

- لا أدري. أحِبُّكَ؟ نعم. أقصد ربّما! لا أعرف... لا أعرف!

أمسكتُ بذقنها ملاطفا. رفعتُ وجهها الحزين إليّ وقلتُ مبتسما:

- كيف لا تعرفين؟ ألم تؤكّدي لي في أكثر من مناسبة بأنّك لم تحبّي رجلا كما أحببتني؟ أليس كذلك يا نحلتي الحمراء، أليس كذلك؟!

أجابت وقد ارتعشتْ شفتاها:

- نعم هو كذلك! ولكنّني.. لكنّني..

- ولكنّك.. ماذا؟

- لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك. كلّ ما أعرفه هو أنّني خائفة جدّا! خائفة إلى درجة تفوق الوصف. وعندما يعتريني هذا الشّعور القاتل. أشعر بالكراهيّة!

قاطعتها بحنان:

- ممّ أنت خائفة!

أجابت وقد انحدرت دمعة ثانية على خدّها سرعان ما مسحتْها بيد متشنّجة:

- خائفة منك! وخائفة من المرأة الّتي تنسج خيوطها الحريريّة حولك كي تختطفك منّي. خائفة من الزّمن ومن الوحدة، من الانتظار والموت!

- أفهم ذلك وأقدّرهُ. ولكنّك تعلمين في قرارة نفسك بأن لا امرأة في حياتي غيرُكِ. فلم التفكير؟ لم تعذيب الرّوح؟ لم الخوف من مخلوق خرافيّ؟!

انطلقتْ من صدرها زفرة عميقة اهتزّ لها جسدها الهزيل. ثمّ قالت:

- قد تكون على حقّ. ولكنّها تعيش في رأسي وأمام عينيّ. تعيش في كلّ أرجاء هذه الشقّة كائنا حقيقيّا لا يقبل الشكّ! تطاردني في كلّ مكان، حتى في نظراتك لي وأنت تقول "أحبّكِ"! هذا البيت أصبح مظلما وهي تحوم حوله في كلّ لحظة!

قلتُ مداعبا:

- إذن، كلّ ما عليك فعله هو اقتناء المزيد من الأباجورات لإضاءة

البيت!

ضربتني على يدي وقد تسلّل إلى شفتيها خيال ابتسامة حزينة:

- أنت سخيف!

ثمّ استدركتْ بنبرة حازمة:

- لم تجبني عن سؤالي. لمن تتأنّق هذه اللّيلة؟

- أتأنّق لأمرين. أوّلهما موضوع المفاجأة. وثانيهما..

قاطعتني بعصبيّة:

- وثانيهما هي.. أليس كذلك؟

حافظتُ على هدوئي وأنا أنظر إلى تقلّص عضلات وجهها. قسماتها أخذت شكلا خطيرا كملامح حيّة "كوبرا" انتصبت لي فجأة بين الأحراش. قلتُ في نفسي: "لا فائدة من المناورة. إن جمدتُ في مكاني، فستغرس أنيابها المسمومة في عظامي وينتهي الأمر. المناورة لا.. ولن تكفي، لا حلّ سوى الهجوم!".

نطقتُ بالشهادتين في سرّي، ثمّ نهضتُ عن السّرير متباطئا. ركعتُ على ركبتي أمام وجهها المتحفّز وقلت مبتسما:

- "كلارا رودريقز". هل تقبلينني زوجا لك!

لا أدري كم من الوقت لبثتُ راكعا أمامها. كلّ ما أعرفه هو أنّني شعرتُ بخدر في ركبتي اليمنى وأنا جامد في مكاني محدّقا إليها ومنتظرا جوابا ما. منتظرا حركة أو كلمة منها أبني عليها ما سأقوله لاحقا. كانت جعبة الكلام عندي فارغة وكنتُ بحاجة إلى ردّ فعل منها،

قد يلهمني الجمل اللاحقة. ولكنّها نكّستْ رأسها، غرستْ عينيها الغائرتين في أرضيّة الحجرة والتزمت بصمت رهيب. حاولتُ استكشاف الشّعور من نظراتها، ولكنّ عينيها المكسوّتين بطبقة شفّافة من الدّمع كانتا أشبه ببحيرتين من الجليد القاسي.

- كلارا، قولي شيئا!

ولكنّها ظلّت على حالها من الجمود البارد وبدت لي شبيهة بحيوان ثلجيّ محنّط. استبدّ ألم شديد بركبتي الملتصقة بأرضيّة الغرفة. كان الصّمتُ لا يزال جاثما على الهواء كرطوبة قبر فُتِحَ بعد مئات السّنين. نهضتُ بصعوبة وجلستُ إلى جانبها. كانت قد غطّتْ وجهها براحتيها، وأخذ جسمها يهتزّ في تشنّج عنيف. قلتُ وأنا أمرّر أصابعي بحنان على خصلات شعرها الأحمر: "لم أكن أحسبُ أنّ طلبي هذا سيضايقك إلى هذه الدّرجة. كنتُ أظنّ أنّ هذا الأمر سيفرحك. أنا آسف. أسف جدّا يا حبيبتي!".

خيّم الصّمتُ على الغرفة من جديد. مكثتُ إلى جانبها منتظرا توقُّف جسدها الهزيل عن الاهتزاز، منتظرا أن ترفع يديها عن وجهها، حتّى أرى وقع الخبر عليه. ولكنّها ظلّتْ منكفئة على نفسها كحلزون لاذ بسكون قوقعته في يوم ممطر. قلتُ في نفسي: "دموع الفرح دون شكّ!". أخذتُ في تمرير يدي على ظهرها المقوّس في حركة مواسية. كانت فقرات ظهرها بارزة عبر قميص نومها الأصفر كسلسلة حجريّة. نظرتُ إلى أثاث الغرفة حولي. كانت الكآبة قد بدأت تكتسح ألوانه ممتزجة برائحة الجنس الّذي مارسناه منذ ساعة. شعرتُ برغبة مفاجئة في التّقيؤ لو لم أتدارك ذلك بإشعال سيجارة. سحبتُ منها نفسا عميقا وقلتُ: "حبيبتي. انظري إليّ

أرجوك. قولي شيئا. قولي أيّ شيء! اصفعيني، ابصقي في وجهي، مزّقي لحمي. أرجوك افعلي أيّ شيء! المهمّ ألاّ أراك على هذه الحال! دموعك هذه غالية عليَّ. أنا آسف. آسف جدًّا!".

ولكنّها ظلّت صامتة. نهضتُ عن السّرير ببطء. أطفأتُ سيجارتي وجلستُ أرضًا أمامها. برفق أمسكتُ براحتيها ورفعتهما عن وجهها. كانت الدّموع تترقرق بغزارة على وجنتيها ولم يكن بوسعي سوى النظر إليها بشفقة صامتة. بين الحين والآخر كنتُ أطلق زفرات عميقة، متقنة الصّنع. أمّا بداخلي، فلم يكن هناك غير نهر بارد. بداخلي كان هناك طفل يتدحرج أرضا ويقهقه بجنون. بداخلي كانت هناك ليلة عيد، أضواء مشتعلة وألعابٌ ناريّة تملأ أرجاء السّماء. قبعتُ كالجرو أمامها وانتظرتُ. بعد لحظات، رفعتْ رأسها ونظرتْ إليّ بوجه ممتقع كوجوه الموتى. كانت عيناها بلون الدّم. على زوايا شفتيها لمحتُ شبح ابتسامة. وراء تجهّمها تراءى لي خيال احتفال. بهدوء كانت تستعدّ لنصر طالما ترقّبتْ بوادره. نصرٌ كادت تنسى احتماله، فإذا به يباغتها من حيث لا تعلم. يباغتها هنا، على هذا السّرير حيثُ اعتادت تناول وجبات الجنس العاديّة. هنا حيث لا نصر سوى بضع دقائق من النّشوة الزّائلة. هنا حيث لا رائحة سوى لعطرها الممتزج بحبّات عرقي السّاخنة وأنا أحرث جسدها جيئة وذهابا. من هنا، من حيث بلغتْ هي سنّ اليأس، تولد أكاليل ورد جديدة وفستان أبيض وزوج في ذروة الشباب. شهقة رائعة في صمت ليلة عاديّة، هكذا أردتُ لعرض الزّواج أن يكون. وهكذا كان: ضربة حبّ في الصّميم!

ألقيتُ نظرة خاطفة على الصّينيّة. كان البخار المتصاعد من صحفة

الحساء قد تلاشى تماما. أمّا القهوة، فأظنّها قد بردت. لمحتُ منديلا مطويّا إلى جانب الفنجان فسحبتُه بهدوء. فتحتُه وشرعتُ في مسح دموعها المنهمرة. كانت ساكنة كتمثال من الشمع ولم تنبس بشيء سوى كلمة: "شكرا!". انفرجت شفتاها عن ابتسامة شاحبة ثمّ قالت:

- لم يحدث قبل أن أعرفك أن جفّف دموعي أحد.

- أعرفُ ذلك.

- هل أخبرتُكَ بهذا سابقا؟

أجبتُ وأنا أضع المنديل جانبا:

- لا، ولكنّني أعرف دون حاجة لأن تخبريني.

قالت بعد أن تصاعدت من صدرها زفرة عميقة:

- أهذه هي المفاجأة؟

- كنتُ أظنّ أنّها كذلك، ولكن يبدو أنّني أخطأتُ التقدير.

طلبتْ منّي سيجارة فأشعلتُ لها واحدة. ثمّ خيّم الصّمت.....

سحبتْ من سيجارتها نفسا قويّا كتمتْه في صدرها، ولم يخرج منه سوى شيء قليل عبر أنفها. فركَتْ جبينها بعصبيّة فتناثرت رقائق الرّماد على فخذها الأيمن المغطّى بقميص النّوم. نفختُ عليها بقوّة فطارت، ثمّ نفضتُ بأصابعي ما بقي عالقا منها. نظرتُ إليها من جديد وقلتُ: "أنا آسف. آسف جدّا!". أجابت بعد أن سحبتْ نفسا جريحا من لفافتها المتوهّجة: "تريد أن تتزوّجني أشرف؟". أجبتُ بعطف: "فكّرتُ بذلك طويلا، ولكنّني لم أجد الجرأة الكافية لأطلب منك سوى.." قاطعتْني

بصوت غائب: " سوى أنّك وجدتها اللّيلة أخيرا؟!". أجبتُ بصوت هادئ: "الحقيقة أنّني أردتُ عرض هذا الأمر عليك منذ شهور، ولكنّني أحجمتُ خوفا من أن تسيئي فهمي". أطفأتْ سيجارتها بارتباك ثمّ أجابت وهي تمسح ما علق بعينيها الغائرتين من دموع: "ولِمَ أسيء فهمك؟". قلتُ: "لا أدري. ربّما لأنّ علاقتنا في ذلك الوقت كانت حديثة العهد. خشيتُ أن تظنّي بي أشياء لا طاقة لي بتحمّلها حتّى كخيال عابر!". أجابت: "كماذا؟ ماذا خشيتَ أن أظنّ بك؟". قلتُ بصوت نمّقتُه بتشنّجات الخجل: "خفتُ أنّ طلبي قد يدفعك إلى التفكير بأنّني أريد الارتباط بك لمجرّد المصلحة". أجابت: "تقصد المال؟".

قلتُ: "المال وأشياء أخرى، كأن تظنّي مثلا... ". قاطعتني بابتسامة حزينة: "تعني أوراق الإقامة، أليس كذلك؟ ما الّذي يجعل شابّا في مثل سنّك يطلب الزّواج من امرأة فاتها قطار العمر سوى رغبته في امتطائها جسرا للبقاء في إسبانيا؟ ذلك ما خشيت أن يذهب فكري إليه، أليس كذلك؟". قلتُ وأنا أمسح على شعرها بحنان: "صدّقيني، لم أشعر قطّ بأنّ هناك فارقا في السنّ بيننا، بل إنّني لم أشعر في أيّ وقت من الأوقات بأنّ هناك أيّ نوع من الفوارق بيننا على الإطلاق. كنتُ دائم الإحساس بأنّنا شخص واحد، ولا أدري كيف أثبتُ لك ذلك. لا أدري!". همّت بالإجابة ولكنّني وضعتُ سبّابتي على شفتيها بألاّ تفعل. نهضتُ عن موضعي وجلستُ إلى جانبها مواصلا: "ربّما الأيّام وحدها كفيلة بأن تثبت لك صدق مشاعري. وإن كان طلبي هذا قد سبّب لك أيّ نوع من الإحراج، فأنا مستعدّ لسَحْبِه فورًا لقاء رؤية ابتسامة واحدة تشعّ من وجهك الجميل!".

في هذه اللحظة لمحتُ دمعة لامعة تنحدر بسرعة خاطفة على خدّها. لم أكد أتمّ جملتي حتّى وجدتها ترتمي في أحضاني باكية وهي تقول: "اصمُتْ. أرجوك اصمُتْ! لا تقل شيئا.. أتوسّلُ إليك! ضمّني إلى صدرك ولا تقل شيئا. طوّقني بذراعيك ودفّئني بأنفاسك. دعني أصغي إلى دقّات قلبك الكبير. قلبك الّذي لا أعلم إن كنتُ جديرة بالوقوف إلى جانبه أمام وجه الإله. ولكنّني..لكنّني.. لكنّني موافقة! آه يا نمري الأسمر.. كم أحبّك! كم أنت رائع، وكم أنت طيّب!". ضممتها إليّ بقوّة شاعرا بقلبي يرقص طربا لانفجار دموعها فوق ألغام الوهم. قبّلتُ رأسها المختبئ في صدري وهمستُ لها بنبرة احتفاليّة: "أصحيح ذلك يا نحلتي الحمراء! أصحيح أنّك موافقة؟ أنا لا أصدّق أذنيَّ.. لا أصدّق! أخيرا ستتوحّد روحانا في النّور. أخيرا ستباركنا السّماء!". بلغني صوتها متقطّعا وهي تجيبني مرتعشة كعذراء:"صحيح، نعم صحيح!!".

لبثنا متعانقين برهة من الزّمن، وكان الصّمتُ ثالثنا. فجأة انفصلتْ عنّي وقالت وهي تمسح عن وجهها ما علق به من آثار الدّمع: "هناك أمور كثيرة وجب التخطيط لها الآن! نعم أشياء كثيرة. الفستان والمدعوّن، صالة الاحتفالات ووجبات الأكل. أعرف أنّك لن تقبل أن يزوّجنا قسّيس، لذلك سيكون زواجنا مدنيّا. سأقرأ بعض آيات الإنجيل في سرّي، ولك أن تتلو بعض الآيات القرآنيّة وسيباركنا اللهّ حتما! آه كم أنا سعيدة! ماذا بقي من التدابير بعد ذلك؟ أوووم، نعم. علينا أن نشتري الخواتم! وأنت يا حبيبي، سأختار لك أجمل وأغلى بدلة عرس. بدلة لم يلبس مثلها رجل من قبلك في أوروبّا كلّها! ستكون أجمل الرّجال ليلة زفافك، وسأكون أنا إلى جانبك.. ولن أرى غيرك! كيف لي أن أرى

غيرك وأنت عشقي الأوّل والأخير! ثمّ ماذا؟ آه، علينا أن نفكّر بتحديد الموعد. ما رأيك في الأسبوع المقبل؟ لا..لا، مدّة غير كافية، فهناك أشياء أخرى على تدبّر أمرها: الحلويّات، والمصوّر الفوتوغرافيّ. هناك أكاليل الزّهور وستائر الدّانتيل الّتي سنزيّن بها عرش سعادتنا. هناك أنواع النّبيذ وبطاقات الدّعوة! ما رأيك أنّ نحدّد موعد الحفل بعد أسبوعين..هه! ما رأيك يا حبيبي؟

بغضّ النّظر عن أنّي كنتُ أتوقّع هذا السؤال منها، حيثُ أنّني جهزتُ له جوابا وأنا أصعد الدّرج المؤدّي إلى الشقّة. بصرف النّظر عن أنّها حدّدت موعد حفل زفاف ستكون هي فيه عروسا دون رجل. وبقطع النظر عن أن ذلك الرّجل سيكون على متن سفينة تشق عرض المحيط في نفس الموعد بالتحديد. بصرف النّظر عن كلّ هذا، ما شدّ انتباهي فعلا.. وجعل قهقهة صاخبة تتفجّر بداخلي كان أمر هؤلاء المدعوّين! من هم؟ وأين هم؟ ولماذا لم يحصل لي شرف لقاء أيّ أحد منهم طوال الفترة السّابقة؟ هل هم أشخاص محترفون ستؤجّرهم لملء قاعة الاحتفال؟ ذلك أمر محتمل إلى حدّ كبير، ففي هذا البلد هناك مهنة لكلّ حالة إنسانيّة. قد تكون هناك شركات مختصّة في إرسال شخصيّات متنكّرة تقوم بالرّقص ورفع أنخاب التهاني في حفل زفاف امرأة لا أصدقاء لها ولا أقارب سوى حفنة من الحبوب الصّفراء!

"حبيبي إلى أين ذهبت؟ أين سرح خيالك؟ أسألك، لم لا تجيب؟ ما رأيك أن نقيم حفل الزّواج بعد أسبوعين؟ ما رأيك؟". ابتسمتُ، ثمّ قبّلتها على شفتيها وقلتُ: "لقد ذكرتِ أشياء كثيرة وجب إتمامها بإتقان ليكون حفل زواجنا لا مثيل له. لذلك أقترح أن يكون الموعد بعد أربعة

أسابيع، ما رأيكِ؟". صرختْ بتطلّع صبيانيّ حائر: "شهر؟!". قلتُ وأنا أمسح على شعرها بعطف: "ما رأيك؟". أمسكتْ بيدي ورفعتْها عن شعرها. قبّلتها طويلا وهي مغمضة العينين ثمّ همستْ: "موافقة". فجأة فتحتْ عينيها وقد تهلّلت أساريرها وقالت: "موافقة.. موافقة!". ثمّ أضافت: "سيكون احتفالا رائعا. ليلة لن تُنسى!". ضمّتني إلى صدرها بقوّة حتّى خِلْتُ أنّ ضلوعي ستتحطّم بين يديها الهزيلتين، ثمّ قفزتْ عن السّرير وركضتْ تجاه المطبخ قائلة: "ابْق مكانك ولا تتحرّك. سأعود بعد دقائق!". نظرتُ إلى ساعتي قلقا. كنتُ أعلم أنّك تنتظرني في الغرفة موقنا أنّ الهواجس قد بدأت تشقّ طريقها إلى رأسك. حانت منّي التفاتة إلى بنطلون "الجينز" الملقى على الأرض. تذكّرتُ مفاتيح الحانة والظّرف الذي يحتوي على أرباح الليلة الماضية. سحبتهما بهدوء ودسستهما في جيب سترتي ثمّ أخذتُ رشفة سريعة من القهوة الباردة وجلستُ أنتظر. بعد لحظات سمعتُ وقع خطواتها وهي تقترب من الغرفة. دخلتْ في مشية هي أقرب إلى الرّقص منها إلى أيّ شيء آخر. كانت تحمل زجاجة نبيذ بيد وكوبين من الكريستال بيد أخرى. وجنتاها متورّدتان وعيناها تلمعان فرحا. لم أكن قد رأيتها على هذا القدر من الاندفاع الصبيانيّ من قبل. فكّرتُ في نفسي: "يكفي أنّني استطعتُ الليلة أن أهديها حلما ورديّا جعلها ترقص كصبيّة في الخامسة والعشرين!".

جلستْ إلى جانبي وملأتْ كأسي النبيذ. بعد أن اختلستْ رشفة سريعة، باغتتني بصوت مدلّل: "ألهذا الغرض لبستَ ثياب السّهرة إذن. تأنّقتَ فقط لتطلبني للزّواج؟ ما أرقّ روحك يا حبيبي!". فكّرتُ بسرعة ثمّ أردفتُ: "طبعا، طبعا. هذا هو السّبب الرّئيسّي، ولكن هناك أمر مهمّ

أريد أن أحادثك بشأنه". أجابت ضاحكة وهي تدير الكأس بين يديها: "لك أن تحدثني اللّيلة فيما يحلو لك من الأمور!". قلتُ بهدوء وأنا أضع يدي على ركبتها: "في الحقيقة، هناك حدثٌ مهمّ قد طرأ البارحة ولم أعلم بأمره إلاّ منذ ساعات. حدثٌ يخصّنا جميعًا: أنا وأنت وأمير وحتّى..". قاطعتني وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة: "هذا أمر يتعلّق بالحانة دون شكّ!". أجبتُ بنبرة جادّة: "من السّهل عليك استنتاج ذلك، فلا شيء يجمعنا نحن الثلاثة سوى الحانة". قالت بنبرة محترفة: "هه أخبرني، مشاجرة كبيرة بين الزّبائن مثلا؟". أجبتُ باقتضاب: "بوليس الهجرة". أجابت: "بوليس الهجرة؟". قلتُ: "نعم. دوريّة من الفرق المختصّة بشؤون الأعمال غير القانونيّة انقضّت على البار البارحة. قبضوا على الطّباخ الصّوماليّ لترحيله إلى بلاده..." قاطعتني بهدوء: "وأمير؟". قلتُ: "نجا بأعجوبة! تقمّص شخصيّة خوانيتو ونفذ بقدرة إلهيّة". هزّت رأسها باستخفاف وهي تشعل سيجارة وتقول: "وما المشكلة في الأمر؟ هناك آلاف الطّباخين الباحثين عن العمل في برشلونة. بضعة أيّام وسيتمّ تعويضه ليعود سير العمل إلى وتيرته السابقة. وإلى ذلك الحين، سنغلق المطبخ مؤقّتا ونواصل تقديم المشروب مع بعض الساندويتشات الجاهزة". قلتُ: "ومن سيقوم بإعداد الساندويتشات؟ زبائن الحانة لهم بطون الحيتان وسانتو لن يقدر على إرضائها إلى جانب خدمته المعتادة في توزيع المشروب!"

أخذتْ نفسا عميقا من سيجارتها وقالت بنبرة قياديّة: "سأكلّف أمير بشراء حمولة من الساندويشات. هناك الكثير من المحلاّت المختصّة بهذا الأمر ومعظمها تتكفّل بإيصال الأطعمة الطازجة إلى أبواب المحلاّت دون تكلفة إضافيّة. هذا حلّ مؤقّت لمدّة يوم أو يومين،

إلى أن نعثر على طبّاخ جديد. لا أظنّ أنّ سانتو سيجد مشقّة في وضع ساندويتش خفيف إلى جانب كأس نبيذ على طبقه، وهو الّذي تعوّد التعامل مع الطلبات الساخنة التي كانت تنهال على رأسه وعلى رأس الصّومالي كالقذائف!". نظرتُ إليها بإعجاب وقلتُ: "من يسمعك تتحدّثين عن سير العمل في الحانة يظنّ أنّك تباشرين إدارتها بنفسك. بل يظنّ أنّك تعيشين بين جدرانها صباح مساء!". أجابت ضاحكة: "الحانة جزء منّي. جزء من حياتي. هي الجزء الذي لم ولن يتغيّر أبدا. طبّاخون وجرسونات ومديرون. يأتون ويذهبون منذ عشرات السنين. منهم من يرحل بملء إرادته، ومنهم من يطرد. منهم من يموت في السّجن مثل صاحبها، ومنهم من يفضّل النظّر إليها من سجنه مثل صاحبتها!".

أخذتْ رشفة مقتضبة من كأسها ثمّ أردفتْ: "على كلّ، هذا الأمر مقدور عليه. سأحادث أمير في الموضوع غدا، وسأعهد إليه بمهمّة انتقاء الطبّاخ الجديد. أنا أعرف الكثير من أصحاب المطاعم والحانات في هذه المدينة ولي اتّصالاتي الخاصّة. سأوافيه بقائمة من الأسماء وأرقام تلفونات الطّباخين الباحثين عن عمل في القريب العاجل وسيشرع في العمل فورا. الحانة لا تستطيع الانتظار طويلا دون وجبات ساخنة!".

أخذتُ بدوري رشفة من كأسي مصوّبا إلى عينيها نظرة لا تخلو من الجدّيّة ثمّ قلت:

- لا أظنّ أنّ هذا الأمر ممكن!

أجابتني ضاحكة:

- أتراهن أنّنا سنعثر على طبّاخ في ظرف يومين على أقصى تقدير.

الطبّاخون الباحثون عن عمل أكثر من ذباب الخريف!

قلتُ في نفسي: " هذه العاهرة الثملة تُشَبِّهُ هؤلاء المساكين الباحثين عن لقمة العيش بالحشرات. الحشرات لها دور في الحياة، لها غاية. أمّا أنت أيّتها القطّة الرّماديّة الهرمة التي تلعق شعيرات فروها المتساقط كلّ ليلة، هل تساءلت يوما عمّا يدفعك إلى النهوض من فراشك كلّ صباح؟ حياتك فراغ متواصل ينحدر بسرعة جنونيّة نحو موت مؤجّل. الذباب يطير في الفضاء يحمل جراثيم ويقتل جراثيم أخرى. أمّا أنت فوباء فاشل لا يقتل سوى نفسه!". انتبهتُ من غيبوبتي السريعة وأجبتُ بنبرة لا تخلو من الحزن:

- أقصد أمير. هناك صعوبة بخصوص أمير!

- وما شأنك بأمير. دعني أنا أتعامل معه. لقد أثبت كفاءة رائعة في إدارة الحان، ولا أظنّ أنّ هذا الأمر سيصعب عليه.

- ليس هذا ما أقصده.

أجابت بصوت لا يخلو من الامتعاض:

- قلتُ لك دعك من أمير الآن! غدا سأنزل إلى الحانة لأحادثه في الأمر!

أطرقتُ هنيهة ثمّ رفعتُ وجهي إليها وقلت بحزن:

- لا أظنّ أنّني رأيته على مثل هذه الحال من الحزن منذ عرفتُه. أنت تعلمين أنّنا كبرنا معا، وأنّنا صديقان منذ زمن بعيد.

أجابت بنبرة فيها شيء من الشفقة: أعرف!

قلتُ:

- عندما قدم لرؤيتي ظهر هذا اليوم، ظننتُ أنّ مصيبة كبيرة قد حصلت. كان يبكي ويتأتئ، ولم أتمكّن من تهدئة روعه إلاّ بعد جهد شاقّ. ظننتُ أوّل الأمر أنّه تلقّى نبأ وفاة والدته أو أنّ حادثا مريعا قد حصل لأحد إخوته. لم أتمكّن من استطلاع حقيقة الأمر إلاّ إثر جلوسنا في ركن هادئ من مقهى التريفلو.

- أمر طبيعيّ أن يتملّكه الجزع، فقد كان على مشارف الترحيل إلى بلاده. هذا أمر عاديّ أتفهّمه جيّدا. ولكنّه سينسى الأمر قريبا وسيعود إلى حياته الطّبيعيّة. مثل هذه الحادثة واردة على كلّ من يغامر بالشغل تحت الطّاولة. لا تحمل همًّا يا حبيبي.. لا تحمل همًّا!

قلتُ بقلق:

- لا أظنّه سينسى! حسبتُ أنّ الأمر سيكون كذلك أوّل ما قصّ عليَّ الخبر. ولكنّه أصرّ على أنّه من المستحيل عليه أن ينسى رعب اللّيلة الماضية. طمأنتُه بأنّ مثل هذه الاقتحامات نادرا ما تحصل، وبأنّ الحياة ستعود إلى سيرها الطّبيعيّ وكأنّ شيئا لم يكن. حاولتُ بأقصى جهدي أن أسرّي عنه، أن أخفّف عنه وطأة الصّدمة وأن أشجّعه على العودة إلى شغله في مواجهة سريعة لشبح الخوف. ولكنّه رفض! رفض بإصرار وشدّة لم أعهدهما فيه من قبل. آه.. على فكرة يا حبيبتي، نسيتُ أن أخبرك بأنّ بوليس الهجرة فرض غرامة ماليّة على الحانة!

قاطعتني وهي ترتشف آخر قطرات النبيذ:

- ذلك أمر مقدور عليه. أتعرف كم المبلغ؟

- دعيني أتثبّت من...

هممتُ بسحب ورقة الغرامة من جيبي عندما قاطعتني مرّة ثانية وهي تضع قدح النبيذ الفارغ على الأرض.

- وأمير.. أين هو الآن؟ هل فتح الحانة اليوم أم أنّه يحتاج إلى عطلة مرَضيّة كخوانيتو.

أجبتُ واثقا:

- لا أظنّها ستكون عطلة مرَضيّة. قد تكون أطول من ذلك بكثير!

قالت وهي تشعل سيجارة:

- ماذا تقصد؟

أجبتُ ملقيا على وجهي رداءً من الكآبة:

- يريد أن يرحل. أن يعود إلى القرية. في مقهى التريفلو قال لي بصوت غارق في الدّموع: "لا أريد أن يُزَجَّ بي في غياهب سجون الهجرة. لقد سلم الأمر هذه المرّة، ولكن من يضمن ما قد يحدث في المرّة المقبلة! لا أريد أن يتم ترحيلي كحيوان نجس في قفص. أريد أن أعود إلى وطني مرفوع الرّأس. كرامتي فوق كلّ اعتبار! ما ادّخرتُه خلال السنتين الماضيتين سيكفيني لفتح محلّ صغير لبيع السجائر والحلوى، أو للتّجوّل بعربة خضر وغلال عبر أزقة القرية. أريد أن أكون إلى جانب أمّي وإخوتي.. لا أكثر! ما حصل البارحة مع بوليس الهجرة كان إنذارا من الله. كان ضوءًا أحمر في عتمة الليل، ومن يتجاوز الضّوء الأحمر قد تدهسه سيّارة مسرعة فيكون الموت قدره المحتوم!".

نفثتْ كلارا دخّان سيجارتها بهدوء وسألتْ:

- أين هو الآن؟

قلتُ بنبرة اعتذاريّة:

- لم يفتح الحانة اللّيلة. كما سبق وقلتُ لك، هو في حالة يرثى لها من الذّعر والرّعب الشديدين.

قالت:

- إذن هو في غرفته؟

قلتُ:

- نعم. كما سبق وأخبرتُكِ، صَحِبْتُه إلى مقهى التريفلو في محاولة منّي لتهدئته بكوب ليمون أو فنجان قهوة. وكما سبق وأن شرحتُ، لم أتمكّن من معرفة تفاصيل ما حدث إلاّ بعد جهد عظيم. بعد حديث طويل أدركتُ إثره ألاّ مجال لثني عزمه عن ترك برشلونة إلى الأبد، توقّفتُ عن محاولة إقناعه بالبقاء مدركا أنّ حالته العصبيّة لم تكن تسمح بالاستمرار في أيّ نوع من أنواع الحديث. أخذتُه إلى غرفته حيث توسّل إليّ بأن أبقى معه هذه اللّيلة. قال لي: "ابْقَ معي أشرف. أرجوك أن تنام الليلة هنا! أنا خائف ومرعوب. أحسّ بأنّني سأختنق لو أمضيتُ الليلة بمفردي. ابْقَ معي... أرجوك!"

قالت وهي تطفئ سيجارتها:

- وماذا كان ردّك؟

أمسكتُ بيدها حتّى تشابكت أصابعنا، وقلتُ بصوت رقيق:

– وعدته بالعودة لرؤيته إثر طلوعي إلى الشقّة لأطمئنك عنّي. كنتُ أعلم أنّك قلقة من غيابي المفاجئ دون رسالة تشرح لك سبب غيابي. قبل أن أتركه، أقنعته بعد عناء طويل بالخروج معي إلى العشاء في أحد المطاعم القريبة بغرض التسرية عنه.

قالت بصوت خافت وهي تسحب أصابعها من بين أصابعي:

– هل ستبيت عنده؟

لزمتُ الصّمت وابتسمتُ بطريقة تفيد بأنّ الأمر سيكون كذلك. أمّا هي، فقد ابتسمت بحنان ثمّ أردفتْ:

– لا أرى مانعا في ذلك. الآن فهمتُ سبب ارتدائك ملابس السّهرة. لابأس.. لابأس! صديقك في محنة نفسيّة وأنت ملزم بالبقاء إلى جانبه لمساندته. أرجو أن تتمكّن من إقناعه بالبقاء بيننا. أمير شابّ طيّب، وذو كفاءة عالية في الإدارة رغم صغر سنّه. أتمنّى من كلّ قلبي ألاّ يدفعه حادث عابر كهذا إلى اتخاذ قرار قد يندم عليه في يوم ما. على كلّ، آن لخوانيتو أن يعود إلى موقعه الآن. سأتّصل به حالا. الحانة يجب أن تفتح أبوابها اللّيلة حتى وإن اضطررتُ إلى الخروج إليها بنفسي!

أجبتُ بنبرة تفيض امتنانا:

– لم يساورني شكّ في مدى طيبتك أيّتها الغالية. قلبك جوهرة نفيسة لم يسبق أن صادفتُ مثلها في حياتي! ما أسعدني بالارتباط بامرأة في مثل روعتك يا حبيبتي!

قبّلتني على شفتيّ، ونهضتْ بسرعة وهي تقول:

– سأعلم خوانيتو على الفور!

غادرتني مسرعة. بعد لحظات، سمعتها تحادث خوانيتو على الهاتف. حبستُ أنفاسي محاولا التقاط ما كان يدور بينهما من حوار، فلم يبلغ سمعي سوى همهمة بعيدة. سحبتُ وصل الغرامة وظرف محصول الحانة ووضعتهما على الطّاولة المجاورة للسّرير، ثمّ جلستُ منتظرا أن تفرغ كلارا من الحديث على الهاتف. عشر دقائق مرّت، ثمّ عشرون دقيقة. دخّنتُ سيجارة وفرغتُ من شرب القهوة الباردة. نهضتُ عن السّرير وفتحتُ باب الخزانة لأتفقّد تسريحة شعري ووضع هندامي. ابتسمتُ وأنا أتأمّل وجهي في المرآة اللاّصقة ببابها. قلتُ في نفسي مبتسما: "مَرَّ كلّ شيء بسلام، ستكون السّهرة رائعة هذه اللّيلة!". بعد ذلك، عدتُ إلى الجلوس على السرير منتظرا عودة كلارا. كان صوتها قد غاب عنّي نهائيّا، ولم ألبث أن أدركتُ أنّها فرغت من الكلام. بلغني وقع خطواتها القادمة عبر البهو، فانتشلتُ بنطلوني الجينز الملقى على الأرض. شرعتُ في طويه بعناية لأوحي لها بعدم اكتراثي بما كان يدور خارج الغرفة. دخلتْ مبتسمة وقالت وهي تربط شعرها إلى الوراء بطوق مطّاطيّ:

- خوانيتو رفض فتح الحانة اللّيلة. أخبرني أنّ عنده بعض الالتزامات المهمّة مع أحد أقاربه. أعرف أنّه كاذب، ولكنّ ذلك لا يهمّ. أقنَعْتُه بالعودة إلى الشغل غدا. قلتُ له بوضوح شديد: "إن لم تعد لاستلام إدارة الحانة غدا، فمن الأفضل لك أن تسلّم لي المفاتيح وتعود إلى بيتك!". أجبتُ مبتسما:

- إذن فأنت لم تقنعيه!

أجابت بخبث شيطانيّ:

- بل أقنعتُه!

قلتُ ضاحكا:

- أقصد أنّ كلامك معه لم يكن إقناعا، بل كان تهديدا بالطّرد في حال عدم عودته للعمل.

أجابت بنبرة متهكّمة وهي تجلس إلى جانبي:

- لك أن تسمّي ذلك ما شئت، ولكنّني لا أعرف غير هذا الأسلوب في التّعامل مع مثل هؤلاء الأوغاد. خوانيتو محتال وخبيث ومغرور. لا سبيل إلى السيّطرة عليه إلاّ بهذا الشكل لأذكّره بأنّني ربّة رزقه، وبأنّني قد أنهيه بكلمة واحدة. هذه المدينة لا ترحم يا حبيبي، وأنت تعلم ذلك جيّدا. من يُطْرَدُ من عمله.. فقد تأكله الدّيدان في بيته قبل أن يجد عملا آخر!

رفعتُ يدها اليمنى إلى شفتيّ وقبّلتها قائلا:

- لم أكن أعلم أنّك بهذه الصّرامة يا زوجتي العزيزة!

أغمضتْ عينيها في نشوة حالمة وهمستْ بدلال:

- آه، أنا لا أصدّق نفسي. قلها مرّة ثانية يا حبيبي... أرجوك!

قبّلتُ أطراف أصابعها المرتعشة وهمستُ بإغراء متعمّد:

- كلارا... زوجتي... كم أحبّك!

ألقت برأسها على صدري وشرعت في اللّعب بياقة قميصي، دون أن تهمس بحرف. استرقتُ النظر إلى ساعة يدي مدركا أنّ الوقت قد حان للنّزول. أظنّها قد شعرتْ بذلك، فهمستْ بنبرة منكسرة:

- صديقك في انتظارك. سترحل إليه بعد قليل أليس كذلك؟

فاجأني اختيارها العفويّ لكلمة "سترحل" بدل "ستغادر". شعرتُ بوخزة أليمة تخترق صدري، وبصوت حارق يشتعل في قلبي: "خائن ونذل!". ولكن سرعان ما طغا عليه صوت آخر: "أمير في انتظارك. سهرة رائعة وراقصات عاريات ونبيذ إلى طلوع الفجر!". رفعتُ رأسها عن صدري برفق، وقبّلتُ جبينها طويلا. نظرتُ في عينيها قائلا:

- يجبُ أن أكون إلى جانبه في محنته النفسيّة. سأعود غدا، ولكن لا أضمن السّاعة. ما هو مؤكّد هو أنّنا سنحتفل. غدا سنشرب نخب سعادتنا! أشكرك من الأعماق على توصّلك إلى حلّ سريع لمشكلة الحانة الموصدة.

أجابتني مبتسمة:

- لا تحمل همّ الحانة. حلول مشاكلها موجودة طالما أنّني على قيد الحياة. خوانيتو سيعود غدا. أمرتُه أن يتّصل بسانتو ويكلّفه بتعليق لافتة على بابها تُعْلِمُ الزّبائن بأنّ الحانة مغلقة اللّيلة بصفة استثنائيّة لأمرٍ طارئ. لن يموتوا إن لم يسكروا الليلة، والحانات في المدينة مثل أعشاش النّمل!

بعد عشر دقائق، وجدتني أقبّلها طويلا أمام باب الشقّة. قبل أن أتركها، قلتُ بنبرة محترفة:

- على الطّاولة الصّغيرة، جنب السّرير، تركتُ لك أمانة أوصاني أمير بإيصالها إليك. ظرف بنيّ يحتوي على أرباح الحانة، ووصل الغرامة الّذي تركه بوليس الهجرة. مفاتيح الحانة معي، هل تريدين.....

قاطعتني بنعومة:

- احتفظ بالمفاتيح. خوانيتو لديه نسخة خاصّة به كما تعلم. سآخذها

منك غدا فور ما تعود. لا تتأخّر عنّي يا حبيبي، حفل زواجنا يجب أن يكون رائعا، وهناك الكثير من الأشياء التي وجب الاستعداد لها في أقرب وقت. سأبدأ اللّيلة بوضع بعض اللّمسات العامّة، وذلك سيسلّيني عن غيابك! سلّم على أمير كثيرا. حاول أن تجعله يتريّث في قراره بالعودة، وطمئنه أنّ عمله سيكون دائما في انتظاره إن اختار البقاء!

قبّلتها على جبينها مبتسما وقلتُ:

- سأفعل ذلك. إلى الغد يا حبيبتي!

همستْ بحنان:

- إلى الغد. لا تتأخّر.. أرجوك!

قلتُ: "سأحاول". ثمّ نزلتُ الدّرج بخفّة. طرقتُ باب غرفتك برفق في أوّل الأمر، ثمّ بعنف. عندما لم يأتني الجواب، ظننتُ أنّك مستغرق في نوم عميق. بعد ذلك تذكّرتُ أنّ نعاسك لم يكن على هذه الدّرجة من الثقل قطّ. قلتُ في نفسي: "ربّما خرج لقضاء بعض الشّؤون السّريعة"، فقرّرت التسلّل إلى الخارج لتدخين سيجارة سريعة أمام باب البناية فإذا بي أجدك قادما باتّجاهي!

بعد أن فرغ أشرف من حديثه، تحسّس موضع جرحه بلطف ثمّ قال: "هذه الضّمادة مزعجة إلى حدّ بعيد، أريد إزالتها فورا!". أجبتُه بهدوء: "اترك جرحك على حاله وأخبرني: هل أنت جادّ فيما رويته لي؟ أقصد، هل تمزح أم أنّك فقدت عقلك فعلا!". ابتسم بخبث ثمّ قال: "أتقصد أمر عرضي الزّواج على كلارا؟". قلت كاظما غيظي: "وهل هناك غير هذا الأمر! تريد أن تنوّمها في معسول الأحلام لمدّة أسبوعين،

حتّى تشتتّ انتباهها وتستمرّ في التخطيط للهرب دون إثارة شكوكها، أليس كذلك؟". لم يكد يفتح فمه ليجيبني مبتسما حتّى أردفتُ بعصبيّة: "لِمَ أخبرتَها بأنّني أريد العودة إلى القرية خوفا من بوليس الهجرة؟ لِمَ... ". قاطعني بهدوء شيطانيّ: "لا أظنّك قد سمعتني جيّدا. ما قلته هو أنّك تريد العودة إلى أهلك مرفوع الرّأس لأنّ كرامتك فوق كلّ اعتبار!". أجبته حانقا: "ولكن هكذا ستظنّ كلارا بي الجبن وأنا لا أحتمل ذلك! أنا لا أريد أن... ". قاطعني وهو يرتشف قهوته دون أن ينظر إليّ: "لقد انتهت كلارا الآن. كلارا ستمقتك وستمقتني إلى حدّ الموت بعد أسبوعين. تريد أن تستعيد هيبتك أمامها؟ حسنٌ جدّا: بعد أن نصل إلى مونريال، أرسل لها خطابا تشرح لها فيه بأنّك أشجع من أن تهرب خوفا من بوليس الهجرة!". أجبته بسذاجة: "وماذا يهمّني من أمر كلارا بعد وصولي إلى مدينة تبعد عنها آلاف الأميال!". نظر في وجهي وقد اشتعلت عيناه مكرا، ثمّ قال دون أن تفارق الابتسامة وجهه: "لقد أجبت عن سؤالك بنفسك. كلارا هي برشلونة، وبرشلونة هي الماضي. أمّا مونريال. المدينة الجديدة كما أسميتها، فهي المستقبل والحلم. إذن فلك أن تحلم أو أن تبقى سجين الماضي، ولا تنس أنّ الأغبياء فقط هم الّذين يلتفتون إلى الوراء أثناء المشي!" صرختُ في وجهه وقد تناثر اللّعاب من فمي: "الزم حدودك وإلاّ حطّمتُ هذا الكرسيّ على رأسك. أنا لستُ غبيّا!".

- ٢٩ -

مرّت الأيّام سريعة ومتشابهة. متلاحقة ومتضاربة. كانت أشبه بأحلام غامضة أو ربّما بكابوسٍ كنتُ أتحسّس مشارف نهايته بلهفة. كنتُ أصحو مبكّرا كلّ صباح. أجلس إلى الطّاولة وأمامي فنجان قهوة. أدخّن كثيرا وأفكّر طويلا في الرّحلة المجهولة الّتي تنتظرني أنا وأشرف. كانت تبدو في مخيّلتي كجبل ثلج من نافذة سفينة، وكنتُ أستعجل الاقتراب من موعدها كي أرتطم بمجاهلها وينتهي الأمر. تسكّعتُ طويلا في الشّوارع، ودّعتُ كلّ المقاهي، كلّ الأرصفة والمنعطفات. ذات يوم رائق ودّعتُ أرماند قائلا: "قهوتك رائعة يا عزيزي. لا أظنّ أنّني سأتذوّق مثلها في أيّ مقهى ثان!". أجابني مبتسما وشعره الفضيّ يلمع تحت أشعّة الشّمس المنسكبة عبر زجاج النّافذة: "أشكرك يا عزيزي أمير، لا يعرف قدر القهوة الجيّدة إلاّ أصحاب الأذواق العالية!". ودّعتُ المرأة الحزينة المرسومة على ساعده القويّ، ووددتُ أن أطلب منها الحديث إليّ ولو لمرّة واحدة. وددتُ أن تجيبني عن سؤال كان ينخر قلبي طيلة الأيّام الماضية: "هل اتخذتُ قرارا صائبا باستبدال مدينة أعرفها بأخرى أحلم بها؟! بالأمس كان أشرف يحلم بمونريال كعاشق هائم بحبّ امرأة بعيدة.

وهأنذا اليوم أتقاسم معه هواجس العشق لنفس المرأة، لنفس المدينة. هل يمكن لعدوى الأحلام أن تنتقل بمثل هذه القوّة، بمثل هذه السّرعة، بمثل هذه السّطوة، بمثل هذا الخوف؟!. ودّعتُ أرماند وقلبي يقطر دمعا. ودّعته دون أن أسأله من تكون تلك المرأة الجاثمة بحزن على ساعده الأسمر. أظنّني فعلتُ ذلك عمدا كي أترك في برشلونة سرّا جميلا مؤجّل البوح. سرّا جديرا بالعودة إلى المدينة الّتي يسكنها. قلتُ: "لن أسأله الآن! لن أسأله لعلّني أعود ذات يوم وأجلس إلى ذات الرّكن الهادئ في نفس المقهى. أحتسي قهوته الرّائعة وأسأله: آه يا عزيزي أرماند! كم من الوقت مضى وأنا بعيد عن سحر هذه المدينة. كثيرا أم قليلا، لا أدري! لم تتغيّر يا عزيزي أرماند! وقهوتك كذلك لا تزال قادرة على إيقاظ الحواسّ في الجسد كعطر هارب من أحد الأدغال الأسطوريّة. أدغال البرازيل وكولومبيا، هناك حيث مرّ أحدهم بحبّة القهوة لأوّل مرّة وقال في نفسه: "لم لا أجرّب عَصْرَ هذه الحبّة لأتذّوق رحيقها. إن كان ما بداخلها سمّا فسأموت حتما، ولكنّ جرأة محاولتي ستظلّ باقية إلى الأبد!". وإن عدتُ في يوم ما إلى هذه المدينة، فقد أسأل أرماند: "وهذه المرأة الصّامتة، نسيتُ أن أسألك منذ سنين: من تكون؟ ما اسمها؟ أحبيبة هجرتك يائسة فقرّرتَ أن تسجنها وراء قضبان ذاكرتك؟ أم امرأة لم تجرؤ على الاقتراب من جمالها خوفا من الإخفاق، فقرّرتَ أن تحفر حزنك وشما على جسدك خوفا من النّسيان؟!"

بقي أسبوع واحد على موعد الرّحلة. أسبوع واحد وينتهي كلّ شيء أو ربّما يبدأ كلّ شيء. واجهتُ تلك الأيّام الفاصلة بحذر شديد وبحزن أشدّ. لم أر "كلارا" ولم ترني. لم أقترب من شقّتها ولم تحاول هي الاتّصال

بي بأيّ وسيلة من الوسائل. يوم الإثنين، والجو ماطر. طرق أشرف بابي على الساعة الثانية بعد الظّهر. كنتُ بصدد الاستعداد للخروج، ولكنّه نجح كعادته في تغيير مجرى يومي. دلف إلى حجرتي مبتسما ولاحظتُ على الفور أنّ الجرح على جبهته قد اندمل تماما. جلس إلى الطّاولة صامتا وأشعل سيجارة. فعل ذلك بعد أن ألقى بحقيبة جلديّة على الأرض. سألني إن كان بإمكاني تحضير قهوة فأجبته بأنّ البنّ قد نفد، وأضفتُ ألاّ حاجة لي بتزويد المطبخ بأيّ موادّ غذائيّة لأنّ الرّحيل سيكون بعد بضعة أيّام. قال لي وهو يستنشق دخان سيجارته بنهم: "وكيف تأكل إذن؟". أجبته باقتضاب: "ساندويتشات من الشارع". أجاب: "حسنٌ إذَن. أريدك الآن أن تسمعني جيّدا. كلارا خرجتْ منذ الصّباح لقضاء بعض الحاجيات المتعلّقة بحفل الزّفاف. طلبتْ منّي مرافقتها، ولكنّني تعلّلتُ بأنّ صداعي شديد وبأنّني في حاجة إلى الرّاحة التامّة. بعد أن تأكّدتُ من ابتعادها عن الشقّة، اتّصلتُ ببلانكو وطلبتُ موعدا معه. لقاؤنا سيكون في مكتبه بعد خمس وأربعين دقيقة. هو بانتظارنا لاستلام بقيّة المبلغ ومناقشة آخر تفاصيل الرّحلة قبل موعد الانطلاق. بقي معك ٢٨٠٠ يورو أليس كذلك. أومأت بالإيجاب دون أن أنطق. قال وهو يطفئ سيجارته على عجل: "وأنا بحوزتي ١٠٠٠ يورو. جميل جدّا، ناولني النّقود بسرعة!". أخرجتُ منشفة خضراء ملفوفة كنتُ قد أخفيتها بإحكام بين ثنايا السّرير وبسطتها على الطّاولة. بداخلها كان هناك كيسان من البلاستيك. كيس يحتوي على ٢٨٠٠ يورو، تلك التي نهبناها من خوانيتو. وكيس ثان يحتوي على ١٠٠٠ يورو ممّا ادّخرته طيلة الأشهر الماضية.

ابتسم أشرف ولمعت عيناه ببريق خاطف وهو يقول: "جميل جدّا! إذن فالمحصول يساوي ٤٨٠٠ يورو. ثلاثة آلاف سندفعها لبلانكو اليوم بقيّة قسط الرّحلة، وألف وثمانمئة ستظلّ معك في الحفظ والأمان إلى أن يحين موعد السّفر. إليك هذه الحقيبة الجلديّة الّتي اشتريتها اليوم من السّوق. بلانكو أصرّ على أنّ ترتيب إلحاقنا بالسّفينة لن يسمح بأكثر من حقيبة واحدة تجمع بين متاعنا نحن الاثنين!". عدّ أشرف النّقود بعناية ودسّ المبلغ المتعلّق ببلانكو في جيبه. بعد ذلك لفّ ما تبقّى منها في كيس البلاستيك، وأخفاه بإحكام داخل الحقيبة الجلديّة. نظر إليّ وقال في حزم: "داخل هذه الحقيبة وضعتُ ما يلزمني للرّحلة: أدوات حلاقة، فرشاة أسنان، بضعة ملابس داخليّة، قميص خفيف وبنطلون جينز. معك أسبوع بأكمله لتفعل نفس الشيء. حاول قدر استطاعتك أن تخفّف من متاعك لأنّ حجم الحقيبة لا يحتمل أشياء إضافيّة. عندما نصل إلى مونريال سنشتري كلّ ما نحتاجه. المهمّ أن نصل إلى هناك بسلام!"

أجبته بهدوء وأنا أقفل الحقيبة وألقي بها أرضا: "سأفعل! فقط الضّروريّ من الأشياء. ذلك أمر هيّن!". ابتسم أشرف وهو يشعل سيجارة ثانية وقال: "كلارا سألت عنك البارحة!". ابتسمتُ بمرارة وقلتُ: "كلارا مجنونة!". فجأة تذكّرتُ الحانة والزّبائن. تذكّرتُ هجوم بوليس الهجرة والرّجل ذا الملامح القاسية. تذكّرتُ عيسى وهو ينظّف السّمك وتذكّرتُ أغانيه القرويّة الصّافية. عدتُ إلى ذكرى عينيه المضيئتين بذكرى حبّه لروزيتا. وتذكّرتُ كيف كانتا تشتعلان كقنديلين في عتمة ليل صيفيّ عندما كان يحدّثني عنها. شعرتُ بالدّموع تطفو على حافة جفنيّ وبشفتيّ تضطربان كطفل مقهور. تداركتُ تشنّجي بصعوبة.

فعلت ذلك مضطرّا كي لا يلاحظ أشرف فيحوّل حزني إلى نكتة من نكته اللاذعة.

انفجر أشرف ضاحكا، ثمّ قال:

- طبعا مجنونة! حمقاء وعاهرة. لذلك سأترك لها البلد بأسره! هي الآن مشغولة بالاستعداد لحفل زفاف أوّله ورود وآخره سراب. وجدتُ أنّه من الغريب أن تتذكّرك في زحمة كلّ هذه المشاغل!

أجبتُ باستخفاف واضح:

- هذا أمر لا يهمّني مطلقا. ومع ذلك، لِمَ يبد لك أمر سؤالها عنّي غريبا إلى هذا الحدّ؟

أجاب دون أن تفارق الابتسامة شفتيه:

- معك حقّ، ليس هناك عجب في الأمر. كلّ شيء متوقّع من امرأة تنظر إلى الدّنيا من خلال علبة أقراص مهدّئة.

قلتُ وقد ألمّ بي شيء من حبّ الاستطلاع:

- وماذا كان سؤالها بشأني؟

قال وهو يستنشق دخان سيجارته بحركة شبه آليّة:

- أرادت أن تعرف إن كنتَ قد توصّلتَ إلى قرار بشأن البقاء في برشلونة أم العودة إلى القرية.

أجبتُ هازئا: وماذا يعنيها إن كنتُ سأبقى أم سأرحل. لستُ أنا الذي يناولها وجبات الحبّ الصّباحيّة! أمّا فيما يتعلّق بمسألة عملي في الحانة، فأظنّ أنّ خوانيتو قد عاد إلى إدارتها أليس كذلك؟

أجاب أشرف وكأنّه يلقي على مسامعي نشرة أخبار من صحيفة محليّة:

- خوانيتو عاد إلى الحانة. بعد يومين تمكّن من إلحاق طبّاخ مغربيّ ماهر، بالإضافة إلى جرسون إسبانيّ شابّ لخدمة زبائن الطّاولات. أمّا سانتو، فقد عاد إلى مزج المشروبات وراء خوان البار. و.....

قاطعته بنبرة امتزج الحقد فيها بمرارة الاستسلام:

- خوانيتو يقف في ذات الرّكن من قاعة الحان. يأمر وينهى كطاووس عجوز. أمّا سانتو فقد كان له ما أراد. في ضربة واحدة قتل أحلام عيسى المسكين وقتل أحلامي دون أن يرفّ له جفن. آه.. كم تراودني رغبة مجنونة في انتظاره ليلا عند أحد المنعطفات، لألقّنه درسا لن ينساه، تماما كما فعلنا مع خوانيتو. آه كم تمنّيتُ أن أمسك بأصابعه القذرة لأكسرها الواحد تلو الآخر حتّى لا يضيع دم عيسى هباءً.

- تتحدّث عن عيسى وكأنّه ذُبِح حيّا أمام عينيك!

- لا فرق!

- ومن أدراك أنّ سانتو هو الذي فعلها؟ أنت لا تملك دليلا ملموسا على ذلك؟

عصف بي الغضب من جرّاء ملاحظته الأخيرة، ولكنّني تمالكتُ أعصابي قائلا:

- قد أشكّ في أنّ قلبي ينبض الآن بين ضلوعي. قد أشكّ في أنّ اليوم هو يوم الإثنين وأنّ المطر يهطل الآن بالخارج. قد أشكّ في أنّ الشّخص الجالس أمامي الآن يدعى أشرف وأنّه صاحبي منذ وعيت على وجه الدّنيا. قد أشكّ في أنّ الشّمس تطلع من الشّرق وتغرب عن وجهي من

الجهة الثانية. قد أشك في كلّ هذه الأشياء! أمّا أن يتسرّب خيط شكٍّ إلى رأسي بشأن تورّط سانتو في حادثة بوليس الهجرة، فذلك ما لا سبيل إليه أبدا! سانتو هو الّذي فعلها. عيناه فقط! كلّ ما تحتاجه هو أن ترى البريق المشتعل في عينيه يوم حدوث المصيبة. نحن لسنا في محكمة، فلتذهب كلّ الأدلّة والبراهين إلى الجحيم!

- الأمر انتهى الآن!

- الأمر لم ينته أشرف! قل لي بربّك: هل تغيّر حال برشلونة منذ أن أقتُلِع عيسى من مطبخ ملوّث في قلب حانة منسيّة من حاناتها؟ هل أصبحت هذه المدينة الجاحدة أكثر بريقا، أكثر مالا أوجمالا بحرمانها ذلك الصّومالي الضّعيف حقّه في شِبْه حياة شريفة؟ صوماليّ تحت الطّاولة عوّضه خوانيتو بمغربيّ تحت الطّاولة.. ماذا خسرتْ هذه المدينة.. وماذا ربحتْ.. لا شيء.. لا شيء!!

بدت أمارات الامتعاض على وجه أشرف، ثمّ لوّح بيده اليمنى في الهواء محاولا تغيير مجرى الحديث:

- فليذهب سانتو إلى الجحيم! وليذهب الصّوماليّ إلى أسماك القرش! عيسى لم يأخذ سوى ما هيّأه القدر له، وتلك ليست غلطتك أنت! ليس علينا الآن سوى...

قاطعتُه بحدّة:

- لابدّ أن يدفع سانتو ثمن فعلته الشّنيعة، لابدّ أن...

قاطعني بحدّة:

- ماذا تريد أن تفعل له.. هه! ماذا تريد أن تفعل؟ أن تقتله مثلا؟

أن تحطّم عظامه؟ أن تنتظره في أحد المنعطفات المظلمة وتهوي على رأسه الكبير بزجاجة نبيذ فارغة؟ إن أردت الانتقام منه فلن تكون في النّهاية منتقما سوى من نفسك! لن يكون نصيبك سوى الإيقاف، ثمّ الترحيل، ثمّ السّجن. عليك أن تتمالك أعصابك أكثر يا صديقي! أريد منك أن تنسى سانتو وخوانيتو، أن تنسى عيسى وبوليس الهجرة! أريد منك أن تنسى برشلونة بأسرها هذا الأسبوع. أسبوع واحد على موعد الرّحيل.. أفهمت؟ أسبوع واحد!

التزمتُ الصّمت. أشعلتُ سيجارة متشنّجة اللّهيب. سحبتُ نفسا منها وأنا أتأمّل ارتعاش ضوء المصباح الخافت في السّقف. مرّ خاطر برأسي كقطار سريع: أشرف معه حقّ! لا جدوى من الانتقام الآن. ما حصل قد حصل ولا جدوى من إصلاح حماقات الماضي بحماقات أكبر! عيسى قد يكون وصل الآن إلى الصّومال، وقد يكون سعيدا أو تعيسا. الكلمة الأخيرة للأيّام! وروزيتا قد تكون في انتظار مكالمة هاتفيّة منه، وقد تكون سعيدة أو تعيسة. الكلمة الأخيرة للأيّام! وأنا، نعم أنا! أين أكون من كلّ هذا الجنون؟ من كلّ هذا الحزن؟ من كلّ هذا الألم؟ أجل، أشرف معه ألف حقّ، عليَّ أن أتصرّف بحكمة أكثر! برشلونة انتهت. الحانة وصخب الزّبائن قد تلاشى في سمائها. لم يبق لي سوى شبح سفينة وخيال مدينة تتربّص بي في غموض قاتل وراء صمت البحر! أفقتُ من خيالاتي. نفثتُ دخان سيجارتي في الهواء وقلتُ مستسلما:

- بقي أسبوع واحد ونرحل. أجل لقد فهمتُ!

نظر أشرف إلى ساعته بسرعة وقال ململما شتات الحديث:

- علينا الخروج فورا. بلانكو في انتظارنا.

انصعتُ لأوامره على الفور. نهضتُ عن مقعدي متمتما بصوت شاحب:

- معك حقّ. لا جدوى من البقاء.

سبقني إلى الباب ففتحه ودلف إلى الخارج. سحبتُ مطريّتي التي كانت قابعة في ركنها المعتاد ولحقته مسرعا. أغلقتُ الباب ورائي، ونزلنا الدّرج بسرعة، دون أن نتبادل الكلام. كان المطر ينتظرنا بالخارج ولفحتْ وجهي برودة منعشة. سألتُ أشرف ونحن نحتمي بالمطرّية ونسير بخطى حثيثة نحو أوّل منعطف على يسار البناية:

- أتعرفُ مكانه؟ أعني مكتب بلانكو؟ أهو قريب من هنا!

أجابني لاهثا وهو يسرع في خطواته ما أجبرني على اتّخاذ نفس الإيقاع في المشي:

- سنستقلّ الأوتوبيس. لا خيار لنا سوى ذلك، وإلاّ سنتأخرّ عن الموعد المحدّد! المحطّة هناك.. على الزّاوية.

ألقى نظرة خاطفة على ساعته الّتي أصبح بلّورها ضبابيّا من جرّاء برودة الجوّ والمطر، ثمّ استطرد:

- أظنّ أنّ هناك حافلة ستصل بعد بضع دقائق. علينا أن نركض كي نلحق بها وإلاّ..

ثمّ انطلق راكضا دون سابق إنذار. ركضتُ وراءه وأنا ألعنه في سريّ. بعد عشر دقائق كانت الحافلة تشقّ بنا الطّريق في ارتجاج مثير للأعصاب. اتّخذنا مقعدين في آخرها: بين رجل مسنّ كان بصدد قراءة صحيفة إلى جانب النّافذة وشابّ في مقتبل العمر كان يهتزّ لنبض إيقاعات موسيقيّة

عبر خيوط سمّاعة في أذنيه. لست أدري كم من الوقت مضى والباص يتنقّل بنا من شارع لآخر. كلّ ما أعرفه هو أنّنا تبادلنا الصّمت لمدّة طويلة وكاد النّوم يختطفني. فجأة تملّكني حبّ الاستطلاع فسألته:

- بماذا أجبت كلارا عندما سألتك إن كنت سأبقى أم سأعود!

أجاب متثاقلا وكأنّ عدوى النّعاس قد انتقلت إليه:

- طلبتْ منّي أن أقنعك بالبقاء وأكّدت لي مرّة ثانية أنّ مكانك في الحانة لا يزال في انتظارك.

أجبتُ بامتعاض:

- هل قصدتْ أن أعود لخدمة الزّبائن كجرسون أم قصدتْ مكاني وراء خوان البار؟

أجاب دون اكتراث:

- لا أدري. لم أسألها!

ساد الصّمت فترة وجيزة وعاد النّعاس إلى التلاعب بأجفاني مرّة ثانية. توقّفتْ الحافلة في إحدى المحطّات وصعدتْ امرأة بدينة ذات صدر شامخ. كانت تحمل أكياسا بيضاء بها موادّ غذائيّة وتجرّ وراءها طفلا في نحو السّادسة من عمره. جلستْ على أحد المقاعد الجانبيّة، وجلس هو إلى جانبها وعيناه منشغلتان بلعبة إلكترونيّة تنقّلتْ أصابعه الصّغيرة بخفّة ومهارة بين أزرارها الملوّنة. أمّا هي، فقد أغمضتْ عينيها مستدرجة شيئا من الرّاحة. حمْلُ أكياس بهذا الثقل قد يكون عملا جسديّا كبيرا بالنّسبة لامرأة في حجمها. تذكّرْتُ أناتوليا الموسى وهبّت في نفسي نسمات شوق غامضة، حلوة وبعيدة. التفتُّ إلى أشرف قائلا:

قال بتكاسل:

- نعم.

- ثمّ؟!

- ثمّ ماذا؟

- ماذا كان جوابك؟

- قلتُ لها الحقيقة!

ثمّ التفت إليّ واستطرد ضاحكا:

- كلّ الحقيقة، ماعدا أنّنا كنّا في طريقنا إلى ملهى العاريات. عوّضتُ الملهى بمطعم "السّمكة الزّرقاء".

- هل ذهبنا إلى المطعم حسب روايتك؟

- لم نذهب طبعا! لقد أغمي عليَّ قبل ذلك. عدت بي إلى حجرتك وقمت بالعناية بي وتمريضي إلى اليوم التالي، أنسيت؟

- وماذا كان جوابها؟

- قالت إنّك صديق وفيّ، وأضافت أنّ خروجي تلك الليلة كان تهوّرا منّي لأنّ حالتي الصحيّة كانت دقيقة.

- هل تشعر بتحسّن هذه الأيّام؟

- لقد استرجعتُ عافيتي وذهب المرض إلى الجحيم!

قال ذلك وهو يستخرج ورقة من جيبه الخلفي بسرعة مفاجئة. تفحصّ محتواها باهتمام واضح، ثمّ تطلّع عبر النّافذة محاولا قراءة أرقام البنايات وأسماء الشوارع. توقّف الأتوبيس بعد لحظات ولمع بريق في عينيه. لكزني بقوّة، ثمّ هبّ واقفا وهو يقول:

- لقد بلغنا التقاطع. مكتب بلانكو على بُعد بضعة أمتار من هنا. لننزل الآن!

- ٣٠ -

مدّة اجتماعنا مع بلانكو لم تدم أكثر من نصف ساعة. كان لطيفا ومهذّبا في حديثه معنا، ولكنّه كان مقتضبا ومباشرا في آن واحد. كلامه كان مثل إلقاء قائمة من التّعليمات لإنجاز عمل ما. استرخى وراء المكتب على كرسيّه الجلديّ المتحرّك وجلسنا نحن الاثنان على الواجهة المقابلة. نصغي إلى كلامه في صمت وانتباه شديدين، وكأنّنا تلميذان يصغيان إلى تعليمات أستاذ صارم قبل توزيع ورقة الامتحان. بعد أن فرغ من حديثه، وزّع نظراته الثاقبة بيني وبين أشرف، ثمّ قال مبتسما: "هل لديكما أي أسئلة؟". هممتُ بالحديث ولكنّ أشرف سبقني قائلا: "كلّ شيء واضح. الترتيبات دقيقة وأكثر من رائعة!". ثمّ ابتسم وقال بامتنان: "لن ننسى لك هذه الخدمة طوال العمر. شكرا جزيلا بلانكو!". هزّ بلانكو برأسه في حركة مؤدّبة، وكأنّه يقول في غرور خفيّ: "لا شكر على واجب طالما قد استلمتُ بقيّة العمولة". فتح درج المكتب وأخرج علبة جلديّة سوداء، ألقى داخلها بالثلاثة آلاف يورو. ثم أغلق الدّرج بطريقة أعلنتْ لنا أنّ المقابلة قد انتهت. نهض عن مكتبه فنهضنا معه على الفور. سبقنا إلى الباب وقال وهو يفتحه برفق محافظا على ابتسامته الغامضة:

"كما اتفقنا، موعدنا يوم الجمعة المقبل، على السّاعة الحادية عشرة ليلا، أمام الباب الرّئيسيّ لبناية هذا المكتب. الميناء ليس بعيدا عن هذه المنطقة. إلى اللّقاء".

رحلة العودة إلى البيت كانت طويلة ورتيبة. داخل الأوتوبيس، جلستُ قبالة أشرف صامتا. تبادلنا النّظرات دون أن ينبس أحدنا بكلمة واحدة. نظرتُ إلى ساعتي وأنا أتثاءب على إيقاع اهتزاز المحرّك. كانت تشير إلى الرّابعة مساءً. أخذتْ حركة النّقل في التباطؤ نسبيّا، نظرا لخروج الموظّفين من أشغالهم المسائيّة. عاد النّعاس إلى العبث بأجفاني من جديد. بعد لحظات، وجدتني أستسلم لدغدغة اهتزاز المحرّك فغصت في نوم عميق. أفقتُ على صوت أشرف وهو يلكزني: "أكمل نومك في غرفتك، لقد وصلنا. السّاعة الخامسة إلاّ ربع الآن. عليَّ أن أصعد إلى الشقّة فورا. كلارا على وشك الوصول".

افترقنا أمام باب غرفتي. قال بابتهاج مقتضب: "كلّ شيء سيمرّ بسلام. كم أنا مشتاق لحلول يوم الجمعة! سيكون الانتظار مملاًّ وطويلا، ولكنّ الأيّام ستمضي لأنّها لا تفعل سوى ذلك منذ وُلِدْنا. عليَّ أن أصعد فورا الآن. سأراك غدا لنعيد مراجعة التفاصيل!". ابتسم بثقة وقال وهو يضع في يدي كيسا متوسّط الحجم كنّا قد حصدناه خلال زيارتنا لبلانكو: "أوصيك بالانتباه الشّديد لهذه الأشياء فهي ثمينة إلى أبعد الحدود. دونها لن نستطيع اختراق الحدود! أريدك أن تضمّها إلى باقي الحاجيات داخل الحقيبة السّوداء وأن تُحْكِمَ إخفاءها جيّدا. لا تنس ما قاله لنا بلانكو منذ قليل: هذه الأشياء غير قابلة للتّعويض. إن ضاعت منكما، فمن الأفضل لكما ألاّ تظهرا لمقابلتي يوم الجُمعة إلاّ إذا كنتما تريدان توديع السّفينة على

أرصفة الميناء!". أجبتُ بهدوء وقد علت وجهي ابتسامة واثقة: "سأفعل ذلك فورا، لا تقلق. إلى اللّقاء غدًا". ثمّ افترقنا.

فتحتُ باب الغرفة بهدوء وتسرّبتُ إليها متثاقلا. كانت رائحة العفن أوّل ما يستقبلني كعادتها دوما. وضعتُ الكيس فوق الطّاولة بعناية. هممتُ بفتحه، ولكنّني سرعان ما غيّرتُ رأيي. كانت بي حاجة ملحّة إلى الاسترخاء بعض الوقت. خلعتُ حذائي بصعوبة وارتميتُ على السّرير بكلّ ثقلي، استلقيتُ على ظهري ومددتُ بصري عبر الشّقوق المتفرّعة على السّقف. أغمضتُ عينيّ محاولا لململة ما تبقّى لي من فتات النّعاس، ذلك الّذي بعثره أشرف عندما لكزني على مقعد الأتوبيس. عبثا كنتُ أحاول، كان الأرق قد قال كلمته. لا أدري كم من الوقت لبثتُ محدّقا في السّقف، ولا أدري كم مرّة أعدتُ إدارة شريط لقائنا ببلانكو في ذهني المتعَب. كلّ ما أعرفه هو أنّ موجة من الرّاحة بدأتْ في اكتساح أعضاء جسدي، الواحد تلو الأخرى. فجأة، وجدتني واقفا على قدميّ. سرتُ بخفّة نحو الثلاّجة. فتحتها برفق وسحبتُ زجاجة بيرة ضبابيّة اللّون. لم يكن هناك غيرها. بدت لي شهيّة كنهر أخضر. جلستُ إلى الطّاولة وأزحتُ كيس بلانكو على جنب. قرّبتُ منفضة السّجائر وأشعلتُ سيجارة. حدّقتُ في الفراغ الممتلئ بتموّجات الدّخان وأنا آخذ رشفة من الزّجاجة بين الحين والآخر. نصفُ قارورة ممتلئة وسيجارتان مطفأتان ولم يمض على الوقت سوى عشر دقائق. مع إشعال السيجارة الثالثة قرّرتُ فتح الكيس لأنظر في محتوياته. كانت رائحته تشبه رائحة الملح.

سحبتُ أوّل بطاقة وتمعّنتُ فيها باهتمام. كانت صورتي عليها تعكس غير ما يضطرب الآن في نفسي من هواجس. كنتُ فيها مبتسما في استجابة

فوريّة لطلب بلانكو وهو يلتقطها لي في مكتبه منذ سويعات. بادرني بصوته الهادئ وأصبعه على زرّ الكاميرا: "ابتسم لمدينتك الجديدة سينيور أمير!"، ثمّ فعل نفس الشيء مع أشرف. بعد لحظات، كانت الصّورتان جاهزتين ومثبّتتين بإحكام على بطاقتين. ختم على الأولى ثمّ على الثانية ووضع إمضاءه في الأسفل. قدّمهما إلينا مبتسما وقال: "ستصعدان على الباخرة متنكّرَيْن في هيئة عاملَيْ نظافة ملحقيْن بشركة "الجوهرة البحريّة". أي بالتحديد على أساس أنّكما قدمتما من مونريال على متن سفينة أخرى تابعة للشّركة منذ شهرين، ووقع نقلكما في آخر لحظة إلى متن سفينة جديدة، طبق احتياجات العمل. داخل هذا الكيس ستجدان بدلتين تمثّلان الزيّ الرّسميّ لعمّال الصّيانة الملحقين بالشّركة. حاولت استعمال مخيّلتي قدر الإمكان لاختيار مقاسيكما، وفور رؤيتي لكما عرفتُ أنّ اختياري كان موفّقا. إلى جانب الملابس ستجدان حذاءين كذلك. أرجو أن يكون مقاسهما مضبوطا. إن لم يكن الأمر كذلك، فلكما أن تلبسا ما شئتما من أحذيتكما الخاصّة. المهمّ هو أن تظهرا للنّاس بملابس العمّال طوال الرّحلة. أمّا الأحذية، فأمر ثانويّ لا أكثر. موعدنا يوم الجمعة المقبل على السّاعة الحادية عشرة مساءً أمام الباب الرّئيسيّ لهذا المكتب. سأكون في انتظاركما في الموعد المحدّد. الموعد بالدّقيقة، بل بالثانية. التأخّر عنه ليس مسموحًا به. أعيد للمرّة الأخيرة: ليس مسموحًا به.. مفهوم!

ستصعدان برفقتي على ظهر الباخرة. ساقدّمكما إلى "أنطونيو" رئيس طاقم الصّيانة. أنطونيو هو الوحيد الّذي يعلم حقيقة أمركما. أمّا باقي العملة فسيخمّنون أنّكما عاملان جديدان. تلك هي القصّة ببساطة شديدة إن سألكما أيّ أحد منهم. سيريكما أنطونيو موضع نومكما في

الجناح المخصّص لعمّال الصّيانة. إلى جانب ذلك، سيعهد إليكما بمن يعرّفكما على الأروقة الّتي ستكونان مسؤولَيْن عن صيانتها. نعم.. ستعملان على ظهر الباخرة، هكذا سيمرّ الوقت بسرعة أكبر". ابتسم بخبث وهو يواصل تعليماته: "دون أجر طبعا! ولكنّ الطّعام سيكون متوفّرا دون مقابل.. هديّة لكما من شركة الجوهرة البحريّة !". قاطعه أشرف بنبرة مؤدّبة يشوبها الكثير من التوجّس: "شكرا لك بلانكو، شكرا جزيلا! كلّ هذا جميل ورائع. ولكن عندما نصل إلى ميناء مونريال، كيف سيتسنّى لنا اختراق الحاجز النّاريّ لشرطة الهجرة؟!" أجاب وقد أشعّت عيناه الذكيّتان ببريق خاطف. كانتا تقولان: "لو صبرتما قليلا، لكان الجواب من نصيبكما!". ثمّ استمرّ في إعطاء تعليماته. كانت تحمل في طيّاتها تفسيرا مُطَمْئِنًا لكلّ الهواجس الّتي طالما جعلتني أسهر اللّيل أفكّر: "أنت تهرب من بوليس الهجرة الإسبانيّ وأوّل حاجز ستجده في انتظارك على الخطّ البحريّ المقابل سيكون بوليس الهجرة الكنديّ. الأزياء الّتي يرتدونها قد تكون مختلفة اللّون والشّكل. ولكن في النّهاية، أنت تسبح فرارا من سمكة قرش إلى أخرى. وأنت تعلم أنّ القرش -مهما اختلفت فصائله- له خاصيّة واحدة لا تتغيّر: التقاط رائحة دماء الأسماك الصّغيرة على بعد آلاف الأميال!".

استجمعتُ تركيزي كي لا تفوتني كلمة من حديث بلانكو. مضى في كلامه بنبرة يكسوها الهدوء والحزم. كان قد أشعل سيجارا فاخرا. أخذ منه نفسا قويّا وانبعث الدّخان الكثيف في أرجاء غرفة المكتب: "سؤال وجيه سينيور أشرف، والجواب بسيط جدّا: البطاقتان اللّتان بحوزتكما هما كلّ ما ستحتاجانه كي يشعل لكما بوليس الهجرة الكنديّ إشارة العبور الخضراء!".

شركتنا ذات سمعة عالية، ولن تشكّ السّلطات هناك في أن الوثائق مزوّرة. في حقيقة الأمر هي ليست مزوّرة إطلاقا. الشيء الوحيد المزوّر في كلّ هذه الحكاية هو أنّكما لستما من عمّال الشّركة وهذا الأمر لا يعرفه سوى أنتما الاثنان، وأنطونيو، وأنا. لعلمكما الشّخصيّ، عمّال الصّيانة على متن سفن شركات الشحن والاستيراد لا يمرّون بنفس الإجراءات الحدوديّة الّتي يخضع لها المسافرون العاديّون. لا تأشيرات، ولا جوازات سفر لأنّ ذلك يعطّل سير العمل ومنطق اقتصاد الاستيراد والتصدير. المنطقة الّتي ستمرّان عبرها عندما ترسو السفينة على سواحل مونريال ستكون منطقة حرّة من قوانين الهجرة العاديّة. لا تقلقا، أنطونيو سيشرح لكما كلّ شيء قبل النّزول من الباخرة. يعني ببساطة شديدة، العمليّة ستكون كالآتي: سيطلب شرطيّ الهجرة الكنديّ منكما الاستظهار ببطاقة الموظّف. ستفعلان ذلك دون إطالة في الكلام. الجواب على حجم السّؤال.. لا أكثر. إن لم يتوجّه إليكما بأيّ أسئلة فستريانه البطاقة بابتسامة مهذّبة وفي صمت. ذلك ما يفعله العمّال الحقيقيّون في معظم الأحيان. إن نّفذتما هذه التعليمات بثقة ودون تشنّج، فلن يكون داع لأيّ شرطيّ أن يسألكما أيّ أسئلة إضافيّة. بالنّسبة لهم، أنتما عاملان مقيمان في مونريال عادا من إسبانيا بعد رحلة عمل دامت شهرين على متن باخرة شركة شحن محترمة".

اهتزّ أشرف على مقعده وهتف في انبهار واضح: "رائع، جميل، رائع!". غيّر بلانكو من وضع جلسته المريحة. وضع سيجاره المشتعل على حافة المنفضة، ثمّ مال بوجهه ليقترب منّا أكثر.

كانت حركته هذه حابسة للأنفاس. قال بنبرة تحذيريّة وعيناه تتنقّلان

بيننا كقائد جيش محنّك: "هذه الأزياء أيّها السّادة، وهذه البطاقات الّتي وزّعتها عليكم منذ قليل.. ليست قابلة للتعويض. إن ضاعت منكما، فمن الأفضل لكما ألاّ تظهرا لمقابلتي يوم الجُمعة، إلاّ إذا كنتما تريدان توديع السّفينة على أرصفة الميناء!".

- ٣١ -

كانت السّاعة تشير إلى العاشرة والنّصف صباحا عندما انطلق صفير السّفينة العملاقة في فضاء الميناء. كنتُ جالسا في الكافتيريا المخصّصة لعمّال الشركة. قاعة صغيرة لا تخلو من القاذورات في آخر البهو السفليّ للباخرة. كنتُ أحتسي فنجان قهوة، وكان أشرف يواجهني على الطّاولة بملابس العمّال الرّماديّة. كانت تكبره قليلا وبدا بداخلها كطفل صغير في انتظار أوّل يوم من المدرسة. الحقيقة لم تكن تبعد عن ذلك كثيرا. كنّا في انتظار أنطونيو الّذي حدّد لنا موعدا على السّاعة الحادية عشرة صباحا في ذات المكان. الغاية من اللّقاء كانت تعريفنا على خطّ جولة التنظيف والصّيانة الّتي سنقوم بها طوال مدّة الرّحلة. قبل ليلة، وبعد أنّ قدّمه لنا بلانكو على عجل، قال لنا مبتسما: سأريكما الآن حجرة نومكما وكذلك المطعم المخصّص لعمّال الشركة. أريد أن أراكما غدا صباحا في ذات المكان على السّاعة الحادية عشرة. الغاية هي أن نقوم بجولة سريعة على متن الباخرة لكي أريكما الأمكنة الّتي سأعهد إليكما بتنظيفها كلّ يوم. العمل مقسّم بدقّة بين عمّال الباخرة حيث إنّ عددهم يفوق المائتين. سأريكما طريقة العمل والمعدّات التي نستعملها. الأمر بسيط جدّا، لا يحتاج إلى

أكثر من نصف ساعة من الشّرح لا أكثر. بلانكو لن يسافر معنا. ما زالت لديه بعض الأعمال الّتي تستحقّ اهتمامه هنا في برشلونة. لذلك، إن كانت لكما أي أسئلة فلا تتردّدا في الاتّصال بي في أيّ وقت. سأريكما الآن موقع مكتبي وهو ليس بعيدا عن كافتيريا العمّال".

الباخرة لا تزال رابضة كوحش أسطوريّ على سواحل الميناء. صفيرها يمزّق الآذان. يهدأ لبضع دقائق، ثمّ يعود ليشقّ الفضاء كنعيق غراب عملاق. نظرتُ إلى ساعتي. كانت تشير إلى الحادية عشرة إلاّ عشر دقائق. بادرتُ أشرف وأنا أشعل سيجارة: "شكلك مضحك جدّا بهذه الملابس!". أجاب ضاحكا: "انظر لنفسك في المرآة لتعلم أنّ هيئتك لا تبعد كثيرا عن هيئتي!". انغمسنا في قهقهة طويلة. كانت ضحكة جميلة وصافية. ضحكة من عمق أعماق القلب. سألته وأنا أطفئ سيجارتي: "أظنّ أنّ موعد الإقلاع قد اقترب". أجاب: "دون شكّ. لا أظنّ أنّ هذه الصفّارة المزعجة قد بحّتْ حنجرتها إلاّ لإعلان ذلك!". مرّت الدّقائق طويلة. خفتتْ ضحكاتنا تدريجيّا وعاد قلق الانتظار إلى زرْع الصّمت بيننا. الحادية عشرة وعشرون دقيقة. بادرتُ أشرف ملاحظا سحابة الامتعاض الّتي بدأت تزحف على ثقوب وجهه: "لقد تأخّر أنطونيو، أليس كذلك؟". أجاب بنبرة فيها الكثير من اللاّمبالاة المصطنعة: "قليلا. لعلّه قد انشغل ببعض الأمور المهمّة. ليس من السّهل الإشراف على مائتي عامل!". غيّرتُ مجرى الحديث: "هل نِمْتَ البارحة؟ ". أجاب: "طبعا لم أنم! وأنت، هل نِمْت؟". أجبتُ متثائبا: "لم يغمض لي جفن طوال اللّيل". قاطعني وقد بدت على وجهه علامات الاهتمام: "ولِمَ لم تتمكّن من استدراج النّعاس؟".

أجبتُ دون تفكير: "الخوف من المجهول. وأنت؟". قال بنبرة جادّة: "حزنا على فراق عروسي الفاتنة. آه يا كلارا.. يا زوجتي الرّائعة! كيف للنّوم أن يداعب جفوني في فراش غير فراش حُبّكِ!!".

خيّم الصّمت لحظة من الزّمن، ثمّ انفجرنا ضاحكيْن....

- ٣٢ -

كالبخار المتصاعد من الهواء، تلاشت ذكرى انطلاق الباخرة منذ عشرين عاما نحو موانئ مونريال. تبخّرتْ معها خيالات أشرف وكلارا، ومعها تلاشت ذكريات حانات برشلونة ومقاهيها. كانت السّاعة تشير إلى التّاسعة والرّبع مساء، عندما فتح أمير باب شقّته المتواضعة الواقعة على شارع فرعيّ من منطقة Cote Des Neiges. شهر ديسمبر على وشك نهايته واحتفالات أعياد الميلاد على الأبواب. الثلوج تكسو الأرصفة وأغصان الشّجر بطبقة من القطن النّاعم، وأضواء الفرحة بدأت تتلألأ على واجهات المحلاّت والدّكاكين.

شعُرَ بتيبّسِ وجهه وهو يلقي بمفاتيح سيّارته القديمة على كنبة الصّالون. كان ذلك من جرّاء درجة البرودة الّتي كانت تعادل الثلاثين تحت الصّفر. عشر دقائق منذ رَكَن سيّارته في زاوية أحد منعطفات الحيّ ليتوجّه مشيا إلى شقّته كانت كفيلة بأنّ تجمّد الدّم في عروقه. عشر دقائق من السيّر كانت كفيلة بأن تجعل لسانه ينطلق باللّعنات على هذه المدينة "الثلاّجة" أو هذه الثلاّجة "المدينة". عشرون عاما منذ وصوله إلى مونريال وهو يمارس نفس العادة الّتي أدمنها جميع سكّانها:

عِشْقُها في الصّيف ولعنُها في الشتاء! ورغم هذا، لم ولن يتغيّر في الأمر شيء. الجميع يحتمل قسوة الشّتاء استدراجا للصّيف، والجميع يتعلّق بتلابيب الصّيف لعلّ الثّلج ينساهم ولو لمرّة واحدة فلا يأتي! مناورة يائسة مع فصل لا يعرف الغياب، فصل قد ينسى كلّ شيء ما عدا طريق العودة!

خلع ثيابه على مضض وأخذ حمّاما ساخنا. ارتدى بيجامته الزّرقاء وجلس على كنبة الصّالون وفي يده سيجارة متوهّجة. همّ بفتح التليفزيون ليتابع كعادته أخبار الطّقس وتكهّنات درجة الحرارة لبقيّة الأسبوع. قبل أن يضغط على زرّ التحكّم، انتابته رغبة مفاجئة في ألاّ يعلم أيّ شيء عن الغد. هذا المساء سيكون هذا المساء.. ولا شيء أكثر! لا غد ولا ماض، فقط لحظات استرخاء خاوية من القلق والهواجس تحت ضوء مصباح الصّالون الخافت. السّاعة تشير إلى العاشرة مساءً، والهدوء ضيف استثنائيّ على هواء هذه الشقّة الصغيرة. على السّاعة الثالثة من صباح ذلك اليوم، انتفض على صراخ زوجته الحامل. ارتدى ملابسه بسرعة جنونيّة وصعد مهرولا إلى شقّة جارته البرتغاليّة العجوز. طرق الباب لمدّة طويلة قبل أن تظهر بروبها البنيّ الدّاكن وابتسامتها الطيّبة رغم آثار النّوم. استنجد بها لتساعده على حمل ابنتيه من فراش نومهما إلى شقّتها، حتّى يتسنّى له التوجه بزوجته إلى المستشفى قبل أن تموت بين يديه.

"الحقني يا أمير!.. سأموت.. سأموت!". كانت أحلام تمزّق أحشاء اللّيل بصرخاتها الدّامية وهو يقطع بها الباب الرئيسيّ لبناية المستشفى. قبل أن يترك الشقّة وزوجته مستندة على كتفه لا تكاد تقوى على المشي، قالت له جارته العجوز: "لا تحمل همّ البنات سينيور أمير. اهتمّ بامرأتك ولا

تقلق. أرجو أن تتمّ عمليّة الوضع على أحسن ما يرام. في أمان الربّ!".

على السّاعة الرّابعة والنصف صباحا، كانت أحلام ممدّدة على سرير أبيض، وقد التصقت بجسدها أسلاك وأحزمة. قارورة زجاجيّة تقطر سائلا مغذيّا ينساب بهدوء إلى عروق ساعدها الأيمن، وحزام طبيّ لمراقبة دقّات قلب الجنين. بين حين وآخر، تدخل ممرّضة عجوز لتفقّد الأسلاك وللتثبّت من استقرار درجة الحرارة. "الجنين توقّف عن الدّفع ولا بدّ من الانتظار. الطّبيب سيراقب الحالة لبضع ساعات حتّى يتبين الأمر". على السّاعة السّادسة صباحا عاد وجع المخاض بقوّة رهيبة. هرع الطّبيب والممرّضات وشرعوا في تجهيزها لوضع الجنين. سبع ساعات من الصّراخ والاستنجاد بكلّ ما عرفته أحلام من آلهة وملائكة. كان هو جالسا على كنبة في نفس الغرفة، لا يفصله عن كلّ هذا سوى ستار أزرق وقلب ممتلئ بالخواء. أطلقتْ أحلام آهة الخلاص.. ثمّ صمتٌ مطبق.. ثمّ بكاء رضيع. ليس الأمر جديدا عليه، ولا على أحلام. كان فقرة عاديّة من سجلّ يوم عاديّ لهذا الطّبيب. حالة مكرّرة في احتمالات الوقت.

بعد أن فرغ من إجراءات تسجيل المولود إلى غيرها من الأوراق والإمضاءات، التقى بالطّبيب الّذي أشرف على عمليّة الولادة. أخبره أنّ وضع زوجته مستقرّ نوعا ما. وأضاف بأنّه يُستحسن إبقاؤها تحت المراقبة الطبيّة إلى اليوم التّالي.

لم يقلقه هذا الأمر كثيرا لأنّه كان يعرف مدى صلابة زوجته. كالبقرة الوحشيّة كانت هي، تستطيع أن تضع مولودا دون مضاعفات. بإمكانها أن تفعل ذلك تحت جذع شجرة في مجاهل غابة بعيدة. لا حاجة لسرير، لا حاجة لأسلاك وقوارير، لا حاجة لرجل! امتثل لأمر الطّبيب ملقيا على

وجهه شبح ابتسامة مؤدّبة. عاد إلى الغرفة حيث كانت زوجته نائمة وإلى جانبها كتلة لحم ورديّة. الحجرة مظلمة ورائحة الحجرة المعقّمة تبعث على الغثيان. استلقى على نفس الكنبة وأسلم جفنيه للنّعاس.

أفاق فجأة على صوت حركة خفيفة. نظر إلى ساعته وهو يتثاءب. كانت الساعة تشير إلى السّادسة مساء إلاّ عشر دقائق. باغته منظر زوجته وهي تنظر إليه. كان فم الطّفلة الرّضيعة ملتصقا بثديها العاري، وكانت تبتسم. همستْ له بحنان: "لم أشأ أن أوقظك لتراها جيدًا. أعلم أنّك مرهق وتحتاج إلى الرّاحة. أتمنّى أن تكون قد نلت قسطا من الرّاحة." لم يجب بكلمة، ولم يردّ على ابتسامتها. فقط أومأ برأسه علامة الموافقة. نهض عن مكانه ووقف أمامها. قدّمت إليه الطّفلة مربوطة في لفّة بيضاء، ولاحظ قطرات الحليب المتناثرة على حلمتها العارية. أخذ الطّفلة بين يديه. نظر إليها بسرعة. بحث عن شيء من الحبّ في نفسه، فلم يعثر على أثر. لم يحاول، ولم يحتقر نفسه لذلك. أعادها بين أحضان أمّها دون أن ينبس بحرف. فقط هزّ برأسه موافقا على منح اسمه لها. كان ذلك ردّ فعله عندما بادرته أحلام بابتسامة مستجدية: "إنّها تشبهك فعلا. وكذلك تشبه الحاجّة إلى حدّ بعيد!". هزّ رأسه وكأنّه يقول: "لا يهمّ!". توارت الابتسامة خلف شفتي أحلام وحوّلت نظرها عنه. ضمّت ابنتها إلى صدرها، وعادت إلى سكب اللّبن في فمها الصّغير.

عاد إلى الاستلقاء على الكنبة وغاص في ذكريات بعيدة. بقي على تلك الحالة من الشرود الكثيف إلى أن أفاق على صوت الممرّضة العجوز، وهي تأمره بالخروج. موعد الزّيارة القانونيّ قد انتهى. لا بقاء سوى للمرضى في هذا المكان. "سأعود لكما غدا صباحًا!". قال ذلك لزوجته الملقاة على

السّرير دون أن يحضنها أو يقبّلها، فهو لا يعرف فعل ذلك خارج دائرة الجنس. عبر بهو المستشفى بخطوات بطيئة واستقلّ سيّارته القديمة. بعد دقائق كانت أنوار المساء في استقباله على امتداد الطّرقات.

* * *

مدّ يده وأطفأ نور مصباح الصّالون الّذي كان يحاذيه. أطفأ سيجارته في المنفضة القابعة على الطّاولة الصّغيرة الّتي أمامه. اهتدى إليها على ضوء الشّارع الخلفيّ المتسرّب عبر شقوق ستارة النّافذة. مدّ جسده المتعَب على الكنبة وأسلم روحه لطوفان النّعاس. لم يكد ينحدر إلى هوّة اللاّشيء، حتّى سمع صوت أشرف وهو يهتف بصوت طفوليّ قادم من أعماق الماضي السّحيق: "انظر أمير.. انظر هناك.. انظر جيّدا! قطعة أرض خضراء قد بدأت تطفو خلف المياه.. لقد وصلنا إلى مونريال!".

كان ذلك منذ عشرين عاما. أمّا الآن، فقد همدتْ كلّ الكائنات بداخله وأطبق حول جسده ظلام كثيف. بعد لحظات، غاص في عتمة اللاّشيء وانعكس خيط رقيق من الضّوء على عينيه المغمضتين.

تمّت في أبريل - ٢٠١٤

أنيس بن عمّار

كلمة المؤلِّف

مرّت أعوام طويلة لم أمسك فيها بقلم، ولم أضع خلالها حبرًا على ورق. قال لي أحد أصدقاء الزمن البعيد ذات مساء ممطر: "إذا أصبحتْ الكتابة حرفتك فستكبرُ فقيرًا ومنبوذا! الكتابة مجرد هواية، عمل للتسلية. وإن وجدتَ لها مكانا أوضع من ذلك فلا تتردّد!".

صوته ما زال يندفع كالطّنين في رأسي، وقسمات وجهه لا تزال طافية كالوشم على ذاكرتي، والهواء المنبعث من اهتزاز يديه وهو ينصحني، لا يزال كعاصفة الرمل يتقاذفني.

صدّقتُ صاحبي، واعترفتُ لقلمي بأنني لن أحمله معي في رحلتي، وطمأنته بأنني لابدّ أن أعود إليه كلّما أحببتُ.. أو حزنتُ.. أو أحسستُ.

أبحرتُ بعد ذلك ولم ألتفت ورائي. تقاذفتني أمواج الشمال إلى الهجرة بعيدا. إلى الدراسة، ثم التخرّج، ثم العمل، ثم أعباء الحياة اليومية التي لا تكفّ محرّكاتها المزعجة عن الصّخب إلا عند ساعات النوم. كسرتُ كلّ أقلامي ومزّقتُ كلّ أوراقي وانتظرتُ.

كلّ الأشياء الّتي أرادها لي القدر، ودون شعور أو إرادة أردتها لنفسي،

أصبحتْ حقيقة لا تبعد كثيرا عن الكذب..وحلما أبديّا لا صحو منه اسمه "الواقع".

وفي لجّة هذا "الواقع"، رفعتُ رأسي لأغالب أمواجه المتلاطمة، وسألتُ طيور النّورس: أين الشاطئ؟ أين المرفأ؟ أريدُ أن أعود!

أريدُ أن أعود إلى لملمة أوراق بعثرتْها أعاصير الأقدار الساخرة. إلى زمنٍ بعيد وحلو أريد أن أعود. زمن أقمار الصّيف الحالمة، وصوت أمي الدافئ قبل أن يخمد الموت جذوته ويمضي دون أن يلتفت إلى حزني. زمن أشجار البرتقال التي تخفي وراء أغصانها المزهرة الدّرج المؤدي إلى بيتنا. الدّرج الذي قرأت عليه كتبا رائعة، وكتبتُ كلمات أرادت لنفسها أن تكون معبرا للحلم فإذا بها تختنق في الرّحم المنسيّ لأوّل قطرة حبر. آن الأوان لهذه الكلمات أن تبصر النور. وآن الأوان لأكون ما أردتُ لنفسي أن أكون. آن الأوان للورق أن يهتز لعشقي، وأن يرتجف لخوفي، وأن يرأف لحزني.

أعودُ إلى البداية لا لأغيّرها، بل لأكتب ما كان يجب أن أكتبه. لا ليقرأه أحد، أو لتستمتع به نفس. لا لينتقده ناقد، أو ليرمي به في سلّة المهملات حاسد. بل فقط لأقف أمام وجهي في المرآة وأبتسم. فقط لأهمس لنفسي، دون أن يراني أحد، بأنني لم أشأ لها الهزيمة أمام صوت بشع مسموم كان يهتف لها دائما: "لا جدوى من السّفر، فالزّوارق الّتي لا تبحر في أوانها لا مرسى لها سوى الغرق!".

أنيس بن عمّار

للتّواصل مع المؤلّف

البريد الإلكتروني:

abenam2000@yahoo.ca

المدوّنة الشعريّة:

http: / /newavepoetry.blogspot.ca

الغائِبْ

رواية

موجة عطر مسحورة تكتسحني من رأسي إلى قدميّ .. و تحيط بي من كل ناحية . تتسرّب منّي إلى وسادة سريري ، و منها إلى أرجاء غرفتي .. لتصبح جزءًا من وحدتي عند طلوع كل فجر . لم أجد لذلك العطر اسمًا أو تفسيرًا .. فأطلقت عليه اسم صاحبته . فالكثير من الأشياء في حياتي كانت تحمل أسماء أشخاص معيّنين . فمنهم من أصبح فصلا من فصول السّنة ، و منهم من تحوّل إلى ركن في مقهى ، و منهم من صار شجرة زيتون خلف بيتنا العتيق في قريتي البعيدة . و هاهي "كلارا" تبدأ في حياتي امرأةً و تنتهي في ذاكرتي عطرًا .. و لم يكن ذلك بالأمر الغريب عن ذاكرة تتنقل بين سكك الجنون في حذر دائم !

- أنيس بن عمّار - شاعر و روائيّ تونسيّ في المهجر
- من مواليد تونس العاصمة - الجمهوريّة التونسيّة
- زاول تعليمه بالمعهد الثانوي لتدريس العلوم باللّغة الإنجليزيّة بتونس
- هاجر إلى كندا سنة ١٩٩١ إثر تحصّله على شهادة الباكالوريا
- تحصّل على شهادة في هندسة الإتصالات من جامعة كونكورديا (مونتريال- كندا) سنة ١٩٩٧
- تحصّل على شهادة في إدارة الموارد البشريّة من جامعة ميقيل (مونتريال- كندا) سنة ٢٠١٢
- يباشر الكتابة الشعريّة و النثريّة منذ سنوات
- أطلق بداية أعماله الشعريّة ضمن مدوّنته الإلكترونيّة " في معبد الكلمة " عام ٢٠١١
- صدرت له أوّل مجموعة شعريّة بعنوان " عشق على أوتار الفجر" - يونيو ٢٠١٣
- تولّى إدارة القسم الأدبيّ لرابطة الفنانين التونسيين في كندا إلى جانب عضويّته فيها ٢٠١٢ - ٢٠١٣
- عضو في المجموعة الأدبية المهجريّة " أقلام عربيّة في مونتريال " .

المصري للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف